فرنسوا شامو

في تاريخ ليبيا القديم

الاغريق في برقة

الأسطورة والتاريخ

نقله عن الفرنسية وشرح متونه وقدم له

الدكتور محمد عبد الكريم الوافي

أستاذ مشارك بقسم التاريخ
كلية الآداب والتربية - جامعة قاريونس



منشورات
جامعة قاريونس
بنغازي

في تاريخ ليبيا القديم

الاغريق في برقة

الأسطورة والتاريخ

الطبعة الأولى

1990



منشورات
جامعة قاريونس
بنغازي

(*) لوحة الغلاف بريشة الدكتور محمد عبد الكريم الوافي ، وهي تمثّل الحوريّة الأسطورية «قوريني» تقتل أسداً ، وخلفها الإله الإغريقي «أبوللو». (انظر الفصل الثاني).

تصدير(*):

"ليبيا.. مؤئِلُ الأغنام"

ΛΙΒΥΗ ΜΗΛΟΤΡΟΦΟΣ

[هوميروس «الأوديسّا»]

"ليبيا.. مُنْجِبَةُ القمح"

ΛΙΒΥΗ ΠΥΡΟΦΟΡΟΣ

[بنداروس «البوثيّة الرابعة»]

(*) انظر الفصل العاشر من هذا الكتاب: صفحة 288، وصفحة 291

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيِّدنا محمد ، وعلى آله وصحْبه ، ومن والاه إلى يوم الدِّين ، وبعد:

فإن «فرانسوا شامو» ـ مؤلِّف هذا الكتاب ـ هو أستاذ الأدب والحضارة الإغريقية بكلية آداب جامعة السوربون ، وهو أيضاً مؤسِّس ومدير «مركز أبحاث تاريخ ليبيا القديم» بنفس الجامعة. وكان «شامو» قد حضر إلى بنغازي في شهر مارس سنة 1968 للاشتراك في أعمال مؤتمر «ليبيا في التاريخ» ، وهو المؤتمر العلمي الذي كانت كلية آداب الجامعة الليبيّة قد نظمته آنذاك؛ حيث ألقىٰ فيه بحثاً بالفرنسية ، كرَّسه لدراسة بضعة نقوش أثرية ، كانت بعثة أركيولوجية فرنسية قد عثرت عليها في مدينة سوسة (أبوللونيا) ، ما بين سنتي 1954 م و1956 م. ولقد تصدَّىٰ هذا العالِم في بحثه المذكور لدراسة ثلاثة موضوعات هي:

أ ـ مقاطعُ من نقشٍ دُوِّن عليه نصُّ مرسومٍ صادرٍ عن الإمبراطور البيزنطي «انستاسي الأول ـ ANASTASE I» ، (الذي وُلد بسنة 430 ميلادية ، وتوفي سنة 518 ميلادية)؛ وهو مرسوم يتعلّق بالتنظيمات العسكرية في برقة إبان عهد ذلك الإمبراطور.

ب ـ نقشٌ آخر دُوِّنت عليه قصيدة للشاعر «إيوبوليموس ـ EUPOLEMOS»؛

وهي قصيدة تتضمّن إشاراتٍ هامة إلى تاريخ قورينائية في عهد الملك «ماجاس ـ MAGAS» ، المتوفي سنة 258 ق م ـ وهو وَالد الملكة «برينيقي» ـ حيث كان «ماجاس» يحكم هذا الإقليم ، آنئذٍ ، حكماً ذاتياً بآسم أخيه «بطلميوس الثاني».

جـ ـ المركبات القورينية التي تجرُّها أربعة جياد.

ولقد شاءت لي الأقدار أن ألتقي بالمؤلِّف في باريس في شتاء سنة 1977 م ، بمناسبة احتفائه بحصول أحد تلامذته من المبعوثين الليبيين على درجة الدكتوراه في تاريخ ليبيا القديم؛ حيث دعانا هذا الأستاذ إلى تناول العشاء بشقّته المتواضعة ، التي لا تبعُد كثيراً عن المدينة الجامعية العالمية بالحيِّ الرابع عشر بالعاصمة الفرنسية.

والحقيقة أن علاقة «فرانسوا شامو» بليبيا قديمة جدّاً. فلقد زارها ، لأوّل مرة ، في سنة 1947 م ، أثناء وقوعها تحت حكم الإدارة العسكرية البريطانية. وذلك عندما أوفده «معهد أثينا الفرنسي للدراسات الهلّينية» للقيام بدراسة أركيولوجية ميدانيَّة في مدينة شحّات (قوريني) ، وذلك في إطار تحضيره لأطروحته للدكتوراه ، التي كان هذا الكتاب موضوعها أصلاً. كما زار «شامو» ، آنئذٍ ، لنفس الغرض ، كلاًّ من مصر واليونان ، بقصد مُعاينة المواقع الأثرية التي تهمُّ موضوع أطروحته في هذين البلدين.

وبعدها لم يكفّ المؤلِّف عن زيارة ليبيا؛ إذْ جاء إليها العديد من المرّات ـ خصوصاً في السبعينات ـ كعضو ، أو كرئيس لبعض البعثات الأركيولوجية الفرنسية التي كانت تأتي إليها من حينٍ إلى آخر ، لإجراء تنقيبات أثرية في بعض المواقع ، مثل: شحّات ، وسوسة ، وطلميثة (الدرسيَّة) ، وتوكرة (العقوريَّة) ، بموجب اتفاقيات تعاون مع مصلحة الآثار الليبيّة.

واستطاع «شامو» ، بفضل ذلك ، أن ينشر في الدوريات الأركيولوجية

الأوربيـة المتخصصة ، عدة أبحاث ومقالات ، نذكر منها ما يلي :

1 ـ بحث نشره سنة 1946 م في «دوريّة الدراسات الهلينية» ، تحت عنوان: «نحّات من قوريني: زينيون بن زينيون» :

«UN SCULPTEUR DE CYRÈNE: ZENION, FILS DE ZENION».

2 ـ بحث نشره في سنة 1975 م بعنوان: «قصيدة هيرميساندرس في قوريني ـ «L'ÉPIGRAMME D'HERMÉSANDRES À CYRÈNE

3 ـ بحث ظهر في سنة 1976 بعنوان:

«LE DÉDICACE DE L. ORBIUS À CYRÈNE».

4 ـ بحث نشره سنة 1980 في مجلة الجمعية الوطنية لعلماء الآثار في فرنسا ، حول الحفريات التي قامت بها البعثة الأركيولوجية الفرنسية في مدينة سوسة (أبوللونيا)

5 ـ دراسة عن نبات السّلفيوم ، نشرتها له جمعية الدراسات الليبيّة القديمة في جامعة أوكسفورد بلندن ، سنة 1985 ، ضمن فصول كتاب عن تاريخ برقة القديم عنوانه CYRENAICA IN ANTIQUITY. ولقد حرصنا ، من جانبنا على ترجمة هذا المقال الأخير إلى العربية ، وننشره كملحق في آخر هذا الكتاب.

6 ـ دراسة حول إحدى قصائد «كاليماخوس القوريني» نشرها سنة 1967 في دوريّة الدراسات الأغريقية (REG) ، العدد رقم 80.

7 ـ دراسة حول نماذج من النقود القورينية في القرن الثالث ق. م نشرت في سنة 1959 في مجلة «الآثار الكلاسيكيّة» تحت عنوان: «- HERMÈS PARAMMON» .

والمؤلِّف هو خرِّيج «دار المعلّمين العليا» بباريس ، وهي كلّيّة لا يستطيع

الإلتحاق بها سوىٰ النُّجباء من الطلبة ، إذْ أن القيد فيها مشروط باجتياز امتحانٍ مسابقةٍ عسيرٍ. كما أنه درس في «معهد أثينا الفرنسي للدراسات الهلينية» ، وفي «المعهد الفرنسي للآثار الشرقية» بالقاهرة. ولقد انتُخب «شامو» مؤخراً عضواً في «الأكاديميَّة الفرنسية» تتويجاً لحياته العلمية.

وتعود بدايات اهتمام «شامو» بتاريخ قوريناثية الإغريقي ، أصلاً ، إلى سنة 1937 ، عند شروعه آنئذٍ في الإعداد لأطروحةٍ حول: «النحت الهلينستي في قوريني» ، نال بها دبلوم الدراسات العُليا.

ولقد نشر المؤلِّف كتابه الذي بين يدي القارىء بباريس في سنة 1953 ، تحت عنوان: «قوريني خلال العهد الملكي الباطي ـ CYRÈNE SOUS LA MONARCHIE DES BATTIADES» ، وصدر عن دار «دي بوكَّار ـ DE BOCCARD» ، في حوالي 400 صفحة ، مع صور ولـوحات وخـرائط ، واستهلَّه بإهداءٍ حيًّا به ذكرىٰ العالِم والرّحّالة الفرنسي «جان ريمون باشو» ، الذي تضمّن كتابُ رحلته في قوريناثية معلوماتٍ هامة عن تاريخها وآثارها الإغريقية ، وهو الرّحّالة الذي سنعرِّف به تعريفاً وافياً في أحد الهوامش التي خصّصناها للفصل الرابع من ترجمتنا هذه.

والحقيقة أننا رأينا أن نستبدل في الترجمة العربية العنوان الأصلي للكتاب بعنوانٍ أكثر مُلاءمة لموضوعه ـ بحسب اعتقادنا ـ إذْ جعلناه: «في تاريخ ليبيا القديم: الإغريق في برقة. . . الأسطورة والتاريخ»؛ وذلك لعدَّة اعتباراتٍ: أوّلها: أننا لم نتطوّع لترجمة هذا المصنَّف الصعب ، الذي أنهكْنا صحتنا في سبيل تعريبه وتوثيقه ، إلَّا لأنه يتناول حقبة من حقبات تاريخ بلادنا. ثانياً: أن فصله الأوّل ، الذي عنوانه: «ليبيا والليبيُّون قبل إنشاء قوريني» يعتبر من أوثق ما كُتب حول الليبيين في فترة ما قبل التاريخ وفترة التاريخ القديم ، ثم أنَّ المادة التاريخية الهائلة والمفصَّلة التي تضمّنها الكتاب ، لا تقتصر على تاريخ مدينة قوريني وحدها خلال فترة الحكم الملكي الباطي ـ كما يُوحِي بذلك

العنوان الفرنسي الأصلي ـ وإنما هي تتناول تاريخ قورينائية (برقة) برمّته ، في كثيرٍ من أدق تفاصيله ، منذ حقبات ما قبل التاريخ ، وحتى الإطاحة بنظام الحكم الملكي الباطي فيها ، في حوالي سنة 440 قبل الميلاد. ثالثاً: أنه عنَّ لي أن أُسلِّط الضوء في عنوان ترجمتي العربية هذه على حقيقةٍ بيِّنة سيلْمسها القارىء في كل صفحة من صفحات الكتاب تقريباً؛ وهي أن دراسة «شامو» المكينة والعويصة هذه ، إنما هي ـ بحكم طبيعتها وموضوعها ـ دراسة استُمدت أساساً من مصادر ميثولوجية أسطورية ، ومن مصادر تاريخية واقعية ، على حدٍّ سواء؛ بحيث اختلطت فيها الوقائع التاريخية المؤكّدة ، بعشرات الخرافات التي يعجُّ بها التراث الإغريقي ، الذي ـ كما يعرف الجميع ـ يلعب فيه الآلهة الأسطوريون والحوريّات المُجنّحة والعمالقة والحيوانات الخرافية ، أدواراً لا تقلُّ ـ في زعْم أمّة الإغريق الوثنية المعتقدات ـ أهمية وفعالية ، عن البشر الحقيقيين. ومن ثم ، فقد رأيت أنّه من المتوجِّب عليَّ أن أُنبِّه القارىء إلى هذه الثنائية وإلى هذا التزاوج بين الأسطورة والتاريخ في عنوان ترجمتي ، لكيْ يُلمَّ بمنهج البحث والتوثيق الذي تبنّاه المؤلِّف ، منذ قراءة العنوان.

و «فرنسوا شامو» لم يقنع فحسب بانْتخال مادة كتابه هذا من عُصارة عشراتٍ من التّصانيف الكلاسيكية القديمة ، التي امتزجت فيها الأساطير والخرافات بالمعلومات التاريخية الواقعية ـ عبر شُتاتٍ يصعب التوفيق بينه ـ من النصوص التاريخية ، والمُدوّنات الأدبية والنحوية والعلمية ، والآثار الشعرية الملْحميّة والغنائية والمسرحيات الأُمّهات ، التي خلّدها يَرَاعُ أفذاذ الشعراء ، والمؤرِّخين ، والأدباء ، والعلماء الإغريق واللاتينيين ، من أمثال: هوميروس ، وهيرودوتس ، وسكيلاكس المنْحول ، وهيسيودوس ، وبنداروس ، وسولون ، وكاليماخوس القوريني ، وسوفوكليس ، وأرسطوفانيس ، وسترابو ، وبلِّيني الأكبر ، وثيوفراستوس ، وكسينوفون ، وديودوروس الصقلي ، ويوسيبيوس ، وسونسيوس القوريناني ، وغيرهم

وغيرهم. بل إنه طعَّم دراسته هذه كذلك ـ هنا أو هناك ـ بزُبدة اكتشافات ، وفرضيّات ، وتحاليل ، وإسهامات: رحّالة ، وأُدباء ، ومؤرِّخين ، وعلماء آثار ، ونباتيين؛ مُحدثين ومعاصرين ـ منهم: الألماني ، والإنجليزي ، والفرنسي ، والدانمركي ، والإيطالي ـ من أمثال: جان ريمون باشو، وباولو ديللا شيلا ، وهاينرخ بارث ، وبرتولدي ، ومالتن ، وثريدج ، وأوريك بيْتس ، وجيركي ، وبوردمان ، وستوكّي ، وهولشر ، وجاكوبي ، وكنابّ ، ولارسن ، وشتودنيكزكا ، وشارْف ، وروبنسون ، وغيرهم وغيرهم؛ وهؤلاء معروفون لكل متخصِّص في تاريخ ليبيا القديم بإسهاماتهم العلمية القيِّمة.

غير أن «شامو» لم يكتف، في دراسته التي بين أيْدينا، بالرُّكون فحسب إلى تلك المُدوّنات والمصنَّفات والوثائق الكلاسيكية الأصيلة ، أو إلى هذه المؤلّفات والأبحاث المُحْدثة والمعاصرة ، التي تناول كل منها جانباً أو أكثر من جوانب موضوعات هذا الكتاب؛ بل إنه قارن وعارض موادها الغزيرة ، وسدَّ ثغراتها ، وصحّح أخطاءها ، ونقد فرضيَّاتها ، واستكمل ما احتوته من معلومات، بأن وضعها على محكّ نتائج الحفريات والكشوفات الأثرية الميْدانية التي توصّلت إليها مختلف البعثات الأركيولوجية. كما قام بآسْتنطاق وتخريج العديد من النصوص النقشيّة التي تتوزَّعها عشرات الألواح الحجرية والمرْمرية ، والنُّصُب التذكارية ، والمسلاّت ، والصروح الأثرية ، والمعابد والقبور القديمة ، والتماثيل ، والأواني الفُخَّارية والخزفية ، والأدوات المعدنية ، والعملات والمسْكوكات القورينية. وهو أمر تقتضيه متطلّبات منهج البحث التكاملي في مجال الدراسات التاريخية والأثرية القديمة بطبيعة الحال.

ولعلّه ما كان في وسع المؤلِّف أن يتصدّى لوضع كتابٍ بهذه الدقّة وهذا الشمول ، لو لم يكن هو نفسه متسلّحاً بالأدوات والميزات اللازمة للاضطلاع بمثل هذا الجهد العلمي المُضْني: فهو ، من ناحية ، أستاذٌ مُتضلّع في الآداب الكلاسيكيّة القديمة ، ويُجيد اللغتين الإغريقية واللاتينية. ولذا فإنه ـ كما يقول

في مقدّمة كتابه ـ قد حرص على أن يترجم بنفسه ، رأساً إلى الفرنسية ، تلك النصوص القديمة التي احتاج إليها في دراسته؛ انطلاقاً من المصادر الإغريقية واللاتينية نفسها ، ولم يركن ، في هذا الصدد ، حتى إلى أوثق الترجمات المعتمدة ، التي خُصّت بها أعمالُ مشاهيرٍ من أمثال هيرودوتس وبنداروس وغيرهم ، من فطاحل المؤرِّخين والشعراء الإغريق. وهو من ناحية أخرىٰ مؤرِّخ دؤوب ، كثير الاطلاع ، جمّ الثقافة ، ثاقب النظر ، واضح المنهج. وهو من ناحية ثالثة رجل دراسات ميْدانية من الطراز الأوّل ، وخبير بإجراء الحفريات الأركيولوجية ، يعْشق إعمال الذِّهن في تفحُّص واستنطـاق مُخلَّفات الماضي المادية وأطلاله ورسومه البائدة ، استكمالاً للمعلومات التي لقَّنتها له الكُتب والمُصنَّفات المُدوَّنة.

وبالتالي ، فإنه لا غرْو من أنَّ انقضاء ما يربو على الأربعين سنة على تأليف «شامو» لكتابه هذا لم يقلِّل من قيمته العلمية في شيء. بل إنه ، على العكس من ذلك ، صار اليوم ـ بشهادة العلماء المختصّين ـ في عِداد المصادر الكلاسيكية(1). وهو ما يـزال يحتلُّ بجـدارة مكانَ الصَّـدارة بين المصادر التاريخية الحديثة والمعاصرة التي كرَّسها أصحابها ، بمختلف اللغـات ، لتاريخ قوريني وقورينائية القديم؛ وذلك في أيَّة لغة كانت. والحقيقة أنه ليس من قبيل المبالغة أو رمي الكلام على عواهنه في شيء ، أن نزْعم هنا ـ ونحن نعي علميًّا مسئـولية ما نقول ـ أن هذا المُصنَّف صار يشكِّل ، منذ صدوره ، أهم وأوْثق إسهامٍ أكاديميٍّ في موضوعه؛ وذلك بطبيعة الحال بعد المصدر الأم ، الذي هو ـ كما يعرف الجميع ـ تاريخ «هيرودوتس» العتيد.

ولكن ، مع ذلك ، فإنه من إحقاق الحقّ وتوخِّي الموضوعية أن نُضيف بأن هنالك كتابان مُحْدثان يضاهيان كتاب «شامو» في مكانته هذه بعض الشيء؛

---

(1) VOIR: ANDRÉ LARONDE: CYRÈNE ET LA LIBYE HELLÉNISTIQUE; Editions du CNRS, Paris, 1987, (avant - Propos, p.11).

أولهما هو كتاب العلاَّمة الدانمركي المعروف «ثريدج ـ J. P. THRIGE» ، الذي كان قد أصدره في كوبنهاجن باللاتينية سنة 1828 م ، تحت عنوان «RES CYRENENSIUM-» ـ وله ترجمتان؛ إنجليزية وإيطالية ـ وهو دراسة تاريخية دقيقة ومفصَّلة ، إستوْعبت كلَّ ما ذكرته المصادر الأدبية الكلاسيكية القديمة عن الموضوع. وثانيهما هو كتاب الإنجليزي «أُوريك بيْتس ـ ORIC BATES» ، المسمى : «الليبيّون الشرقيُّون ـ THE EASTERN LIBYANS» ، الذي صدر في لندن سنة 1914 م ، ورجع فيه مؤلِّفُه إلى المصادر الفرعونية والإغريقية واللاتينيّة. بيْد أن الكتاب الذي بين أيدينا يظلُّ يمتاز عن هذين المُصنَّفيْن القيِّميْن في أنه ـ كما سبق وأن ذكرنا ـ لم يعتمد فقط على مواد المصادر الكلاسيكيّة الأُمَّهات ، والمصادر المُحْدثة؛ بل زاوج بينهما وبين مختلف نتائج الأبحاث الأركيولوجية الميدانية التي توصل إليها أصحاب الحفريات الأثرية في المواقع القورينية حتى الحرب العالمية الثانية والعشر السنوات التالية عليها.

* * *

ونحبّ أن نؤكِّد للقارىء أننا قد بذلنا ، من جانبنا ، كل ما في وُسْعنا لترجمة هذا الكتاب ترجمةً علميةً أمينةً ، وواضحة بقدر الإمكان ، في آنٍ واحدٍ؛ كي يستفيد به الباحثون باللغة العربية في تاريخ ليبيا القديم استفادةً قُصْوىٰ ، لأنَّ هذا هو هدفنا الأوّل من وراء تجشّم عناء ترجمته.

وبالطبع ، فقد واجهتنا في سبيل ذلك جُمْلةٌ من المشاكل الإصطلاحية والمنهجية واللغوية ، سوف لن نُثْقِل على القارىء هنا باستعراضها جميعها؛ وإنما نحن نكتفي بالقول بأنّه كانت على رأسها مُعْضلة أساسية تتعلّق بطبيعة الأسلوب الذي تبنّاه المؤلِّف : فالحقيقة ـ كما هو واضح ـ أن «شامو» لا يُخاطب في كتابه سوىٰ المتخصصين من ذوي الثقافة الهلِّينية الكلاسيكية المكينة[1].

(1) وأنا لست منهم، بحكم أنني لست ـ أصلاً ـ من المتخصصين في التاريخ القديم.

ولذا، فإنني أخشىٰ ـ رغم كل ما بذلته من جهد لتذليل هذه الصعوبة بالذَّات ـ ألَّا يستمتع القارىء غير المتخصِّص كثيراً بالاطلاع عليه، وأن تظل فائدته الحقيقيَّة مُقْتصرة على المتخصصين في التاريخ القديم. بيْد أن مثل هذه السِّمة لا تُعدُّ نقيصةً يمكن أن تَضير عملاً علمياً كهذا في شيء؛ لأنها حتماً وليدة طبيعة الموضوع نفسه؛ وبالتالي فإنه لا مفرّ منها. كما أن هذه المُعْضلة تتعلّق، من ناحية أخرىٰ بالخصوصيّة التي تميَّزت بها طريقة المؤلِّف في التناول والعرْض التاريخيين: فأنت تجده، في كل فقرة من فقرات كتابه تقريباً، يمْزج بين السِّياق التاريخي الواقعي، وبين السِّياق الأسطوري الخرافي؛ حتى لتكاد تختلط عليك ـ وأنت تقرؤه ـ أفعالُ البشر الحقيقيين، بأفعال آلهةِ وأبطالِ الإغريق الأسطوريين وحُوريَّاتهم وساحراتهم الخُرافيّات.

ولذا، فإننا معالجةً منَّا لهذه الصعوبات، قد وجدنا أنفسنا مضطرّين إلى شرح متن المؤلف، كلما شعرنا بأن ذلك ضروري؛ وذلك لتقريب فهمه على القارىء الذي ليس له إلمامٌ كافٍ بمتاهات أساطير المثيولوجيا الإغريقية، أو ذاك الذي لم يطَّلع كثيراً على آداب الإغريق؛ وهذا أمر لا أجد حرجاً في الاعتراف هنا بأنني ما أزال أقاسي منه أنا نفسي. واقتضت منِّي هذه المحاولة جهداً خاصّاً، كانت ثمرته تدبيج حوالي مائة وثمانين هامشٍ أو حاشيةٍ، ذيَّلتُ بها متْن «شامو» المستغلق هذا. ولقد استخلصنا مادة هذه الهوامش والحواشي ـ المتباينة طولاً وقصراً ـ من عشرات المصادر والمراجع الموثوق بها. لأن عملاً كهذا لا يتحتم أن يتصدّىٰ له المرء بكسلٍ أو باستخفافٍ[1].

كذلك، فقد واجهتنا صعوبة أخرىٰ تتعلّق بكيفية تعريب أسماء الأعلام؛ من فرعونية، وإغريقية، وفارسية، ولاتينية ـ سواء كانت تخصّ شخصيات

(1) أمّا ما أثبتُّه من هوامش المؤلِّف نفسه؛ فقد ميّزته عن هوامشي أنا بأنْ مهرتُه بعبارة: [هامش للمؤلِّف].

تاريخية أو أسطورية ، أو أسماء مؤلِّفين ، أو عناوين مؤلّفات وتصانيف قديمة ، أو أسماء مواقع جغرافية حقيقيّة أو خرافية ، أو ما شابه ذلك. والحقيقة أن أمثال هذه الأسماء والتّسميات ، لا تُوجد حتى الآن قاعدة أو ضوابط علمية بين المتخصّصين العرب حول كيفيّات رسمها في اللغة العربية. وحيث أنّه سيكون من قبيل المجازفة العشوائية الساذجة نقْلها عن الفرنسية كما هي؛ فإنني قد رأيت أن أعتمد بشأنها ما اتفقت عليه حولها - تلقائياً - جمهرة علماء الآثار العرب وثُقاةُ أساتذة التاريخ القديم في الجامعات العربية. وأُحبُّ أن أشير هنا ، على نحوٍ خاص ، إلى أنني قد تبنّيْتُ - فيما يتعلّق بالمسائل الخاصة بالتواريخ الفرعونية ، في الفصل الأوّل من هذا الكتاب - كيفيّات رسْم أسماء الأعلام والمواقع عند متخصّصين مصريين ، أمثال: سليم حسن ، وأحمد فخري ، ونجيب ميخائيل إبراهيم؛ لِمَا لهؤلاء من باعٍ طويل في مضمار الدراسات الفرعونية.

ومن ناحية أخرىٰ ، فليعلم القارىء أنني قد أغفلتُ عمْداً ترجمة الفصلَيْن الثالث والرابع من الباب الثاني ، من الأصل الفرنسي. والسبب في ذلك يكمن فيما يلي:

1 - لأن أولهما - (وهو يقع في الصفحات من 264 إلى 341 ، من الأصل) - يتناول معابد وآلهة إغريق قوريني؛ وهو سياق مثيولوجي صرْف ومثير للضجر ، وأراه ألْصقُ بدراسة الموروث الأسطوري الإغريقي - في حدّ ذاته - منه بتاريخ ليبيا القديم ، الذي تنصبُّ عليه اهتماماتنا هنا. وعلى أيّة حال فإن ما ترجمناه في بقية فصول الكتاب يغصُّ بذكر أساطير الإغريق وآلهتهم؛ ممّا لا يدعو إلى مزيد في هذا المضمار.

2 - ولأن موضوع ثانيهما - (المحصور ما بين صفحة 342 وبين صفحة 377 من الأصل الفرنسي) - هو النحت الإغريقي في قورينائية ، وما كان قد تم في هذا الجزء من ليبيا من كشوفات أثرية عند تأليف «شامو» لكتابه

هذا ، غداة الحرب العالمية الثانية. وحيث أنني أجهل الكثير من مسائل النحت ودقائق دراساته ، فقد رأيت ألّا أُلْقي بدلوي في هذا الموضوع الغريب عليَّ. لكن السبب الأصلي في استبعادي لهذا الفصل من ترجمتي يرجع ، في الحقيقة ، إلى أن ما يتضمّنه من معلومات مضت عليها أربعون سنة ونيْف، قد تجاوزتها الآن نتائج الحفريات الأثرية في ليبيا ، ولا تُجْدي ترجمتها اليوم كثيراً.

أمّا بالنسبة للفصل الثامن من الباب الأوّل للأصل الفرنسي، فإنني رأيت ـ رحمة بنفسي وبالقارىء ـ أن أُسْقِط من ترجمتي له ، حوالي تسع عشرة صفحة ـ (الصفحات من 179 إلى 198 ، من نص «شامو» الفرنسي). لأن تلك الصفحات المحذوفة ، في ترجمتنا هذه ، لا تعدو أن تكون جُملةً من التحليلات الفنيّة ـ التي تثير السَّأم ـ لقصائد الشاعر الغنائي «بنداروس» ، من وجهات نظر فيلولوجية وفلسفيّة رتيبة ، لا تهمُّ دارس التاريخ الليبي القديم في شيء؛ وقد لا يطيق الغوْص في لُججها سوى جهابذة المتقعِّرين من أخصَّائي علم اللغة الإغريقية القديمة.

* * *

حتماً ، لقد عرف هذا الكتابَ ، في أصله الفرنسي ، العديدُ من باحثينا وطلبتنا للدراسات العُليا ، الذين تخصَّصوا في تاريخ ليبيا القديم؛ وذلك كلّما كانت تُلْجئهم إليه ضرورات موضوعات أطروحاتهم وبحوثهم العلمية ، في هذا المجال الصعب الذي ارتادوا مجاهله ودُروبه بهمَّة وجسارة ، سواء في جامعاتنا أو في الجامعات الأجنبية ، خلال السنوات الماضية. وكان أولئك الذين لا يجيدون الفرنسية منهم ، يُعانون الأمرَّيْن في تخريج نصوصه ، أو يقنعون بما كان يغيثهم به آخرون من ترجمات جزئية ، عاجِلة وغير دقيقة لشذرات متفرِّقة منه.

أمَّا أولئك الذين لم يصلوا ـ لسببٍ أو آخر ـ إلى هذا الكتاب في أصله الفرنسي ، فأظنّهم قد عثروا على بعض أصدائه الصارخة ـ وباللغة العربية ـ في كُتيِّب وضعه أستاذ في التاريخ القديم ، ممَّن يُشار إليهم بالبنان ، كان ـ غفر اللَّه له في قبره ـ قد انتحل من «شامو» أشياء وأشياء؛ مُعتقداً، لِفسادِ ظنِّه، أنَّ أساتذة الجامعة من الليبيين، هُمْ من الجهل بالمصادر الأجنبيّة لتاريخ ليبيا القديم، بحيث لن يفطنوا إلى ذلك. . ولكن دَعْكَ من نبْش القبور.

وليتولّانا اللَّه جميعاً برحمته.

الدكتور محمد عبد الكريم الوافي
حي الحميضة - بنغازي

خريف 1989

الفصل الأول

ليبيا والليبيون قبل إنشاء قوريني

لم تُطلق تسمية «قورينائية» على برْقة سوىٰ في زمن متأخِّر[1]. وكان الإغريق ـ طوال الفترة القديمة والكلاسيكيّة ـ يستعملون ، عند إشارتهم إلى هٰذا الإقليم ، اسم «ليبيا» الأوْسع دلالةً. وهو اسمٌ ينْجرُّ ، في مصطلحهم اللغوي ، من ناحية أخرىٰ ، على القارة الإفريقية برمَّتها ، فيما خلا مصر[2]. والمُلْفتُ للنظر أن الهضبة القورينائية ـ وهي البقعة الوحيدة من إفريقيا التي نما

---

(1) انحدرت تسمية برقة بـ «قورينائية» من التسمية اللاتينية: CYRENAICA PROVINCIA؛ أي «إقليم قورينائية». ولا تظهر هذه الصيغة في اللغة الإغريقية إلاّ كصفةٍ، وذلك في تعبيرات مترجمة عن اللاتينية، كما في «مراسيم أوغسطس»؛ انظر المصدر التالي: SUP-PLEMENTUM EPIGRAPHICUM GRAECUM، الكتاب العاشر، الصفحة الثامنة. وقبل أن تتحوّل قورينائية إلى إقليم روماني، يبدو أن هذا الإقليم قد عُرف بتسمية خاصة؛ فـ «سترابو» كان ما يزال يستعمل في زمانه تسمية «قوريني» التي يعمِّمها على الإقليم برمَّته (انظر الكتاب الثالث من مؤلَّفه، ص 157، والكتاب السابع عشر، ص ص 798 وما بعدها). أمّا تسمية «مقاطعة المدن الخمس»، التي غالباً ما استُعملت خلال الحقبة الرومانية، فإنها تصادفنا لأول مرة لدى «بليني الأكبر» (انظر كتابه: التاريخ الطبيعي، المجلّد الخامس)، حيث يعبِّر عنها في اللاتينية بـ: CYRENAICA EADEM PENTAPOLITANA REGIO.

(2) نحن نعلم أن مصر لا تشكِّل، لدى المؤلِّفين الكلاسيكيين، جزءاً من أفريقيا، ويلاحظ أن عدداً من جغرافييهم يجعلون وادي النيل الحدّ الذي يفصل بين قارتيْ آسيا وأفريقيا، ومن بين هؤلاءِ «هيرودوتس» نفسه.

فيها الاستعمار الاستيطاني الإغريقي بكل استقلاليةٍ ـ لم تُعرف قبل ذلك باسمٍ خاصٍ يميِّزها عن بقية القارة. ولا شك في أن ذلك راجع إلى أن هذا الإقليم قد بدا للإغريق على أنّه هو ليبيا ـ أيّ أفريقيا برمَّتها ـ من حيث أنه هو الإقليم الوحيد الذي كان مألوفاً لهؤلاء من القارة حقيقةً. ولعل الإغريق ـ وقد استعاروا اسم ليبيا نفسه من المصريين الذين كانوا يطلقون تسمية «ليبو» على إحدىٰ القبائل الليبيّة التي كانت تقطن عند حدودهم الغربية ـ قد حرصوا كذلك على اشتقاق تسميتهم للإقليم من التسمية الأصلية لهذه القبيلة. وكيفما كان الأمر، فإنه يبدو أن التوسع الكبير في المدلول الجغرافي الذي اسبغوه على مصطلح «ليبيا» لم يمنعهم ، بالمناسبة ، من إطلاقه على إقليم أضيق حيِّزاً ، وهو برقة. كذلك فإن الصفة «ليبي» التي أُسبغت على شعبٍ معيّن ، قد شمل مدلولها ، تارة ، سكان أفريقيا الشمالية بوجهٍ عام ، واقتصر تارة أخرىٰ على سكان قورينائية (برقة) بوجهٍ خاص؛ بل إنه قُصد بها أحياناً المعمِّرين القورينائيين من ذوي الأصل الهلّيني.

ولسوف نستعمل نحن في كتابنا هذا ـ فيما عدا استثناءات اصطلاحيّة قليلة ومحدّدة ـ تسمية «ليبيا» بحسب مدلولها الضيِّق؛ أي: قورينائية ومؤخّرتها الصحراوية؛ كما سنقْصر تسمية «ليبيين» على القبائل المحليَّة التي وجدها المعمِّرون الإغريق أمامهم عند نزوحهم إلى الإقليم(1).

ولا نجد لقورينائية ذكراً في التاريخ قبل استيطان هؤلاء المعمّرين بالإقليم. هذا ، وإن كانت القبائل الليبيّة التي كانت ترتاد التخوم الغربيّة لوادي النِّيل قد ذُكرت في الوثائق المصرية القديمة. ولكن قبل التطرُّق إلى ما تمدُّنا به هذه الوثائق من معلومات في هذا الشأن ، نرىٰ أنّه من المفيد أن نتعرَّض

(1) وبالتالي ، فإن تسمية «قورنيين» ستعني في هٰذا الكتاب، دائماً سكّان قوريني العاصمة والمدن القورينائية الأخرى من الإغريق.

بإيجاز لتلك المعلومات التي مكّنتنا الدراسات الميدانية من تجميعها حول سكان قورينائية خلال أزمنة ما قبل التاريخ.

والحقيقة أن هذه المعلومات ما تزال غامضة ومشتّتة، لأن الحفريات التي أُجريت في المواقع المشتملة على آثار فترة ما قبل التاريخ، والتي كان العلماء الإيطاليُّون قد شرعوا فيها، ما لبثت أن توقفت بسببٍ من اندلاع الحرب العالمية الثانية. وإنه ليحدونا أمل كبير في أن تُستأنف أمثال هذه الدراسات الميدانية وشيكاً. ذلك أن هشاشة تربة أرض قورينائية الجيريَّة قد مكَّنت مياه الوديان من كشط هذه التربة، وبالتالي تعرية سفوح الجبال؛ الأمر الذي أدّىٰ إلى بروز كهوف كبيرة تحت الصخور كانت مطمورة من قبل. ولا بد وأن هذه الكهوف قد استقطبت الإنسان الأوّل لسكناها خلال أزمنة سحيقة[1].

وفيما يتعلّق بالعصر الحجري القديم، فإن الموقع الجغرافي الوحيد الذي تم العثور فيه على مقتنيات أثرية وفيرة وجيدة التصنيف، حتى الآن، هو الكهف المسمىٰ بـ «حقْفة الطَّيْرة»، الواقع قرب مدينة بنغازي، والذي أكبَّ على دراسته بإمعان عالِم الآثار الإيطالي «بتروكي»، قُبيل الحرب العالمية الثانية[2]. ولقد عثر «بتروكي» في هذا الكهف على سبعة مستويات أثريّة مختلفة تعود إلى حقبات سُكْنىٰ متتالية. إذْ أبانت الطبقة الحفرية الأقصىٰ عمقاً عن وجود أدوات حجرية من طراز يعود إلى العصر الحجري الأوسط القديم، مختلطة بمخلّفات من عظام حيوانية من بينها الخيل والماعز والضأن. وفي

---

(1) توجد مثل هذه الكهوف في منحدرات «وادي الكوف» الواقع ما بين مدينة شحّات ومدينة المرج الحاليتين. انظر كتاب الأستاذ داود حلّاق المسمّى: «أوشاز الأسلاف. . دراسة موجزة عن الكهوف المعلّقة بالجبل الأخضر»، نشرته مصلحة الآثار الليبيّة في 1989

(2) انظر بالإيطالية كتاب «بتروكي»: «أبحاث في فترة ما قبل التاريخ ببرقة»، الذي تم نشره في سنة 1940 م. وكان كهف «حقْفة الطّيْرة» هذا مسكوناً طيلة فترة العصر الحجري، ما بين حقبة العصر الحجري الأوسط وحتى الحقبة القفْصية.

ذلك برهنة على أن الإنسان الأوّل قد عاش في هذا الإقليم منذ العصر الحجري القديم. وتعتبر الكشوف التي تمّت في كهف «حقْفة الطّيْرة» خير دليل على ظهور الإنسان الأوّل في قورينائية منذ تلك الفترة الغابرة. وكانت كشوفات عدّة ومتفرقة أخرىٰ قد برهنت قبل ذلك على ظهوره فيها منذ ذلك الوقت.

وبالمقابل، فإن العصر الحجري الأعلىٰ توجد له شواهد لا تُحصىٰ في كل أنحاء قورينائية. فمحطّات التجمعات البشرية بالمنطقة الساحلية تمدُّنا بأدوات أثرية تُماثل إلى حدٍّ مثير للدهشة تلك الأدوات التي تم العثور عليها في محطات المؤخرة الصحراوية للإقليم. وهذا التماثل في الأدوات جدير بالاعتبار، إذْ لا مثيل له في بقية أصقاع شمال أفريقيا. وأقدم شاهد أثري يدلّل على سكنىٰ الإنسان الأوّل في موقع قوريني نفسها يعود إلى العصر الحجري الأعلىٰ. كما ظهر في تلك الحقبة أيضاً، في الإقليم الصحراوي، ضرب من الرسومات المنقوشة على الصخور، تتميَّز بالأصالة، احتفظ لنا الدهر منها بنماذج عجيبة. ولقد عُثر على محطة الاستقرار البشري الرئْيسيّة في «جبل العوينات» الواقع في جنوبي الصحراء الليبيّة عند تخوم الحدود المصرية، وما هو متوفر من وثائق من طراز هذه الرسومات واللوحات الصخرية هو من الكثرة إلى درجة أن عالم الآثار الإيطالي «جراتسيوسي» تمكن من تخصيص مؤلَّف مدهش جدًّا حول هذا الفن التشكيلي التّثْليثي في ليبيا، وهو الفن الذي خُصَّ بهذه التسمية استناداً على المبدأ الأساسي في الرسم الذي صيغت بحسبه هذه الرسومات المزخرفة. ويظهر الحصان الذي يجرُّ عربة ضمن اللوحات الحيَّة المعبِّرة عن الحركة في هذا الفن، منذ تلك الحقبة. ولا بدّ لنا من أن نتساءل عن مدىٰ العلاقة بين هذه الرسومات الصخرية وبين ما ساقه لنا «هيرودوتس» من معلومات تاريخية حول شعب «الجرامنت» الذي كان يسكن إقليم فزّان

الذي عُثر فيه على هذه الرسومات الصخرية(1).

تلك هي المخلفات الأثرية النادرة التي تمكَّنَ مؤرخو عصر ما قبل التاريخ من جمْعها حتى الآن حول موضوع محاولة التعرُّف على أقدم السكان الذين قطنوا ليبيا. أمّا بالنسبة لفجر الأزمنة التاريخية، فإنه في متناولنا اليوم مصدر جديد للمعلومات، وأعني به الوثائق الفرعونية.

* * *

والحقيقة أننا، ونحن نتناول بالدراسة هذه الفئة من الوثائق، نجد أنفسنا مُجْبرين على تغيير وجهة نظرنا تماماً حول سكان ليبيا القدماء. فنحن سنضرب هنا صَفْحاً عن تلك القرائن المباشرة النادرة التي توصلت إليها أبحاث علماء ما قبل التاريخ في قورينائية، لنستعيض عنها الآن بالقرائن غير المباشرة التي أمدَّتْنا بها آثار المصريين القدماء الذين كان يفصلهم عن الهضبة القورينائية امتداد الصحراء الليبيّة برمَّته. وهذه القرائن جديرة في نظرنا بالاعتبار من ناحيتين: أوّلاً لأنها قرائن نستمدُّها من هؤلاء الذين نحن مدينون لهم باسم «ليبيا» نفسه؛ وثانياً لأنها قرائن استُقيت من عددٍ كبير من الآثار النقشية التي بإمكاننا أن نتصوّر بفضلها، من الآن فصاعداً، الهيئة التي كان عليها قدماء الليبيين على نحو دقيق للغاية. وزيادة على كل ذلك، فإن هنالك مؤشِّرات عدّة تُفْضي إلى الاعتقاد بأن القبائل والأقوام التي كانت تقطن التخوم الغربية لمصر القديمة وأيضاً سكان قورينائية ـ المحليين ينتمون، إمَّا إلى شعبٍ واحد، أو على الأقل، ينتمون إلى أقوام كانت تقوم بينهم وشائج مصاهرة وثيقة. وهذا هو الذي يجعل للوثائق النقشية المصرية القديمة قيمة وأهميّة

(1) لو أن هذه الرسومات أُرِّخت على نحو قطعي مؤكّد من حيث الزمن الذي رسمت فيه على الصخور، لحُلَّت عندئذٍ مشكلة أصل ظهور الحصان الذي يجرُّ عربة في ليبيا، وبالتالي لأصبح بإمكاننا الخلوص إلى القول بأن هذا ابتكار محلّي ليبي صرْف. ولكن للأسف لم يتمكّن أحد من تحديد زمن رسم هذه اللوحات الصخرية؛ إلاّ أنّه من غير المُسْتبعد أن تكون معاصرة للدولة الفرعونية الجديدة، بل ولعلّها تالية عليها. [هامش للمؤلّف].

كبيرتين بالنسبة لكل من يتصدىٰ للتأريخ لماضي قوريناثية السحيق. وبالنظر إلى كثرة أعداد هذه الوثائق النقشية ، وبسبب من طول الفترة الزمنية التي تتوزَّع عليها ، وبالنظر إلى ما يُستشفُّ منها من تطورات ومراحل مرَّ بها تعمير ليبيا بالسكان؛ فإنه لا مفرَّ هنا من استعراض هذه الوثائق أوّلاً بأوّل[1].

تغلب على سكان وادي النيل البدائيين في أقدم صورة سمح فيها العلم بالكشف عن سماتهم البشرية ـ أي عند قيام الحضارة الحَصَوية (الإينيوليثية) الأولىٰ ، أو حضارة نجادة الأولىٰ ـ سمات النمط السلالي الكوشي ـ الحامي ، الذي عُثر على محطات استقراره الرئيسيّة في منطقة طِيبة. وفي اعتقادنا أن هذه الحضارة وهؤلاء السكان قد عمَّروا الهضبتين اللتين تحيطان بوادي النيل. ولربما سيتم العثور في يوم من الأيام في الهضبة القوريناثية على أدوات ومواد عائدة إلى هذه الحضارة النجادية التي يبدو أنها قد قامت خلال آلاف السنين في شرقي أفريقيا الشمالية. وتكشف أقدم الرسومات عن أن الذكور من مصريـيٍّ تلك الحقبة الغابرة كانوا يسترون عوْراتهم بقُراب خاص يسمىٰ «ساتر العورة» ، وهو قُراب ظل فيما بعد ، وخلال عدة قرون ، العنصر المميز للباس الليبيين.

ويعود أوّل رسم يُحتمل أنه يصوِّر ليبيين حقًّا ، إلى فترة لاحقة بشكلٍ ملموس ، وهي حوالي منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد. وهو رسم يمثِّل

---

(1) المصدر الأساسي حول هذا الموضوع هو كتاب «الليبيُّون الشرقيُّون ـ The Eastern Libyans» الذي ألَّفه «بيتس O. Bates» وصدر سنة 1914 م، كإسهام منه في تقصِّي واستجلاء تاريخ قوريناثية، حيث رجع هذا المؤلِّف إلى المصادر الكلاسيكيّة والمصادر الفرعونية معاً. ثم تلت هذا الكتاب مؤلَّفات أحدث، من بينها كتاب الألماني ج. مولر G. Moller، وكتاب الفرنسي جسيل Gsell الصادر سنة 1924 ، وكتاب الألماني شارف A. Scharff الصادر سنة 1926 ، وكتاب الألماني هولشر W. Hölscher، الصادر سنة 1939، ومؤلَّف الإيطالي جالاسِّي G. Galassi الّذي صدر سنة 1942. [هامش للمؤلِّف].

معركة بريَّة بحرية منقوش على مقبض سكين تم العثور عليه في منطقة «جبل العرْكي» بآتجاه نجع حمادي في الصحراء الشرقية بمصر. وهو مشهد يري بعض العلماء أنه يمثل معركة بين مصريين من الوجه البحري ، يركبون مركباً شبيهاً بمراكب بلاد ما بين النهريـن ، وبين ليبيين ينتمون إلى الحضارة النجادية الأولىٰ. هذا ، وإن كان علماء آخرون غيرهم يرون أن هذا المشهد نفسه يمثّل غزاة أسيويين يقومون بمهاجمة مصريين. غير أن الغزاة الذين يمثّلهم هذا الرسم ـ والذين يبدو أنه كانت لهم الغلبة في تلك المعركة ـ يتميّزون بملامح تشبه إلى حدٍّ كبير ملامح الليبيين اللاحقين: فرؤوسهم دقيقة مستطيلة ، وشعورهم طويلة منسدلة على أكتافهم ، ولباسهم يقتصر فقط على حزام يشدُّ «ساتر العورة».

وهنالك لوحة حجرية معروفة تسمىٰ «لوحة الصيّادين» وهي تمثّل فريقين من الصيّادين خرجوا للقنْص في الصحراء. وهذه اللوحة مجزّأة إلى مقاطع بعضها يوجد بمتحف اللوفر بباريس ، وبعضها الآخـر محفوظ بـالمتحف البريطاني بلندن. والمشهد الذي تمثّله اللوحة المذكورة يصوِّر أفراد مجموعتيْ الصيادين وهم يحاولون افتكاك طريدتهم ، التي قنصوها ، من أفواه أسودٍ كاسرةٍ. ولباس هؤلاء القنّاصين وسلاحهم يُوحيان بأنهم من الليبيّين: فهم يرتدون وزْرة قصيرة يتدلّىٰ منها ذيل حيوان ، لكنهم لا يرتدون «ساتر عورة»؛ أمَّا شعورهم فهي طويلة مُحلاّة بريشة ، وهم يطلقون لحاهم. ويلمح المرء من بين أسلحتهم القوس والسهام الارتداديّة. وهنالك بمتحف اللوفر مقْطع للوحة حجرية فرعونية تُصوِّر ثوراً ـ وهو يرمز للملك ـ يرْفس شخصاً منبطحاً على الأرض؛ وبالنظر إلى أن هذا الشخص مُلحّىٰ ويشدُّ وسطه بساتر عورة ، فإنّه من المعتقد أن يكون ليبيًّا.

وتمدُّنا جميع هذه المقتنيات واللُّقَىٰ الأثرية بفكرة عن هيئة ولباس الليبيين خلال فترة ما قبل التاريخ أو علىٰ الأقل فإنها تُصوِّر لنا مصريين قدماء تربطهم

بهؤلاء الليبيّين علاقات مصاهرة. إلاّ أن هذه اللُّقى الأثرية تبدو خالية من أيّة كتابة قمينة بأن تدلّنا على اسم الشعب الذي تُمثّله. هذا وإنْ كانت الصور الأثرية التالية عليها زمناً لا تلبث أن تصبح أكثر وضوحاً.

وكان قدماء المصريين يطلقون على معاصريهم من الليبيين تسمية «التّحْنو». ويذهب عالم الآثار الألماني «ڤيلهيلم هولشر» في كتابه المسمىٰ «قدماء الليبيين وقدماء المصريين» إلى أنّه عثر في متحف القاهرة علىٰ هذه التسمية كما ظهرت للمرة الأولىٰ، وذلك في مقطع للوحٍ حجريٍّ يمثّل أحد وجهيه ملك الوجه القبلي «وازي» الملقب بـ «العقرب»؛ أمّا الوجه الآخر لنفس اللوح، فإنّه يصوِّر ثيراناً وحميراً وخرْفاناً منضَّدة في صفوف ثلاثة، وتظهر تحتها أشجار يُحْتمل أن تكون أشجار زيتون. وهذه اللوحة تمثل غنيمة حربٍ تم الاستحواذ عليها على إثر حملة ضد الليبيين، وهم رعاة يملكون ثروة هائلة من المواشي. وهكذا فإننا نعثر منذ عصر ما قبل الأسرات الفرعونية المتأخرة، على ذكرٍ لجيران مصر الغربيين رُحَّل الصحراء هؤلاء، والذين يبدو أن المصريين كانوا على عداءٍ معهم.

ثم تظهر تسمية «التّحْنو» بالهيروغليفية ثانية على اسطوانة من العاج تم العثور عليها في مدينة «هيراكونوبوليس»[1]، وهي اسطوانة تحمل اسم الملك «نعرمر». ولقد صُوِّر هذا الملك على الأسطوانة المذكورة وهو يقْرع بالعصا مجموعة من الأسرىٰ الجاثمين على الأرض الذين لا تميِّزهم أيةُ ملامح خاصة؛ هذا وإنْ كانت الكتابة المنقوشة أعلاهم تصفهم بأنّهم ليبيين. كذلك فإنّه قد عُثر على رأس هراوة عائدة إلى نفس فترة حكم الفرعون «نعْرمر» سُجِّل عليها رسمٌ يُخلِّد الغزوات، التي قامت بها جيوش هذا الملك في منطقة مراقية

(1) وهي المدينة التي تقع في مكانها حالياً بلدة «الكوم الأحمر» الواقعة شمالي «إدْفو» بصعيد مصر.

(البطنان). ولقد تضمَّن نفس الرسم أرقاماً ـ مبالغ فيها ـ عن عدد الأسرىٰ والغنائم. وطوال تاريخ مصر القديم ، منذ توحيد الوجهين القبلي والبحري ، نجد أن ذكر «التّحْنو» الليبيين قد أخذ يظهر باستمرار ضمْن أسماء الشعوب التي هزمها قدماء المصريين ، ورُسمت لوحات تمثل أسراهم وأسلحتهم التي تم الاستيلاء عليها.

وابتداء من قيام الدولة المصرية القديمة ، نلاحظ أن التطورات التي لحقت فنّ النحت الفرعوني قد أدّت إلى ظهور نقوش بلغت دقّة تفاصيلها حدًّا مكّننا من تكوين فكرةٍ محدّدة عن «التّحْنو» الليبيين. والحقيقة أن فراعنة الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة قد اضطروا إلى الاحتكاك بجيرانهم الليبيين الأشدَّاء الذين كانوا يقطنون الصحراء الغربية آنذاك. غير أن الأمر توقّف ـ: كما في المرحلة السابقة ، فيما يبدو ـ عند حدّ قيام قدماء المصريين بحملات ناجحة ضد الليبيين لصدِّ محاولات هؤلاء القيام بعمليات السَّلْب والنهب في وادي النيل. ويذهب الكاهن الفرعوني «مانيثون»[1] إلى أن الليبيّين قد قاموا بتمرّد في مصر خلال عهد الفرعون «نفروحيرس»[2]. وفي تلك الفترة ظهر في النصوص النقشية تعبير «باب الغرْب». ولقد قاد الملك «سينفرو» ، مؤسّس الأسرة الرابعة(2723 ق م ـ 2563 ق م) حملة داخل ليبيا ، أمدّنا اللوح الحجري ، المعروف بـ «لوح بالرمو» ، بعدد الأسرىٰ وبمقدار الغنائم التي تم الحصول عليها في هذه الحملة ، حيث قدَّرهم بأحد عشر ألف أسير ، وثلاث عشرة ألف ومائة من رؤوس الماشية.

بيْد أن الوثائق المصرية القديمة حول ليبيا لن تصبح وفيرة وجمّة

---

(1) هو كاهن مصري عاش في عهد بطلميوس الثاني «فيلادلفوس». ولهذا الكاهن كتاب يسمى «تاريخ مصر الإغريقيّة»، وهو الكتاب الذي تسرَّبت منه شذرات إلى بعض كتب المؤرِّخين العرب. وأهم ما تبقّىٰ لنا من كتابه ذلك الجدول الذي وضعه حول تواريخ العائلات الملكية الفرعونية، والعائد إلى القرن الثالث قبل الميلاد، وهو يعرف بـ «جدول مانيثون».

(2) هو من ملوك الأسرة الفرعونية الثالثة (2778 ق م ـ 2723 ق م).

المعلومات سوىٰ إبّان فترة حكم الأسرة الخامسة (2563 ق م ـ 2423 ق م) على الخصوص. فقد كانت المعابد الجنائزيّة الخاصة بـالفرعـونيْن «سحورع» و«ني ـ أوسر ـ رع» في أبو صير، مزيَّنة بنقوش بارزة من طراز رائع، تمثّل الأسرىٰ والغنائم المتحصَّل عليها خلال حملات وُجّهت ضد ليبيا. فمعابد «سحورع» الجنائزية ـ والتي تصوِّر نقوشها الأسرىٰ صحبة زعيمهم ـ قد مكَّنت العلماء المختصّين من أن يقفوا بالتفصيل على لبـاس «التِّحْنو» وطـابعهم السلالي؛ فهؤلاء يبدون فيها رجال طوال القامة، سُمْر البشرة، ذوي شعور سوداء طويلة متهدِّلة إلى الخلْف، تتدلّىٰ منها جدائل كثَّة إلى الأمام مُنْسدلة على الكتفين، وتنتصب على جباههم خُصل شعر قصيرة؛ وهي خُصل لمس عالم الآثار الألماني «هولشر» تشابهاً بينها وبين حلية «الصِّلِّ المقدَّس» التي تُـزيِّن جباه الفـراعنة. وتبـدو وجوه هؤلاء الأسـرىٰ «التِّحْنو» نحيفـة بارزة الوجنات، معقوفة الأنوف، غليظة الشِّفاه، تُزيِّنها لحي مدوَّرة قصيرة الشعر على نحو لا يجعلها تُخِلّ بشكل الفكّيْن، وتنتهي بخصلة عند أعلىٰ هذين الفكّيْن. أمّا لباسهم فيبدو أنّه قد اصطُنع لأغراض شعائرية سحرية وليس لأغراض دِنْيويَّة عملية؛ فهو يتألّف من حزامٍ يشدُّ «ساتر العورة»، وهو حزام لا ريْب في أنّه مصنوع من الجلد، ويتدلّىٰ منه إلى الوراء ذيْل حيوان طويل. ويتدلّىٰ من الكتفين شريطان عريضان مزخرفان يتقاطعان عند الصدر. وأخيراً فإنه يحيط برقبة «التِّحْنو» عقد عريض شُدَّت إليه أنواط طويلة. ويتميّز لباس الأسرى «التِّحْنو» هذا بطابع غريب وغير معتاد، حرص الفنّانون المصريون القدماء على محاكاته في رسومهم النقشيّة بمنتهىٰ الواقعية والإتقان.

وكان هؤلاء «التِّحْنو» يسكنون سلسلة واحات الصحراء الغربية، وإقليم الفيُّوم، ووادي النَّطْرون، ومراقية[1] (البطنان). ويذهب العالِم «هولشر» إلى

(1) ورد أقدم ذكر لـ «مراقية» في المصادر الإسلامية عند ابن عبد الحكم (ت. 257 هـ) في كتابه =

أن هذه السلالة هي سلالة قديمة كانت تعيش في دلتا النيل ، ثم طردها من هذا الإقليم الخصيب ملوك الوجه البحري عندما تم توحيده مع الوجه القبلي. ويلمس هذا العالِم الألماني أوجه شبه عديـدة بين «التِّحْنو» وبين قـدماء المصريين ـ منها الطابع السلالي ، والتماثُل في بعض مظاهر الزّي والزينة (كخصلة الشعر المتدلّية على الجبهة ، والتي تشبه «الصِّلّ المقدّس» عند الفراعنة، كما أسلفنا)، وتميُّز بعض آلهة الفراعنة بطابع ليبي ـ وهي أوجه شبه توحي بوجود علاقة قرابة عرْقيّة بين قدماء المصريين وبين القبائل الرُّحَّل التي كانت تقطن الصحراء الغربيّة. وحيث أن الوثائق العائدة إلى فترة ما قبل التاريخ تُبيِّن عن وجود حضارة مشتركة في منطقة شرقي الشمال الأفريقي برمّتها ، فإنه يمكننا في الواقع، القبول باحتمـال وجود وشيجة قرابة عِرْقية بين الشعبين. غير أنّه من المؤكّد أن التّفاوت الحضاري بين هذين الشعبين قد أصبح ، منذ قيام الدولة المصرية القديمة ، شاسعاً ، إلى حدّ أن المصريين نسوا تماماً تلك اللُّحْمة العِرْقية التي كانت تربطهم بـ «التِّحنو» الليبيين ، وصاروا ينظرون إلى هؤلاء على اعتبار أنّهم أجانب. وعلى أيّة حال ، فإن تسمية «بلاد التِّحْنُو» قد اتخذت لها في نهاية المطاف دلالة واسعة ، بحيث صارت تُطلق على جميع سكان المناطق الصحراوية الواقعة في غربي وادي النيل ، بما في ذلك الإقليم الجنوبي.

ثم لا تلبث تسمية «التّحنُو» أن تفقد دلالتها العِرْقية الخاصة، لتُصبح مجرد مصطلح جغرافي، بحيث نراها تنْجرُّ، بعد قيام الدولة المصرية القديمة، على شعوب المنطقة الغربية، أيًّا كانت سماتهم وخصائصهم العرْقية، وأيًّا كان زيُّهم؛ وبذلك صارت هذه التسمية مساوية لمصطلح «ليبي» في أوسع معانيه.

= «فتوح مصر والمغرب»، حيث قال: «لوبية ومراقية هما كورتان من كُور مصر الغربيـة، مما يشرب من ماء السماء، ولا ينالهمـا النيل». وتسمى مـراقية حـالياً بـ «البـطنان»، ويسميهـا الأوربيُّون «مارماريكا» وهي هضبة تمتد بمحاذاة ساحل البحر ما بين الطرف الجنوبي الشرقي لخليج بمبا وبين حدود مصر الغربية. وأشهر مدن البطنان هي مدينة طبرق.

ويتحتّم ألاّ يحجب استعمال تسمية «التِّحْنُو» في معناها الواسع، حقيقة هامة تتمثّل في التحوُّل العميق الذي طرأ على سكّان ليبيا خلال الألف الثالثة قبل الميلاد. فلقد انبثق عندئذ وسط «التِّحْنُو» في معناهم الضيِّق، من ذوي البشرة السمراء والشعر الفاحم ـ وإخوةُ المصريين عرْقيًّا ـ شعبٌ جديدٌ أبيض البشرة، فاتح الشعر، تبوَّء في قورينائية مكانة متفوِّقة؛ وهو الشعب الذي لا نشكُّ في أنّه الجدّ الأول لـ «الأمازيغ». وهذا هو نفس الشعب الذي سنراه يوجِّه ضد وادي النيل حملات تتسّم بالخطورة. ولقد تم التعرُّف على هذا الشعب، خصوصاً من خلال الآثار النقشية العائدة إلى الدولة المصرية الجديدة. ولقد أطلق المصريون عليه تسمية خاصة هي: «التمْحو»، تمييزاً له عن شعب «التّحنو». غير أن اللّبْس اللغوي في اللغة الهيروغليفية جعل من العسير التمييز بوضوح بين التسميتين؛ إذْ غالباً ما استُعملتا كمترادفين، خصوصاً في فترة لاحقة. ولا شك، مع ذلك، في أن ظهور تسمية «التّمْحو» الجديدة لدىٰ المصريين، ينطوي على حقيقة أن هؤلاء قد فطنوا إلى وجود فارق سلالي بين سكان ليبيا القدماء وبين سكانها «التمْحو» الجُدُد.

ولقد ظهرت تسمية «التمْحو»، أوّل ما ظهرت، خلال فترة قيام الأسرة الفرعونية السادسة (2420 ق م ـ 2280 ق م) في نقش يعود إلى عهد الملك «بيبي الأوّل»، وهو نقش يتضمّن ذكراً لفرقةٍ من الجنود المرتزقة «التمحو» في جيش القائد العسكري المصري «وني». كذلك فإنه خلال عهد الملك «مرْنرع» ـ وهو خليفة «بيبي الأوّل» ـ رَوَتْ شخصيّة كبيرة ـ هي الرحّالة والتاجر المصري «حرخوف»، الذي عُثر على قبره في «الفنْتين» (فيلة: قرب أسوان) ـ بأنّه عندما قام برحلته إلى «أرض يام»، الواقعة شمالي وادي حلفا، فإنه واصل رحلته حتى بلاد «التمحو». وإذن فإن هؤلاء كانوا يقطنون، إبّان تلك الفترة، بعيداً عن وادي النيل، باتجاهٍ جنوبي غربي.

أمّا في عهد الدولة الفرعونية الوسطى (2160 ق م ـ 1580 ق م) فإن الوثائق

الخاصة بالليبيين لم تكن كثيرة، كما لم تكن صريحة بشأنهم؛ الأمر الذي أدّىٰ إلى تضارب بين تفسيرات العلماء المتخصصين. فالعالِم الألماني «دِمِّلْ» قد استشفَّ من الوثائق المصرية القديمة التي درسها، وجود حركة غزو قام بها الليبيُّون، منذ تلك الحقبة، نحو الشرق. ولقد أنكر «هولشر» هذه الفرضيّة، وذهب ـ بعد قيامه بدراسة ومراجعة القرائن الأثريّة المتوفّرة ـ إلى أنّه لا وجود لأيّة أدلّة أثرية تحملنا على الافتراض بأن تهديداً عسكرياً ليبيًّا، شبيهاً بذاك الذي ستتعرَّض له مصر عند نهاية فترة قيام الدولة الفرعونية الجديدة، قد وقع أيّام الدولة الفرعونية الوسطىٰ. ولكن ليس من المستبعد أن يكون فراعنة الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة قد اضطرّوا إلى الدخول في حروب ضد قبائل الصحراء الغربية الرُّحّل. ولقد ذكر الملك «منتوحتب الثاني»، الذي حكم ما بين سنة 2079 ق م، وبين سنة 2061 ق م، على أحد جدران معبده الجنائزي، الذي تمّ الكشف عنه في منطقة «الجبلين»، قُرب بلدة «المُعلّا» أن من بين الشعوب الأربعة التي هزمتها جيوشه، شعب ليبي. وإذن، فإن هذه القبائل الرُّحّل لا بدّ وأن تكون قد انتهزت فرصة ضعف السلطة المركزية في مصر خلال الفترة الوسيطة الأولىٰ، وحاولت اكتساح وادي النيل.

ونعثر على الإشارة الأكثر دقّة حول خروج حملة مصرية إلى ليبيا، خلال حكم الدولة الفرعونية الوسطىٰ، في ثنايا الحكاية التي رواها «سنوهي» ـ وهو أحد رجال البلاط في عهد الملك «أمنمحات الأوّل» [منتوحتب]، (1991 ق م ـ 1961 ق م)؛ حيث أن ابنه «سنوسرت»، الذي سيحكم مصر بعده، كان يخوض حرباً ضد «التمحو». ويُعتقدُ أن هذه الحملة المصرية قد تُوِّجت بالنصر؛ فالواقع أن المؤرِّخ «ديودوروس الصقلي» قد أشار إلى أن «سنوسرت الأوّل»، (1970 ق م ـ 1939 ق م)، قد أخضع الشّقّ الأكبر من ليبيا. وهنالك نصّ غريب يؤكّد لنا قيام هذه الحملة المصرية ضد «التّمحو»، ولقد نُقش هذا النص على مسلّة فرعونية تُعرف لدى المتخصّصين باسم «مسلّة برلين»، وهو يتحدّث عن

حملة وُجّهت ضد الواحات في عهد «سنوسرت الأوّل» نفسه. وبعد ذلك، وحتى نهاية الأسرة المصرية الثانية عشرة، لا يعثر المرء على أيّة إشارة محدّدة عن حملات حربية موجّهة ضد تخوم مصر الغربية. هذا، وإن كانت «صدْريّة» الملك «سنوسرت الثالث»، الذي حكم ما بين سنة 1887 ق م، وبين سنة 1850 ق م، المحفوظة بمتحف القاهرة، تحمل رسماً جميلاً يصوّر هذا الملك وهو يدوس بقدميه مصريًا من الوجه القبلي وأحد الليبيّين.

وإبّان فترة العهد الإقطاعي الثاني، الشبه مجهولة لنا، لا نعثر بين الوثائق النادرة العائدة إلى ذلك العهد على أيّ ذكرٍ لليبيا. ولكن ابتداءً من قيام الدولة الفرعونية الجديدة التي استمرّت من سنة 1580 ق م وحتى سنة 1085 ق م، فإن صور الليبيّين «التمحو» تأخذ في الكثرة؛ سواء على واجهات الآثار الملكية، أو في نقوش المقابر. وأقدم هذه الصُّور التي أمكن التّعرُّف عليها بيقين بواسطة فكّ رموز الكتابة المصاحِبة لها، يتمثّل في ذلك الرسم الذي يُزيِّن مقبرة الملك «سيتي الأوّل»، (1318 ق م ـ 1298 ق م) ثاني ملوك الأسرة التاسعة عشرة (1320 ق م ـ 1200 ق م). وهذا الرسم سمح لنا ـ سواء من حيث وضوحه أو من حيث مدىٰ دقّته ـ بدراسة المظهر السلالي لـ «التمحو» ولباسهم بالتفصيل.

وخلافاً لـ «التحنو»، فإن سكّان ليبيا الجُدُد، أيّ «التمحو»، من ذوي البشرة البيضاء، يظهرون في الرسومات الفرعونيّة أحياناً، شُقْر الشعر زُرْق العينين. وهم، وإنْ كانوا يتميّزون بأن لهم لحىٰ مدبّبة ظُفر شعرها حول الفكّيْن في شكل عِقدٍ خفيف، إلاّ أنّ لهم طريقة خاصة في تمشيط شعورهم. فالشعر عندهم، وإنْ كان يسترسل من الرأس نحو الوراء، إلاّ أن خصلة قصيرة ومجدولة منه تبدو متدلّية أمامْ الأذن في شكل حلزوني صوْب الكتف. وغالباً ما تحلّي ريشتان شعر الرأس عندهم. أمّا لباسهم، فهو ما يزال يتألّف من ساتر للعوْرة أو من وزْرة تلفُّ الخصْر؛ زيادة عن عباءة مصنوعة من جلود الحيوانات. ويُلاحظ في بعض الأحيان أن أذرع «التمحو» وسيقانهم مزينة

بالوشم. وأسلحتهم المفضّلة هي السِّهام، وفي حالات نادرة يُستعاض عن هذه بالسيوف والرّماح الارتدادية؛ كما أنّهم يستعملون العربات الحربية، التي لا شكّ في أنّهم اقتبسوا عادة استعمالها عن المصريين.

ونحن نعثر على كثير من أوصاف «التمحو» هذه في كتابات المؤلِّفين الكلاسيكيين، الذين طالما أشاروا إلى هؤلاء الليبيين الشُّقْر من ذوي البشرة البيضاء. فبعد «سكيلاكس المنحول» الذي عاش في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، نجد أن الشاعر القوريني «كاليماخوس»، (305 ق م - 240 ق م) يصوِّر لنا أجداده الثيرانيين الإغريق الشُّقْر وهم يُغنُّون صحبة هؤلاء الليبيين الشُّقْر. أمّا الشاعر «لوقين»[1] فقد لاحظ أنّه كانت لدى «كليوبترة» وصيفات: «.. لم ترَ عينُ قيصر شدّة شُقْرة شعورهن حتى لدى نسوة جرمانيا الجميلات»، على حدّ تعبير هذا الشاعر. وأخيراً فإن المؤرِّخ البيزنطي «بروكوبيوس القيْصري»[2] - كان حيًّا حتى سنة 565 ميلادية - يصف «أمازيغ» شمال أفريقيا قائلاً: «.. إن بشرتهم ليست سمراء كبشرة أهل البلاد الآخرين، بل هي بيضاء وشعرهم أشقر».

وتشبه عادات «التّمحو» وأعرافهم، كذلك، تلك العادات والأعراف المماثِلة التي كان الإغريق قد لاحظوها في زمانهم لدى الليبيِّين. فتزيين الشعر بالرِّياش قد تميزت به قبيلة «النسامونيين»[3]. أما طرائق تصفيف الشعر على نحوٍ متميِّز خاص فقد لاحظها «هيرودوتس» لدى بعض القبائل الليبيّة الأخرى،

---

(1) «لوقين - Lucain»، هو شاعر لاتيني، ولد سنة 39 ميلادية، وتوفي سنة 65 ميلادية. وهو ابن أخت الفيلسوف المعروف «سينيكة». اشتهر بملحمته الشعرية التي عنوانها «الفارسال - PHARSAL».

(2) «بروكوبيوس القيصري» ولد سنة 500 ميلادية وتوفي سنة 565 ميلادية، وألّف كتاب «تاريخ حروب جستنيان».

(3) هي قبيلة ليبيّة كانت تعيش في المنطقة الساحلية ابتداءً من موضع بنغازي الحالية شرقاً وحتى خليج سرت غرباً، وتنتشر في داخل البلاد حتى واحة أوجلة.

وهي: «الماكايْ»[1] و«الماخلويس» (الماخلايْ)[2]، و«الأوسيس»، و«الماكسويس». أمّا عادة ارتداء الليبيين لملابس من جلود الحيوانات، فقد أشار إليها المؤرِّخون العديد من المرّات بعد «هيرودوتس»؛ حيث ذكرها المؤرِّخ الإغريقي «ديودوروس الصقلي» في الكتاب الثالث من موسوعته الموسومة بـ«المكتبة التاريخيّة»؛ والشاعر اللاتيني «سيليوس إتاليكوس». أمّا بالنسبة للوشْم، أو على الأقل عادة تلوين الجسم، فقد نبَّه نفس هذان المؤلّفان الكلاسيكيان إلى وجودها لدى قبيلة «الماكسويس». وأخيراً، فإن استعمال العربات الحربيّة قد ظل يظهر لدىٰ قبائل قورينائية المحلية حتى تاريخ متأخّر جدًّا؛ الأمر الذي حمل إغريق «قوريني» على دعْم تشكيلاتهم العسكرية بوحدات كاملة من المركبات الحربية التي تجرُّها جياد أربعة، وذلك في زمن كانت فيه الجيوش الهلِّينية قد أقلعت فيه منذ أمد طويل عن استخدام العربات في جيوشها.

وتحمل أوجه الشبه هذه المرءَ على الاعتقادِ بأن «التمحو» الذين عرفهم مصريُّو الدولة الفرعونية الجديدة، هم الأسلاف المباشرون لِليبيـيِّ الفترة الإغريقية الرومانية (الكلاسيكيّة). ولقد أبانت المقارنة بين الوثائق النقشيّة الفرعونية والإغريقيّة عن صِدق هذه الفرضية: فصُوَرُ «التمحو» التي تُزيِّن مقبرة الملك «سيتي الأوّل»، (1318 ق م ـ 1298 ق م)، يمكن إيجاد أوجه شبه كبيرة بينها وبين صورة وجه شخصية «آنتي»، التي يُظَنُّ أنها شخصية ليبيّة، وهي الصورة المرسومة على إناءٍ للخمرة يعرف بـ«إناء إيوفرونيوس» المحفوظ بمتحف اللوڤر بباريس. فبمقارنة هذه بتلك يمكن للمرء أن يلمس نفس إنسيابيَّة الوجْه، ونفس كيفية إنسدال خصل الشعر على الجبْهة، والشفاه

---

(1) هي قبيلة ليبيّة أخرىٰ كانت تقيم على شواطىء خليج سرت إلى الغرب من مرابض قبيلة النسامونيين حتى غربي منطقة «وادي كعام» قرب «زليتن» الحالية.

(2) وهي قبيلة كانت تقيم في أقصى ليبيا الحالية حتى شطّ الجريد بتونس.

الغليظة، والشعر الكثّ الممشوط إلى الأمام وإلى الوراء، ونفس اللحية الطويلة المدبَّبة؛ هذا وإنْ لُوحِظ أن الظفيرة الصُّدْغية هي وحدها التي اختفت من وجه شخصية «آنتي» المذكورة. ولكن فيما يتعلّق بالتفاصيل الجوهرية، نجد أن النمط السلالي الليبي لم يتغيّر، منذ نهاية القرن الرابع عشر قبل الميلاد وحتى القرن السادس قبل الميلاد.

ويعثر المرء على نفس هذا النمط السلالي الليبي، مجدَّداً، حتى في القرن الرابع قبل الميلاد، ويتمثّل ذلك خصوصاً في رأس تمثالٍ مصنوع من البرونز عثر عليه عالِمَان إنجليزيّان في «قوريني» ونقلاه إلى المتحف البريطاني بلندن؛ وهذا التمثال يصوِّر لنا أحد نُبلاء الأمازيغ. وبالتّمعُّن في وجه هذا التمثال نلاحظ أنّه نبيل يقلِّد في هيئته هيئة الإغريق، من حيث كيفية تصفيف شعر رأسه ولحيته؛ بل ولعل هذه الشخصية ما هي إلاّ شخصية أحد المولَّدين الذين امتزج دمهم المحلي، نتيجة التزاوج، بالدم الإغريقي الوافِد. ومع ذلك فإن وجه هذا التمثال يظل محتفظاً بكل وضوح بالسِّمات الجوهرية التي تميِّز بها قومه سلاليًّا: فشاربه وشعر صدْغيْه خفيف وأجْعد، وعينه لوزيَّة الشكل، وجبهته ناتئة، وشفتاه غليظتان.

وأخيراً فقد تم العثور في مدينة «قوريني» (شحّات) على رأس تمثال من المرمر تعود إلى منتصف القرن الثاني للميلاد ـ وهي فترة حكم الإمبراطور الروماني «أنطونين الورع»، (86 ميلادية، 161 ميلادية) ـ تجسِّد استمرارية ظهور النمط السلالي للتمحو. وهذه الرأس المرمرية تُبرز بوضوح يفوق ما نلمسه في تلك الرأس الأخرى التي سبق وأن وصفناها والموجودة حالياً في المتحف البريطاني، من حيث غرابة تقاطيع سلالة «التّمحو»؛ خصوصاً فيما يتعلّق بالنّتوء الحاجبي لأسفل الجبهة، والشعر الكثّ، والأنف المعقوف، واللحية الخفيفة المجعّدة الشعر عند الصُّدْغين، والفكّ البارز، والشفتين الشُّبقيَّتيْن اللتين يعلوهما شارب خفيف لا يكاد شعره يبين، والعين ذات النظرة

الثاقِبة، التي زاد من حيويّتها، وتأجُّجُ نظراتها ذلك الحزّ الجراحي الذي يَظْهر أثر ندْبته تحت الحاجب مباشرة، وهذه عملية تجميليّة يبدو أنّها كانت شائعة في تلك الحقبة، ولعل القصد من إجرائها هو إبراز الحدقة.

إن ما حرصنا عليه أعلاه من عقْد مقارنات بين الوثائق الأثرية المذكورة، والعائدة بالتّدرُّج إلى فترات متعاقبة عبر ستة عشر قرناً، يظهر لنا بوضوح مدى ثبات النمط السلالي لسكّان ليبيا، ابتداءً من تعمير «التمحو» لها. ويبدو أن هذا الثبات السلالي قد ظل يظهر حتى فيما يتعلّق بتوزُّع مختلف القبائل الليبيّة على اتِّساع رقعتها الأفريقية. وهذا، على الأقل، هو ما تحاول البرهنة عليه تلك المقارنات التي عُقدت بين الجداول التي وضعها العلماء، استناداً على الوثائق النقشيّة المصرية، وعلى المعلومات التي خلّفها لنا الجغرافيُّون الإغريق. فهي تُطلعنا على أن القبائل الليبيّة الرُّحّل، بعد الهجرات التي دفعت بها نحو وادي النِّيل، قد أخذت تنتشر غرباً، على الدوام تقريباً، وبنفس الكيفيّة، طوال الفترة القديمة الكلاسيكيّة برمّتها، على امتداد الساحل الشمال أفريقي. ولقد حاول المؤرِّخون أن يماثِلوا بين تسميات الأقوام الليبيّة الوارِدة في نقوش الدولة الفرعونية الجديدة وبين تلك التسميات التي أسبغها عليها الإغريق. وهكذا فإنه يُعتقد أن قوم «المشواش» في النقوش المصرية القديمة هم أنفسهم «الماكسويس» عند مؤلِّفي الإغريق من أمثال «هيرودوتس» و«كاليماخوس القوريني»، وأن قبيلة «الإسبت» عند الفراعنة ربما تكون هي القبيلة الأمّ للقبيلة المسماة قبيلة «الأسبوستاي»؛ وأن قبيلة «البكن»[1] في كتابات الفراعنة، ربما تكون هي قبيلة «البكاليس». وبالرغم من أن هذه المقارنات قد ظلّت موضع أخذ وردّ لدى بعض العلماء؛ إلّا أنّه يمكن القول بأن ثبات النمط السلالي الليبي القديم قد ظل، بوجهٍ عام، على ما هو عليه حتى وقوع الفتح

(1) كانت قبيلة «البكن» تعيش حول ساحل «تاوخيرة» (توكرة = العقورية). ويرسم اسم هذه القبيلة في بعض المصادر العربية هكذا: «البقن».

الإسلامي، حيث اكتسح العِرْق العربي، منذئذٍ، جميع السلالات السالِفة الذِّكر في المنطقة وطغى عليها نهائياً.

وما أن استقرَّ «التّمْحو» بأعدادٍ كبيرة عند تخوم مصر الغربية حتى أخذوا يشكِّلون خطراً كبيراً على جيرانهم المصريين الموسرين. ذلك أن غارات «التّمحو» على الأراضي المصرية ـ وهي غارات كانت في البداية محدودة ـ قد اشتدّت، بل واستفحلت إبَّان فترة قيام الدولة الفرعونية الجديدة؛ بحيث نجدها لا تلبث أن تُشكِّل، بالنسبة لفراعنة مصر، تهديداً بالِغ الخطورة.

ومع ذلك، فإنّه لم يبْدر عن هؤلاء «التّمحو» خطر له شأنه خلال عهد الأسرة الثامنة عشرة (1580 ق م ـ 1320 ق م)؛ فلقد أرسل «أمينوفيس الأوّل» (= أمنحتـب الأول) ، الذي حكم من سنة 1557 ق م، وحتى سنة 1530 ق م، أحد قُوَّده ويدعي «أحْمس بينخبت» على رأس حملة مصرية ضد واحة «قهق»، التي لا ريب في أنّها كانت تشكِّل جزءاً من ليبيا، ويُعتقد أن سكّانها الليبيين «القهق» كانوا يسكنون ما بين «مريوط» و«سيوه». ولم يحصل المصريُّون من وراء هــذه الحملة سـوى على غنـائم لا شـأن لهـا. أمـا في عهـد الملكـة «حتْشبسوت»، التي حكمت ما بين سنة 1490 ق م وبين سنة 1468 ق م، وفي عهد الملك «تحتمس الثالث»، الذي حكم ما بين سنة 1479 ق م، وبين سنة 1447 ق م، فإن الليبيين كانوا يؤدُّون جزْية لفرعون مصر. ولقد احتفظت لنا إثنتان على الأقل من مقابر «طيبة» بالمشهد الذي يصوِّر واقعة تسديد الجزية التي كانت تؤدِّيها «الواحات البحرية»؛ وهي جزية كانت تتمثّل على الخصوص في خمرة مجلوبة في جِرارٍ كبيرة. وقد وُضعت هذه الواحات تحت رقابة حاكم «أبيدوس» (= مدينة الموتى الواقعة بمحافظة سوهاج).

وفي عهد الأسرة التاسعة عشرة (1318 ق م ـ 1298 ق م)، كان يحكم «الواحة البحرية» حاكم مصري، تم الآن العثور على مقبرته. غير أن الليبيين بدأوا في شنّ الهجومات ضد المصريين بجرْأة. وجاءت أول هجمة خطيرة من

الغرب في حوالي سنة 1318 قبل الميلاد، في بداية عهد الملك «سيتي الأوّل». والمعلومات المتوفّرة لدينا عن هذه الهجْمة لم تمدّنا بها النصوص النقشيّة، وإنما أمدّتنا بها الصُّور المرسومة على جدران معبد الكرْنك؛ حيث أُشِير في تلك الصُّور إلى هؤلاء المهاجمين بآسمهم القديم: «التّحنو». ولعل المقصود هنا هي أقوام «المشواش» التي ستراها، فيما بعد، تشكِّل السواد الأعظم من حملات الغزو الليبية اللاحقة ضد مصر.

ولا شكّ في أن «رعمسيس الثاني» (1298 ق م ـ 1232 ق م) قد اضطر، بدوره، إلى التّصدِّي للغزوات الليبيّة. وهنالك نقشان تذكاريّان، تم الكشف عن أحدهما في معبد «بيْت الوالي»، واكتُشف الآخر في معبد «أبو سمبل»، يتحدّثان عن عمليات صدٍّ هجومات «التّحنو». هذا، وإنْ كان عالِم الآثار «هولشر» قد شكّك في حقيقة ما يصوِّره هذان النقشان فعلاً، وذهب إلى أن تزيين المعبدَيْن المذكورين على ذلك النحو، قد لا يكون سوىٰ مجرّد استخدامٍ لعنصر الإشادة والتفاخر بنُصْرة الجيوش المصرية ـ وهو عنصر فنّي تقليدي معروف في زخرفة المعابد الفرعونية ـ دون أن يعكس ذلك وقائع تاريخية حدثت بالفعل. غير أن حقيقة قيام تهديد ليبي للمصريين في تلك الفترة لم يعد موضع شكّ. وتشير النقوش التي زُيِّنت بها مسلّات «رعمسيس الثاني»، التي اكتُشفت في مدينة «تانيس» ـ عاصمة الهكسوس القديمة ـ إلى ضمِّ وحدات عسكرية ليبيّة إلى الجيش المصري؛ وفي هذا دليل على أن «رعمسيس الثاني» هو الفرعون الذي وَضع اللَّبنات الأولىٰ للسياسة التي سيسير على هدْيها خلفاؤه، والمتمثّلة في إبعاد خطر هؤلاء الليبيين عن طريق الاستنْجاد بهم هم أنفسهم، بالرغم من أنّهم هم مبعث الخطر أصلاً. ولقد اتّبع أباطرة الرومان، فيما بعد، نفس القاعدة. وزيادة على ذلك فإننا نرى «رعمسيس الثاني» ـ رغبةً منه في ضمان وجود سلسلة من الحصون يعسكر فيها جيش الحدود المصري، على طول الحدّ الغربي لدلتا النيل ـ ينشيء منطقة من

الاستحكامات تمتد على طول الساحل المصري المطلّ على البحر الأبيض المتوسط حتى بلدة «العلميْن» الحالية، على الأقل. وهكذا، فإن تصميم فرعون مصر هذا على وضع منطقة مراقية (البطنان) في قورينائية تحت المراقبة العسكرية، من عند نقاط مراقبة مبثوثة على طول الساحل، لهو أمرٌ واضح للعيان. وبطبيعة الحال فإن هذا الإجراء بدا آنذاك وكأنّه أمرٌ لا مفرَّ منه، وبالفعل، فإن هذه الاحتياطات الوقائية كانت كافية لاتِّقاء مخاطر جيرانه الليبيين الأشدّاء طيلة فترة حكمه.

ولكن ما أن انقضت خمس سنوات على اعتلاء ابنه ووريثه «مرنبتاح»، (1232 ق م - 1224 ق م)، عرشَ مصر الفرعوني، حتى تعرَّضت مصر، في سنة 1227 ق م، لهجْمة ليبيّة خطيرة. فلقد توحَّد هؤلاء الليبيُّون تحت لواء أمير «الليبو» المسمىٰ مريـي بن ديد»، وهاجموا دلتا النيل وتوغَّلوا فيها. وبدءاً، فإن أقوام «الليبو» - الذين سيُشتقُّ من اسمهم، فيما بعد، اسم ليبيا نفسه - وأقوام «المشواش»، و«القهق»، قد احتلُّوا كل منطقة «التّحنو» القديمة، واستولوا على «واحة البحرية» و«واحة الفرافرة» بالصحراء الغربيّة. ثم تقدّمت هذه الأقوام الليبيّة، مصطحبة معها نساءها وأطفالها، نحو وادي النيل الخصيب. لكن القوّات المصرية اعترضت طريقها عند حقول «البر - إر»، الواقعة شمال غرب «ممفيس» (مَنَفْ). وانتهت المعركة لصالح المصريين الذين تمكّنوا من أن يأسروا من هؤلاء المُغيرين زُهاء تسعمائة أسير، كما غنموا منهم أسلاباً هائلة. ومع ذلك فقد تمكّن أميرهم «مريـي بن ديد» من الفرار. ويوجد بمعبد الكرنك نقشٌ كبير وعدد من المسلّات التي حُفظ بعضها بمتحف القاهرة، تمجِّد هذا الانتصار الفرعوني.

ويتحدّث نقش الكرنك المذكور - والذي ضاع مطْلعه - في السطور الأولى مما تبقّى من نصّه، عن أقوام أُخرى مختلفة، غير الليبيين، هم «الأقاواشا»، و«التُّورْشا»، و«الشردان»، و«الشكلش». وهؤلاء يمثّلون أقواماً قدمت إلى

ليبيا بحراً، ويُعرفون في النصوص الفرعونية بـ «شعوب البحر» أو «أقوام البحر»؛ حيث انْضمّوا إلى «الليبو» و «المشواش» الليبيين لغزو مصر. والحقيقة أن «أقوام البحر» هذه كثيراً ما ورد ذكرها في النقوش المصرية العائدة إلى فترة قيام الدولة الفرعونية الجديدة. وظهور هذه الأقوام يُعْزَىٰ إلى الهجرات الكبيرة للشعوب الهندوأوروبيـة، وهي الهجرات التي ظلّت تكتسح منطقة الشـرق الأدنى برمّتها طوال تلك الحقبة. غير أنّه جرت العادة، فيما سبق ذلك، على مشاهدة هذه الأقوام القرصانية الغازية تحُطُّ رِحالها على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقيّة؛ وليس هنالك شكٌ في أنها أقوام قدمت من أعماق مجاهل آسيا الصغرى خلال عصر العمارنة[1]. ويبدو أن الملك «مرنبتاح» قد قاد بنفسه ـ في حوالي نفس الفترة التي كان يحارب فيها ضد ليبيا ـ حملة أو عدَّة حملات ضد فلسطين. ولذا فإن العالِم الفرنسي «دريوتون ڤانديه» يفترض من جانبه بأن الملك «مرنبتاح» قد اصطدم بجيوش «أقوام البحر» الغازية هذه، إمَّا في فلسطين نفسها، وإمَّا على ساحل دلتا النيل. وانطلاقاً من هذه الفرضية، فإنه يصبح من المستحيل القول بأن هذه الأقوام قد هاجمت مصر من الغرب مع الليبيين، مثلما جاء في نقش الكرنك المذكور؛ وذلك لأن ساحل مراقية (البطنان) القوريناني، شبه القاحل، لا يكفي لإغراء هذه الأقوام الآسيوية الغازية بتجشيـم أنفسها عناء عبور البحر بمراكبها لمجرد الحصول على غنائم لا تعدو بضعة قطعان من الماشية وبعض الأسرى الليبيين. ثم أن جزيرة «فاروس» المواجهة لدلتا النيل الخصيبة، قد اتُّخذت كمرسىً لمراكب أولئك الغُزاة الآسيويين. وهنالك من العلماء من يرفض كليةً الأخذ بأيٍّ من الفرضيتين الواردتين أعلاه حول أقوام «الشكلش» و «التورشا» و «الشردان» والقائلتين بأنّها

(1) ولكن هنالك من المتخصِّصين من يذهبون إلى أن «أقوام البحر» قد قدموا من جزيرة صقلية، أو من جزيرة رودس، أو من طروادة؛ وبالتالي فإنها قد تكون أقوام أوروبيـة، ولكن المؤلِّف شامو لا يشير إلى ذلك. انظر العلامة المصري سليم حسن: «مصر القديمـة»، ج/ 7، ص ص 75-83، نشر مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1950.

هي «أقوام البحر»، ويذهبون إلى أن هؤلاء كانوا مجرد جنود مصريين فارِّين من الخدمة في الجيوش المصرية الفرعونية قاموا بالانضمام إلى أقوام «الليبو» و«المشواش» الليبيّة للقتال معهم ضد القوات المصرية. وعلى أيّة حال، فإنه لم يُعثر حتى الآن على أثر إيجابي يشهد بأن «أقوام البحر» هذه قد قدمت إلى ليبيا واستقرّت بها على نحوٍ دائم في تلك الحقبات التاريخية؛ كما أنّه ليس هنالك ما يحمل على الاعتقاد بأن هجرة هذه الشعوب المزعومة إلى ليبيا كانت إرهاصة أولية موغلة في القِدم، هيأت الطريق لقدوم المعمِّرين الإغريق إلى ليبيا فيما بعد.

وعلى أيّة حال، فإن هزيمة الليبيين على يد قوات «مرنبتاح» المصرية لم تمنع هؤلاء من إعادة الكرَّة ومحاولة غزو مصر بعد ذلك بحوالي ثلاثين سنة، في عهد «رعمسيس الثالث»، الذي حكم مصر من سنة 1198 ق م وحتى سنة 1166 ق م، وهو ثاني ملوك الأسرة العشرين التي عمَّرت من سنة 1200 ق م إلى سنة 1085 ق م، حيث واجه هذا الفرعون، في عهده، خطر الغزو الليبي مرتين؛ إحداهما في سنة 1194 ق م، والثانية في سنة 1188 ق م. ومن بين جميع الحروب التي خاضها ملوك الفراعنة، فإن هاتين الحربين الليبيّتين تعتبران أكثر تلك الحروب التي توفرت لدينا عنها معلومات كافية؛ وذلك، من ناحية، بفضل الوثيقة البرديَّة المسمّاة «برديَّة هاريس الكبرى»[1]؛ ومن ناحية أخرى، بفضل نقوش ولوحات معبد «رعمسيس الثالث» الجنائزي بمدينة «هابو» الواقعة في طيبة الغربيّة، والتي تصوّر وقائع الحربين على نحوٍ مفصّل.

---

(1) هي أطول وثيقة مكتوبة على ورق البردي وصلتنا عن حياة «رعمسيس الثالث» حيث يبلغ طولها أكثر من أربعين متر، ويبلغ عرضها حوالي 42 سنتمتر. وهي برديّة مدوَّنة بالخط الهيرطيقي، وتفيد كثيراً في شرح وفهم النقوش والصور التي خلّدها هذا الفرعون على جدران معبد مدينة «هابو»؛ وهي تتعرّض كذلك لكل الحروب التي خاضها. ولقد تم العثور على «برديّة هاريس» هذه في سنة 1855 م خلف المعبد المذكور، على عمق عشرين قدم تحت سطح الأرض. انظر سليم حسن، المصدر السابق.

ففي سنة 1194 قبل الميلاد كان «الليبو» (= الريبو) هم الذين لعبوا، مجدداً، الدور الأوّل بين المهاجمين. ويُحتمل أن هؤلاء قد هرعوا إلى أسلحتهم وهجموا على مصر عندما حاول فرعونها تنصيب أمير عليهم من اختياره. ويشاهد المرء في النقوش واللوحات المذكورة أن هؤلاء كان يقودهم، مجدّداً، زعيمهم «مريي بن ديد»، الذي سبق له وأن هُزم عند حقول «البر - إر». هذا، وإن كانت الأسماء هنا هي من اختراع رسّامي نقوش حوليّات الملك «مرنبتاح». ولقد قامت التشكيلات الليبيّة بنهب المدن المصرية الواقعة عند الطرف الغربي لدلتا النيل؛ بل إنها تمكنت في بعض المواضع من اختراق الفرع المتجه غرباً من نهر النيل. لكن «رعمسيس الثالث» تمكّن من القضاء عليهم قبل أن يتمكّنوا من الاقتراب من مدينة «ممفيس» (منف).

أما في سنة 1188 ق م، فإن أقوام «المشواش» هم الذين كانوا يتصدّرون الأحداث. ويبدو أن ملكهم «كُبُر» قد نجح في أن يوحّد تحت قيادته قبائل «مراقية» (البطنان). وقاد «كُبُر»، هو وابنه «مشْشر»، جماعات «المشواش»، صحبة بعض القبائل الليبيّة الأخرى خلال هجوم أخير شنّه ضد مصر. غير أن فرعون مصر «رعمسيس الثالث» عاد فانتصر عليه بقوّاته من جديد. وإذْ هُزم الليبيُّون، فإنهم تركوا بين أيدي المصريين عدداً كبيراً من الأسرى، كان من بينهم الملك «كُبر» نفسه. أما ابنه «مشْشر» فقد كان في عِداد القتلىٰ. وكما كانت تقضي التقاليد المُتعارف عليها آنذاك، فإن «رعمسيس الثالث» ضم الكثيرين من هؤلاء الأسرى إلى جيشه كجنود مرتزقة وألحقهم بالحاميات الحدوديّة.

ومن خلال استقراء لوحات مدينة «هابو» الأثرية القديمة، يمكننا التّعرُّف عن قرب على شكل هؤلاء الغُزاة الليبيين، بل ويمكننا تمييزهم فيما بينهم من حيث قبائلهم. ولقد قام «هولشر» بمقارنة «الليبو» الذين غزوا مصر في سنة 1190 ق م بـ «المشواش» الذين اكتسحوها بعدهم في سنة 1188 ق م، بكل

دقّة. ونتبيَّن من ذلك أن الفارق الأساسي بين هذين القومَيْن الليبيّين ينحصر في أن «المشواش» كانوا يستعملون «ساتر العورة»، في حين أن «الليبو» كانوا يرتدون وزْرة تشدُّ وسطهم. وهذا يعني في رأي «هولشر» أن «المشواش» ـ شأنهم شأن «التحنو» ـ كانوا يمارسون سُنَّة الختان؛ في حين أن «الليبو» لم يكونوا يمارسونها. وزيادة على ذلك، فإنه يبدو أن زعماء «المشواش» كانوا قد اتخذوا لأنفسهم زيَّ «التّحنو».

وتقودنا هذه الملاحظات العلمية إلى التوصُّل إلى بعض النتائج، إذا ما قُورنت بتلك المعلومات التي أمدّنا بها المؤلِّفون الكلاسيكيُّون. فالواقع أن هؤلاء المؤلِّفين لم يذكروا لنا قطّ أن الختان كان شائعاً بين الليبيين. وفي المقابل، فإن «هيرودوتس» يعزوا ـ بشكل قاطع ـ سُنَّة الختان لدى الليبيين إلى التأثير المصري والنُّوبي. وإذا صحَّ رأي «هولشر» القائل بوجود علاقة بين «ساتر العورة» وبين الختان، فإن الذي نخلص إليه، هو أن المصريين و«التّحنو» الليبيين قد عرفوهما سويًّا منذ البداية، ما دام كلاهما يظهر في الرسومات العائدة إلى فترة ما قبل التاريخ مرتدياً ساترٍ للعوْرة. وظل «ساتر العورة» فيما بعد لباساً متَّبعاً لدى «التّحنو» وحدهم؛ فيما اختفى استعماله لدى سكان وادي النيل؛ هذا وإنْ استمرّ هؤلاء الأخيرون في ممارسة الختان مع ذلك. وعند وصول الليبيين القادمين من الغرب؛ سواء عن طريق الجنوب أو عن طريق الشمال، فإنه يبدو أن «المشواش» كانوا هم أوّل من استقرَّ في «مراقية» (البطنان) بين ظهرانين «التحنو»، وبالتالي فإنهم ربما اقتبسوا عن هؤلاء ـ ولو جزئياً ـ بعض عاداتهم وبعض شعائرهم، كالختان وربْط الوسط بـ «ساتر العوْرة»، والتشبُّه بزيِّ زعمائهم. أما «الليبو» الذين قدموا إلى المنطقة في زمنٍ لاحقٍ، فلا بد وانهم استقروا إلى الغرب من مرابض «المشواش»، أي في «قورينائية» نفسها، والتي صارت لذلك تسمّى ـ فيما بعد ـ «ليبيا» بالمعنى الكامل للكلمة. وحيث أن «الليبو» لم يكونوا على اتّصال مباشر بـ «التحنو»؛

فإنهم بالتالي لم يقتبسوا عنهم، لا التَّمنْطُق بـ «ساتر العورة»، ولا الختان، ولا زيِّهم الخاص جُملةً. ولم تعرف مصر هؤلاء «الليبو» إلّا فيما ندُر؛ خصوصاً بمناسبة وقوع عمليتيْ الغزو الكبيرتين اللتين اجتاحتا بلاد «التحنو» في سنتيْ 1227ق م، و 1194ق م. ويبدو أن «الليبو» قد اقتصروا، منذ سنة 1188ق م على مجرّد تحريض «المشواش» على غزو مصر، دون أن يتدخّلوا، هم أنفسهم، في ذلك بأعدادٍ كبيرة. ومنذئذٍ، فإن «المشواش»، وحدهم، هم الذين سيمثّلون، في نظر المصريين، العنصر الليبي الذي سيحتكُّون به على نحوٍ دائم. وإذن، فإن «الليبو» ظلُّوا متربصين في الخطوط الخلفية بعيداً عن الحدود الغربية لمصر. وظلّت بلاد «التحنو» القديمة ـ أي مراقية (البطنان) ـ تحت سلطة «المشواش» الذين لن يلبثوا أن تُسْبغ عليهم تسمية الـ «ما»، التي هي اختصار لتسمية «مشواش»، فيتمصّروا تدريجياً نتيجة لتسلّلهم المتواصل إلى وادي النيل.

وهكذا، فإننا إذا ما حاولنا إيجاد صلةٍ بين الأقوام الليبية التي ورد ذكرها في الوثائق الفرعونية، وبين تلك التي تطرّقت إلى الحديث عنها النصوص الإغريقية؛ فإنه يتحتّم، بطبيعة الحال، فيما يتعلق بـ «المشواش» البحث عن هؤلاء في المناطق المجاورة لمصر، حيث أننا متأكّدون من أنّهم قد استقرُّوا هناك بصفة دائمة، على الأقل فيما بين فترة قيام الأسرْ الفرعونية التاسعة عشرة (1320 ق م ـ 1200 ق م)، وبين فترة قيام الأسرة الرابعة والعشرين (730 ق م ـ 715 ق م). والحقيقة أن محاولة بعض العلماء الاستناد على ما توحي به الاشتقاقات اللغويّة التّقْريبيّة، والزُّعْم بأن «المشواش» هم أنفسهم «الماكسويس» الذين ذكرهم «هيرودوتس» واعتبرهم حَضَراً ليبيين استقرّوا في تونس؛ تبدو لي فرضيَّةً لا طائل وراءها. إذْ أنّه ليس هنالك ما يدعو إلى التعجُّب من وجود تشابهٍ بين أسماء الأعلام ـ كما في هذه الحالة، حيث يشبه اسم «مشواش» لغويًّا اسم «ماكسويس» ـ لأنه قد تقودنا ضحالة معارفنا باللّغات

المحليّة القديمة وتذبْذُب كيفيَّات رسْم هذه الأسماء المحليّة باللغتين الهيروغليفية والإغريقية، إلى الاستناد إلى فرضيَّات خادعة ومتكلّفة. وفي المقابل، فإنه في حوْزتنا إشارةٌ إيجابيّة شديدة الوضوح: ذلك أن «هيرودوتس»، في الواقع، يقول بأن الليبيين الأقْرب داراً إلى مصر، والذين كانوا يقطنون «مراقية» في أيامه، هم «الأديرماخيداي»، وبأنهم كانوا شديدي التَّمصُّر. إن هذا الوضع الطبوغرافي، وهذا التَّشرُّب الجزْئي للعادات والأعْراف المصرية ينطبق تماماً على ما نعرفه عن «المشواش». ولذا فإنه يمكننا الإفتراض، بكل ثقة، بأن هؤلاء «المشواش» الذين ورد ذكرهم في النقوش المصرية، هم أنفسهم «الأديرماخيداي» الذين تحدّث عنْهم «هيرودوتس».

وفي نفس الوقت الذي تمكَّن فيه «رعمسيس الثالث» من إنْزال الهزيمة بالليبيين مرتين، نراه يضرب حول الواحات الصحراوية ـ فيما عدا واحة سيوة التي ظلّت دائماً بمنْأىً عن غزواتهم، بالنظر إلى موقعها القصيّ ـ رقابة أشد صرامة من السابق. ولقد ترك احتلال الواحات، على هذه الشاكلة، آثاره في طبائع سكانها، وشاعت فيها عبادة الإله المصري «آمون طيبة» وهكذا فإن عبادة هذا الإله المصري القديم قد تسرَّبت حتى إلى واحة سيوة، حيث صار يقيم بها، منذ تاريخ ما يزال غير معروف، كاهنٌ لاسْتنْبَاءِ وَحْيْ آمون. ويبدو من ملامح هذا الكاهن، كما تنمُّ عنها الرسومات الأثريّة، أنه مصري. ولقد تمكَّن كاهن آمون المذكور من جمْع ثروة طائلة من وراء منصبه الديني هذا في الواحة.

وبالرغم من أن التأثير المصري في ليبيا إبَّان تلك الحقبة كان عميقاً في مجال الدِّين القديم والعادات؛ إلَّا أن خضوع الليبيين للمصريين لم يستمر طويلاً. والحقيقة أنَّ واحةً من أهم واحات مصر الجنوبية، وهي «الواحة الخارجة» قد استُخدمت كمنْفى لليبيين في عهد الأسرة الفرعونية العشرين (1200 ق م ـ 1085 ق م) ذلك أن جماعات من «المشواش» و«الليبو» استمرت

في شنِّ غارات داخل مصر، وساعدتهم في ذلك ظروف انحطاط الحكم المركزي فيها. حيث نرى هؤلاء يتمكنون خلال إحدى غاراتهم من بلوغ أسوار مدينة طيبة نفسها. ولقد تمّ العثور على تماثيل تصوِّر فراعنة مصر وهم يعاقبون هؤلاء المُغيرين ويرْدعوبهم.

ولقد اتّخذ الضغْط الليبي له كذلك شكلاً آخر، وهو وإنْ كان أقل بروزاً للعيان، إلاَّ أنّه ربما كان أكثر فعالية: وتمثَّل هذا الضغط في ذلك التغلغل البطيء الذي شجّعه تجنيد المصريين للمرتزقة في جيوشهم. ذلك أن فراعنة مصر كانوا، ابتداءً من عهد «رعمسيس الثالث»، (1198 ق م ـ 1166 ق م)، قد طفقوا يجنِّدون جيرانهم الليبيين الشجعان هؤلاء، من «مشواش» و «قهق»، في جيوشهم، على نحو تطوُّعيّ في الغالب. وفي عهد الأسرتين: العشرين، (1200 ق م ـ 1085 ق م)، والحادية والعشرين، (1085 ق م ـ 950 ق م) نري «المشواش» ـ وقد تم تجنيدهم في الجيش المصري بأعداد كبيرة ـ يشكّلون في مصر، شيئاً فشيئاً، طبقة عسكرية قوية متنفِّذة. حيث وصل هؤلاء إلى أعلى الرُّتب العسكرية، وكانوا في الغالب يحصلون عوضاً عن الرواتب، على أُعْطيات عيْنيَّة تمثلت في إقطاعهم مساحات من الأراضي. وهكذا، فإننا نراهم يُنْشئون في وادي النيل جاليات عسكرية، يرأس كل منها زعيم ليبي يحمل لقب «كبيرالما»، أي زعيم «المشواش». ويبدو أن هذه الجاليات قد اتّسمت بنقاء الصفات السلاليّة القُحّة، حيث احتفظت بليبيَّتها عبْر الأجيال التالية. ومع ذلك، فإن هذه الجاليات الليبيّة قد تشرَّبت مقوِّمات الحضارة المصرية واْندمجت في ثقافتها.

وساعد انحطاط السلطة المركزية في مصر هؤلاء الزعماء الليبيين المحليين على تأسيس أُسر حاكمة حقيقيّة داخل مصر. وانتهى الأمر بأحد زعماء هذه الأسر الليبيّة، التي نزحت إلى مدينة «هيراقليوبوليس»، الواقعة في مقاطعة «أهناسيا» بإقليم الفيُّوم، بأنْ آعْتلى ـ في ظروفٍ غامضةٍ ـ عرش

الفراعنة، في سنة 950 ق م. ونعني بهذا الزعيم «شيشنق الأوّل»، (950 ق م، 929 ق م)، مؤسِّس الأسرة الثانية والعشرين التي امتدت ابتداءً من سنة 950 ق م وحتى سنة 730 ق م. وهكذا فإننا نجد أن العنصر الليبي المهاجر إلى مصر، قد تمكّن من أن يلعب دوراً قياديًّا في ذلك البلد قُبَيْل مطْلع الألف الأولىٰ قبل الميلاد. فهل يعني هذا أن رابطةً سياسيةً قويةً قد وحّدت، عندئذٍ، ما بين ليبيا وبين وادي النيل؟ . . . الحقيقة أن الأمر هو في غاية الإبْهام والغموض؛ فنحن وإنْ كنّا نعرف جيِّداً أُولئك الليبيين الذين كانوا مقيمين آنذاك بمصر، إلّا أننا، في المقابل، نجهل كل شيء عن ليبيا نفسها خلال تلك الحقبة. والمعروف أن «شيشنق» قد عيَّن ضابطاً من ضبّاطه لينوب عنه في حكم «الواحة الداخلة»، أمّا «الواحة الخارجة» فإن معبد آمون لم يُؤسَّس بها سوى في عهد «دارا الأوّل»، (522 ق م - 485 ق م)، إبّان الاحتلال الفارسي لمصر في عهد الأسرة السابعة والعشرين، (525 ق م - 404 ق م)؛ أمّا «الواحة البحرية» فقد عُثر بها على مُصلّىٰ عبادةٍ يعود إلى زمن «شيشنق الأوّل»، كما تم العثور على ألواح ترجع إلى عهد الملك «شاباكا» (= نفركارع)، الذي حكم ما بين سنة 716 ق م وبين سنة 695 ق م، وهو من ملوك الأسرة الخامسة والعشرين التي عمَّرت ما بين سنة 715 ق م وبين سنة 656 ق م. ويسرد لنا الجغرافي الإغريقي «سترابو» فتوحات «طهرق» (= نفرتمخورع)، الذي حكم ما بين سنة 690 ق م وبين سنة 664 ق م، وهي الفتوحات التي توغّلت إلى الغرب. ولهذا، فإن العالِم الألماني «لبسيوس»، ومِنْ بعده العالِم الألماني الآخر «شتايْندروف» قد حاولا عَزْوَ احتلالِ واحة سيوة إلى الفترة النُّوبية للأسرة الثانية والعشرين. بيْد أنّه لم يُعْثَر بعدُ بين الأثار القديمة في هذه الواحة على أيٍّ نقشٍ سابقٍ على فترة حكم الملك «أخورس»، الذي حكَم للفترة ما بين سنة 392 ق م وبين سنة 380 ق م، وهو من ملوك الأسرة التاسعة والعشرين التي قامت ما بين سنة 398 ق م، وبين سنة 378 ق م. وهنالك أمر غريب يجدر بنا أن نتطرّق إليه هنا، وهو أننا نعثر في

لوحة تعود إلى عهد «شيشنق» تتضمّن أسماء الأقْوام الليبيّة ـ وهي لوحة تُطلق عليها تسمية «لوحة الأقوام التسعة» ـ على تسمية «الريبو» التي حلَّت في هذه اللوحة محل الاسم التقليدي «التّحنو»، إشارة إلى الليبيين. غير أن الوضع الراهن للدراسات القديمة لا يسمح بعدُ بالجزْم بأن هذا الاستبدال في التسمية يعكس أيَّة دلالة خاصة.

والواقع أن نُدْرة الوثائق العائدة إلى تلك الفترة تجعلنا نكاد نجهل تاريخ ليبيا كليَّةً فيما يخصُّ النصف الأوّل من الألف الأولىٰ قبل الميلاد برمَّته. ومع ذلك فإنه بإمكاننا أن نستنتج ـ دون مغبَّة الوقوع في الزّلل كثيراً ـ أن الملوك الليبيين والنوبيين والصاويين، الذين كانت قد جابهتهم إبَّان حكمهم لمصر مشاغل عاجلة ومُلِحّة؛ إمَّا داخل مصر نفسها، وإمَّا على حدودها الشرقيّة أو الجنوبية، لم يتوفّر لديهم الوقت الكافي لتوسيع دولتهم المصرية بآتجاه المناطق الغرْبية الليبيّة القاحلة التي لم يتمكن حتى أقوى أسلافهم، من الملوك المصريين أنفسهم، من إخضاعها، اللَّهمَّ إلاَّ إسميًّا بالكاد. بل وعلى العكس من ذلك، فإن جميع القرائن تشير إلى أن الليبيين كانوا ينْعمون في بلادهم باستقلالية كبيرة آنذاك. وكل ما يمكن أن يُقَال في هذا الصَّدد هو أن بعض زعماء الليبيين كانت تربطهم بفراعنة مصر بعض وشائج الولاء الصُّوري. ونحن نعرف أنّه كانت توجد في عهد الملك «شيشنق الرابع»، الذي حكم مصر ما بين سنة 763 ق م وبين سنة 757 ق م ـ إبَّان فترة الأسرة الثالثة والعشرين التي امتد قيامها ما بين سنة 817 ق م، وبين سنة 730 ق م ـ شخصية تدعى «حيتيحنكر»، وصفَتْها إحدى الوثائق بـ «كبير الليبو ـ وزعيم المـا». والحقيقة أن ما نستشفُّه هنا من وجوْد بعض الولاء الصوري الليبي تجاه فراعنة مصر في تلك الحقبة، يكفي لفهْم السبب في أنّه حدث في حوالي سنة 570 ق م، وأنْ استنْجد الليبيُّون في «قوريناثية» بملك مصر المسمى «أبريس» (= واح إيب رع)، الذي حكم مصر ما بين سنة 588 ق م وبين سنة 568 ق م ـ وهو من ملوك

الأسرة السادسة والعشرين التي قامت ما بين سنة 663 ق م، وبين سنة 525 ق م ـ طالبين منه العوْن والحماية ضد المستعمرين الإغريق الذين استولوا من هؤلاء على أراضيهم، كما سيأتي ذكره في فصْل تالٍ. غير أنه يُستشفُّ من رواية «هيرودوتس» أن الملك أو الزعيم الليبي «أديكران»[1] لم يكن قبل إلْتماسه العوْن من فرعون مصر، يعتبر نفسه تابعاً له ألبتَّة. كذلك فإنه عندما يصف «هيرودوتس» لنا خضوع الليبيين لـ «قمبيز الفارسي»، الذي حكم ما بين سنة 525 ق م، وبين سنة 522 ق م ـ (الأسرة السابعة والعشرون التي حكمت مصر حكماً فارسياً امتدَّ ما بين سنة 525 ق م، وبين سنة 330 ق م) ـ فإن هذا المؤرِّخ الكبير لا يصنِّف لنا هؤلاء على أنّهم شعب تابع لمصر التي كان يحتلّها «قمبيز»، وإنّما يعْزو خضوعهم لهذا الملك الفارسي إلى قرار طوْعي اتخذوه بمحْض إرادتهم، وهو موقف اتّخذه كذلك المعمِّرون الإغريق في «قوريني».

إن إستقلالية ليبيا هذه تجاه مصر، هي السبب في أن حملات «قمبيز» الفارسي، ومرْزبانه الحاكم آنئذٍ في مصر المسمى «أرياندس»، ضد ليبيا ـ وهي الحملات التي اطلعتنا عليها النُصوص القديمة النادرة ـ قد قُوبلت من جانب القبائل الليبيّة بمقاومة شديدة. فإن أحداً لم يكن لِيَأْمن عبور مسالك الصحراء الغربية بسبب الهجمات المباغتة التي كانت تشنُّها تلك القبائل الليبيّة على كُلّ من يجْرأ على عبور تلك الصحراء. وهذا يجعلنا نتشكّك في جدوىٰ تلك النتائج التي خلُصت إليها نظريةٌ صيغت مؤخراً حول الطُّرُق التجارية عبْرِ الشمال الغربي لأفريقيا.

ولقد صيغت النظرية المذكورة في مقالٍ طريفٍ صدر في سنة 1939 م، عنوانه «التجارة بين الإغريق ومصر قبل عصر الإسكندر المقدوني»، حيث

---

(1) كان «أديكران» عندئذ شيخ قبيلة «الأسبوستايْ» التي كانت تقطن في غربي درنة في منطقة تمتد في داخل البلاد بعيداً عن الساحل حتى مدينة «قوريني».

يذهب صاحب المقال «ج. ميلن» في مقاله ذاك إلى أنّ الغزْو الأشوري لمصر في سنة 671 ق م، قد أحدث تحوُّلات هامة في اتجاهات طُرُق القوافل التجارية التي كانت تمرّ بوادي النيل. ويعتقد صاحب المقال المذكور بأن قيام ملك آشور «آشورحدون» بغزو مصر، ثم ما أعقب ذلك من موته وتولّي ابنه «آشوربانيبال» من بعده العرش الآشوري، حيث حاصر مدينة «طيبة» سنة 663 ق م؛ كان من نتائجه قطْع الاتصالات التجارية الاعتيادية في مصر بين الوجه البحري وبين الوجه القبْلي، وأخذت البضائع ـ التي كانت تُشحن عادة في مراكب تعبر بها وادي النيل بآتّجاه البحر الأبيض المتوسط ـ تُنقل نحو هذا البحر عبر طُرُق أخرى غير النيل. ولقد حدث ذلك خصوصاً بالنسبة لمنتجات السودان التي يفترض صاحب المقال أنّها صارت تُمَرَّر عبر طريق جديد نحو الغرب، وأنها أخذت تُنقل عبر الصحراء بواسطة القوافل التي كانت تعبر بها طريق الواحات المتّجهة صوْب «بارايتونيوم» (= مرسي مطروح). ويرى «ميلن» في مقاله المذكور أن الطريق التجاري الجديد قد جذب الانتباه نحو الساحل الليبي، معتقداً بأنّه كان له تأثير في نشأة وتطور الاستعمار الإغريقي في «قورينائيّة».

وإذا كانت نظرية «ميلن» هذه تسْتهْوي المرء للوهلة الأولىٰ وتُغْريه بقُبولها، إلّا أنها تستند في الحقيقة على فرضيات تعسُّفيّة أصلاً: أوّلاً، لأنه لا يبدو أن حركة القوافل كانت بمثل هذه الكثافة إبّان الفترة التاريخية محل الدراسة؛ فآنْعدام الأمْن في الصحراء كان كبيراً، مثلما لاحظنا أعلاه، وذلك بالنظر إلى عدم وجود أيّة رقابة على المسالك الصحراوية وفي الواحات. وثانياً، لأنه لا وجود لنصوصٍ قديمةٍ أو لأية كشوف أثرية من شأنها تأييد الفرضية التي تزْعم بوجود مبادلات تجارية بين العالَم الإغريقي القديم وبين الساحل الليبي. كما أنّه لا وجود لأيّة سلعٍ أفريقية جديرة فعلاً بأن تتجشّم القوافل من أجلها عناء ومخاطر عبور هذا الطريق الصحراوي الطويل والملتوي، الذي تخيّله «ميلن»

في مقاله، كي تسلِّمها في نهاية المطاف إلى المراكب الإغريقية القادمة إلى ذلك الساحل. لقد اشتهرت أفريقيا فعلاً، منذ أقدم العصور بتصدير العاج والذهب، بواسطة تجارة القوافل؛ لكن الذي نعرفه كذلك هو أن بلاد الإغريق القديمة كانت تستورد حاجتها من هاتين البضاعتين من آسيا. كذلك، فإن أيًّا من المؤرخين القدماء لم يحدِّثنا عن قيام محطّات تجارية، في القِدَم، على شواطىء «مراقية» (البطنان). أمَّا فيما يتعلّق بمدينة «قوريني» نفسها، فقد كانت بالدرجة الأولى مستعمرة زراعية لا ميناءً تجاريًّا؛ بل إنها لا تقع على شاطىء البحر أصلاً. ثم أنَّ «قوريناثية» (= برقة) لم تُعتبر قطّ منْفذاً طبيعيًّا لتصدير البضائع المجلوبة بواسطة القوافل من الواحات. ذلك أنه لكي تصل هذه القوافل التجارية إلى هضبة «قوريناثية»، كان يتوجَّب عليها ـ تفادياً للموانع التضاريسيّة ـ القيام بعملية الْتِفافٍ يبلغ طولها عدة مئات من الكيلومترات. ولم يكن الأمر ليستحق كل هذا العناء وهذا التّرْحال عبر طُرُق ملتوية، فعْلاً، إلاّ في أعقاب استيطان الإغريق في «قوريناثية» وظهور مدن غاصَّة بالسكان فيها؛ صارت منذئذٍ تُغْري القوافل التجارية بآرْتِيادها. فلِمَا كل هذا العناء؟ بينما مصر كانت في تلك الفترة قد استعادت وحدتها وأمْنها الداخلي منذ أَمَدٍ طويل تحت حكم الملوك الصاويين ومن بعدهم تحت السيطرة الفارسية؟؛ ولذا فإنه لم يَعُد هنالك من سببٍ يمكن أن يكون قد حمل القوافل التجارية القادمة من الجنوب على سلوك الطُّرُق الصحراوية المُلْتوية والمحفوفة بالمخاطر، في «قوريناثية»! بدلاً من جعْل بضائعها الأفريقية تعبر نهر النيل في مراكب تنقلها حتى الشاطىء المصري المطلّ على البحر الأبيض المتوسط.

وإذن، فإنه يتحتم طرْح نظرية «ميلن» هذه جانباً؛ إذْ أنه لا يبدو أَنَّ أيّة مبادلات تجارية كبيرة قد نشأت على سواحل ليبيا بين العالَمين الإغريقي والأفريقي، بحيث يُزْعم أَنَّ هذا هو السبب الذي أسهم في استقطاب الاستعمار الهلِّينستي إليها. إنَّ الوثائق الإغريقية الوحيدة التي دُوِّنت قبل

تأسيس قوريني الإغريقية، وتتحدّث عن ليبيا، تنْحصر في أشعار «هوميروس»؛ هذا، وإنْ كان ذلك الشاعر لا يذكر عن هذا البلد شيئاً ذي بال. بل إنَّ اسم «ليبيا» لا يَرِد في أشعاره سوى مرَّتيْن، في ملحمة «الأوديسًا» الأسطورية. ففي الفصل الرابع من هذه الملحمة ـ الفقرة الخامسة والثمانون وما بعدها ـ يسْرُد علينا «هوميروس» حديثاً جرى بين إثنين من شخصيات ملحمته، حيث نرى «مينيلاوس»[1] يعدِّد لـ «تيليماخ»[2] ـ ابن «أوديسيوس»، ملك جزيرة «إيثاكة» ـ البُلدان التي زارها خلال أسفاره الطويلة التي كانت محفوفة بالمخاطر؛ حيث يذكر أنّه بعدما زار النوبيين، واحتكّ بأهل «صيدا» الفينيقيين، وبالعرب، فإنه توجَّه إلى: «.. ليبيا التي تولد فيها الخرفان بقرونها. وتُنْجِب فيها النِّعاج ثلاث مرّات في السنة، وهي بلاد لا تمسُّ فيها المسْغَبةُ أحداً، سواء كان سيِّداً أم راعياً؛ فخيْراتها؛ من جُبْن ولحم ولبن، جَمَّةٌ، وشِيَاهُ قُطْعانها تَدِرُّ على الدوام لبناً لا ينْضب له معين..»[3].

---

(1) بحسب «الأوديسًا»، فإن «مينيلاوس» هو ملك إسبرطة، وشقيق بطل حرب طروادة «أغاميمنون». ولقد حدث وأنْ دعا الملك «مينيلاوس» الراعي الوسيم «باريس بن بريام» إلى مأدبة فاخرة، حيث وقع نظر «باريس» على زوجة هذا الملك «هيلانة» ذات الجمال الأخّاذ، فأغواها ووقعت في حبّه. ثم اضطر «مينيلاوس» إلى السفر إلى كريت فجأة، فأوْصى «هيلانة» بأن تعتني بضيفه أثناء غيابه. واستغلَّ «باريس» هذا الظَّرْف فأقنع «هيلانة» بهجْر زوجها والفرار معه إلى طروادة، فوافقت وأقلعت معه على ظهر مركبه بمساعدة الإلهة «أفروديت». وأبْلغت الآلهةُ الملكَ المخدوع بفعْلة «هيلانة» مع ضيفه الطروادي «باريس»، فحنق لذلك وقرَّر هو وشقيقه «أغاممنون» دعوة أبطال أسبرطة للقصاص من «باريس» وإعلان الحرب على طروادة. فكان ذلك سبباً في نشوب حرب طروادة الشهيرة التي أثبت فيها «مينيلاوس» شجاعة نادرة وقدرة على تحمّل المشاقّ.

(2) «تيليماخ» هو ابن «أوديسيوس» أحد أبطال حرب طروادة. وكان «تيليماخ» قد قدم إلى إسبرطة بحثاً عن والده «أوديسيوس» صاحب خدْعة الحصان الخشبي في تلك الحرب. وفي أثناء تجواله ذاك دبّر الطامعون في الزواج من أمه «بينيلوبي» خطة للغدر به.

(3) ما بين القوسين هنا هو النص الحرفي المقتطع من «الأوديسًا» الذي ذُكرت فيه ليبيا لأوّل مرة.

أمّا في الفصْل الرابع عشر، الفقرة رقم 295 وما بعدها من «الأوديسّا»، فإننا نجد الملك «أوديسيوس» يروي لراعي الخنازير «إيوميوس» قصصاً ومغامرات خياليّة مُلفَّقة كان يحاول جاهداً إضفاء طابع الإمْكان عليها[1]، حيث يقول هذا الملك إنّه بعدما تم أسْره أثناء إحدى غارات القراصنة البحْريين على سواحل مصر؛ فإنه تمكّن من الهرب صُحْبة شخصٍ فينيقي، توجّه به أوّلاً إلى بلاده فينيقيا، ثم عرض عليه أنْ يصطحبه إلى «ليبيا»، حيث كان هذا الشخص يُضْمر - فيما اعتقدَ «أوديسيوس» نفسه - بيْعه هناك في سوق النخاسة. غير أنَّ مركبهما جنحت بهما عند مياه جزيرة كريت[2].

وإذا ما تمعنّا جيِّداً في هذيْن النَّصيْن المقْتضبين من نصوص «أوديسا» «هوميروس»، اللذيْن ذُكرتْ فيهما القارَّة الأفريقية؛ نجد أنَّ ثانيهما يُلمِّح،

(1) لتسهيل فهم متن المؤلِّف «شامو» الوارد أعلاه، دَعُونا نشرح الأمر بالرجوع إلى نصوص «الأوديسًا» نفسها: تقول «أوديًسا» «هوميروس» إنَّ الملك «أوديسيوس» كان مُتغيِّباً لمدة ثمان سنوات عن جزيرته «إيثاكة»، حيث كانت الحورية «كاليبسو»، التي دفعتها شدة تعلّقها به وحبها له إلى اعتقاله في جزيرتها «أوجيجيا». وبعدما عانى «أوديسيوس» هذا أهوالاً شديدة، تمكَّن أخيراً من الرجوع إلى جزيرة «إيثاكة»، حيث الْتقى بالإلهة «أثينابالاس» إلهة الفكر عند الإغريق - والتي كانت تحدب عليه وتسعى إلى مساعدته ورأت هذه الإلهة أنه يتحتّم عليه عند وصوله إلى «إيثاكة» أن يظهر فيها في البداية على هيئة شحّاذ متقدّم في السِّنّ؛ ولذا فإننا نراها تلْمس صوْلجان الألوهيَّة الذي بيدها، حيث أدّى ذلك إلى مسْخ «أوديسيوس» فتحوَّل إلى شيخ مُسِنٍّ، أصلع الرأس، رثّ الثياب. وبعدها التقى بخادمه وراعي خنازيره في جزيرة «إيثاكة» المسمى «إيوميوس»، بينما «أوديسوس» على تلك الهيئة التي أرادتها الإلهة «أثينا»؛ ولذا فإن الراعي المذكور لم يتمكن من التعرُّف عليه. وعندئذ تجاذب معه أوديسيوس أطراف الحديث وأخذ يحدِّثه عن مغامراته الوهميَّة التي ورد فيها اسم ليبيا.

(2) يقول نص «الأوديسًا» على لسان «أوديسيوس» الممسوخ في هيئة شحّاذ، وهو يروي مغامراته الوهميَّة لراعي الخنازير، ما يلي:

«.. وفي السنة الثامنة، قدم تاجر فينيقي، فأغْراني بالذهاب معه إلى بلده، وأقمتُ هناك سنة، حملني بعدها في مركب إلى ليبيا، وعزم أن يبيعني بيْع الرقيق؛ ولكن الإله زيوس حطَّم المركب، فلم ينْج منها سواي أحد».

بطبيعة الحال، إلى قرطاجة، وإلى الاستيطان الفينيقي في تونس. ولذا فإنه لا يتحتم أن يَشُدَّ هذا النصُّ اهتمامنا هنا، فإنه لا يعْنينا، لأن كلمة «ليبيا» فيه تعني «أفريقيا». كذلك، فإنّه علينا ألاّ نأْبه بتلك الفقرة التي وردت في «الأوديسّا» أيضاً، والتي يتحدّث فيها «هوميروس» عن «اللوتوفاجيين»[1]؛ أي أَكَلَةُ النَّبق أو اللوتس. وعلى العكس من ذلك، فإن ما ذكره «هوميروس» على لسان الملك «مينيلاوس» ـ وهو أوّل النصّيْن اللذيْن اقتطفناهما أعلاه من «الأوديسًّا» ـ نراه ينطبق بالتأكيد على شرقي ليبيا، أي على منطقة «مراقية»، أو على «قوريناثية» برُمَّتها؛ وهو من هذه الزاوية، له دلالته الكبيرة، لأن الإشارة الوحيدة التي يتضمّنها هذا النص، ولها علاقة بمراقية وقوريناثية، هو أنَّ هاتين المنطقتين كانتا تأْويان رعاة يحصلون من قطعان ماشيتهم على كل احتياجاتهم. فهذه الإشارة الواردة في «الأوديسًّا»، كانت بالتأكيد صحيحة. هذا وإنْ كانت تشوبها تفاصيل خرافية حول تكرُّر إخْصاب نعاج «مراقية» عدّة مرّات في السنة، وهو أمرٌ يعتبر أعجوبة لا يمكن تصديقها. وإذن، فإن ليبيا، وإنْ لم تكن مجهولة للإغريق في أيّام شاعرهم «هوميروس»[2] تماماً ـ سواءً كانت معرفتهم بها مباشرة، أم أنهم سمعوا عنها بواسطة المصريين ـ إلاَّ أنّها ظلّت خارج نطاق اهتماماتهم الاعتيادية. ولكي يدرك المرء مدى عدم اكتراث الإغريق آنذاك بليبيا، فما عليه سوى أنْ يعقد مقارنة بين إشارة «هوميروس» الخاطفة عن ليبيا كما وردت في «الأوديسًّا»، وبين المكانة الهامَّة التي احتلتها مصر في أبيات

---

(1) «اللوتوفاجيون» هم قبيلة ليبية كانت تقيم ما بين «وادي كعام» وبين ما يقابل جزيرة جرْبة على الساحل التونسي.

(2) «هوميروس» هو أعظم شعراء الإغريق، والذي تُنسب إليه ملحمتا «الأوديسًّا» و«الإلياذة». ويكتنف الغموض سيرة حياته، إذْ لا يعرف أحد بالتأكيد تاريخ ميلاده وموْقع رأسه أو مكان وفاته، ولكن يُعتقد عموماً أنّه عاش في القرن الثامن ق م. ويُقال أنّه كان ضريراً. ولقد أدّى الجهل بتاريخ حياته وبموْطنه إلى الشك حتى في وجوده أصلاً، ويرى البعض أنّه من الخطأ نسبة «الأوديسا» و«الإلياذة» إليه من حيث أنه شخصية وهميّة.

ملحمته هذه. وعلى المرء كذلك أن ينظر في مكانة مصر أيضاً في مجال العلاقات التجارية، وفي حضارة العالم الإيجي خلال القرون الأولىٰ من الألف الأولىٰ قبل الميلاد؛ وهو أمر أيَّدته المكتشفات الأثرية أيضاً.

والحقُّ أنَّ رحلة الملك «مينيلاوس» الأسطورية، التي صاغها «هوميروس» في أودسَّته شعراً، قد تركت آثاراً لُغويّة في التّسْميات الجغرافية الهِلِّينيّة لنقاط الساحل الليبي. فـ «هيـرودوتس» الذي قصَّ عليـه الكهنة الفـراعنة، من جانبهم، أسطورة مغامرات الملك «مينيلاوس» في مصر، يذكر في تاريخه أنَّ هذا البطل الإغريقي الاسطوري قد هرب إلى ليبيا. كما يشير «هيرودوتس» في فقرة أخرى من كتابه إلى وجود ميناء يسمّى «ميناء مينيلاوس» وأنّه كان يقع في المنطقة التي تسكنها آنئذٍ قبيلة «الجيليجاماي» الليبيّة، قُرْب خليج «بمبا»، أي غير بعيد عن طرف «قورينائية» الشرقي. وهذه الإشارة تجد لها تأكيداً في كتابات قُدامىٰ الجغرافيين، من أمثال «سكيلاكس المنحول»، و «سترابو»، و «بلوتارخوس»[1].

فهل يتوجَّب اعتبارُ إضفاءِ اسم «مينيلاوس» الإغريقي على ذلك الميناء الليبي القديم دليلاً على أن الإغريق قد احتلُّوا إقليم «قورينائية» في زمنٍ سابقٍ على استعمارهم لها في عهد الملوك الباطيين؟.. إنني أعتقد أن الذي يذهب إلى هذا الرأي مُخْطيء. ذلك أنَّ «مينيلاوس» كان البطل الإغريقي الوحيد الذي يُفترض أنّه تجوَّل على طول هذا الساحل القورينائي شبه المهجور آنذاك. وإذنْ، فإنه ليس من المُسْتبعد أن يفكِّر ربابنة سفنِ إغريق، شاءت الرياح بِصُدفها مرةً أن تجْنح مراكبهم إلى إحدى نقاط ساحـل «مراقيـة» (البطنان)، التي لم يكن أهلها قد ميَّزوها بأيّة تسمية ثابتة، فيما يبدو، فلم يجد

---

(1) وُلد «بلوتارخوس» سنة 46م، وتوفي سنة 120م وهو مؤرِّخ إغريقي وفيلسوف، وأهم مؤلَّفاته: «التراجم ـ VITAE»؛ و «الأخلاقيّات ـ MORALIA».

هؤلاء الربابنة الإغريق بُدًّا من إضْفاء اسم شخصية «مينيلاوس» الأسطورية - الذي ذكر «هوميروس» في أوديسَّته أنه سبقهم إلى ليبيا - على تلك النقطة الهامة من ساحل «مراقية»، التي استطاعت مراكبهم الخفيفة أن تجد عندها ملاذاً يحميها من الرياح العاتية. وبالمثل، فإنَّ أمثال هؤلاء الرَّبابنة الإغريق هم الذين أطلقوا تسمية «صخور تيندار» على حشفات «الشاعلة» البارزة النّتوء، والتي تُشكّل على بُعد حوالي اثنين من الكيلومترات من الساحل، عقبة طبيعيةً خطرةً، طولها حوالي عشرة أميال، وتقع على بُعد ستين كيلومتراً غربي مدينة «مرسى مطروح». ولا شك كذلك في أنّه تعود إلى رصيد المورْوث الخرافي الإغريقي - الذي ظل حيًّا حتى الفترة الرومانية - تسميةُ نقطة «ميخيرا سيڤا إلين» التي كانت قائمة فيما بين «طبرق» و«خليج بمبا». وهكذا يتّضح لنا أن الخيال الشعبي المحْض هو الذي أسْبغ أحياناً على بعض المواقع الجغرافية تسميات اتفاقية، من العبث أن نحاول، تعسُّفاً، البحث لها عن جذور فعْلية في الواقع.

ويتبقّى أمامنا الآن النظر في أمرٍ فريدٍ في نوعه، ويستحيل علينا حالياً تقدير مدى أهميته الفعلية؛ ونعني به احتمال قيام مستعمرات إغريقية في منطقة الواحات، وهو أمر أيَّدته شهادة «هيرودوتس»، منذ قديم الزمان. فالواقع أن هذا المؤرخ - أثناء حديثه عن المحاولة التي قام بها «قمبيز» الفارسي لاحتلال «سيوة - واحة آمون» - قد كتب يقول:

«.. تحركت الحملة المُرْسلة ضد الأمونيين [سكّان واحة سيوة] من طيبة، خلف الأدِلاَّء. ومن الثابت أن الحملة وصلت إلى مدينة الواحة التي تقطنها جالية أصلها من جزيرة ساموس. وتنتمي هذه الجالية، فيما يُقال، إلى قبيلة الأيسخريونيين. وإنّ مدينة الواحة هذه تقع في الصحراء على مسيرة سبعة أيّام من طيبة. ويُعرف هذا الإقليم في اللغة الإغريقية باسم جزيرة الطوباويين. ويُقال إنَّ جيش الحملة قد وصل إلى ذلك المكان، لكننا إذا ما طرحْنا جانباً رواية الأمونيين [السيويين]، فإن أحداً لا يعرف مصير ذلك الجيش

بعد ذلك؛ لأنه لم يصل إلى سيوة، كما أنّه لم يُقْفِل راجعاً. أمّا الأمونيُّون أهل سيوة أنفسهُم فإنهم يذكرون ما يلي: أن الحملة، بعدما غادرت هذه الواحة، أخذت تتقدّم نحوهم عبر الصحراء، حتى وصلت إلى منتصف الطريق تقريباً، وعندها بدأت تهبُّ عليهم، ساعة الغداء، رياح الجنوب بعنفٍ شديد؛ فثارت زوْبعة ردمت رمالُها جيشَ الحملة، فقُضي عليه».

ولا أحد يشكُّ في أنّه يمكن لجيش من الجيوش أن يُباد إبادة شبه كاملة إذا ما كُتب عليه أن يتُوه في الصحراء. غير أن المعضلة هنا تتمثّل في تحديد موقع «جزيرة الطوباويين»، التي هي «الواحة» عند «هيرودوتس». ويرى المتخصِّصون بأن المقصود بهذه هي: «الواحة الخارجة الكبرى»، التي هي أقصى واحات الصحراء الغربية إلى جهة الجنوب، والتي تقع فعلاً على بعد حوالي مسيرة أسبوع غربي طيبة، أي ما يعادل أكثر بقليل من مائتيْ كيلومتر على خطٍ مستقيم. ولكن الأمر المستغرب في حدّ ذاته هو في الحقيقة التفكيرُ في إرسالِ حملة عسكرية ضد واحة سيوة، إنطلاقاً من مدينة طيبة البعيدة؛ ذلك أن الطريق الاعتيادي الذي يربط وادي النيل بسيوة يبدأ عند مدينة «هيراقليوبوليس»، بمقاطعة «أهناسيا»، الواقعة جنوبي الفيُّوم بقليل، ثم يمرّ هذا الطريق بالواحة البحرية الصغيرة. وهذه الواحة الأخيرة تفصلها هي الأخرى نفس المسافة التي تفْصل الواحة الخارجة عن النيل. وإذن، يمكننا، في اعتقادي، أن نعْزُو إلى «قمبيز» الفارسي ـ الذي تنمُّ كل تصرّفاته وتُوحي جميع خططه في مصر عن فطْنةٍ وتبصُّرٍ بالأمور ـ هذه الخطة الأخيرة، القاضية بانطلاق الحملة من «هيراقليوبوليس»، وليس من «طيبة»، عبر الواحة البحرية، وليس عبر الواحة الخارجة؛ لأنها الخطة الأكثر واقعية والأرجح من القول بخروج الحملة من طيبة عبر طريق لا نهاية لها وتحفُّ بها المخاطر، وتمرُّ في مسارها نحْو سيوة عبر جميع الواحات الواقعة في الصحراء الغربية. إذْ من المحتمل جداً أن يكون «هيرودوتس» نفسه هو الذي وقع في خطأ، لعلَّ الذي

أوقعه فيه هو ما عُرِف عنه من جهلٍ كبير بجغرافية الصحراء. وفي هذه الحالة، فإنه يبدو لنا أنَّ «جزيرة الطوباويين» التي ذكرها هذا المؤرِّخ، هي «الواحة البحرية» وليست «الواحة الخارجة».

وعلى أيّة حال، فإنَّ الكشوفات الأثرية المُسْتقبلة هي وحدها التي سيكون لها القول الفصْل في هذا الخصوص، في يومٍ من الأيام؛ وعندها سنعرف عن يقين، ما إذا كانت «جزيرة الطوباويين» هي بعيْنها الواحة البحرية أم أنّها هي الواحة الخارجة. والمهمُّ هنا هو أنَّ نص «هيرودوتس»، الوارد أعلاه، يشهد بوجود جالية إغريقية متجانسة كانت تقيم في إحدى واحات الصحراء الغربيّة منذ القرن السادس قبل الميلاد. وهنالك تفصيلان يُضْفيان على شهادة هذا المؤرِّخ بعض الصحَّة، ويتمثّل أوّلهما في تلك الإيضاحات التي أوْردها «هيرودوتس» نفسه حول الجالية المذكورة؛ أي عندما قال بأنَّ أصل هؤلاء الإغريق ينبع من جزيرة «ساموس» وبأنّهم ينتمون إلى قبيلة «الأيسخريونيين». ويتمثّل ثانيهما في حقيقة أنَّ الواحة المذكورة تحمل تسمية إغريقيّة متميِّزة عن التسمية المصرية لنفس هذه الواحة. وهكذا نرى أن السامونيين الإغريق، الذين كانوا في الأصل مقيمين في «نوقراطيس»[1] ـ والذين قيل إنه كانت لهم علاقات كبيرة بإغريق «قوريني» ـ قد أقاموا لهم مستعمرة في قلب الصحراء في ذلك الزمن. وهي أقرب إلى مستعمرة حربية مكوّنة من عناصر من الجيوش الصاويَّة، أكثر من كونها محطة تجارية، لأن قيامها في ذلك القفْر النائي يجعلنا نتساءل عن نوعية السلع التي يمكن أن نتصوّر أنّها كانت تُتاجر فيها، ومع مَنْ كانت تتاجر؟.. غير أن سحر هذه الواحة وجمالها ـ وهو أمرٌ بُولِغَ فيه بسببٍ من موقعها القصيّ وبسببٍ من الوحشة القاتلة التي كانت تلفُّها ـ قد حمل إغريق

(1) نوقراطيس هي مدينة قديمة تقع مكانها اليوم بلدة «كوم جيف» المصرية القريبة من قرية «نقراش». وتلاحظ مدى التشابه اللفظي بين الاسم القديم «نوقراطيس» وبين الاسم الحالي للقرية المصرية وهو «نقراش».

مصر على إضْفاء تسمية «جزيرة الطوباويين» عليها؛ وهي التسمية التي تحمل أصداءً لِجَنَّةٍ أسطوريَّة تنتمي إلى العَالَم الآخر: أفلم تكن هذه الواحة الوارِفة الظِّلال بالفعل، جَنَّة مفقودة وسط فيافي الصحراء الغرْبية في «بلاد الموتى» - كما يقول المؤرِّخ والجغرافي الإغريقي: «هيكاتيوس الملطـي»[1]؟.

إن قيام مستعمرة إغريقيّة في واحة من الواحات الصحراوية يحملنا على الإلْتِفات أكثر إلى أمرٍ غريب آخر ألمعت إليه رواية «هرودوتس»: ففي سياق حديث هذا المؤرِّخ عن عجائب أواسط أفريقيا، نراه يسوق لنا فحْوى ما أخبره به إغريق «قوريني» حول حديث كان قد جرى بينهم وبين ملك الآمونيين المسمى «إتيآرخوس». وكما هو واضح، فإنَّ اسم هذا الملك يُعدُّ اسماً إغريقيًّا قُحًّا، وليس من الأسماء المصرية أو الليبيّـة القديمـة. وهذا أمـر جديـر بالملاحظة، خصوصاً وأن «هيرودوتس» يحرص في العادة على رسم الأسماء غير الإغريقية - من فارسية ومصرية وليبيّة - بمثل ما تُنْطق به في لغاتها الأصلية. وإذن، فإنه من غير المُسْتبعد أن يكون «إتيآرخوس» هذا إغريقي بالفعل، كان قد قدم إلى واحة سيوة إمَّا من «قوريني» وَإمَّا من مصر، قُبَيْل منتصف القرن الخامس قبل الميلاد؛ حيث نصَّبه سكان هذه الواحة - من ليبيين ومصريين ونوبيين - ملكاً عليهم؛ وذلك في وقت لم يكن فيه هذا الخليط من سكّان الواحة قد بدأوا في عبادة الإله «آمون» سوى منذ ستين أو ثمانين سنة فقط. وفي ذلك دلالة على مدى تغلغل الإغريق في جميع أطراف البلاد المصرية قديماً. وصَدَقَ المثل المصري القائل: «كلَّما زحزحتَ في الصحراءِ حجراً، عثرت تحته على عقربٍ وإلى جانبه إغريقي»[2]!.

---

(1) هو مؤرِّخ وجغرافي إغريقي عاش قبل «هيرودوتس»، وزارمصر لجمْع مادةً لكتابـه: «حول الأرض»، وله من المؤلَّفات كذلك: «كتاب التواريخ».

(2) كنتُ أودُّ إيراد هذا المثل في لهجته المصرية الظريفة، ولكنني لم أعثر له على ذكر حتى في كتاب «الأمثال العامية المصرية» للعلاَّمة أحمد تيْمور.

غير أنّنا باستطرادنا إلى ذكر ملك سيوة «إتيآرخوس» وإلى ذكر مستعمرة الإغريق الساميين في «جزيرة الطوباويين»، نجدنا قد تجاوزنا كثيراً ذلك النطاق التاريخي الذي يفْرضه علينا احترام الزمن الذي أنشئت فيه مدينة «قوريني» الليبيّة؛ أيّ النصف الثاني من القرن السابع قبل الميلاد. ولذا فقد حان الوقت الآن لتلخيص المعلومات التي تجمّعت لدينا ـ بفضْل استقراء الوثائق المصرية والوثائق الإغريقيّة ـ حول هذا الإقليم الواسع والغامض الذي ستُنشىء فيه حفْنة من المهاجرين القادمين من الجزر الإغريقية البعيدة، مدينة تعتبر من أغنى مدن العالم القديم.

في تلك الحقبة، كان يسكن الهضبة القورينائية وفيافي وسهوب مراقية (البطنان) وواحات الصحراء الليبيّة، خليط من السكّان الذين امتزج فيهم العِرْقُ الحامي الأفريقي الأسمر القديم، بسلالة الأمازيغ الفاتحة البشرة. وكانت تتقاسم الإقليم أقوام وقبائل متعدّدة، كانت تلتفُّ حول زعمائها وملوكها. وكانت هذه الجماعات البشرية تحيا حياة رعوية؛ وإنْ كان هذا لا يمنع من كوْن أن مستوطنات حَضَرية مستقرّة كانت موجودة، بدون شك، منذئذٍ في بعض النقاط الملائمة؛ كما في واحات الصحراء، أو في «إراسا» (= أمّ الرّزَمْ) بقورينائية. ولم يكن نفوذ السلطة السياسيّة في مصر ـ وهي الدولة المنظمة الوحيدة التي كانت تربطها بالليبيين بعض الصِّلات ـ قد شمل سوى تلك الواحات القريبة منها وكذلك بعض نواحي ساحل «مراقية». ولكن بالرغم من انتشار الفوضى في تلك الأصقاع في ذلك الزمان القاصي، وأيضاً بالرغم من المسافات الشاسعة؛ فإنه يبدو أن النفوذ الحضاري المصري قد تسرَّب، خصُوصاً في المجال الديني، حتى إلى واحة سيوة، بل وحتى إلى «قورينائية». وأدّى هذا النفوذ، مِن ناحية، وتسلُّل الليبيين أنفسهم إلى وادي النيل، من ناحية أخرى، إلى ظهور نوع من الشعور بالترابط مع دولة الفراعنة لدى الليبيين.

أمّا فيما يتعلّق بالإغريق، فإنّهم لم يكونوا يعرفون من «ليبيا»[1] سوى بعض النقاط الساحلية التي قادت الرياح إليها مراكبهم التجارية وصيّاديهم وقراصنتهم في بعض الأحيان. كذلك، فلعلّ ما اشتهرت به بعض الواحات من خصوبة، قد استقطب إليها بعض المرتزقة من محاربي الإغريق الذين كانوا ينخرطون في الجيش المصري. ذلك أنّه كان ينْتاب الإغريق شعورٌ بالابتعاد والرهبة تجاه هذه القارّة المترامية الأطراف؛ حيث لا شيء يُشْترى، ولا شيء يُباع، وحيث الأرض بور وموات، والشطآن قاحلة؛ وحيث الناس قلّة وغريبي الأطوار في نظر الإغريق ولا يُنشئون مُدُناً. ولذا فقد عشّش في مخيّلات هؤلاء الأخيرين حول هذه القارة ضرْب من الأوهام والتصوّرات جعلتهم يعتقدون أنّها قارّة تعجّ بالعفاريت والوحوش الكاسرة والأساطير. فملاحم المثيولوجيا الإغريقية تدّعي أن الآلهة كانوا يئدون في أرضها رُفات محبوباتهم، وتدّعي كذلك أن العملاق الضخم «أنتايوس»[2] كان يقتل فيها المسافرين ثم يشيِّد من جماجم ضحاياه هؤلاء أهرامات شامخة. ومن المحتمل أن يكون الفينيقيّون ـ الذين كانت لهم مبادلات تجارية مع مستعمراتهم الساحلية في غرب ليبيا وفي صقلية ـ قد أسهموا عمْداً في نشْر أمثال هذه الخرافات، بقصد تثبيط همّة كل من يفكِّر في منافسة تجارتهم مع المنطقة. وهكذا، فإنّه لم يكن هنالك ما يجذب الإغريق نحـو اسْتكْناه هذه السواحل الخطرة أو محاولة التعرُّف عليها.

ولكل ذلك، فلقد انتظر الإغريق طويلاً قبل أن يقرِّروا ارتياد أفريقيا والاستيطان في جزءٍ منها، وهو «قورينائية». وحتى يُقْدموا على ذلك في النهاية، اقتضى الأمر أن تُوصد منافذُ الأقاليم الأخرى ـ الأسْهل منالاً ـ في وجه

(1) تعني «ليبيا»، في هذا السياق: القارة الأفريقية. لأن الإغريق، وخصوصاً عند «هيرودوتس»، كانوا يستعملون مصطلح «ليبيا» كمرادف إمّا لليبيا نفسها، وإما للشمال الأفريقي كلّه، وإما للقارة الأفريقية برمّتها.

(2) «أنتايوس» هو ابن للإله «بوسيدون»، وهو عملاق لا يمكن قهره طالما ظل متصلاً بالأرض، ولكن «هرقل» تمكن من قتله بأن رفعه عالياً وعزله عن الأرض.

مطامعهم وتطلّعاتهم الاسْتيطانية. وهذا هو ما حدث بالفعل قُبيْل منتصف القرن السابع قبل الميلاد. فما هي الحالة التي كان عليها العالَم البحرمتوسطي يا تُرى، آنذاك فعلاً، مِنْ حيث قابليتُهُ للإسْتعمار الإستيطاني الإغريقي؟ فأمّا فيما يخص الحوض الغربي للبحر المذكور الواقع فيما وراء بوغاز صقلية، فلقد كان ما يزال بعيداً عن متناول الإغريق؛ إذْ لم يكن قد توغّل في مياهه منهم سوى بعض الملاّحين التائهين، من أمثال «كولايوس الساموني»، الذي أضلّتْه العواصف البحرية. أمّا فيما يخصُّ صقلية وجنوبي إيطاليا، فقد كانتا تعُجّان بالمهاجرين الإغريق الذين أنشأوا فيها مُدُناً عمَّروها. وأمّا في الشمال، فقد توسّع الإغريق في «ثراسيا» بشرقي أوربـا، وفي بحر مرْمرة، وفي البحر الأسود. أمّا مصر، التي أعاد الأمور فيها إلى نصابها ونظّم شؤونها الملك «بسمتك الأوّل» (= واح ـ إيب ـ رعْ) ـ الذي حكم ما بين 663 ق م ـ 609 ق م، وهو مؤسِّس الأسرة السادسة والعشرين ـ بعد انحسار موجات الحكم الأجنبي عنها؛ حيث استعان هذا الفرعون بتُجّارٍ ومرتزقةٍ إغريقٍ؛ غير أنه حرَّم على هؤلاء إنشاء مدن خاصة بهم في مصر. وهكذا، فإنه عندما قرّرت جزيرة «ثيرا» البركانية الصغيرة، الواقِعة في بحر إيجة، أن تتجه بدورها، في حوالي سنة 640 ق م، إلى تهجير جانب من مواطنيها إلى الخارج؛ فقد اضطرت إلى الدفع بهم نحو الجنوب، حيث كانت ليبيا هي وحدها التي كانت تتوفّر بها أراضٍ خصبة ما تزال آنئذٍ بِكْراً لم يستثمرها أحد بعدُ. بيْد أنّ «الثيرانيين» لم يقبلوا في البداية استيطان ليبيا بسهولة، وتطلَّب الأمر أن يُزْعَمَ بأنَّ الإله «أبولـلو» هو الذي دعاهم ـ بواسطة كاهنة معبده في «دلفي» إلى استعمارها، وأنه استحثّهم على ذلك ثلاث مرّات، متوعداً إيّاهم بإنْزال عقوباتٍ صارمة بهم، إنْ همْ لم ينْصاعوا لأوامره؛ وعندها فقط تغلّبت رهبتهم من عقاب إلهِهم الأسطوري لهم على تردُّدهم وتخوُّفهم من ارتياد هذه البلاد المجهولة. وهكذا قبلت طلائع المعمِّرين الإغريق في النهاية استيطان جزء من القارة الأفريقية.

الفصل الثاني

الاستيطان الأسطوري

يلمس المرء لدى بعض المؤرِّخين المحدثين نزوعاً إلى زحْزحة تواريخ بدايات حركة الاستعمار الإغريقي، مفترضين بأنّها قد وقعت خلال فترات سابقة على تلك التواريخ التي تم الإجماع عليها عادة. فمثلاً نجد أن «ج. بيرار» يذهب في كتابه المسمَّى: «الاستعمار الإغريقي لجنوب إيطاليا وجزيرة صقلية إبَّان العصور القديمة»، إلى أن قدومهم إلى جنوبي إيطاليا قد تمّ عند نهاية الألف الثانية قبل الميلاد؛ كما نجد أن الإيطالي «س. مازّارينو» يعتقد بقيام مستعمرات هلينية في تونس قبل تأسيس قرطاجة بها. ولقد قُوبلت أمثال هذه الفرضيّات الجسورة ببعض الاعتراضات: ففي غياب أدلَّة أركيولوجية قاطعة، نجدها لا تستند سوى على تأويل بعض النصوص التاريخية القديمة غير الواضحة؛ بل وغالباً ما تقوم على ما انفردت بذكـره الأساطير وحدها. ولكن ما هي القيمة التي يمكن أن نعْزوها لقرائن كهذه؟ . . أفهل يصحُّ اعتبار الأساطير وما تضمَّنْته أمراً يعكس بالفعل وقائع حقيقيّة موغلة في القِدَم، حتى وإن لم تترك في ذاكرة الناس أيّة أصداء أخرى؟ أم أنّه يتوجَّب علينا الاعتراف بأنّها مجرد نتاج لمخيِّلة شعراءٍ اختلقوا لنا ماضياً خرافياً وألبسوه ثوب أحوال وأمور كانوا قد شاهدوها في زمانهم هم؟ . . إن المشكلة هنا معقّده، ولا تسمح بحكم طبيعتها بالتوصّل إلى حلٍّ سهل. ونفس هذه المشكلة تنطبق على مسألة استيطان الإغريق في «قورينائية». إذْ هنالك اعتقاد متواتر وشديد الرسوخ في

الأذهان، يستند إلى أقوال «هيرودوتس» التي حظيت بشهرة واسعة، مفاده أن الاستقرار الهليني الأوّل في ليبيا يعْزى إلى معمِّرين جاءوا من جزيرة «ثيرا»، تحت إمْرة باطوس، خلال الرُّبْع الثالث للقرن السابع قبل الميلاد. ومع ذلك، فإن العديد من الباحثين المحدثين ـ ممن تباينت الحيثيّات التي انطلقوا منها ـ قد ذهبوا إلى أن هذا الاستعمار الاستيطاني الإغريقي المعروف لقورينائية، لم يكنْ هو الأوّل من نوعه، وبأنّه قد سبقته على أرض «قوريني» محاولات استيطانية أكثر قِدماً. وقد حاول هؤلاء الباحثون أن يجدوا أدلّة تؤيّد صحّة ما زعموه، خصوصاً باللجوء إلى شواهد من النقولات الأسطورية. ولذا فإن دراستنا لتاريخ «قوريني» لا بُدّ وأن تبدأ بالتعرُّض لهذه الضروب المزعومة من الاستيطان الإغريقي المبكر في هذا الإقليم، والذي أوحت به الأساطير الإغريقيّة؛ وذلك لمعرفة ما إذا كان ما جاء في تلك الأساطير مطابق للواقع التاريخي أم لا.

نلاحظ أن النصّ اللاتيني الذي وضعه «سان جيروم» لحوليّة المؤلِّف المسيحي «يوسيبيوس»، قد جعل لتأسيس «قوريني» ثلاثة تواريخ شديدة التباين، وهي على التوالي: سنة 1336 قبل الميلاد؛ وسنة 761 قبل الميلاد؛ وسنة 631 قبل الميلاد. وهذا أمرٌ عجيب وجدير بالتأمُّل، ويستحق الاهتمام، خصوصاً وأن حوليَّة «يوسيبيوس» هذه تقوم جزئياً ـ مثلما نعلم ـ على أعمال «إراتوسثينيس»[1]. ويُحتمل أن تكون المعلومات التي تضمّنتها هذه الحولية عن مدينة «قوريني» قد أُقتبست عن هذا العالِم القوريني العظيم الذي بزَّ غيره

(1) «إراتوسثينيس» هو فلكي ورياضي، قوريني المولد، كان تلميذاً لـ «كاليماخوس القوريني»، عاش في أثينا فترة ثم انتقل إلى الإسكندرية حيث صار أميناً لمكتبها الشهيرة، وله مؤلّفات في التاريخ والرياضيّات والأدب والجغرافية والفلك والفلسفة، وعُرف عنه أنّه قام بقياس خط الزوال الأرضي وبأنّه قاس درجات انحراف الأفلاك. ولقد ولد «إراتوسثينيس» حوالي سنة 284 ق.م؛ وتوفي حوالي سنة 192 ق.م.

بإلمامه بكل ما كُتب عن موقع رأسه «قوريني»؛ ولذا فإنه يجدر بنا ألاّ نهمل ما تضمّنته الحولية المذكورة حول هذه المسألة.

فأمّا التاريخ الأوسط الذي تورده الحولية المذكورة باعتباره أحد تواريخ إنشاء «قوريني» الثلاثة، والمتمثّل في سنة 761 ق م؛ فلا تؤيِّده أيّة وثيقة أخرىٰ. إذْ لا نجد بين النصوص القديمة التي تتطرّق لنشأة المستوطنة الإغريقيّة ـ رغم كثرتها ـ ما يؤيِّد هذا التاريخ. ومع ذلك فإن حولية «يوسيبيوس» تعزو تأسيس هذه المدينة، صراحةً، لـ «باطوس» ولجماعته من الثيرانيين، وتجعل ذلك في سنة 761 ق م؛ كما تُورد تاريخ سنة 631 ق م. وعليه فإنه يحقٌّ لنا أن نستنتج من ذلك أن ذكر سنة 761 ق م يستند إلى نفس المعطيات التاريخيّة التي يستند إليها التاريخ الأدني، أي سنة 631 ق م، وإن تم التوصّل إلى هذا الأخير عن طريق حسابات مختلفة. ولذا فقد ذهب «أ. ر. بارن» إلى أنّه يتحتم علينا أن نستشفَّ من ذلك أصداءً لأسلوب قديم كان يُعتمد عند عدِّ سنوات فترات عهود الحكم بحسب وحدة عددية قوامها أربعون سنة، وهو الأسلوب الذي كان شائعاً بين أوائل المؤرِّخين الإغريق. ومن المحتمل جداً أن يكون هذا التفسير ـ أو أي تفسير آخر مماثل ـ هو الأصح. ولذا فإنه ليس لنا أن نحار حول سبب ذكر تاريخ سنة 761 ق م.

غير أن الأمر يختلف بالنسبة للتاريخ الأقدم؛ أي ذلك الذي يجعل إنشاء «قوريني» في سنة 1336 ق م. ففي هذه الحالة نجد أن البوْن بين الوقائع التاريخيّة شاسع جداً، بحيث يستحيل علينا عزو ذكر هذا التاريخ إلى مجرّد اختلاف في كيفيّة عدِّ السنين. وإذن، فماذا يعني ذكر هذا التاريخ الموغل في القِدَم؟.. الحقيقة أن دلالة هذا التاريخ ستتجلّىٰ لنا إذا ما نحن قارنّاه بعددٍ آخر من الأدلّة والقرائن التي لم تُمنح في العادة كل الاهتمام الذي تستحقّه.

ودعونا الآن نقلِّب جملة الأدلّة والقرائن التي قد تفيدنا في استجلاء هذا

الأمر: فهنالك أوّلاً أحد المقاطع الشعرية من «البوثيّة الخامسة» من بوثيّات الشاعر الإغريقي «بنداروس»[1]. فبعدما تطرّق هذا الشاعر إلى المهرجان

---

(1) بنداروس هو أعظم شاعر غنائي إغريقي، ولد في بلدة «كينوسكفلاي» في إقليم بـويثوتيـا ـ وقيل ولد في مدينة طيبة التي عاش فيها طيلة حياته ـ وذلك سنة 518 ق م، وتوفي في آرجوس في 438 ق م. كان من أسرة أرستقراطية وعرفت عنه نزعته الدُّورية. تناول بنداروس في شعره كل موضوعات الشعر الغنائي التراتيلي الذي تنشده جوقات «الكورال» الجماعية. وهو شعر يقترن إلقاؤه بالموسيقى والحركة الإيقاعية والـرقص، وكان «بنـداروس» هو مؤلّف مـوسيقى وألحان هذا الإنشاد الجوْقي الذي يمازج بين الكلمة الشعرية والموسيقى والرقص. وهو قد كتب الابتهالات الدينية التي تمجِّد الآلهة، والأناشيد الوطنية، وعلى رأسها نشيده الشهير في مدح مدينة أثينا، وكتب أناشيد الحرب، والمرثيّات الحزينة. لكنه مدح أيضاً عظام الرجال والأبطال الرياضيين على الخصوص، كما أنّه مـدح طغاة الإغـريق، فمدح ملك مقـدونيا، وحكّام اسبرطة ورودس وكورنثة، وهي مدن دُورية؛ ومدح طاغية سيراكوزة بصقلية «هيرون الأول» كما مدح طاغية قوريني «أركسيلاوس الرابع»؛ ولقد زار عواصم هؤلاء الحكّام لإلقاء قصائده بين أيديهم بنفسه. واهتمّ بنداروس بنوع خاص بوضع قصائد حول منـاسبات فـوز الرياضيين الإغريق في مباريات الدورات الرياضية الجامعة (الدورات الهلينية الموسَّعة، ومنها الـدورات الأولمبية والبيثيّـة والنيميّة والإسثمية) . ولقد وصلتنا قصائـده الخمس والأربعون المسماة «أناشيد النصر ـ EPINIKIA»، أو «البوثيّات ـ PYTHIQUES» التي تعتبر من أروع قصائد الشعر الغنائي الإغريقي، وجعل موضوعها الفوْز في المناسبات الرياضيّة. ولقد سُمِّيت قصائد هذا الديوان بـ «البوثيّات» إشارة إلى اسم تنّين أو ثعبان أسطوري هائل كان يجيء إلى معبد دلفي بضرْب من الوحي الكاذب، زاعماً أنّه وحي صادر عن الإله «أبوللو» الذي أقيم هذا المعبد تمجيداً له ولتلقّي وحْيه فيه؛ الأمر الذي أغضب «أبوللو» فقتل هذا التنّين الكاذب بأعلى جبل «برناسوس»، ثم أمر أمّة الإغريق بالاحتفال سنويًّا بانتصاره على التنّين وبإقامة «الألعاب البيثيّة الهلّينية الجامعة». وتعتبر البوثيّتان الرابعة والخامسـة أروع أناشيـد النصر التي ألّفهـا بنداروس احتفاءً بفوْز عربة ملك قوريني «أركسيلاوس الرابع» بالمرتبة الأولىٰ لسباق العجلات في الدورة رقم 31 للألعاب البيثيّة الهلّينية، وحضر شخصيًّا إلى قوريني في شتاء سنة 462 ق م لإلقائهما. وفي هاتين البوثيتين يتحدّث بنداروس عن نسب ملوك قوريني الباطيين وعن إنشاء المدينة. وله في قوريني بوثيّة أخرى هي «البوثيّة التاسعة» التي ألّفها بمناسبة انتصار العدّاء الرياضي القوريني «تيليسيقراط بن كارنئاد» في الدّورة 28 للألعاب البيثيّة PYTHIADE سنة 474ق م؛ وفيها حدثنا شعراً عن أسطورة الحورية قوريني الراعية المتوحشة التي شاهدها الإله أبوللو وهي تقتل أسداً، فأعجب بشجاعتها وأغرم بها، وحملها في عربته التي يطير بها البجع، =

«الكارني» الذي كان يُقام في قوريني كل سنة، أردف في بوثيته الخامسة قائلاً:

«.. يعيش في قوريني غرباء مسلّحون بأسلحة برونزيّة، وهم الطرواديُّون الأنتنوريديُّون الذين قدموا إليها مع الأميرة هيلانة[1]، بعدما شاهدوا وطنهم يهلك وسط ألْسنة اللهب بسبب ضربات «أريس»[2]. إن مروّضي الخيول هؤلاء يلاقون هنا ترحيباً حسناً، وسط الضحايا. ولقد هبَّ للقائهم وغمروهم بالهدايا أولئك الرفاق الطيِّبون الذين استقدمهم أرسطوطيليس على ظهور مراكبه السريعة، فاتحين مسالك البحر العميقة أمامهم».

ثم تشرع قصيدة «بنداروس» هذه في مدح «أرسطوطيلس» الذي هو نفس «باطوس»، المؤسِّس الأوّل لمدينة «قوريني».

ولقد حاول بعض المؤرِّخين المعاصرين ـ مجاراةً منهم لفحوىٰ بعض الشروح ـ تحوير سياق الوقائع كما ورد في هذا المقطع من بوثيَّة «بنداروس»،

= من غابات تساليا إلى برقة في ليبيا، حيث تزوجها وضاجعها ـ بحسب الأسطورة ـ في نفس المكان الذي سيقيم عليه المهاجرون الإغريق مدينة قوريني. ولقد استلْهمنا بريشتنا ـ ونحن نترجم هذا الكتاب إلى العربية ـ من هذه الأسطورة صورة الغلاف.

(1) «هيلانة» هي زوجة الملك «مينيلاوس» ملك إسبرطة في «إلياذة هوميروس»، حيث كان إقدام «باريس» على خطف هذه الملكة الجميلة سبباً في قيام حرب طروادة بين أهل هذه المدينة وبين إسبرطة. و«باريس» هو ابن ملك طروادة.

(2) «أريس» هو إله الحرب عند الإغريق. وقد تبدو ترجمة هذا المقطع من البوثيَّة ركيكة في العربية، ولكن «بنداروس» نظم هذا المقطع في الأصل شعراً باللغة الإغريقيّة القديمة، ثُم تُرجم إلى الفرنسية نثراً، ثم ثنيت أنا فترجمته إلى العربية على هذا النحو دون تصرُّف. و«أريس» هو نفس الإله «باريس» عند الرومان، وهو ابن «زيوس» و«هيرا»، وهو يحب القتال وإراقة الدماء، وكان متوحشاً عديم الرأفة، ويحارب داخل عربته التي تجرّها أربعة جياد نارية، وهو عشيق الإلهة «أفروديتي» إلهة الجمال وزوجة «هيفايستوس».

كي يصير أكثر ملاءمة للتّرجيح التاريخي. فقادهم ذلك إلى تحريف كيفيّة رسم إحدى كلمات البيت السادس والثمانين من هذه البوثيّة الخامسة، على نحوٍ تعسّفي، معتقدين أنّهم سيتوصّلون من وراء ذلك إلى اقتناص لُبِّ المعنىٰ الذي قصد إليه هذا الشاعر في اللغة الإغريقية القديمة. ولقد قُمْنا في موضعٍ آخر بالبرهنة على أنّه لم يكن هنالك أي مبررٍ على الإطلاق لإجراء هذا التحريف؛ حيث أنّه يتعارض من ناحية مع النقولات الخطيّة التي تُجمع على الإبْقاء على الصبغة الأصلية للكلمة التي قاموا هم بتحريفها؛ ولأنه يُحدث، من ناحية أخرى، انقطاعاً في السِّياق التاريخي للأحداث كما جاء عند «بنداروس» في نصّه الإغريقي الأصلي. فالواقع أن هذا الشاعر يقرُّ في نصّه بأن «باطوس» وجماعته من الثيرانيين كانوا قد استقرّوا في «قوريني» فعلاً عندما جاء إليها الطروادّيون بعد سقوط مدينتهم. ولقد ورد ذكر هؤلاء الأغراب إلى المدينة في البوثيّة بمناسبة حديث الشاعر عنِ وليمة مهرجان العيد الكارني. ونحن نعرف أن هؤلاء الطرواديين الأنتنوريديين[1] ـ أصدقاء إغريق قوريني كانوا قد جاءوا إلى البلاد صحبة الملك «مينيلاوس» الذي أوصله تجواله إلى ليبيا، بحسب ما جاء في أوديسًا «هوميروس». بل وافترض البعض أنّهم سكنوا عند مشارف «قوريني» حيث توجد تلال جبلية تسمّى بـآسم «تلال الأنتنوريديين». كما تم العثور في مدينة بنغازي على لوح نقشيٍّ يعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد، صُوِّر فيه هؤلاء الأنتنوريدّيون ضمن الأبطال المحليين الذين تمجّدهم «قورينائية».

وهنالك قرينة أخرى، لم تَحْظَ مِن قِبل المختصِّين بالاهتمام الكافي حتى الآن، ونعثر عليها في النقش المسمّى بـ«حوليّة معبد ليندوس»، حيث يذكر هذا النقش الشهير عدداً كبيراً من القرابين التي قُدِّمت إلى الإِلٰهة «أثينا» من

(1) «الأنتنوريديون» نسبة إلى «أنتينور» وهو أحد خيرة القادة الطرواديين وكان يُعرف عنه أنّه من دعاة فكرة عقد سلم بين قومه الطرواديين وبين الإغريق.

طرف آلهة «ليندوس» بجزيرة رودس، ومن بينها عدد من القرابين يُعتقد أنّها ترجع إلى الأزمنة الأسطوريّة. وتتوخّىٰ قائمة هذه النُّذُر والقرابين الترتيب الزمني على وجه التقريب. ويشير أحدها إلى إنشاء مدينة قوريني من قِبل «باطوس» الذي يبدو من النقش أن « الليندين » قد ساعدوه في إنشائها. ومن المُلاحظ أن هذا النّذر أو القُربان يذكره النقش مباشرة بعد ذِكْر النُّذُر المهداة من معاصري حرب طروادة. وهو يسبق كل القرابين والنُّذُور التي لها علاقة بأساطير الاستيطان الإغريقي الأخرى. وهكذا، فإن واضع هذا النقش، وهو «تيماخيداس»، الذي نقشه في سنة 99 قبل الميلاد، كان يعتبر إنشاء قوريني سابقاً على إنشاء المستوطنات الإغريقيّة الأخرى؛ بل إنه يجعل إنشاءها عائداً إلى مشارف العصر الملحمي الأسطوري.

وبالمثل، فإن الشاعر الروماني «سيليوس إيتاليكوس»، الذي عاش بعد «تيماخيداس» بحوالي قرنين من الزمان، نراه في كتابه الذي عنوانه «الحروب البونية»، الذي سرد فيه أحداث ووقائع الحروب التي نشبت بين روما وبين قرطاجة، وانتهت بإنزال الخراب بالمدينة الأخيرة، يجعل «باطوس» معاصراً للأمير الطروادي الأسطوري «أينياس»[1]، ويقول أن الأميرة «آنّ» قد استجارت بـ «باطوس الأوّل»، مؤسِّس قوريني، على إثر الموت المأساوي الذي أودىٰ بشقيقتها الملكة «ديدون»، ملكة قرطاجة[2].

---

(1) الأمير «إينياس» هي تلك الشخصية التي جعل منها الشاعر اللاتيني «ڤرجيل» (79 ق م - 19 ق م) بطلاً لملحمة «الإنيادة AENEID»، حيث اشترك هذا الأمير الأسطوري في حرب طروادة وهزم فيها.

(2) الملكة «ديدون» هي الأخرى إحدى شخصيّات ملحمة «ڤرجيل» الأسطورية «الإنيادة». وتقول هذه الملحمة أن «بيجميليون» قد قتل زوج هذه الملكة، فما كان منها إلّا أن هربت وأسست قرطاجة، حيث وقعت في حب الأمير «إيني» الذي جاء إلى قرطاجة بعد تخريب الإغريق لطروادة، لكن هذا الأمير عاد فهجر «ديدون» بناء على طلب الآلهة، فانتحرت بـأن طعنت نفسها بخنجر.

وجميع هذه القرائن الأسطورية تؤيِّد أقدم التواريخ الثلاثة التي ذكرتها حوْليَّة «يوسيبيوس» لإنشاء قوريني؛ وهو سنة 1336 ق م. وهي قرائن تبرهن على تواتر النقولات التي تجعل - ابتداءً من مطلع القرن الخامس قبل الميلاد، على الأقل - تاريخ إنشاء المدينة مقارِباً للحقبة التاريخية التي وقعت فيها حرب طروادة. فهل يعني هذا أن الإغريق قد احتفظوا في ذاكرتهم، على نحوٍ مبهم، بصدىً ذكرى إستيطان أولي لهم في ليبيا، سابق على استيطانهم المعروف لنا، والذي تمّ في القرن السابع قبل الميلاد؟ إن النصوص الأسطورية الثلاثة التي درسناها أعلاه تبرهن - خلافاً لذلك - على أن تأسيس مدينة قوريني المغرق في القِدَم هذا، قد عُزِيَ صراحة إلى نفس شخص «باطوس» الذي تعزو إليه نصوص «هيرودوتس» التاريخية واقعة إنشائها الفعلي. وإذن، فإننا نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام رأيين مختلفيْن، يفترضان معاً تاريخيْن متباينين لتوقيت إنشاء قوريني، ولا يعدو أحدهما أن يكون مجرّد صدىً لِمَا جاء في الأساطير. إن قصّة نشأة المستوطنة الإغريقيّة في قوريني، كما نقلها لنا «هيرودوتس» ليست قصّة بسيطة؛ لأنها تنطوي على روايتين تفصل بينهما اختلافات زمنية كبيرة، سوف نعكف على دراستها فيما بعد. كذلك فإنه قد ظهرت خلال الفترة الهلينستية[1]، بدورها، رواية جديدة حول مسألة إنشاء قوريني. ويتحتم أن نقرِّر منذ الآن بأن رأياً مختلفاً قد ظهر، منذ الفترة القديمة، حول شخصية «باطوس»، الذي حاول البعض إقحامه، بطرق ملتوية، في دائرة حرب طروادة الملحمية. ولقد تغنّى الشاعر «يوجامون» - الذي كان يعيش في بلاط ملوك قوريني الباطيين، في حوالي سنة 565 ق م - في قصيدته المسمّاة «تليجونيا»[2]،

---

(1) الفترة الهلينستية هي تلك الفترة التي تبدأ من فتوحات الإسكندر المقدوني.

(2) «تليجونيا»، أو «قصة تليجونوس - TELEGONIA» المنسوبة إلى «يوجامون» القوريني هي قصيدة مطوّلة تعتبر تكملة لملحمة الأوديسًا لهوميروس. والتليجونيا هذه تعالج موضوعاً دراميًا تقليديًا قديماً وهو إقدام الابن على قتل أبيه دون قصْد منه، وهي تتلخّص في أن الشاب =

بأحد أبناء الملك الأسطوري «أوديسيوس»، حيث اعتبره جدّ الباطيين الأوّل. ولذا، فلعلّ هذا الشاعر، أو شاعر آخر غيره، هو المسئول عن ابتداع الأسطورة التي تزعم بأن إنشاء الإغريق لمدينة قوريني يرجع إلى تاريخ موغل في القِدَم. وعلى أيّة حال فإن الأمر لا يعدو، في رأينا، أن يكون مجرّد صياغة أو فذْلكة أدبية محضة للمعطيات التاريخية التي أمدّنا بها «هيرودوتس». إن هذه الفرضية تنْزع عن القرائن الأسطورية الخاصة بالتاريخ الأعلىٰ الذي أورده «يوسيبيوس» حول إنشاء هذه المدينة ـ وهو سنة 1336 ق م ـ أيّة قيمة تاريخية. ولذا فإنه لا فائدة من الإلتفات لهذا التاريخ الموغل في القِدَم عند تصدّينا لنقد الفرضية التي تزْعم بأنه كان هنالك استيطان إغريقي في ليبيا سابق على استيطان الباطيين في قوريني.

والحقيقة أن هذه الفرضية ما تزال تلاقي، في بعض الأحيان حظوة لدى بعض المؤرِّخين؛ حيث دافع عنها على الخصوص كلٌّ من «جركي» و«مالتن». فهذان المؤرِّخان يؤيّدان الزعم بأن مستوطنين هلينيين كانوا قد سبقوا إلى قورينائية مجيء الدُّوريين القادمين من جزيرة ثيرا. وبينما نجد «جركي» يرى بأن أولئك المستوطنين الإغريق الأُوَل ينتمون إلى الميرميدونيين القادمين من إقليم تساليا؛ نجد أن «مالتن» يذهب إلى أنّهم «بريدوريون» جاءوا إليها من شبه جزيرة «بيلوبس». بيْد أن كلا هذين المؤرخين يتفقان على أن أولئك المستوطنين قد توجهوا إلى ليبيا هرباً من الغزو الدُّوري لبلاد الإغريق، وأنّهم بالتالي قد أسّسوا في ليبيا مستعمرة إغريقيّة أولىٰ قبل نزوح الثيرانيين إليها

= «تليجونوس» ـ ابن «أوديسيوس» من الإلهة «كيركي» ـ كان قد خرج للبحث عن أبيه، وقضى القدر بأن يلتقي به في جزيرة «إيثاكة» دون أن يعرف أنّه والده. ونشبت معركة بين الابن وأبيه دون أن يعرف أحدهما الآخر، وكانت النتيجة أن قتل الابن «تليجونوس» والده «أوديسيوس» بحربة رأسها مصنوع من شوك الحوت؛ وبعدها تزوج من زوجة أبيه «بينيلوبي»، وتزوج أخوه من هذه ـ وهو تيليماخوس ـ من «كيركي».

بعدة قرون. وهكذا، فإن أولئك المهاجرين قد شكّلوا جالية هجينة هي نتاج لتزاوج هلّينيين من نساء ليبيّات، وهي جالية تميزت بأنّها ـ وإن ظلت إغريقيّة من حيث لغتها ـ إلاّ أنّها لم تكن دورية من حيث سماتها العرقية، وكان لها آلهتها وتقاليدها الخاصة بها. وعند مجيىء الثيرانيين إلى ليبيا بعد ذلك في القرن السابع قبل الميلاد، نراهم يمتصُّون أولئك النازحين المهجّنين الأوائل في مجتمعهم. هذا، وإن أخذوا عنهم، هم أنفسهم، بعض صِيَغ لهجتهم المحلية. ثم بذل الملوك الباطيُّون جهوداً جبّارة في سبيل جعل آلهة وأبطال أولئك المستوطنين الأقدمين جزءاً لا يتجزأ من تراث أسرتهم المالكة.

ولقد حاول أصحاب هذه النظرية دعم فرضيّتهم بحجج تستند إلى اعتبارات لغوية وأسطورية.

فأما الحجّة اللغوية فقد جاء بها «جيركي»، الذي استلفت نظرهُ احتواء اللهجة القوريناثية على صِيغ لغوية شاذّة تعرف عادة بـ «الصِّيغ الأيولينية» الصقلية؛ حيث نجد هذا العالِم يفسِّر وجود أمثال هذه الصيغ في اللهجة القوريناثية على أنه برهان على أنّه ما تزال تشوب هذه اللهجة بعض بقايا من اللهجة «الأيولينية» التي كان يتكلّمها المعمرون الإغريق الأقدمون الأُوَل. ونحن نعرف، في الواقع، أن لهجة أهل جزيرة «ثيرا» لا تنطوي على صِيَغ لغوية مماثِلة؛ في جين أن الاكتشافات الأثرية النقشية التي أبانت عنها الحفريات التي قام بها الإيطاليُّون في ليبيا، ما فتئت تمدُّنا بأمثلة عديدة لهذه الصِيغ اللغوية «الأيولينية» التي تنطوي عليها اللهجة الإغريقيّة القوريناثية. ومع ذلك، فإن هذه القرينة اللغوية لا تعتبر حاسمة على الإطلاق في رأينا.

فالواقع أن فقهاء اللغة ما يزالون غير متفقين حول التفسير المتوجِّب إعطاؤه لهذه القرائن اللغوية. فمثلاً نجد أن «ج. ديڤوتو» ـ الذي ندين له بأمتن دراسة ظهرت حتى الآن حول اللهجة القورينية ـ يرفض إمكانية أن نستشفّ من

الصيغتيْن اللغويّتيْن اللتيْن أحتجَّ بهما «جيركي» في مؤلّفه، وجود أيّ تأثير «إيوليني». وهو يرى أن وجود بعض الصيغ اللغوية الشاذة في لهجة قوريني الدُّورية إنما ينمُّ فقط عن حصول تطور لغوي مستقلٍ وأصيلٍ تميزت به هذه اللهجة الإغريقية في ليبيا. أمّا اتخاذ أسماء الفاعل المؤنّثة في لغة النقوش التي تم العثور عليها في قوريني لصيغ إغريقية خالصة، فإنه يدل فقط على أن تطور اللهجة الدُّورية فيها كان بالنسبة لهذه النقطة أكثر بطأً من التطور الذي لحق اللهجة الثيرانية. ويخلص «ديڤوتو» في النهاية إلى الاعتقاد بأن هذه الظواهر النحويّة الخاصة لا تمنع البتّة من الإقرار بانـدراج اللهجة القوريناثية في هيكل اللهجة الثيرانية؛ ولكن من غير أن يعني ذلك أنّه توجد بينها وبين اللهجات الأيولينية أيّة علاقة.

أمّا «الباحثة «أ. براون»»، فإنها في مقالها الذي نشرته سنة 1932 م، تحت عنوان «اللهجات الأيولينية في قوريني كما يعكسها الشعر الدُّوري» ـ وهو المقال الذي كرّسته للردّ على الدّعاوي القائلة بوجود تأثيرات إيولينية في لهجة قوريني الإغريقية ـ تعود لمعالجة المعضلات النحوية الخاصة بأسماء الأفعال في اللهجة الإغريقية القوريناثية، قائلة إن صِيغها شبيهة بتلك الصِيَغ النحوية التي كثيراً ما نصادفها في اللغة الدورية البليغة التعابير، الرائعة البيان، لدىٰ كلٍّ من «كاليماخوس القوريني»، و«بنداروس»، و«ثيوقريطس»، وأيضـاً لدى الشعراء الصقلّيين من الإغريق، وشعراء المستوطنات الإغريقية القديمة في جنوبي إيطاليا. وتذهب هذه الباحِثة إلى القول بأن وجود هذا التشابه يبرهن عن أن استعمال هؤلاء الشعراء العظام، في لغتهم البليغة، لأمثال هذه الصِيَغ النحوية الخاصة، لم يكن سببه مجرّد ميلهم إلى الحذلقة وتنميق الأسلوب؛ بل لأن هذه الصِيَغ هي جزء من لُباب جوهر اللهجة الدورية في حدّ ذاتها: فالتمسُّك باستعمـال صيغ نحوية غريبة كهذه لم يكن عندهم سوى تعبير عن شدة ولعهم جميعاً بإحياء الغريب من التعابير القديمة التي صارت مهجورة

الاستعمال عند معاصريهم، بالإصرار على تبنِّيها في أساليبهم الشعرية الراقية لبعث بعض الجوانب التي أهملها هؤلاء من تراث لغتهم القديمة؛ وأن نفس هذا الولع ببعْث القديم هو الذي جعل اللهجة العاميَّة تزْخر بمثل هذه الصيغ النحوية أيضاً في قوريني التي تعتبر منطقة نائية من مناطق مجال النفوذ الدُّوري. وتُمْسك السيدة «براون» عن شرح الكيفيّة التي أوصلت هذا الولع بإحياء غريب اللغة الإغريقيّة القديمة حتى إلى مدينة قوريني البعيدة عن وطن الإغريق الأُمّ؛ هذا، وإن كانت الباحِثة ترفض الجزْم بأن هذا قد تم بواسطة الثيرانيين عند هجرتهم إلى هذه المدينة. غير أنّها تؤكّد بإصرار ـ شأنها في ذلك شأن «ديفوتو» ـ على أن هذه الصيغ والتعابير النحويّة الغريبة نجدها في لهجات الجماعة الدُّورية[1] برمَّتها. وإذا كان الدوريّون قد استعاروا هذه الصيغ من اللهجتين الأيولينية والآخينية، فإن ذلك قد حدث عند استقرارهم في شبه جزيرة البيلوبونيز نفسها منذ أزمنة موغلة في القِدم. ولذا فإنه ليس هنالك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن استعمال هذه الصِيَغ النحوية هو ظاهرة لغوية انفردت بها اللهجة القورينية.

ويبيِّن العرض الوافي الذي سقناه أعلاه، بجلاء، شدَّة تباين التفسيرات حول حقيقة ما توحي به القرائن اللغوية من احتمال حدوث هجرات إغريقية إلى قوريني قبل استيطان الباطيين فيها. وإنني لفي حِلٍّ من اتخاذ موقف حيال صميم هذا الجدل اللغوي المحض. ومع ذلك فإنه من حق الباحث أن يخلص منه إلى الاعتقاد بأنّه ليس هنالك ـ فيما يخص مسألةٍ مثيرة للجدل كهذه ـ ما يحملنا على افتراض تعرُّض قوريني لإرهاصة استيطانية إغريقية غير

---

(1) «الدوريون» هم شعب قديم غزا بلاد الإغريق في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، حيث طردوا منهـا أبناء عمـومتهم «الآخيين»، واستولـوا على: تساليـا، والبيلوبـونيـز، وكـريت، وجـزر السيكلاد، واستعمروا جنوب غربي آسيا الصغرى، وأوّل مقاطعتين أسَّسَهما هؤلاء الدوريون فيها هما إسبرطة وآرجوس.

دُورية سابقة على استقرار الثيرانيين بها، لتفسير وجود ظواهر لغوية غريبة في لهجة أهلها الإغريقية. وحتى لو افترضنا ـ خلافاً لاتجاه أحدث الدراسات التي حلّلناها أعلاه ـ أن هنالك حاجة تدعو إلى العودة للأخذ بفرضية وجود تأثير خارجي فعل فعله في الموروث اللغوي الدُّوري، وأن هذا التأثير هو السبب في ظهور الصِيَغ النحوية الغريبة المُشار إليها في لهجة قوريني الإغريقيّة؛ فإن تاريخ هذه المدينة، كما رواه لنا «هيرودوتس»، يمدّنا بتفسير مقنع للغاية: نحن نعرف أن قوريني قد تعرّضت، إبّان فترة حكم «باطوس الثاني» لموجة من الهجرات الكثيفة التي قدمت إليها من مختلف أرجاء العالَم الإغريقي. وكان من بين هؤلاء المهاجرين الجُدد عدد كبير من سكّان الجُزر؛ الأمر الذي حدا، بعد بضع سنوات، بالمشرِّع المعروف «ديموناكس المانتيني» أن يحشد أولئك المهاجرين الجُدد جميعهم، في عهد «باطوس الثالث»، ويصهرهم في قبيلة واحدة هي قبيلة «النيسيوتيين»، وهي إحدى القبائل الثلاث التي قسَّم سكّان مدينة قوريني بينها. إنَّ تدفُّق المهاجرين الإغريق بهذه الكثافة الكبيرة على المدينة ـ بحيث لم يعد الدوريُّون يشكِّلون وحدهم عنصرها السكاني ـ يكفي لتحليل تطعيم اللهجة القورينية بهذا العدد القليل من المكونات المتنافرة من الصيغ النحوية التي حار فقهاء اللغة الإغريقيّة القديمة في أمرها.

والآن دعونا ننظر في أمر الحُجج الأسطورية، لمعرفة ما إذا كانت قابلة للطعن شأن الحجج اللغوية.

ويمكن تصنيف هذه الحجج الأسطورية إلى فئتين، تبعاً لانتمائها إلى أسطورة «حوريَّة قوريني»، أو إلى أسطورة «إيوفيموس» جدّ الباطيين الخرافي الأعلىٰ.

يقول أحد شُرّاح الشاعر والنّحوي والإسكندري «أبولونيوس الرودسي»[1] مانصّه:

(1) وُلد «أبولونيوس الرودسي» حوالي سنة 295 ق م، وتوفي حوالي سنة 230 ق م، وله قصيدة =

«. . يروي أكستور في مؤلَّفه عن قوريني أنّه في الفترة التي كان فيها إيوريبيلوس ملكاً على ليبيا، استقدم أبوللو الحوريَّة قوريني إلى هذا البلد. وحيث أن أسداً كان يعيث هنالك فساداً، فإن إيوريبيلوس قرر منح مملكته هذه هدية لمن يقتل هذا الأسد. فقتلته الحورية قوريني وصارت ملكة. ثم أنجبت ولدين، هما أوتوخوس وأريستايوس. ووفْقاً لِمَا قاله فيلارخوس، فإن هذه الحورية قد وفدت على ليبيا بمعيّة عددٍ كبير من الرفاق، حيث أمرتهم بالخروج للصيد، ثم لحقت بهم، فتمكنت من قتل الأسد وأصبحت ملكة. وأنجبت من أبوللو ولديْن هما أوتوخوس وأريستايوس. فأمّا أوتوخوس فقد بقي في ليبيا، وأمّا أريستايوس فقد رحل عنها إلى سيئوس». ويضيف نفس الشارح قائلاً: «. . ووفْقاً لما ذكره مناسياس، فإن الحورية قوريني قد جاءت إلى ليبيا بمحض إرادتها ولم يسُقْها إليها أبوللو».

أمّا المؤرّخ الروماني «يوستينوس» (= جوستين)، الذي عاش في القرن الثالث الميلادي، فإنّه عندما اختصر كتاب «التاريخ العالمي» المنسوب إلى «تروجوس بومبيوس»[1]، فقد ذكر أن «باطوس» ورفاقه قد سمعوا بأسطورة الحورية قوريني من أفواه السكّان المحليين؛ قائلاً:

«. . عندما أقام باطوس ورفاقه مستوطنتهم هناك، سمعوا بوجود أسطورة قديمة عن الحورية قوريني، تقول إنها كانت عذراء ذات جمال أخّاذ، فاختطفها أبوللو من عند جبل بيليوت في تساليا، وأنجبت من هذا الإله أبناءهما الأربعة، وهم:

= شهيرة تسمى «الأرجونوتيّات». وهو من شعراء مدرسة الإسكندرية التي ولد بها، وصار أحد كبار علمائها وأمين مكتبتها. وتعتبر قصيدته المذكورة من أهم الأعمال الشعرية الهلينية في القرن الثالث قبل الميلاد.

(1) «تروجوس بومبيوس» هو مؤرِّخ روماني عاش في عهد الإمبراطور «أوغسطس»، له مصنَّف في تاريخ الكون يسمى: HISTORIAE PHILIPPICAE في 44 مجلد، كما أن له مؤلّفات في علميْ الحيوان والنبات كانت من مصادر بلِيني الأكبر.

نوميوس، وأريستايوس، وأوتوخوس، وأجريوس. ثم حطَّ بها عند سفح التّل الذي ستُنْشأ عنده مدينة قوريني. وبعد ذلك أرسل والد الحورية المسمّى هيبسيوس - وهو ملك تساليا - في إثرها أبناءها المذكورين، للبحث عنها، فنزلوا عند التّلّ نفسه، وأخذوا يتجوّلون هناك، حيث فتنهم جمال الموقع؛ وعندئذٍ قرّروا الإقامة صحبة أمّهم الحورية في تلك البقاع. وبعد ذلك أسّس باطوس المدينة، وأطلق عليها اسم الحورية، استجابةً لتعاليم الإله أبوللو»[1].

ونخلُص من هذه النصوص إلى أنّه، بحسب بعض الرِّوايات التي صِيغت فيها الأسطورة، فإن الحورية التسالية قوريني قامت إبّان الأزمنة الأسطورية، صحبة بعض الرِّفاق التساليين، بتأسيس مستوطنة إغريقيّة في ليبيا. فأيّ قدْرٍ من الصحة يمكننا إضْفَاؤه على هذه القرائن الأسطورية؟.

الحقيقة أن معرفة التاريخ الذي دُوِّنت فيه مصادرنا الأسطورية يُعدّ أمراً مهماً للغاية بالنسبة لهذا الاستقصاء النقدي الذي نضطلع به هنا: فأمّا «أكستور»، فنحن لا نعرف عنه شيئاً؛ ولعل الأصوب أن يكون اسمه «أكيساندروس»؛ مثلما اقترح العالِم الألماني «س. موللر». والواقع أنّه حتى في هذه الحالة ستظل المعلومات الكافية تعوزنا عن هذا المؤرِّخ، بيد أنّه قد يكون ممن ينتمون إلى تلك الفئة من المؤرِّخين المحليين الذين ظهروا بأعداد

(1) أوْرد المؤلِّف «شامو» هذا النص في كتابه باللاتينية دون إرْدافه بترجمة فرنسية، وبالنظر إلى جهلنا الكامل باللاتينية، فقد استعنّا في ترجمته إلى العربية بأحد المتخصّصين. وأمّا أبناء الحورية «قوريني» المذكورين في هذا النص، فإن أكثرهم شهرة في الأساطير الإغريقية هو «أريستايوس»، الذي يعتبر حامي قطعان الماشية والخمرة والزيتون، كما يعتبر خاصة مبتكر تربية النحل؛ وتقول الأسطورة أنه ذبح أربعة ثيران وأربع بقرات كقرابين للآلهة، حيث خرجت من أجسادها أسراب من النحل بعض مضي تسعة أيّام على ذبحها، وهكذا جاء النحل إلى هذه الدنيا.

كبيرة خلال العصر الهلينستي. أمّا «فيلارخوس»، فإنّه من مؤرِّخي النصف الثاني للقرن الثالث قبل الميلاد. وأمّا «مناسياس» - الذي يجعله «سويداس» في عِداد تلامذة «إراتوسثينس» - فليس هنالك ريْب في أنّه يعود إلى الفترة الواقعة ما بين نهاية القرن الثالث قبل الميلاد وبين مطلع القرن الثاني قبل الميلاد. وأمّا «تروجوس بومبيوس»[1]، فقد كان معاصِراً للمؤرِّخ اللاتيني «تيتوس ليڤيوس»[1] الذي عاش ما بين حوالي سنة 59ق م، وبين سنة 17 بعد الميلاد. وأمّا «إيزيدوروس الإشبيلي»، الذي وُلِدَ سنة 560 ميلاديّة وتوفي سنة 636 ميلاديّة - والذي ألّف كتاب «الاشتقاقات اللغويّة» قبيل وفاته - فإن كتاباته مستوحاة، على الخصوص، من تآليف النَّقَلَة والمنتحلين الذين ظهروا خلال القرون الأولىٰ لقيام الامبراطورية الرومانية.

ويتبيّن لنا من هذا التّقصّي أن رواية الأسطورة التي تعْزو إلى الحورية قوريني[2] امر تأسيس المستوطنة الإغريقيّة في المدينة الليبيّة التي حملت نفس هذا الاسم، لم تظهر قبل مطلع الفترة الهلينستية. ومصدرنا الأقدم الوحيد، هو الشاعر «بنداروس»، الذي يتطرّق طويلاً لأسطورة هذه الحورية في بوثيّته التاسعة، حيث يجعل هذه الحورية «الوصيّة الإلٰهية» على المدينة وليس مؤسّستها. و «بنداروس» لا يشير إلى وجود أي معمِّرين إغريق في ليبيا فيما خلا الثيرانيين، ويقول عنهم أنهم «شعب كان يقطن الجُزُر» - بحسب تعبيره -

(1) «تيتوس ليڤيوس» هو مؤرِّخ روماني وُلِد في «بادوا» سنة 59ق م، وهو أعظم مؤلِّفي الحوليات التاريخية الرومان، اشتهر بمصنّفه عن تاريخ روما، في 142 مجلّد، المعروف بـ «تاريخ ليڤيوس»، وهو أهم مصدر للعهد الجمهوري في روما.

(2) تقول الأساطير أن الحورية قوريني هي قنّاصة عذراء عطفت عليها الإلهة «أرتيميس» وأهدتها إثنين من كلاب الصيد. وكانت الفتاة تحيا في غابات شمالي تساليا وتحرس قطيع أغنام أبيها ضد الوحوش المفترسة. ولمحها الإله «أبوللو» مرة فوقع في حبّها واختطفها في عربته التي يجرُّها البجع ويحلق بها في السماء. وحملها الإله إلى قوريني حيث أنجبت معه طفلاً اسمه «أريستايوس ARISTAEUS». وربما أنجبت منه ثلاثة أطفال.

وأنّهم قدموا إلى أفريقيا مع باطوس. ونحن لا نلمس لدى هذا الشاعر أي تضارب بين الرواية التاريخية لإنشاء المدينة على يد «باطوس أرسطوطيليس» وبين أسطورة الحورية قوريني؛ كما أنّه لا يصرِّح لنا البتّة في بوثيّته المذكورة بأن هذه الأسطورة إنما هي تجسيد سِبْقي لهذه الرواية التاريخيّة.

ونحن نعتبر «بنداروس» مصدراً جديراً بكامل ثقتنا منذ تأليفه لبوثيّتـه التاسعة. ومن ثَمَّ فإنه لا يمكننا أن نتّهمه بالتّحيُّز للأسرة الباطيّة المالكة، أو بالولع بالمبالغة في إطرائها وإعلاء صيتها؛ فهو عندما ألّف هذه البوثيّة، لم يكن قد أقام لنفسه بعدُ أيّة علاقة مع ملك قوريني، لأننا نعلم أنّه ألّفها إستجابةً لرغبة مواطن عادي من آحاد الناس من مواطني قوريني، وليس لحساب ملكها نفسه. فالرواية التي صاغها شعراً للتأريخ للمدينة تبدو مطابقة للرواية التي يُعْتقد أنه سبق للشاعر «هيسيودوس»[1] وأن ضمَّنها واحدة من قصائده الضائعة، التي احتفظ لنا بمطلعها وحده أحد شُرَّاحه. ومثلما قال «مالتن» بحقّ، فإن الرواية التاريخية التي وضعها «بنداروس» حول إنشاء قوريني قد ظلّت محل ثقة

(1) «هيسيودوس» ينتسب إلى بلدة «أسكرا» الواقعة في «بيوثيا» ببلاد الإغريق، وكان مزارعاً من صغار الملّاك. ويعتبر أكبر شاعر إغريقي بعد «هوميروس»، وهو إما معاصر له (القرن الثامن ق م) أو لاحق عليه بقرن. وله أربع قصائد شهيرة، أوّلها «أنساب الآلهة»، وهي تتحدّث عن نشأة الكون، وتحاول رسم شجرة نسب لآلهـة الإغريق الأسـطوريين ـ بدءاً من «زيـوس» ـ وتعرض لتاريخهم مبيّنة نشأة كل منهم ونسبه وتترجم لكل إله وتفصّل وظائفه وأعماله وتاريخ حياته، وهي أقدم مؤلّف تاريخي في عقائد الإغريق الدينية وأهم مرجع في هذا الشأن. وجمع «هيسيودوس» مادتها من أساطير عصره. وثانيها قصيدة «الأعمال والأيام» وهي قصيدة تهذيبية يخاطب فيها أخاه الذي نهب منه حصته في إرث والدهما ويقدم له فيها نصائح تربوية أخلاقية فنجد بها لذلك حكماً وعظات وقواعد خلقية تنفِّر من الظلم والاعتداء على حقوق الغير. ثم يتعرّض لحياة الرِّيف وشروط العمل بالزراعة وتربية الدواجن ويتحدث فيها عن الفقر والفاقة التي كان يعيشها رقيق الأرض وصغار الزراع. وثالثها قصيدة «الدرْع» وهـو يصف في هذه القصيدة درع البطل هرقل. وأخيراً قصيدة: «المثيلات EHOIAI»، وسأتناولها في هامش منفرد في صفحة تالية.

جميع قدماء المؤرخين، وظل تأثيرها حاسماً حتى بعد ظهور الرواية التاريخية الجديدة لدى كثير من المؤلّفين اللاحقين، من أمثال الشاعر الإغريقي «نونوس الأخميمي»[1] ـ الذي عاش في مصر عند مطلع القرن الخامس الميلادي ـ وأمثال المؤلّف «بانو بوليتان».

وإذن، فإنه من وجهة النظر المنطقية، ومن حيث التسلسل التاريخي فإنه لم يعد أمامنا سوى الإقرار بأن هذه الرواية التاريخية البنداريّة هي الصيغة الأصلية للأسطورة، التي لا تعني ألبتّة قبول الزّعْم بأن الإغريق قد أسّسوا مدينة قوريني قبل مجيىء الباطيين. وبالتالي فإنه يبدو أن روايتيْ «أكسياندروس»، و «فيلارخوس»، لا تزيدان عن كونهما من التآليف الأدبية اللاحقة التي لا تستحق أن نوْليها أيّة أهمية تاريخية. ودعونا نعطي الدليل على ذلك بالتركيز على دراسة قصّة معركة الحورية قوريني مع الأسد المفترس (أنظر لوحة الغلاف):

ونحن نجد أن «بنداروس» ـ حرصاً منه، فيما يتعلّق بهذه المسألة، على الالتزام بالرواية التاريخيّة ـ قد جعل جبال تساليا المسرح الذي جرت عنده هذه المعركة الأسطورية. بينما نقل كل من «كاليماخوس القوريني» و «فيلارخوس»، خلال القرن الثالث قبل الميلاد، مسرح هذه المعركة إلى الأراضي الأفريقية، أي إلى ليبيا. ومع أن «مالتن» نفسه قد شدّد على حقيقة آتّساق وتماسك رواية «بنداروس» للأسطورة؛ إلّا أنه أيّد الفرضية الغريبة القائلة بأن رواية «كاليماخوس» و «فيلارخوس» كانت أكثر اتّساقاً وأشد انسجاماً مع الفحوى الأصلية للأسطورة. ولكن لكي يسمح «مالتن» لنفسه بتحوير السياق الزمني للروايتين كما حدّدته المصادر القديمة، كان من المتوجّب عليه الاستناد على حججٍ متينة جداً؛ بيد أنّه عجز عن إيراد مثل هذه الحجج. فحجّته الرئيسيّة تقتصر على الزعم بأن ظهور الأسد في ليبيا هو أقرب إلى

(1) «نونوس الأخميمي» هو شاعر ملحمي إغريقي وُلد في بلدة أخميم بالوجه البحري بمصر حوالي سنة 410 ميلادية، اشتهر بملحمته الأسطورية المسماة: «الخمريّات ـ DIONYSIACA».

التصديق من القول بظهوره في بلاد الإغريق لأن هذا الحيوان المتوحش هو حيـوان أفريقي. ولا نجـد هنا ضـرورة للتساؤل عمّـا إذا كان هـذا الحيوان قـد ظهر في بلاد الإغريق خلال فترة ما قبل التاريخ؛ وعلى أيّة حال، فإن الأمر لا أهمية له. لأنه من المؤكّد أنّه لم توجد في بلاد الإغريق ـ على سبيل المثال ـ حيوانات خرافية نصفها نسْر ونصفها الآخر أسد؛ ومع ذلك فإن أمثال هذه الحيوانات الأسطورية قد لعبت في نِتاج الفن الإغريقي دوراً بارزاً وعُثر لها على العديد من الصُّور والتماثيل؛ بالرغم من أنّه لم يكن لها أي وجود فعلي في الطبيعة!. والواقع أن الأسد قد احتلّ مكانة هامة في بلاد الإغريق القديمة، سواء في القَصَص الأسطوري ـ كما في قصة «أسد نيميا» الذي عاث في البلاد وسدر يفترس الناس إلى أن تمكن «هرقل» من قتله[1] ـ أو في مجال الفن التصويري، ابتداءً من تلك اللوحة النقشية التي تصوِّر «أُسود ديلوس» وهي تُدنِّس مقبرة «مينيقراطيس» بجزيرة كورفو؛ كما يظهر الأسد كذلك في تلك الرسومات التي تزيِّن الخزفيّات الكورينثية القديمة. وفي رأينا أن أسطورة الحورية التي انتصرت على الأسد، لا تعدو أن تكون مجرّد تجسيد لفكرة الإشادة بجبروت آلهة الإغريق الأسطوريين؛ ولذا فإنه ليس من المستغرب أن تظهر الأسطورة المذكورة في هذا الثوب في تساليا.

وإذن، فإن اعتراض «مالتن» لا قيمة له. ولكن يكفي أن يتأمّل المرء هذه الأسطورة في حدّ ذاتها كي يعترف بأنّها لا تبدو مترابطة ومتّسقة حقّاً سوى في صيغتها البندارية. إن أحداً لم يشك قطّ في أن الحورية قوريني الأسطورية ـ إبنة «هيبسيوس»، ملك شعب «اللابيثاي» الأسـطوري، الذي زُعم بـأن

(1) هرقل هو أشهر أبطال الإغريق، ويسمى عند الرومان «هيركوليس»، ولقد مجدته الأساطير الإغريقية كثيراً وكادت تجعله إلهاً يشبه الإله «أبوللو». أما «أسد نيميا» فهو أسد أسطوري زُعم أنه كان يعيش قرب مدينة «نيميا» الواقعة في الشمال الشرقي من شبه جزيرة البيلوبونيز، وكان هذا الوحش يعيث في ضواحي «نيميا» فساداً، فقتله هرقل بهراوته وخنقه ثم قدمه قرباناً إلى الإله زيوس. وإحياءً لهذه الذكرى صار الإغريق يقيمون ألعاب نيميا كل عامين.

«هرقل» قد أباده ـ كانت تسالية الأصل. ولا يمكن تفسير رحلة هذه الحورية إلى ليبيا تفسيراً يلائم سياق الأساطير الإغريقية، سوى بردٍّ ذلك إلى تدخُّل إرادة الإله «أبوللو»؛ مثلما ذكر كل من «أكيساندروس» و«يوستينوس». والحقيقة أن صراع الحورية مع الأسد كان الغرض منه جذب انتباه «أبوللو» إليها؛ وإذن، فلا بد وأن يكون صراعها مع الأسد قد وقع في تساليا. وعلى أثر انتصار هذه الحورية على الأسد المفترس، أُعجب الإله «أبوللو» بهذه القنَّاصة الفتيَّة، فما كان منه إلّا أن اختطفها ومضى بها إلى ليبيا. فلا يتحتم إذن تفسير هذه الرحلة الأسطورية على أنّها دليل على قيام استيطان إغريقي، مُغْرق في القِدَم، في مدينة قوريني، يكون سابقاً على استيطان الباطيين بها. فهذه الأسطورة لا تعدو أن تكون مجرّد موضوع كلاسيكي تقليدي من مواضيع الأدب الشعبي الإغريقي، لا أكثر ولا أقل؛ والمتمثّل في هروب عاشقيْن إلى ما وراء البحار بحثاً عن ملاذٍ قصيٍّ، بعيداً عن أعين الحُسَّاد والمتطفلين. والحقيقة أننا نعثر في الأساطير الإغريقية على أمثلة ونماذج شبيهة بهذه الأسطورة؛ من بينها على سبيل المثال، أسطورة «إيوروبي» التي زُعِم أن الإله الإغريقي «زيوس» قد هام بها حبًّا، فتنكّر في هيئة ثور وحملها من مدينة «صور» إلى جزيرة كريت. والمعروف أنّه حتى قبل استقرار المعمّرين الإغريق بشكل دائم فوق أرض ليبيا بزمنٍ بعيد، فإننا نجد أن أفريقيا ـ شأنها شأن شعوب وبلدان الشمال الأوربي ـ كانت تتراءى لمخيِّلة قدماء الهلينيين بمثابة الإقليم الغامض والقاصي، حيث كان هؤلاء يتصوّرونها مسرحاً لمغامرات الأبطال والآلهة الأسطوريين؛ على نحو ما نقرأ في أساطيرهم من الزَّعْم مثلاً بأن إلههم «بوسيدون»[1] قد أقام بين النوبيين، وأن الملك «مينيلاوس» قد تجوَّل ـ بحسب

(1) «بوسيدون» هو إله البحر عند الإغريق، وتصوّره أساطيرهم وهو يحمل صولجاناً على شكل مذْراة ذات رؤوس مدبَّبة اصطنعها لصيد الأسماك. ويروي «هوميروس» في «الأوديسًا» أن هذا الإله هو أب عملاق «السيكلوب» المتوحش ذي العين الوحيدة الموجودة في وسط وجهه، والتي تمكن «أوديسيوس» بطل ملحمة الأوديسًا من فقْئها، فصار العملاق أعمى؛ الأمر الذي =

«الأوديسًا» ـ في مصر وليبيا، وأن الملك «أوديسيوس» قد تجوَّل في أفريقيا وفي فينيقيا.

ونخلص من كل ذلك إلى أنّه يتوجَّب علينا منطقيًّا اعتبار الرواية التاريخية البندارية هي الصيغة الأصلية للأسطورة. غير أن هذه الرواية طرأ عليها، في حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، تحوير يمكن تعليله بالعاملَيْن الرئيسيين التاليين: من ناحية، عامِل العاطفة الوطنية عند القورينيين، الذي أوحى بنقل مسرح المفخرة الخرافية التي أنجزتها الحورية قوريني ـ وهي قتْل الأسد المفترس ـ إلى الأرض الليبيّة؛ ومن ناحية أخرى، شيوع أفكار المفكِّر الإغريقي «إيوهيميروس»[1] ـ الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد ـ في تلك الفترة لدى العديد من المؤرِّخين ووُضَّاع الأساطير؛ وهي أفكار تزعم بأن الشخصيات الأسطورية كانت في الأصل شخصيّات بشرية حقيقيّة، إلاّ أن رهبة الشعوب منها وإعجابها بطرازها الفذّ، في آنٍ واحدٍ، هو الذي حمل الناس على رفعها في مخيِّلاتهم إلى مصافّ الآلهة الأسطوريين.

وبالنظر إلى أن الشاعر «كاليماخوس»[2] كان قورينيَّ المَوْلد والمنشأ، فإننا نرى أن العامل الأوّل ـ وهو العاطفة الوطنية القورينية ـ هو الذي حمل هذا الشاعر على نقْل مسرح صراع الحورية مع الأسد من تساليا إلى ليبيا في نشيده المعروف. ذلك أن هذه العاطفة الوطنية التي أوحت إليه بتأليف «نشيد أبوللو» هذا يكفي لتفسير مبادرته تلك؛ ولا داعي بالتالي إطلاقاً إلى محاولة تعليل ذلك

= جعل «بوسيدون» يُنْزل جام غضبه على البطل «أوديسيوس».

(1) هو: «إيوهيميروس المسِّيني»، وُلِد في 311ق م، وتوفي سنة 298ق م. ألّف «كتاب الآلهة» المتضمِّن لنظرية أنثروبولوجية عن آلهة الإغريق ومآثرهم زاعماً أنهم في الأصل ملوك عظام وفاتحون، إلاّ أن مخيِّلة الناس جعلتهم من الآلهة.

(2) «كاليماخوس القوريني» نشأ في مدينة قوريني (305 ق م ـ 240 ق م). ثم انتقل إلى الإسكندرية حيث عاش في بلاط «بطلميوس فيلادلفوس» و«بطلميوس يورجتيس». وعمل أميناً لمكتبة الإسكندرية ووضع لها فهرساً. وهو يعتبر أحد أشهر شعراء العصر الإسكندري. وهو غزير الإنتاج؛ ومن بين أشهر أشعاره «الأناشيد»، وقصيدة «الأسباب».

بالرّكون إلى تفسير هذا النشيد تفسيراً رمزيًّا، كما فعل العالِم «شتودنيكزكا»، الذي ذهب في مؤلَّفه عن الإله الإغريقي «هرمس» إلى القول بأن الإله «أبوللو» يرمز في نشيد «كاليماخوس» المذكور إلى «إيڤرجيت»، وبأن الحورية قوريني إنما ترْمز لديه إلى الملكة «برنيقي» عاهلة قورينائية.

أمّا فيما يتعلّق بكلٍّ من «أكيساندروس» و«مناسياس» و«فيلارخوس»، فإن التفسيرات التي جاءوا بها رمت بطبيعة الحال إلى إضْفاء صبْغة عقلانية على الأسطورة، ومن ثم تحويلها إلى قصّة مثيرة محتملة الحدوث في الواقع الملموس، وجعْل شخصيّاتها تحاكي البشر الحقيقيين. وهذا يبدو واضحاً على الخصوص في المقطع الذي اقتبسه الشارح القديم عن «مناسياس»، الذي غالباً ما تأثّر في كتاباته التاريخيّة بآراء المفكّر «إيوهيميروس» الذي يذهب إلى القول بأن الشخصيات الأسطورية كانت في الأصل من بني البشر، مثلما أسلفنا. فآراء «إيوهيميروس» هذه تتجلّىٰ بوضوح لدى «مناسياس» في حرصه على التأكيد على أن رحلة الحورية قوريني إلى ليبيا قد تمّت بناءً على مبادرة منها، وليس نتيجة لتدخُّل الإله «أبوللو». أما «فيلارخوس» فإننا وإنْ لم نطَّلع على مؤلّفاته بسبب من أنّها مفقودة؛ إلاّ أنّه بوسعنا القول بأنها كانت مشحونة بالأفكار الخرافية، وذلك بناءً على ما ذكره لنا المؤرِّخ «بوليبيوس»، وكذلك «بلوتارخوس»[1]؛ ولذا فإنه لا يُعتدُّ بما قاله حول الحورية، إذْ أننا نعتقد بأنه عندما تعرَّض لأسطورتها، فإنّه أرخى العِنان لخياله واختلق لنا قصة خرافية لاستهواء قُرّائه. ولا شك في أن ما ذهب إليه هؤلاء المؤلِّفون الإغريق الثلاثة، من أن الحورية قوريني قد حكمت ليبيا، مرْجعه ينحصر فقط في محاولتهم جعل ذلك

---

(1) ولد «بلوتارخوس» حوالي سنة 46 ميلادية، وتوفي سنة 120 ميلادية. وهو مؤلّف إغريقي من «بيؤتيا». درس الفلسفة في أثينا، ثم استقرّ في بلدته «هيرونيا» وأسّس فيها أكاديمية ظلّت قائمة إلى ما بعد وفاته بقرن تقريباً. نسب إليه أكثر من مائتين من المؤلّفات ضاع عدد كبير منها. وأشهر كتبه هو كتاب في التراجم والسِّيَر الإغريقيّة.

تعليلاً لِما لمسوه من تطابق في التسمية بين المدينة الليبية وبين الحورية الخرافية الإغريقية؛ ومن ثم فقد كان أيسر الأمور عليهم، لهذا، هو الزّعْم بأن هذه الحورية هي مؤسسة المدينة، فتأتّى من ذلك، بالتالي، قولهم بأنّها كانت قد حكمت هذا البلد في غابر الدهر. ولذا، فإن الإشارة الخاطفة التي أوْردها «إيزيدوروس الإشبيلي» ـ وإن كانت تعود إلى زمنٍ متأخرٍ ـ إلّا أنّها تبدو في الحقيقة تلخيصاً أميناً لمُجمل التحريفات التي سرَّبها إلى الأسطورة وُضّاع الأساطير المنتحِلون في القرن الثالث قبل الميلاد.

وهكذا، فإنه يتضح لنا أن المستوطنة الإغريقية التي زُعم بأن الحورية قوريني قد أنشأتها في ليبيا إبّان الأزمنة الأسطورية، لا تعدو أن تكون محض اختلاق ذهني ابتدعه خيال المؤرِّخين ووُضّاع الأساطير الهلينستيين على هامش الأسطورة الأصلية. فهو بالتالي مجرّد زعْم كاذب لا علاقة له بذكرى قيام أيّة مستوطنة إغريقية حقيقيّة يمكن أن تكون ظهرت في ليبيا في الزمن الخالي البعيد. ولكن هل الأمر مختلف فيما يتعلّق بالنَّسب البعيد للأسرة الباطيّة التي حكمت قوريني؟.. دعونا ننظر في ذلك.

في صدْر البوثيّة الرابعة، يقصُّ علينا «بنداروس» نبوءة الساحرة الأسطورية «ميديا»، التي زُعِم أنّها تنبّأت ـ عند إرساء مركب المغامرين «الأرجونوتيين»[1]

---

(1) «الأرجونوتيُّون» هم خمسون من مشاهير أبطال الإغريق اشتهروا بمآثرهم وشجاعتهم وأمجادهم، وكان على رأسهم هرقل؛ قاموا بامتطاء المركب «آرجو» التي بناها آرجوس بمساعدة الإلهة «أثينا بالاس» وبرعاية الإلهة «هيرا»، وكانت لهذه المركب السريعة عشرة مجاذيف. وأخذ هؤلاء الأرجونوتيُّون يجوبون البحار ويتعرّضون لمختلف ضروب المتاعب والمخاطر والمفارقات. والسبب في قيامهم بهذه الرحلة يتلخّص فيما يلي: كانت مدينة «أرخومين» القديمة ببلاد الإغريق تحت حكم الملك «أتامانت»، الذي أحدقت بمملكته هذه المجاعة، فزعمت له زوجته الثانية «لينو» أن موْحي دلفي قد قال إنه لا سبيل لرفع تلك المجاعة إلّا إذا ما قبل الملك بذبْح ابنه «فريكس» ـ الذي ولد من زوجة الملك السابقة «نيفيلا» ـ وتقديمه قرباناً للآلهة، فوافق وتأهّب بالفعل لذبحه. وعندئذ هبط من السماء كبش =

على ساحل جزيرة ثيرا - بأن الباطيين سيؤسِّسون مدينة قوريني. وتحكي هذه الساحرة العرَّافة حادثة وقعت أثناء ترحال أولئك الملاّحين الإغريقيين، قائلة إنه حدث وأنْ دُفع بالمركب «آرجو» في البحر على الساحل الليبي، عند مدخل بحيرة «تريتونيس»، بعدما ظل ملاّحوه الأرجونوتيون يحملونه على ظهورهم عبر الصحراء مدة إثني عشرة يوماً؛ وأنه عندما أصبح المركب على أهبّة الإبحار، حدث وأن اقترب منه إله - لا يحدِّد لنا «بنداروس» شخصيته بوضوح - وخاطب الأرجونوتيين قائلاً لهم إنه يدعي «إيوريبيلوس»، ثم ناولهم قبضة من الطِّين كهدية ترحيب بهم. وعندئذٍ نرى أحدهم؛ وهو «إيوفيموس» - الجدُّ الأعلىٰ لملوك قوريني الباطيين - والذي كان يقف عند مقدمة المركب، يبادر إلى القفز إلى الساحل لتلَقِّي هذه الهدية الإلٰهية. وأثناء إبحار المركب سقطت قبضة الطين في الماء وتقاذفتها الأمواج نحو جزيرة ثيرا. ثم تمضي الساحرة «ميديا» في قصِّ بقية هذه الأسطورة قائلة: «.. لو أن إيوفيموس نجح في الاحتفاظ بقبضة الطِّين إلى حين وصوله إلى مدينته «تينازي» (الواقعة بشبه جزيرة البيلوبونيز)، وحرص على القذْف بها في فم إله جهنَّم الأسطوري هاديس، القابع هناك؛ لكان قد قُدِّر لعقبه وأحفاده أن يستوطنوا ليبيا منذ ظهور جيلهم الرابع، لأن يد الألوهيَّة هي التي وهبت هذا البلد له في هيئة قبضة الطين. غير أن غفلة النُّوتيين القائمين على الخدمة في المركب وازدراءهم لقبضة الطين هو السبب وراء تأجيل ما كانت الأقدار قد قضت به. ولذا، فإن إرادة القدر التي

= ذهبي الصوف، هدية من الإله «هرمز»، لافتداء «فريكس». وفجأة امتطى هذا الابن ظهر الكبش، فطار به إلى عنان السماء، ثم حطَّ به في «كالخيدا» الواقعة بالقوقاز، قرب البحر الأسود. وبعدما صار «فريكس» شابًا يافعاً قام ملك كالخيدا بتزويجه من ابنته وذبح الكبش ذي الجزَّة الذهبية كقربان للإله «زيوس» وعلّق جزّته الذهبية في غابة وأقام لحراستها تنّيناً هائلاً. وزادت المآسي فتكالبت على سلالة ملك مملكة «أرخومين» فتنبَّأ لها العرّافون بأنها لن تتخلّص من مآسيها إلاّ إذا ما استعادت جزَّة الصوف الذهبية. وهكذا تم جمع أولئك الأبطال الأرجونوتيين وطُلب منهم البحث عن تلك الجزّة في كالخيداً، ولكن مهمتهم كانت صعبة وشاقّة.

قضت بذلك لن تتحقّق إلاّ على يد ذريّة فرعٍ هجين من نسْل إيوفيموس، وهي ذريّة وُلدت على إثر قيام علاقة زنا عابرة بين هذا الأخير وبين امرأة كان قد التقى بها عند رُسوِّ المركب آرجوس في جزيرة ليمنوس[1] ببحر إيجة. واستقرّ أفراد ذلك الفرع العائلي من نسْل إيوفيموس ـ فيما بعد ـ بجزيرة ثيرا. ثم أخذوا يتوالدون إلى أن بلغ عدد أجيال ذريتهم سبعة عشر جيلاً متعاقبة؛ وعندها غادر الجزيرة واحد منهم وتوجّه إلى قورينائية، بناءً على ما قضى به وحْيٌ صادر عن الإله أبوللو». ونبوءة «ميديا» تتوقّف عند هذا الحدّ من سرد أسطورة نسب ملوك قوريني الباطيين. كما أن «بنداروس» ـ الذي أمدَّنا بنبوءة الساحرة هذه ـ لا يضيف إليها من جانبه شيئاً، فيما تلا ذلك من أبيات بوثيّته الرابعة؛ اللّهمّ سوى تفصيل واحد، يشير إلىٰ أنّ ذريّة «إيوفيموس» الليمنوسية الهجينةُ المُحْتدِّ، كانت قبل استيطانها بجزيرة «ثيرا» ـ التي كانت تُسمّى جزيرة كاليستي ـ قد قامت بهجرة أولىٰ إلى إسبرطة.

والحقيقة أن الكيفيّة نفسها التي سُردت بها هذه القصة الخرافية، تنطوي على دلالة عميقة: فـ«بنداروس»، الذي رواها، يسوق لنا كعادته تفاصيلها بأسلوبٍ إضْماري مختصر، اضطرّه إلى القفْز من واقعة إلى أخرى في عُجالة، دون أنْ يُفْصح لنا عن العلاقات القائمة بين هذه الوقائع الأسطورية؛ مكتفياً في الغالب بمجرّد إيراد تلمحاتٍ وإلْماعاتٍ خاطفة، كان جمهوره المنصت إلى روايته الشعرية هذه ـ وهو جمهور مثقّف كان يلمُّ أصلاً بكل تفاصيل الأسطورة المروية شعراً ـ يدرك مغزاها بدون صعوبة؛ في حين أننا عاجزون اليوم عن فهمه

(1) بحسب الأسطورة كانت جزيرة «ليمنوس» تحت حكم ملكة تسمى (هيبسيبيلا) وكانت هذه الجزيرة خالية تماماً من الرجال، عند وصول الأرجونوتيين إليها، لأن نساءها قد قمن بقتل أزواجهنّ بسبب خيانة هؤلاء لهنّ. فاستقبلت نسوة الجزيرة أولئك المغامرين خير استقبال، واختلط الحابل بالنابل وعمّ اللهو والمجون بين الفريقين حتى كاد الأرجونوتيون ينسون تماماً «جزّة الصُّوف الذهبيّة» التي ارتادوا البحار والجزر بحثاً عنها.

مثلهم. والأمثلة على خصوصيّة هذا الأسلوب البنداري عديدة: فمثلاً نجد هذا الشاعر يُمْسك عن تحديد اسم الإله الذي أهدىٰ قبضة الطين للمغامرين «الأرجونوتيين» تحديداً كافياً. كذلك فإن ردّهم على عبارات هذا الإله الترحيبيّة لا يَرِدْ في البوثيّة المذكورة سوى على نحوٍ مُقتضب؛ ثم أننا نجهل السبب في تسمية الإله المذكور بـ «إيوريبيلوس». وأخيراً، فإن «بنداروس» لم يذكر لنا كيف كان سيتسنّى لـ «إيوفيموس» أن يُدرك سلفاً مغزى قبضة الطين بالنسبة لمستقبل نسْله اللاحق، وما الذي كان يتحتّم عليه أن يفعل بقبضة الطين تلك، التي لا تعني شيئاً في ظاهرها؟.. إن ولع هذا الشاعر باللجوء إلى هذا الأسلوب الإضْماري في السَّرْد الروائي لا يمكن تفسيره سوى بآفتراض أن جمهوره المعاصِر له كان على معرفة تامّة بأحداث الأسطورية التي كان يرويها أمامه، بحيث كان ذلك الجمهور قادراً على سدِّ الثغرات التي كان «بنداروس» قد أهمل التطرّق إليها في بوثيّته عمداً. ويتحتّم علينا ألّا نلوم هذا الشاعر على غموض روايته وإبْهامها؛ فالرجل كان مضطرًّا إلى التلميح والإلماع لأنه كان يقصُّ على شعب قوريني الإغريقي أسطورة تفيد بأن الجدَّة الأولىٰ التي انبثق عن رحْمها نسب ملوكهم الباطيين لم تكن زوجة شرعية لجدّهم الأكبر «إيوفيموس».

* * *

احتفظ لنا شارِحٌ قديم بمطْلع قصيدة تهْذيبيَّة للشاعر «هيسيودوس»، المسمَّاة: «المثيلات»[1]، وفيها يذكر هذا الشاعر أن إله البحر عند الإغريق

---

(1) أُطلقت تسمية «المثيلات ـ EHOIAI» على هذه القصيدة، لأن كل مقطع من مقاطعها كان يبدأ بعبارة: (.. أو مثل فلانة التي..)، وكذلك بعبارة: (.. وكانت هناك نساء فاتنات وقع الآلهة في حبّهن، مثل فلانة..) إلخ؛ ثم يمضي «هيسيودوس» في سرْد مغامرات المرأة التي خصّص لها المقطع الذي يتناوله في قصيدته. ولقد ضاع معظم مقاطع هذه القصيدة من قصائد شعره التهذيبي. وقصيدة «المثيلات» هذه تسمّىٰ بالإنجليزية: «فهرس النساء Catalogue of Women».

«بوسيدون» قد وقع في حبّ امرأة تُدعى «ميكيونيكي»، فضاجعها وأنجبت منه «إيوفيموس»، الجدُّ الأعلىٰ للملوك الباطيين، مؤسِّسو مدينة قوريني الّذين عرفهم التاريخ. وقياساً بِما ورد في البوثيتين الثالثة والتاسعة، اللتين استلهم «بنداروس» ما أورده فيهما حول أسطورتيْ «كورونيس»، و «حورية قوريني» من قصيدة «هيسيودوس» المذكورة؛ فإن «مالتن» في كتابه عن قوريني يعتقد بأن «بنداروس» قد لجأ - بالنسبة للبوثيّة الرابعة كذلك - إلى الاستلهام من نفس قصيدة «المثيلات - EHOIAI» تلك. غير أنّه بإمكاننا دحْض ما ذهب إليه «مالتن» هنا في فرضيته هذه بإشهار الاعتراض المتين التالي: وهو أن بوثيّة «بنداروس» الرابعة تجعل من «إيوفيموس» بالفعل إبناً للإله «بوسيدون»؛ وبالتالي فإن أمّه ليست هي «ميكيونيكي» - كما في قصيدة «هيسيودوس»؛ وإنّما «إيوروبي»، إبنة «تيتيوس». وإنه لمنْ قبيل إلقاء الكلام على عواهنه دون تروٍّ، الزَّعْمُ - كما فعل «مالتن» هنا - بإمكانيةِ إحياء نصّ قصيدة الشاعر «هيسيودوس» الضائعة هذه واختلاق محتواها زوراً، انطلاقاً مما جاء في بوثيّة «بنداروس» الرابعة؛ ذلك أن هذه البوثيّـة، حتى وإنْ اتفقت مع قصيـدة «المثيلات» الضائعة، في أن أبا «إيوفيموس» هو الإله «بوسيدون»؛ إلاَّ أنها تختلف عنها حول مسألة هويّة أمّه، فالبوثيّة الرابعة تجعلها «إيوروبي»، في حين أن قصيدة «هيسيودوس» المذكورة تذهب إلى أنّها «ميكيونيكي»!.. ومن هنا، فإننا نخلص إلى أنّه لا سند لفرضية «مالتن» التي تُعيد صياغة هذه القصيدة الضائعة تعسُّفاً، وتزعم بأنّها قد أُلِّفت في زمنٍ لاحقٍ على تأسيس مدينة قوريني، وتتصوّرها بالتالي قصيدة مدْح وتقريضٍ تمجِّد وتشيد بمؤسِّسي هذه المدينة من الباطيين. وفي المقابل، فإننا نعترفُ مع «مالتن» نفسه بالطابع الثيراني القوريني الصارخ للبوثيّة الرابعة التي تشيد جميع أبياتها بالملك الباطي المنتصر[1]، وتُثني على سُدَّته المالِكة في قوريني.

(1) يلمِّح المؤلِّف «شامو» هنا إلى فوْز عربة الملك الباطي «أركسيلاوس الرابع» في سباقات الدوْرة الحادية والثلاثين للألعاب البوثيّة الكبرىٰ التي أقيمت في أثينا في سنة 462 ق م، كما سيأتي =

أمّا «هيرودوتس»، فإنه يروي الوقائع والأحداث السابقة على إنشاء مدينة قوريني، على النحو التالي قائلاً: إنّه كان يعيش في جزيرة «ليمنوس» بعض نسْل أولئك المغامرين الإغريق الذين جابوا البحار على ظهر المركب الأسطوري «آرجو»، والذين كانوا يزعمون أنّهم من نسْل ملك كريت «مينوس»، ثم طردهم من تلك الجزيرة قوم «البيلاسجيين»[1] فتوجّه ذلك النَّسْل المينوي إلى إقليم «لاكونيا»، الواقع في جنوب شرق جزيرة البيلوبونيز، حيث نزل على جبلٍ يُسمّى «جبل تايجيت». وضجَّ المقدونيُّون من اجتياح هؤلاء للمنطقة، فردَّ عليهم هؤلاء النازحون المينويون قائلين بأن تلك المنطقة هي موطن أجدادهم، وأنّهم جاءوا لسكناها. فوافق الإسبرطيُّون على بقائهم، في نهاية الأمر، واصطحبوهم إلى مدينتهم، حيث وزّعوهم على قبائلها. ثم تصاهر الفريقان. بيْد أن الإسبرطيين ما لبثوا أن ضاقوا ذُرْعاً بذلك النَّسْل النازح لتجاوزه الحدود في مطالبه ولشدّة طمعه وغلوائه، فأضمروا القضاء على أفراده؛ غير أن النسْوة الإسبرطيّات اللاتي تزوجن منهم لجأن إلى حيلة ماكرة أدّت إلى خلاصهم، فرجعوا إلى «جبل تايجيت» واستوطنوه ثانية.

وفي نفس تلك الفترة كان المدعو «ثيراس» ـ وهو خال الملكيْن اللذيْن كانا يحكمان إسبرطة ـ يفكِّر في الهجرة إلى جزيرة «ثيرا»، التي كانت تُسمّى آنئذٍ «كاليستي»، كي ينضمَّ هناك إلى بني جنسه. والواقع أن ثيراساً هذا كان

= ذكره تفصيلاً في الفصْل الثامن من هذا الكتاب.

(1) «البيلاسجيون» هم شعب من الشعوب البائدة، يعتقد القدماء أنّهم كانوا يسكنون بلاد الإغريق وأرخبيل بحر إيجة وسواحل آسيا الصغرى المقابلة، وإيطاليا، ثم جاء الهلينيُّون فطردوهم من هناك أو لعلّهم استعبدوهم. أما «مينوس» ملك كريت فهو ابن «زيوس» والإلهة «يوروبا»، وزوج «باسيفاي». وتقول الأساطير أن «مينوس» كان أشدّ ملوك زمانه قوة برّاً وبحراً، وهو أشهر شخصية في الخرافات الكريتيّة. وهو يحظى برعاية الإله «زيوس»، وصار بعد موته قاضياً في العالم السفلي؛ بحسب الأساطير.

من عقب «كادموس»[1] الذي كان عند عبوره لبحر إيجة، قد ترك في جزيرة «كاليستي» (= ثيرا) رفاقه الفينيقيين الذين كانت لهم، هم الآخرين، ذريَّة في الجزيرة. فعرض «ثيراس» على الإسبرطيين أن يصطحب معه إلى جزيرة «كاليستي» أولئك المهاجرين المينويين؛ فوافق الإسبرطيُّون. وهكذا، فإنّه رحل ومعه ثلاث مراكب من ذوات الثلاثين مجذافاً، محمّلة بعددٍ من الإسبرطيين وببعض المهاجرين المينويين فقط؛ ذلك أن معظم هؤلاء الأخيرين كانوا قد هاجروا إلى جزيرة البيلوبونيز، حيث أنشأوا ستّ مدن، من بينها مدينة «بيرجوس». وبعد ذلك اتّخذت جزيرة «كاليستي» اسم «ثيرا»، وصار أهلها منذئذٍ خليط من الفينيقيين رفاق «كادموس»، ومن الإسبرطيين والمينويين. وتولّت الحكم الملكي في جزيرة «ثيرا» أسرة «ثيراس»؛ ولكن «باطوس» نفسه ـ الذي سيكون هو منشيء مدينة قوريني في ليبيا مستقبلاً ـ كان من أصل مينوي، وهو من عقب «إيوفيموس»[2].

وعندما نقارن بين رواية «هيرودوتس» هذه، وبين البوثيّة الرابعة لـ «بنداروس»، فإننا لا نملك سوىٰ أن نندهش لمدىٰ التشابه الكبير بين

---

(1) «كادموس» هو شخصية فينيقيّة، تقول الأسطورة أنه هو مؤسِّس مدينة «طيبة» التي هي مسرح أحداث أسطورة «أوديب» الشهيرة، ببلاد الإغريق. وهذه المدينة هي عاصمة «بيوثيا» من بلاد الإغريق القديمة. وكانت الكاهنة قد أخبرت كادموس بن أجينور هذا بأنه سيلاقي بقرة عليه أن يبني مدينة طيبة في المكان الذي ستقف فيه البقرة. ولقد قادته البقرة إلى «بيوثيا» فأراد أن يذبحها كقربان وأرسل رجاله للبحث عن نبع ماء فتصدّىٰ لهم ثعبان ضخم وقتلهم، فقام هو بقتل الثعبان وأقام قلعة «كادميا» الحصينة التي أسّس حولها مدينة طيبة وتزوّج من «هارمونيا» ابنة أريس وأفروديت.

(2) «إيوفيموس» هو ابن الإله «بوسيدون» والإلهة «يوروبا» وزوج «لاونومي» شقيقة «هرقل»، وهو الذي وهبه «بوسيدون» القدرة على السير فوق مياه البحار، ومنحه كتلة الطِّين، حيث تنبأت الساحرة «ميديا» بأن هذه الكتلة ستحقق لسلالته حكم ليبيا إذا هو ألقاها عند مدخل العالم السفلي.. فيما تزعم أساطيرهم.

الروايتين. حقًّا إن «هيرودوتس» يكتفي ـ خلافاً لـ «بنداروس» ـ بذكر رحلة المغامرين الإغريق على ظهر المركب «آرجو»، دون الدخول في كثيرٍ من تفاصيلها. ولكن فيما عدا ذلك، فإن مراحل سياق الأسطورة عند «هيرودتس» هي نفسها عند «بنداروس»: فكلاهما يتعرّض لِمَا حدث في جزيرة «ليمنوس»، من حيث مضاجعة «إيوفيموس» للمرأة، وما أدّىٰ إليه ذلك من إنجاب ذريّة، كما أنّهما يتعرّضان سويًّا لحلول المينويين بإقليم «لاكونيا» ولموقف الإسبرطيين منهم، كما أنّهما يتعرّضان لهجرة «ثيراس»، صحبة بعض المينويين والاسبرطيين، إلى جزيرة «ثيرا». ولقد ألحَّ «مالتن»، الذي كشف عن هذا التشابه بين نصيّ «هيرودوتس» و«بنداروس»، على أهمية الدور الذي لعبه في هذه القصّة «جبل تايجيت»، الذي يمثّل «رأس تينازي» ـ وهو مسقط رأس «إيوفيموس» ـ قمة له. وإذا كان مهاجرو «ليمنوس» يقولون عن أنفسهم أنّهم مينويين، فإن هذا الزعم لا يزيد عن كونه مجرّد مفاخرة بأسلافهم من مغامري المركب «آرجو» الذين استقلّوا هذا المركب من جزيرة «إيولكوس» في رحلتهم الأسطورية. فيتحتّم علينا ألاّ نستخلص من كل هذا أيّة دلالة تتعلّق بمنشأ سلالتهم التي يذهب العالِم «شتونيكزكا» إلى أنّها تسالية؛ بالرغم من أن «هيرودوتس» قد نسب هذه السلالة صراحة إلى جزيرة «البيلوبونيز»، عندما قال في تاريخه، على لسان هؤلاء المينويين ـ عند وصولهم إلى إقليم «لاكونيا»، الواقع جنوب شرقي هذه الجزيرة ـ أنّهم كانوا يؤوبون إلى مسقط رأس آبائهم وأجدادهم. والحقيقة أن هذا الأمر سيظل مبهماً، ما لم نتّفق على أن جميع هؤلاء المينويين هم من عقب «إيوفيموس»، وأنّهم آبوا إلى «رأس تينازي» العتيد، مسقط رأس ذلك الجدّ الأوّل.

وخلُص «مالتن» من هذا إلى القول بأن «هيرودوتس» لم يفعل سوىٰ أن حوّل أسطورة نسب الباطيين إلى وقائع تاريخية فعلية. ويغري هذا التفسير بالتصديق والقبول للوهلة الأولىٰ؛ بيْد أنّه سرعان ما يصطدم بجملة من

المطاعن: ذلك أن «بنداروس» يركّز بالذات على شخصية «إيوفيموس»، التي لا يعيرها «هيرودوتس» أيَّ اهتمامٍ البتّة؛ ومن ناحية أخرىٰ فإن هذا الأخير يذكر لنا صراحة بأنه استقىٰ روايته هنا عن رواية شعبية مأثورة كانت شائعة في كلٍّ من إسبرطة وجزيرة ثيرا، وبأنّه لم يسمعها من أهل قوريني أنفسهم. فما الداعي إذن للتشكُّك في رواية «هيرودوتس» هذه؟ وما علينا إلّا أن نستنتج من التشابه بين نصوص الرجلين بأن المرويّات الشعبية المأثورة حول أصول أهل جزيرة «ثيرا»؛ سواء كان منشؤها قوريني، أو إسبرطة أو هذه الجزيرة نفسها، فإنها تعتبر شيئاً واحداً. بيْد أن هذه المرْويّات تتّسم، مع ذلك، بصبغة خرافية، تصورها في رواية «هيرودوتس» تفاصيلُ معيّنة، من بينها تلك الحيلة التي لجأت إليها النسوة الإسبرطيّات بهدف إنقاذ أزواجهن المينويين من الهلاك الذي كان يترصّدهم على أيدي الإسبرطيين، وتدخُّل «ثيراس» لإنقاذهم باصطحابهم إلى «ثيرا»، وكثرة الإشارات إلى شخصيّات خرافيّة، مثلما هو الحال بالنسبة لمغامري المركب «آرجو»، وشخصية «كادموس».

وهذه الصبغة الخرافية تجعل المرء يتشكّك في جدوىٰ الجهود التي بذلها البعض لمحاولة استخلاص بعض التفاصيل التاريخية من هذه الأسطورة. ولقد رأىٰ كلٌّ من «شتودنيكزكا» و«مالتن» أن البوثيّة الرابعة تشوبها مسْحة جدلية تُسفّه صيغةً متداولةً أخرى للأسطورة، لأنها لا تنوّه بالأسرة الباطيّة بما فيه الكفاية. ويرىٰ «شتودنيكزكا» أنّ هذه الصيغة المنافسة التي لمس تهجُّم البوثيَّة الرابعة عليها، هي قصيدة «المثيلات» لـ«هيسيودوس»؛ ففي رأيْ «شتودنيكزكا» أنّ هذه القصيدة قد صاغت هذه الأسطورة في ثوبٍ مصطنع مبعثه رُجْحان كفّة العنصر البيلوبونيزي في قوريني بسبب هجرة المزيد من البيلوبونيزيين إلى المدينة في عهد «باطوس الثاني». أما بالنسبة لـ«مالتن»، الذي يرىٰ ـ على العكس من ذلك ـ في قصيدة «المثيلات» القائلة بأن «ميكيونيكي» هي أم «إيوفيموس»، المصدر الرئيسي للبوثيَّة الرابعة؛ فإنه

يذهب إلى أن «بنداروس» كان يرمي ـ مجاراةً منه لـ «هيسيودوس» ـ إلى تطويع أسطورة «إيوفيموس» كي يجعل من هذه الشخصيّة الجدّ الأعلىٰ للباطيين، بالرغم من أن هؤلاء الملوك لم تكن لهم في البداية أيّة علاقة بهذه الشخصية الخيالية. ويخلص «مالتن» من ذلك إلى القول بأنّه عند وقوع الغزو الدُّوري لبلاد الإغريق، إبّان القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ترتب على ذلك حدوث استيطان إغريقي أولي في قوريني، التي لجأت إليها آنذاك الأقوام «الأخينية» التي طردها الدوريُّون من جزيرة البيلوبونيز؛ وأن أسرة الباطيين المالكة قد بادرت فيما بعد فانتحلت لنفسها ذكرىٰ هذه الهجرة الإغريقية المغرقة في القِدَم ـ والتي حفظتها لنا أسطورة «إيوفيموس» ـ جاعلة منها أسطورة لنسبها هي. وهكذا، فإن ضياع قبضة الطين من «إيوفيموس»، عندما كان على ظهر المركب «آرجو»، وانجراف تلك القبضة مع الأمواج إلى أن قذفت بها على يابسة جزيرة «ثيرا»، ثم ما تلا ذلك من تأخُّر إنشاء مدينة قوريني أمداً طويلاً، إلى أن تحقّق ذلك بفضل الجيل السابع عشر من سلالة «إيوفيموس»؛ لم تكن سوى حيلة بارعة لجأت إليها أسرة «باطوس» فيما بعد لاحتواء أسطورة «إيوفيموس» وجعْلها عنصراً من عناصر أسطورتها هي، بهدف اختلاق ماضٍ عريق لنفسها.

ونحن نعترض أوّلاً على هاتين النظريتين لشدّة افتقارهما لأي سند يقيني. ذلك أن ما نلمسه من تماسكٍ وتجانس في رواية كلٍّ من «بنداروس» و «هيرودوتس»، بالرغم من اختلاف المصادر التي استند عليها كلّ منهما، لا تترك مجالاً للإفتراض بأن قصّة إنشاء مدينة قوريني كانت نتيجة لوقوع كل تلك الحزازات والخصومات التاريخيّة. والمُلاحظ أن النُّصوص القديمة لا تنطوي على أيّة إشارة أو تلميح يمكن أن نفترض منه أنّه توجد لأسطورة «إيوفيموس» أيّة صيغة أخرىٰ. ذلك أنّه لا يمكننا اعتبار عبارة الخطيب الأثيني «إيسوقراطس»[1]، (436ق م ـ 338ق م) ـ التي نسبت إنشاء مدينة قوريني إلى

(1) تعلم فنّ الخطابة في تساليا، ثم افتتح مدرسة للخطابة في أثينا في سنة 391 ق م، نالت شهرة =

الإسبرطيين ـ صيغةً أخرى للأسطورة. فعبارته المشار إليها لا تُعدّ سوىٰ صدىٰ من الأصداء الكثيرة للنزعة الدورية التي كانت تدفع إغريق قوريني إلى التذكير دوماً بوشيجة الأصل الذي يربطهم بإسبرطة. فهذه المدينة الدورية العظيمة كانت في الحقيقة، هي صاحبة الفضل في إنشاء قوريني، بشكلٍ غير مباشر، أي عبْر جزيرة ثيرا، وذلك مثلما ذكر «بنداروس»، تلميحاً، في أحد أبيات بوثيَّته الخامسة. وليس هنالك ما يدعو إلى العجب إذا ما كرَّر نفس القول خطيب مفوَّه مثل «إيسوقراطس»؛ فهذا ليس في التحليل الأخير سوىٰ تأكيد لهذه الفكرة على لسان خطيب من الخطباء. والواقع أن العنصر البيلوبونيزي في قوريني الدورية، لم يكن قط محتاجاً إلى اصطناع رواية مزيفة للتنْويه بإسهامه في إنشاء هذه المدينة. ثم أنه لم يحمل «شتودنيكزكا» على القول بهذه الفرضية العقيمة سوىٰ محاولته صياغة نظرية شاملة حول الموضوع، وهي نظرية تزعم القدرة على تفسير تاريخ كل من قوريني وجزيرة «ثيرا» برمَّته بعزْوه إلى صراعات عرقيّة. غير أن الحفريات الأركيولوجية التي قام بها «دراجيندورف» و«هيللرفون جارتر ينجن» في جزيرة «ثيرا» ـ وهي الحفريات التي برهنت على الطابع الدوري الصميم لأهلها الأقدمين ـ قد قوَّضت أركان هذه النظرية ودحضتها هي وما ترتب عليها من فرضيّات تاريخية.

أمّا فيما يتعلّق بالمسحة الجدلية التهجُّمية التي زعم «شتودنيكزكا» و«مالتن» أنّهما لمساها في البوثيَّة الرابعة؛ فإنني شخصياً لم أشعر بوجودها بين أبيات هذه البوثيَّة. فـ«بنداروس» يقصُّ علينا في بوثيَّته هذه قصة جميلة كان جمهوره يعرفها جيداً؛ والتسلسل الرائق لعباراته الشعرية لا يتّسق مع الزعْم بأن

= واسعة. اشتهر بخطبه التي كان يوجهها إلى الجمهور الأثيني، خصوصاً أثناء دورات الألعاب الهلينية الجامعة؛ ومن هذه الخطب: «الخطبة المديحية»، و«عن السلام»؛ و«الحكيم»؛ و«العيد الأثيني»؛ و«التصدّي للسوفسطائيين». ولقد تخرَّج من مدرسة الخطابة التي أسَّسها «إيسوقراطس» عدد من المشاهير من بينهم أرسطو.

هذه البوثيّة كانت من الأعمال الجدليّة التهجّمية! . . إن أسطورة «إيوفيموس» كانت معروفة للإغريق من قديم الزمان؛ فنحن نعثر على هذه الشخصية مرسومة على «علبة سيبسيلوس» الأثرية، التي تصوره أحد المتسابقين في رياضة العربات. كما نجد صورته مرسومة أيضاً على وعاءٍ للخمرة يُعرف بـ «وعاء آمفياراوس». ونحن نجهل ما إذا كان الملوك الباطيُّون ينتسبون حقًّا إلى هذا الجدّ المزعوم، أمْ إنهم ادَّعوا انتماءهم إليه مجرّد ادِّعاء. غير أن الذي لا جدال فيه هو اشتراك هذه الشخصية الأسطورية في رحلة الأرجونوتيين البحرية العجيبة. أمّا فيما يتعلّق بحادثة اختفاء قبضة الطين من المركب «آرجو»، فإننا لا نعتبرها من الأساطير المستغربة؛ لأن لجوء أصحاب الأساطير إلى التذرُّع بسوء الطالع الذي كثيراً ما يُعزى إلى سهْو الخدم وإهمالهم، هو من الموضوعات المألوفة في الأدب الشعبي عند الإغريق. وإذا ما نحن جرَّدْنا الأساطير الإغريقيّة من جميع تفاصيلها الحشوية الثانوية، فإنه لن يبقىٰ منها شيء. إذْ أنّه سيتحتّم علينا عندئذٍ ـ مثلاً ـ بتْرُ مقطعٍ طويلٍ من النصّ الأصلي للنشيد العاشر لـ «أوديسًا» «هوميروس»، بذريعة التخلُّص من الطابع الحشوي لقصة «قِرْبة» إله الرياح «إيلوس» التي فكّ أصحاب «أوديسيوس» رباطها[1].

(1) تقول «الأوديسًا»، أنه بعد سقوط طروادة قفل أوديسيوس راجعاً إلى جزيرته «إيثاكة»؛ إلاّ أن غضب الإله «بوسيدون» عليه جعله يضلّ الطريق، حيث حطّ في النهاية بجزيرة تحكمها الحورية «كاليبسو». واعتقلت هذه الحورية أوديسيوس بجزيرتها تلك لمدة ثمان سنوات لأنها كانت تحبّه ولا تريد له أن يذهب عنها. ثم حدث وأنْ عقد آلهة الإغريق مجلساً بأعالي جبل الأوليمب، حيث طلبت الإلهة «أثينا بالاس» منهم أن يأمروا بإطلاق سراح أوديسيوس، كي تتسنّى له العودة إلى زوجته «بنلوبي» وإلى ابنه «تيليماخ»؛ فوافق كبير الآلهة «زيوس»، وأوفد الإله «هرمس» إلى الحوريّة «كاليبسو» يأمرها بإطلاق سراح أوديسيوس والسماح له بالعودة إلى جزيرته «إيثاكة»، فأذعنت لأمر الإله. وفي طريق عودته تعرَّض أوديسيوس لأهوال ومغامرات يطول شرحها؛ إلى أن وصل إلى جزيرة يحكمها إله الرّياح «إيلوس»، الذي رأف به، بدوره، وساعده على العودة إلى أهله وجزيرته بأن منحه قِرْبة من جلد ثور، كبيرة الحجم، حبس فيها هذا الإله كل الرياح المعاكسة. ورُبطت القربة المنفوخة إلى مركب أوديسيوس بإحكام بواسطة =

والأحرىٰ بنا أن نعتبر اختلاق «بنداروس» لواقعة سقوط قبضة الطين من المركب، على أنّه أحد أساليب التشويق التي يلجأ إليها القصّاصون عادة لشدّ إنتباه جمهور سامعيهم، وهم يروون لهم غرائب تصاريف القدر. ولنعترف فقط بأننا عاجزون ـ في ظل الوضع الراهن لمعلوماتنا ـ عن تحديد أصل ومغزى أسطورة «إيوفيموس» ـ تحديداً دقيقاً ومُرْضياً.

ولقد خُيِّل لـ «مالتن» أنّه عثر على سند يدعم فرضيته، عند إبانته عن وجود العديد من الشخصيّات الأسطورية التي يشترك فيها التراث الشعبي المروي في قوريني وفي جزيرة البيلوبونيز؛ مثال الزعم بأن البطل الطروادي «إيوريبيلوس» هو من أصلٍ أركادي، بحسب سلسلة النسب التي ذكرها «أكيساندروس». لكن استناد الباحث على افتراضات كهذه يعني أنّه يعوِّل كثيراً على مزاعم وَضّاع أساطيرٍ هلينستي كـ «أكساندروس» الذي تشير كل الدلائل على أنّه حرَّف ـ كعادة أمثاله من الكتّاب المنتحلين في عصره ـ نصّ الأسطورة الأصلي، فزاد فيه وأكمله على هواه. والواقع أن أمثال هؤلاء المنتحلين الملفِّقين وهُواةُ سرْد الأساطير القديمة من المؤلِّفين المحليين، لم يكن لديهم، تجاه مصادرهم التاريخيّة، وتجاه الحقيقة العلمية ذاتها، نفس ذلك الاحترام الذي ينادي به اليوم علماء الآثار المعاصرون. ذلك أن سلاسل النسب التي

= سلْك من الفضّة كيلا تتسرَّب منها الرياح سوى بقدرٍ معلوم يسمح بدفع المركب بقوة نحو جزيرة «إيثاكة». وبالفعل ظلّت الرياح المحبوسة في القربة تدفع بالمركب لمدة تسعة أيّام حتى كاد أوديسيوس أن يصل إلى جزيرته. غير أنّه في غفْلة منه بادر أحد رفاقه ففتح فوهة القرْبة، فاندفعت الرياح منها بقوّة وطوَّحت بمركبه بعيداً عن جزيرة «إيثاكة» التي كان قاب قوسين أو أدنى منها. وهكذا اضطر الملك «أوديسيوس» إلى الدخول من جديد في متاعب ومغامرات لا نهاية لها. وتعتبر عودة أوديسيوس من حرب طروادة إلى وطنه إيثاكة، وما لاقاه في تلك العودة من أهوال الموضوع الرئيسي لملحمة الأوديسًا. وفي أثناء غياب «أوديسيوس» عن مملكته إيثاكة طمع نبلاؤها في زوجته «بنلوبي» وأقاموا في قصره خاطبين ودّ زوجته هذه وطامعين في عرشه لاعتقادهم بأنه ميت.

كان يخترعها أولئك المنتحلون القدماء، لا تعدو أن تكون في الغالب مجرد صياغات اعتباطية، لا يمكن للمؤرِّخ الحقّ أن يعثر فيها على أيّة معلومات يُعتدُّ بها.

ويُورد «مالتن» أسماء العديد من الآلهة والأبطال الأسطوريين المشاهير الذين عرفتهم قوريني، محاولاً بذلك البرهنة على وجود تأثير أركادي قديم فيها. فهو يسوق لنا مثلاً أسماء كلٍّ من «باسيفايْ»[1] ـ زوجة ملك كريت الأسطوري «مينوس» وأم الآثمة «فيدرا» التي أغوت ابن زوجها بفتنتها ـ وكذلك «حوريات هيسبيريدس»[2]، و«لاتونة» زوجة الإله «زيوس» وأم «أبوللو»، كما يشير أيضاً إلى إله آلهة الإغريق «زيوس» نفسه. ولا يسمح المقام هنا بتقصّي الأهمية الفعلية للطابع الأركادي لهذه الشخصيّات الأسطوريّة؛ إذْ لا شك في أن بعضها على الأقل كان أركاديًّا، كـ«زيوس» مثلاً. غير أن هذا لا يعني البتّة أنه يتحتم علينا قبول الفرضية القائلة بأن قوريناثية كانت تعرف هؤلاء الآلهة والأبطال الأسطوريين الإغريق حتى قبل هجرة الثيرانيين إليها. فالهجرة الكبرىٰ التي عرفتها قوريني في عهد «باطوس الثاني»، والتي كانت من الأهمية بحيث اعتُبرت استعماراً استيطانيًّا إغريقيًّا ثانياً لها، تُعدُّ كافية لتفسير ظهور هؤلاء الآلهة والأبطال في أساطيرها المحليّة. لأن الموروث الأسطوري الذي جاء به إلى قوريني أولئك البيلوبونيزيُّون والكريتيُّون، إبَّان هجرتهم المذكورة، لا بد وأن يكون قد عرَّف هذه المدينة بهؤلاء الآلهة والأبطال الأسطوريين. ذلك أن نشوء قوريني هو من القِدم، (منتصف القرن السابع قبل الميلاد)، بحيث أُدْمج

---

(1) «باسيفاي» هي ابنة هيليوس وبرسايس. وعندما أرسل الإله «بوسيدون» ثوراً جميلاً إلى زوجها الملك «مينوس» وقعت «باسيفاي» في حب الثور وعاشرت هذا الحيوان وأنجبت منه الوحش «مينوتور».. فيما تزعم أساطيرهم.

(2) هنّ بنات أطلس وعددهن ثلاث أو أربع أو سبع. وتقول الأساطير أن لهنّ حديقة غنّاء بالمغرب خلف مجرى الأوقيانوس، وتقول أساطير أخرى أنها توجد بجبال أطلس.

هؤلاء الآلهة والأبطال ـ خلال الفترة التي دُوِّنت فيها مصادرنا التاريخية عنها ـ في التراث الديني لجميع القورينيين الإغريق.

وهكذا ينهار صرح تلك الأدلّة والبراهين الأسطورية التي أقام عليها «مالتن» نظريته القائلة بقيام مستوطنة إغريقية في قوريناثية في زمنٍ سابق على تلك المستوطنة التي أسّسها الثيرانيُّون فيما بعد. ونحن لا نندهش لحقيقة أن الحفريات الأثرية لم تمدّنا حتى الآن بأي عنصرٍ إيجابي مؤيِّدٍ لهذه الفرضية التي لا سند لها. ومع ذلك فإنه لا بدّ لنا وأن نتوخّى التحفُّظ التالي: وهو أن حفريات الأعماق ـ التي هي وحدها الكفيلة بالوصول إلى المستوى التّنقيبي الذي يسمح بتقليب طبقات الأرض الأكثر عمقاً ـ لم تتم سوى في موقع مدينة قوريني نفسه، دون غيره؛ بل وفي عددٍ صغير فقط من نقاط ذلك الموقع. وهذا أمرٌ يحمل المرء على التزام جانب الحذر في فرضيّاته، إذا أراد أن يخلص إلى نتائج القصد منها دحْض الاعتقاد بقيام استيطان إغريقي للمدينة سابق على استيطان الثيرانيين لها. لكن الأماكن التي بُوشِرت فيها العمليات المحدودة لسبْر الأعماق، سواء تحت معبد «أبوللو» أو تحت معبد «أرتيميس»[1]، أو تحت معبد «زيوس» الكبير، أبانت عن أن هذه المعابد كانت هي أقدم معابد المدينة وأكثرها قداسة. ولا يغْرُب عن بالنا ما عُرِف به العالَم الإغريقي من نزوعٍ إلى إقامة أماكن للعبادة ـ بآستمرار ـ في نفس المواقع المماثلة الأقدم منها عهداً؛ ولذا فإننا نرى أنه إذا كان قد وقع في قوريني استعمار استيطاني سابق على الاستيطان الباطني؛ لكُنّا قد عثرنا عندئذٍ تحت

(1) «أرتيميس» هي إلهة الصيد الأسطورية عند الإغريق، وأخت الإله «أبوللو» التوْأم. وتقول المثيولوجيا الإغريقية أن «أرتيميس» (= أرتيميدا) قد ولدت فوق جزيرة ديلوس. وعموماً تعتبر «أرتيميس» هذه الإلهة التي تحمي كل ما يدبُّ على الأرض أو ينبت في الغابات. كما اعتبرت كذلك حامية الأمهات التي تضمن لهن الولادة السليمة. وتصورها التماثيل على هيئة ربّةٍ قنّاصةٍ تحمل كنانتها فوق ظهرها. ويسميها الرومان (ديانا).

المعابد الثلاثة المذكورة ـ وليس في موقعٍ آخر ـ على لُقَىً أثرية تنمُّ عن ذلك. غير أنّه لم يُعثر حتى الآن في منطقة قوريني على شواهد أثرية تعود إلى أقدم من منتصف القرن السابع قبل الميلاد. فأقدم هذه الشواهد التي كشفت عنها عمليات التنقيب الأثري هناك هي عبارة عن بعض شَقَف الخزف الكورينثي، وتمثال صغير من الحديد، لعلّها راجعة إلى نهاية القرن السابع قبل الميلاد.

وبالتالي ـ ومع التحفُّظ، بطبيعة الحال، بأن اكتشافات لاحقة قد تقود الباحثين إلى تبنّي فرضيّات مخالفة ـ فإننا نخلُص من دراستنا للفرضيّات المُحدثة القائلة بقيام استيطان إغريقي مزعوم لوقرينائية، سابق على استيطان الباطيين فيها، إلى الجزم قطعيًّا بالبطلان الكامِل لهذه الفرضيّات. والحقيقة أنّ الباطيين القورينائيين أنفسهم كانوا على صواب عندما اعتقدوا بأنه لم يسبقهم على الاستقرار على أرض قورينائية أحد سوى الليبيّين وحدهم، من حيث أن هؤلاء الأخيرين هم السكّان الأصليين للبلاد. فالحضارة الإغريقية لم تترك بصماتّها على هذه الأرض الليبيّة ـ للمرة الأولىٰ ـ إلّا مع مجيىء المعمِّرين الثيرانيين إليها. ونحن نرىٰ بأن رواية «هيرودوتس» حول هذا الموضوع ـ كما هو الحال حول موضوعات أخرى ـ تسعفنا بالمادة التاريخية الوحيدة التي يمكننا التعويل عليها بقدرٍ معقول.

الفَصلُ الثَالِث

أحداث جزيرة ثيرا

ظلّ «هيرودوتس»[1] يتتبّع جذور استعمار جزيرة «ثيرا» حتى الفقرة رقم 149 من تاريخه الكبير. وهذا القسم من روايته لا يتعلّق في الحقيقة بقوريني مباشرة؛ وإنما ينصبُّ على جزيرة «ثيرا» وعلى إسبرطة، اللتين جمع معلوماته عنهما من مؤلّفات مَنْ أرّخوا لهما أو مِنْ أفواه مواطنيهما ممن كانوا مقيمين في الخارج. لكنه ابتداءً من الفقرة رقم 150 من «الكتاب الرابع» من تاريخه، نراه يتحوّل إلى حلقة جديدة من روايته، تنصبُّ على استيطان الإغريق في قوريني. ومنذئذٍ نجده يكفُّ عن التعرُّض لإسبرطة، مركّزاً إهتمامه فقط على قوريني وثيرا وحدهما. وهذا يعني أنَّ «هيرودوتس» قد توجّه إلى هاتين المدينتين لاستقاء معلوماته التاريخيّة؛ وهو كلما لاحظ اختلافاً ما بين الروايات الشعبيّة المتواترة فيهما، نراه يحرص على التمييز بينهما بكل عناية. ومع أننا لا نملك الدليل القاطع على أن «هيرودوتس» قد زار جزيرة ثيرا؛ إلّا أنّه لا يجدر بنا أن نخلُص من ذلك ـ مثلما فعل «مالتن» ـ إلى أنّه لم يستق معلوماته

(1) ولد «هيرودوتس» حوالي سنة 484 ق م، وتوفي حوالي سنة 420 ق م. ولقد حاول أن يجعل من كتابه «التواريخ» سفراً يحوي جميع الأحداث الواقعية والأسطورية التي تثبت مدى التضادّ بين الشرق (مصر وفارس) وبين الغرب المتمثّل في الحضارة الإغريقيّة، فتحدث فيه عن كل شيء في أسلوب وصفي تقريري يفتقر غالباً إلى التحليل، وضمّنه وصف كل ما رآه أو سمعه كما ضمّنه قراءاته وكذلك الروايات المتواترة عبر الأجيال، واحتلّت الأساطير مكاناً بارزاً في كتابه.

التاريخية سوى من قوريني، وبأن الروايتين، الثيرانية والقورينية، لأسطورة إنشاء المستوطنة قد استُقيتا، في الحقيقة، من الفئتين الإغريقيتين اللتين يتألّف منهما المعمِّرون في هذه المدينة الليبيّة الكبيرة وحدها. ذلك أن «هيرودوتس» قد عزا إحدى هاتين الروايتين، صراحة، إلى أهل جزيرة ثيرا، وعزا الأخرى إلى إغريق قوريني. وأيًّا كانت الكيفيّة التي استقىٰ بها هاتين الروايتين ـ بشكلٍ مباشر أم غير مباشر ـ فإنه لا يحقُّ لنا، في غياب أي دليل مضاد، الطعن في شهادته القاطعة.

وبحسب ما جاء في الأسطورة الثيرانية، فإن ملك جزيرة «ثيرا» المسمّى «جرينوس» قد توجّه في أحد الأيّام إلى «موْحى دلفي». ولا يصرِّح لنا «هيرودوتس» عمّا إذا كان هذا الملك يرمي من وراء ذلك إلى استنْباء الوحي. وهو يقول أنّه كان من بين مَنْ رافقوا الملك إلى الموْحى شاب يدعى «باطوس بن بوليمنيستوس»، سليل عقِب «إيوفيموس المينوي». وخاطبت كاهنة الموحى الفيثية الملكَ «جرينوس» قائلة بأنّه يتوجّب عليه التوجُّه إلى ليبيا لإنشاء مستوطنة فيها. لكن الملك تذرّع بأنّه طاعن في السنّ، رافضاً الاضطلاع بهذه المهمّة، ونصح بتكليف «باطوس» بها، حيث وقع اختياره عليه بطريق الصدفة، من بين باقي رفاقه. وبعد عودة الملك ورفاقه إلى جزيرة «ثيرا»، نراهم لا يحْفلون بتنفيذ ما أشارت به الكاهِنة الفيثية؛ وذلك إمّا جهلاً منهم بعواقبه، وإمّا نتيجة لجُبْنهم. ثم تعرّضت الجزيرة لكارثة الجفاف واحتباس الأمطار. فتوجّه أهل «ثيرا» إلى الموْحى مجدّداً واستنْبأوا كاهنته الناطِقة بوحي الإله «أبوللو»[1]؛ فما كان منها إلاّ أن كرّرت على مسامعهم نفس الأمر الإلهي

(1) «أبوللو» هو أحد أهم آلهة الإغريق، ويسمى أيضاً «فويبوس». وهو ابن الإله «زيوس» والإلهة «ليتو»، وشقيق توأم للإلهة «أرتيميس». وهو عندهم ربّ الشمس والتنبؤ، والشعر، والموسيقى، ورب الشفاء، والطهارة، ومؤسّس المدن والمستعمرات وإله الشباب. وتصوّره الأعمال النحتية غالباً وهو يحمل إحدى مستلزماته التالية: القوس والسهم، أو المزمار، وعلى رأسه إكليل الغار، ويُصوَّرُ أحياناً وبيده عصا الراعي.

القاضي بالتوجُّه إلى ليبيا. وفي هذه المرة قرَّر الثيرانيُّون الإذعان لِمَا أُصْدر إليهم من أوامر، حيث بادروا فأرسلوا إلى جزيرة كريت وفداً للاستفسار فيها عن الوجهة التي يتوجَّب عليهم المضي نحوها بغية الوصول إلى ليبيا. وفي هذه الجزيرة التقىٰ وفدهم، عند مرفأ «إيتانوس» بصائدِ أصداف ومحار يدعى «كورويبوس» ارتضىٰ أن يدلّهم على وجهتهم وأن يقود جماعةً استطلاعيّة منهم إلى جزيرة تقع عند الساحل الليبي، تسمَّى جزيرة «بلاتيا». وبعد رجوع هذه الحملة الاستطلاعية، قرّر الثيرانيُّون إيفاد معمِّرين بهدف تأسيس مستعمرة استيطانية هناك؛ حيث أوكلت مهمة رئاستها إلى «باطوس». ثم أبحر المعمِّرون على ظهر مركبين من ذوات الخمسين مجذافاً واتّجهوا نحو جزيرة «بلاتيا» تلك.

ويؤكّد «هيرودوتس»، بأن الرواية القورينية تتفق منذ هذه اللحظة مع الرواية الثيرانيّة. غير أنّه فيما يتعلّق بما سبق ذلك؛ أي تحديد هويّة «باطوس»، فإن القورينيين قد قصُّوا عليه رواية مختلفة تماماً تشبه في مطلعها قصة حقيقيّة؛ وهي قصة «فرونيمي»، إبنة «إتيآرخوس»، ملك مدينة «أواكسوس» بجزيرة كريت. فلقد تعرَّضت هذه الفتاة لمقْت وأحابيل ووشايات زوجة أبيها؛ الأمر الذي أوْغر صدر هذا الملك ضدّ ابنته «فرونيمي»، فحاول التخلُّص منها بأن سلَّمها إلى التاجر الثيراني «تيميسون»، الذي رأىٰ إنقاذ حياتها بالرغم من أنّه أقسم لوالدها «إتيآرخوس» بإغراقها في عرْض البحر؛ فاصطحبها هذا التاجر إلى جزيرة «ثيرا»، حيث اتخذها هناك المدعو «بوليمنيستوس» حظيّة له، وضاجعها، فأنجبت له ولداً اسمه «باطوس» ابْتُلِيَ بتأتأة وقصور في النُّطْق جعله يتلعثم كلما تحدَّث. وعند بلوغ «باطوس» هذا سنَّ الرُّشْد نراه يتوجَّه إلى «موْحى دلفي»[1] لاستشارته حول عُقدة لسانه، فقد كان ألثغاً، فما كان من

(1) موْحي دلفي، هو معبد بمدينة دلفي كان الإغريق يستنبئون فيه وحي الإله «أبوللو». وكانت تقدم فيه ذبائح وقرابين ونذور من خمر وعسل وخيول وكباش. وهو يقع عند سفح جبل=

الكاهِنة الفيثيَّة إلّا أن ردَّت عليه قائلة:

«.. يا باطوس!.. لقد جئتَ تسْتنْبيء عن صوتك.. فلتعْلم أن الربَّ الطاهر يبعث بك إلى ليبيا، أرض الأغنام، كيْ تؤسِّس فيها مدينةً».

ولم يفهم «باطوس» ما الذي قصدت إليه الكاهنة وبدا له ردُّها وكأنّه لا معنى له. وحيث أنّه لم يحصل منها على ردٍّ آخر، فإنه قفل راجعاً إلى «ثيرا» مُغْضباً. غير أن نوائب الدهر تكالبت عليه وعلى مواطنيه الذين عادوا فاسْتنْبأوا «موْحى دلفي» ثانية؛ وعندئذٍ أمرتهم كاهنة الموْحى مجدَّداً بالتوجُّه مع «باطوس» إلى ليبيا لإنشاء مستعمرة فيها. وهكذا، فإن «باطوس» هيَّأ مركبيْن من ذوات الخمسين مجْذافاً ورحل بها. غير أن رفاقه من المعمِّرين لم تكن لديهم رغبة في البقاء في أفريقيا، ولذا فإنهم سرعان ما قفلوا راجعين إلى جزيرة «ثيرا»، حيث تصدّىٰ لهم أهلها بوابلٍ من الأحجار، بحيث فشلوا حتى في الإرساء بمركبيهم عندَ ساحل الجزيرة. وهكذا، فإنهم لم يجدوا بُدًّا من الإبحار مجدّداً والتوجُّه نحو جزيرة «بلاتيا» لاستيطانها.

إن التشابه بين هاتيْن الروايتين شديدٌ للغاية، بالرغم من أنّه قد لا يبدو كذلك للوهلة الأولىٰ: ففي كِلا الروايتين نجد أن كاهنة موْحى دلفي تلعب دوراً رئيسياً؛ فهي تجيب بردٍّ لا علاقة له البتّة بالموضوع الذي إستُنبئت حوله، حيث أمرت سائلها بالتوجُّه إلى ليبيا بغية إنشاء مستوطنة فيها. وتُسْتقبل نصيحة الكاهنة في كِلا الروايتين بالإستخفاف وبعدم الانصياع. ويعقب ذلك حلول كارثة بالجزيرة، مما حدا بأهلها إلى استِنْباء الموْحى وكاهنته ثانية، حيث أُتيحت الفرصة لهذه الأخيرة بأن تعيد إلى مسامعهم نفس الأوامر القاضية بالتوجُّه إلى

= برناسوس، على ارتفاع ألفيْ قدم فوق خليج كورنيثة، وهو أقدم وأقدس معابد الإغريق الوثنية. ولقد خرّبه الفرس سنة 480ق م، ثم خرَّبه الغاليُّون سنة 279ق م. واستولىٰ الطاغية الروماني «نيرون» على خمسمائة من تماثيله. وظل موحى دلفي قائماً حتى 390 ميلاديّة حيث أُغلق باسم المسيحيّة نهائياً.

ليبيا. وفي هذه المرّة نجد أن أوامر الكاهنة لا تُعْصى: إذْ أن حملة أولىٰ قد توجّهت إلى ليبيا، وإنْ لم تمكث بها وعادت أدراجها إلى جزيرة «ثيرا»، ثم عادت الحملة فرحلت عنها مجبرة، في التَّوِّ، نحو ليبيا للنزوح إلى «بلاتيا».

ونخْلص من هذا التشابه المُلفِت للنظر في الروايتين ـ وهو تشابهٌ لم يوضحه أحد بما فيه الكفاية حتى الآن ـ إلى أن الأمر يتعلّق في كلتيْهما بتفسير نفس الوقائع التاريخية التي نُظر إليها من خلال وجهتيْ نظرٍ مختلفتين. وإذا كان هذا التفسير قد شابته عناصر خرافيّة، فهذا واضح للعيان. وعلى أيّة حال، فإن هذا شيءٌ طبيعي، ما دام الأمر يتعلّق بأحداث كان قد آنقضىٰ على وقوعها قرابة القرنين من الزمان حينما جمع «هيرودوتس» روايته عنها، وهي أحداث لم تُتناقل ـ في البداية على الأقلّ ـ سوى عن طريق الرواية الشفهيّة. لكن احتفاظ الروايتين بنفس تفاصيلهما على هذه الشاكلة، في بيئتيْن ثقافيتيْن متباعدتين مكاناً، هُما البيئة الثقافيّة الثيرانيّة والبيئة الثقافية القورينية، يبرهن، في رأينا، على أن لُبَّهما المشترك، على الأقل، ينطوي على شيءٍ من المسْحة الحقيقية وأنّه ليس أسطورة خالصة.

وإذا ما نحن قلّبْنا الروايتين، فإن القورينية منهما تتبدّىٰ لنا كما لو كانت هي الرواية الأكثر تطعيماً بعناصر مُختلقة: فأوّلاً: نحن نلاحظ أن قصة «فرونيمي» قد اختُلقت بالتأكيد اختلاقاً، هي والمفارقات التي تخلّلتها، والتي قد نلمس فيها أصداءً لعناصر شائعة في الأدب الشعبي الإغريقي؛ من ذلك مثلاً: كراهية زوجة «اتيآرخوس» لابنته «فرونيمي» التي رُزق بها من غيرها؛ ومنها أيضاً ذلك القَسَم الذي تمكّن الملك «اتيآرخوس» من أن يحمل التاجر الثيراني الساذج «ثيميسون» على قطْعه على نفسه، دون تريُّثٍ، بإغراق الإبنة في مياه البحر؛ وكذلك الحيلة التي اخترعها هذا التاجر كي يضمن، في آنٍ واحدٍ، عدم حنْثه في قَسَمه، بأنْ نفّذ هذا القَسَم حرفيًّا، وكذا الحرص على عدم إلحاق الأذىٰ بالفتاة «فرونيمي»، وذلك عندما أوثقها بالحبال وقذف بها إلى مياه

البحر حتى توارت ثم انتشلها على الفور دون أن يصيبها مكروه؛ وبذلك يكون قد نفَّذ منطوق قَسَمه بإلقائها في اليمِّ. ولنأخذ بعين الاعتبار فقط ـ في الرواية القورينية للأسطورة ـ أن «فرونيمي»، والدة «باطوس» وابنة «إتيآرخوس»، هي من أصل كريتي. فهذا هو أحد الدلالات ـ مثلما ذكر الإيطالي «جواردوتشي» ـ في الجزء الثاني من كتابه المسمَّى «النقوش الكريتيَّة» ـ على قيام صِلات منذ أقدم العصور بين قوريني وبين جزيرة كريت. ومع ذلك فإنه لا مجال لأن نخلص من ذلك ـ كما فعل الفرنسي «لوجران» في سِياق شرحه للكتاب الرابع من تاريخ «هيرودوتس» ـ إلى أن الرواية القورينيَّـة للأسـطورة قد انبثقت بالضرورة من الوسط الثقافي لمعمِّري قوريني من ذوي الأصل الكريتي؛ لأن هذه الواقعة الجزئية هي من التفاهة بحيث لا تصلح لأن نستخلص منها نتيجة كهذه.

كذلك فإن «هيرودوتس»، في سياق عرضه للرواية القورينية، نراه يُبْدِي، فيما يتعلَّق باسم «باطوس»، رأياً يعزوه في هذه المرة إلى نفسه؛ حيث يقول في الفقرة رقم 155 من الكتاب الرابع من تاريخه الكبير، ما نصُّه:

«.. وبعد مضيٍّ بعض الوقت، أنجبتْ [فرونيمي] ولداً عَيِـيَّ النُّطْق، آبْتُلِي بتأتأة، سُمِّيَ باطوس، بحسب قول القورينيين والثيرانيين. لكنني، من جانبي، أعتقد أنه أُعطِيَ اسماً آخر، بدَّله بآسم باطوس بعد مجيئه إلى ليبيا [. . .] لأن باطوس يعني باللسان الليبي: ملك».

وإذن، فإن «هيرودوتس» قد وجد في قوريني قرينة تُطابق بين اسم مؤسِّس هذه المدينة وبين مصطلح من اللغة المحليّة في ليبيا، يعني «ملك». ولقد أيَّد بعض العلماء المحْدثين وجود مثل هذا التقارب؛ مذكِّرين بأن اللقب الذي كان يُلقَّب به ملك الوجه البحري في مصر، (وهو اللقب الذي يُرْمز إليه في اللغة الهيروغليفية بالنَّحلة)، هو لقب (بِيتْ). وإذا كان «هيرودوتس» قد لاحظ هذا الاشتقاق الممكن للاسم، فإن هذا لا يعني أنّه أراد التشكيك في صحّة

الأسطورة التي استندت على التقارب، أو التطابق، في اللغة الإغريقية، بين رسم كلمة «باطوس» وبين رسم فعْل «تأتأ» في هذه اللغة نفسها؛ فصورت مؤسِّس المدينة على أنّه ألْثغ عَيِيٌّ النُّطْق. فالمهم في الأمر ـ في نظر «هيرودوتس» ـ يتمثّل في إيراد مثلٍ صارخ للتأكيد على مدىٰ بُعْد نظر كاهنة موْحى دلفي التي سمّت باطوس ـ حتى قبل رحيله إلى ليبيا ـ بنفس هذا الاسم الذي لم يكن قد أُطلق عليه بعدُ، والذي يُنْبِيء مقدَّماً بمصيره الذي سيؤول إليه كملك. ولكن ها نحن نُحمِّل الأسطورة أكثر مما تحتمل. ونحن لا يمكننا أن نستسيغ نعْت شخصٍ عيـيٍّ النُّطْق بآسم «باطوس»، دون غيره من الأسماء، من غير أن تكون لهذه التسمية علاقة بعاهة النطق هذه التي ابتُلِيَ بها. فكيف لنا، إذن، أن نخرج برؤية واضحة وسط هذه البلبلة؟

يبدو لي أن هنالك حلّان لا ثالث لهما، يمكننا التّعْويل على أحدهما: فإمّا أن «باطوس» كان يُسمَّى بالفعل باطوس، ولكن دون أن يعني هذا ألبتَّة أنه كان يعاني صعوبات في النُّطْق؛ مثلما يحدث من أن بعض أهل زماننا يُسمَّوْن «الأَلْثغ»[1]، دون إصابتهم بهذه العاهة حقيقةً. وعندئذٍ فإن أسطورة اللُّثْغة بجميع ذيولها وتفاصيلها، تكون قد اختُلِقت فيما بعد انطلاقاً من هذا الاسم وحده. أمّا التشابه مع كلمة «ملك» في اللهجة الليبيّة المحليّة القديمة، فإنه لا يعدو أن يكون أمراً إتّفاقيًّا محضاً. وإمّا أن باطوس قد اتّخذ لنفسه هذا الاسم حقيقةً بعد وصوله إلى ليبيا، كي يسبغ على نفسه لقب باطوس الملكي ليتباهىٰ به في أعين القبائل الليبيّة المحليّة؛ إلاَّ أنّه سرعان ما أحاط بهذا اللقب لَبْس لغوي بسبب تشابهه الجناسي مع فعل «يتلعثم» بالإغريقيّة، ونظر إليه الإغريق على أنّه اسم علم، لا علىٰ أنّه لقب. ولذلك نلاحظ أنّه بدلاً من أن يحمل أوّل خلف لباطوس على عرش قوريني نفس هـذا الاسم، نـراه يسمّى «أركسيلاوس»، في حين اتّخذ نفس ابن هذا الأخير وخليفته اسم جدِّه

(1) الأَلْثغ هو «الوكواك» في اللهجة الليبيَّة العاميّة، وهو أيضاً: «الأثقب».

باطوس، تبعاً للتقاليد الهلّينيّة.

ونحن نرى أن ثاني هذيْن التفسيريْن هو الأقرب إلى الصواب؛ من حيث أنّه يجد له سنداً وتأكيداً في أن المؤلّفين القدماء، من أمثال «ديودوروس الصقلّي»، و«هيراقليطس» و«كاليماخوس»، و«أكيساندروس»، و«أرسطو» ـ شأنهم في ذلك شأن «بنداروس» في بوثيّته الخامسة ـ يسبغون على «باطوس» ذلك الاسم الآخر، الذي لم يصرِّح به «هيرودوتس» حيث أنّهم يسمُّونه «أريسطوطيليس». إن تجاوُرَ هذين الاسمين ـ أي تسمية مؤسّس قوريني بـ «باطوس أريسطوطيليس» ـ في كُلّ النصوص القديمة العائدة إلى أولئك المؤلّفين، يجعل المرء يعتقد بأن «هيرودوتس» كان مُحقًّا عندما اعتبر أحدهما لقباً. وعلى أيّة حال، فإن قصة إصابة هذه الشخصيّة بالتلعْثم والتّأتأة، ومعها التفاصيل المثيرة الأخرىٰ التي أضافها إليها المؤلّفون القدماء، والنبوءات الدينيّة التي أوردوها في سياقها، كانت قد اختُلقت بالطبع اختلاقاً لتفسير كلمة «باطوس». لقد كان لقدماء الإغريق ولعٌ بتفسير اشتقاقات الكلمات، وهي ظاهرة ما نزال نلمسها لدىٰ أحفادهم اليونانيين المعاصرين. ولا بد وأن هذا اللبْس قد نشأ وتطوّر في قوريني نفسها: فـ «هيرودوتس» يعتبره قورينيَّ المنشأ؛ لأنه ما كان لـ «باطوس» أن يُثير في غير مدينته قوريني إهتماماً عفويًّا كفيل باختلاق أساطير حول شخصيته. والطابع الشعبي للقصّة قد أوضحته بجلاء تلك الواقعة الخاصة بمعجزة الشفاء التي أبرأت هذا البطل من عاهة التّأتأة؛ فلقد احتفظ لنا المؤرِّخ والجغرافي الإغريقي «باوسانياس»[1] برواية مُشينةِ المغزىٰ لهذا البرأ والشفاء؛ حيث يقصُّ علينا أن باطوس لمح عند مجيئه إلى ليبيا أسداً في الصحراء، فأنتابه عندئذٍ رعبٌ شديدٌ لمشاهدته لهذا الحيوان

(1) عاش «باوسانياس» في القرن الثاني بعد الميلاد، وهو مؤلّف كتاب في وصف بلاد الإغريق يسمى الوصف الجغرافي ـ PERIEGESIS». ويُعتقد أنه زار فلسطين ومصر. وكان معرّفاً بوصف المعابد، خصوصاً معبد دلفي ومعبد الأوليمبيا.

الكاسر، بحيث أن حالة الرعب هذه قد أبرأته من عاهته وردَّت إليه نطقه السليم، وأطلق صرخة مدويَّة طالباً النجدة. إن أسطورة التقاء باطوس بالأسد في الصحراء هي أسطورة قديمة جداً، فلقد عرفها حتى «بنداروس» الذي قام ـ كعادته ـ بتحويرها، حفاظاً على سمعة وكرامة ممدوحه «أركسيلاوس»، بحيث جعلها جديرة بهذا البطل الذي نوَّه هذا الشاعر بخصاله. ولكن حتى الكيفيَّة التي روى بها «بنداروس» هذه الأسطورة ـ زيادة عن إشارة خفيَّة لمَّح بها في البوثيَّة الرابعة إلى عاهة النُّطْق التي أصابت باطوس مؤسِّس قوريني ـ قد كشفت عن مدىٰ تجنِّي هذا الشاعر الكبير على الحقيقة. فالقصَّة إذن هي محض أسطورة شعبيَّة فرضت نفسها، طوْعاً أو بالإكراه، على أسرة الباطيين المالِكة، وكانت حتى زمان «هيرودوتس» ما تزال تثير الريبة وعدم التصديق لدىٰ دارسي تاريخ قوريني. ولا شكَّ في أنَّه يتوجَّب على المؤرِّخ المعاصر أن يعزو القول بالأصل اللغوي الليبي لكلمة «باطوس» إلى أُولئك الدارسين القدماء.

وهنالك مقطع أخير من الرواية القورينية للأسطورة نعتبره مَثار شكٍّ هو الآخر؛ ونعني بذلك قيام الثيرانيين برجْم رفاق «باطوس» بالحجارة وطردهم، على أثر فشل هؤلاء ـ الذي لا مبرِّر له ـ في محاولة استيطانهم الأولىٰ بجزيرة «بلاتيا»، بحيث اضطرُّوا إلى الإقلاع مجدداً والابتعاد عن جزيرتهم «ثيرا» حتى قبل أن يرسو مركبهم بشاطئها. والحقيقة أن هذه ليست هي المرَّة الأولىٰ في التاريخ التي يرفض فيها أهالي مدينة أو جزيرة إغريقيَّة استقبال معمِّرين نازحين عند محاولتهم العودة إلى أرض الوطن الأمّ. ومع ذلك فإن المرء لا يستطيع أن يمنع نفسه من الاعتقاد بأن طرْد أُولئك المعمِّرين العائدين إلى جزيرتهم وإجبارهم على الإبحار في التوِّ ـ حتى وإن حدث فعلاً ـ قد بُولِغ فيه بعض الشيء. فنحن نرىٰ أن الخيال الشعبي الأسطوري يتدخَّل هنا في عناصر هذه القصَّة، مثلما حدث في قصة الفتاة «فرونيمي» التي سبق وأن عرضنا لها،

ومثلما حدث بالنسبة للبْس الجناسي اللغوي بين اسم باطوس وبين كلمة «الألْثغ» في اللّغة الإغريقيّة القديمة. وهكذا، ومع أخْذنا في الحسبان ذلك الأساس التاريخي الواقعي الذي تمثّله النقاط المشتركة للرواية القورينيّة مع الرِّواية الثيرانيّة للأسطورة؛ إلاّ أن الأولىٰ تبدو ـ عند التّمعُّن فيها ـ كما لو كانت مؤلّفة من مجموعة من الأقاصيص الخرافية التي حاكتها ونسجتها الروايات الشفهيّة الشعبية المتوارثة وجعلت «باطوس» الشخصية المركزية فيها. فالأهميّة التي يكتسيها الدور الذي يلعبه هذا البطل في الرواية القورينيّة ـ حتى وإنْ لم تكن الخصال التي تُعزىٰ إليه حميدة كلّها ـ إلاّ أنها تكفي للتدْليل على أنّ هذه الرواية لا تقدح بالضرورة في مكانة الباطيين وسمعتهم، مثلما اعتقد خطأً بعض الباحثين المحدثين. وفي هذا أيضاً دلالة علىٰ أن قوريني هي المنْشأ الأصلي لها فعلاً؛ إذْ نلمس فيها صدىً للأدب الشعبي الأسطوري الذي اختصّت به هذه المدينة. وهكذا فإن شهادة «هيرودوتس» لا يتحتّم أن تكون موضع شكّ، حتى في هذه المرّة.

ولنُمْعن النظر الآن في الرِّواية الشعبية الثيرانيّة. فهي تبدو منذ الوهْلة الأولىٰ أجْدر بالاستساغة والتصديق. فاسْتنْباء وحي دلفي ـ الذي يبدو أنّه لعب دوراً حاسماً في المسألة ـ قد الْتمسه «جرينوس» ملك «ثيرا»، وليس «باطوس»، الذي لم يشرْ إليه هذا الملك في الموْحى سوى بطريق الصدفة، دون بقية رفاقه الذين صاحبوه إلى موْحىٰ «أبوللو». إن هذا الدور الثانوي الذي لعبه مؤسِّس قوريني، هو، بدون شكّ، أشدّ إتِّساقاً مع الواقع مما ذهبت إليه الرواية القورينيّة، التي حرصت، منذ أوّل وهْلة، على إبرازه والتركيز عليه، بدافع من الاعتزاز الوطني، من حيث أنّه ملك قوريني. ولقد أوضح «هيرودوتس» بأن «جرينوس» لم يفكِّر إطلاقاً في تهجير معمِّرين إلى ليبيا، وبأنّه كان يسْتنْبىء الكاهِنة البوثيّة حول مسألة أخرىٰ عندما ردّت عليه بهذه الإجابة. ويُحتمل جدًّا أن يكون هذا الطابع المحيِّر لإجابة كاهنة الموْحى ـ الذي امتدَّتنا

به الرواية القورينية ـ صدىً حقيقيًّا للواقع. وعلى أيَّة حال، فإن الثيرانيين لم يُولُوا أيَّ اهتمام لهذه المشورة الغريبة. ولقد عاد عليهم هذا بأوْخم العواقب: ذلك أن جفافاً تواصل لمدة سبع سنوات قد أتىٰ على الحياة النباتية في الجزيرة ولم يُبْقِ فيها سوىٰ على شجرة واحدة. ومن الواضح هنا أنّه قد بُولِغ كثيراً في مسألة ذلك الجفاف، بحيث يبدو أن الأمر لم يكن سوىٰ مجرّد أسطورة. ومع ذلك، فإنه يتحتّم علينا أن نفترض ـ قياساً على ما جاء في الرِّواية القورينية ـ أن جزيرة «ثيرا» قد مرَّت بالفعل بفترة عصيبة، نجمت بدون شكّ عن مجاعة سببها موسم حصاد رديء. وعندما أُسْتُنْبِئت كاهنة الموْحى مجدّداً، فإنها أصدرت أمرها لهم بالتوجُّه إلى ليبيا، وعندئذٍ امتثل الثيرانيُّون لهذا الأمر.

وهبَّ هؤلاء للعمل، لأنه كان من الحِكمة أن يفعلوا: فأنْفذُوا رُسُلاً إلى جزيرة كريت للبحث فيها عن شخصٍ قادرٍ على أن يدلَّهم على الطريق إلى وجهتهم التي رسمتها الكاهنة لهم. وكان من الطبيعي أن يستنجد الثيرانيُّون بسكّان هذه الجزيرة الكبرىٰ القريبة من جزيرتهم، والذين كانت مراكبهم قد تعوَّدت، في القرن السابع قبل الميلاد، على جوْب البحار المشرقيّة. ولقد أبرزت دراسة وضعها الباحث «ب. دوماريني»، ونُشرت سنة 1949 م تحت آسم «كريتُ المتاهات» مدىٰ الازدهار الحقيقي الذي عرفته جزيرة كريت حوالي تلك الحقبة الغابرة، كما أبانت تلك الدراسة عن الكيفيّة التي امتزجت بها فيها جميع التيّارات الفنيّة القادِمة إليها من المشرق. وإنَّ ظاهرة كهذه تفترض قيام ازدهارٍ للتجارة البحرية في هذه الجزيرة. ولذا فإن لجوء الثيرانيين إلى البحّارة الكريتيين بقصد إرشادهم إلى الطريق الذي يقود إلى ليبيا، هو أمرٌ يتّفق مع الواقع التاريخي.

ولقد أثارت حكاية صائد الأصداف «كوروبيوس» ـ الذي التقىٰ به الثيرانيُّون في مرفأ «إيتانوس» الكريتي، والذي قبِل بأن يدلّهم على الطريق إلى ليبيا ـ فضول شُرَّاح نُصوص «هيرودوتس» المحْدثين بعض الشيء.

فـ «هيرودوتس» قد حرص على سرْد هذه الحكاية بشيءٍ من التفصيل المتعمّد، وجعلها حكاية تنبض بالحياة وبالتشويق القصصي؛ بحيث أنّه يخيَّل للمرء وهو يقرأ سطور الحكاية وكأنّه يتتبّع خطىٰ مبعوثي «ثيرا» أثناء بحثهم عمَّن يدلّهم على وجهتهم، ويتصوّرهم وهم يتناقشون مع الصيَّاد الكريتي في إحدى خمّارات المرفأ، ويتخيَّل المساومات التي جرت بينهم وبينه حول الثمن الذي يتوجَّب عليهم سداده له لِقاء الخدمة المطلوبة منه، ويكاد يلمحهم في النهاية ـ بعدما عقدوا الاتفاق معه ـ وهم يصطحبونه معهم في زورقهم إلى «ثيرا» التي رحل منها نفر من المستطلعين إلى سواحل ليبيا، حيث أرسوا في جزيرة «بلاتيا». ثم ترك الثيرانيُّون «كوروبيوس» في الجزيرة بمفرده، وقفلوا عائدين إلى «ثيرا» لتقديم تقرير عن مهمّتهم. لكنّهم ـ وقد أبطأوا في العودة، فإن «كوروبيوس» كاد أن يهلك جوعاً، لو لمْ ينقذه وصول مركب قدم من ساموس إلى «بلاتيا» بغتة، حيث أمدّه أصحابه بزادٍ من الطعام يكفيه لمدة سنة. ثم نرىٰ «هيرودوتس» يترك «كوروبيوس» وشأنه ليلتفت إلى التاجر الساموني «كولايوس»، صاحب المركب، حيث يستطرد طويلاً في قصِّ المغامرات التي تعرّض لها ذلك التاجر، قائلاً إنه بعدما كوَّن ثروة طائلة في بلاد «تارتسوس»، التي جنحت مركبه إليها بسبب الرِّياح، فإنه عاد إلى جزيرته «ساموس» حيث قدَّم قُرْباناً إلى معبد الإلهة «هيرا»[1]، يتمثّل في إبريقٍ ضخمٍ من البرونز، جعله نذْراً لِتلك الإلهة عبَّر به عن شكره لها على نجاته من الأهوالِ التي تعرَّض لها في رحلته.

تلك هي الحكاية التي جعلها الشَّارح «كناب» في سنة 1889 م ـ في دراسته التي عنوانها: «كوروبيوس الإيتانونسي: دراسة في فقه النصوص القديمة»

(1) الإلهة «هيرا» هي ملكة الزواج في الأساطير الإغريقيّة، وهي زوجة إله الآلهة «زيوس». وتعتبر كذلك حامية الأمهات عند وضعهن لمواليدهن. ولها معبد مشهور في «آرجوس». ويسميها الرومان «يونانا».

أساساً لنظرية غريبة ثار حولها، في حينها، جدل كبير بين المتخصّصين. وكان هؤلاء يميلون قبل ظهور الدراسة المذكورة ـ في غالبيتهم ـ إلى اعتبار «كوروبيوس» شخصية تاريخية حقيقيّة على نحوٍ أو آخر. غير أن «كناب» ذهب إلى أن الأمر لم يكن كذلك. ومع هذا، فإن قصة «كوروبيوس» لم تكن في رأي هذا العالِم خرافية تماماً، لأنها تركت بصماتها، عند «هيرودوتس»، على رواية إنشاء «قوريني». ذلك أن ذِكْر مرفأ «إيتانوس» لم يُقْصد به ـ في رأي «كناب» ـ فحسب مجرّد تسجيل توقُّف الثيرانيين في إحدى النقاط، وهم في طريقهم إلى ليبيا؛ بل إنه يكتسي في رأيه مغزىً أكبر. حيث يقول: والحقيقة أننا نعرف ـ بفضل ما عُثِر عليه من النقود والمسكوكات القديمة العائِدة إلى ذلك المرفأ الكريتي ـ أن أهله كانوا يعبدون إلٰهاً بحريًّا، في هيئة رجل مسنّ نصفه إنسان ونصفه حوت، وأن دور هذا الإلٰه كان ـ بحسب معتقداتهم الأسطوريّة ـ يتمثّل في السهر على حياة البحّارة وإنارة سُبُلهم عند ركوبهم البحر، كيلا يضلّوا طريقهم. وهذا الإلٰه البحري الأسطوري هو نفس الإلٰه الذي رمز إليه «هيرودوتس» ـ في تفسيره العقلاني للأسطورة ـ بصائد الأصداف «كوروبيوس». أمّا اختيار مؤرّخنا لاسم «كوروبيوس» بالذات، فإنّه يرجع إلى أن معنى هذا الاسم يعبّر، في اللغة الإغريقيّة القديمة، عن المزاج الحزين المشوب بمسحة من مرارة خيبة الأمل، وهي السِّمة التي تكتسي عادة سُحْنة شيوخ البحر الأسطوريين الذين سئموا طول الحياة، وإنْ لم يكن بوسعهم مع ذلك أن يضعوا حدّاً لها، مِنْ حيث أنّهم آلهة أبديّون. ويخلص «كناب» من كل هذا إلى القول بأن أسطورة إنشاء «قوريني» ـ سواء بالنسبة لمرحلتها التمهيديّة، حيث ظهر إلٰه البحر «تريتون» عند مقدّمة المركب «آرجو»، أو بالنسبة لمرحلة التنفيذ الحاسمة، حيث تدخّل «كوروبيوس»، إلٰه صائدي الأصداف في مرفأ «إيتانوس» ـ قد حظيت بمباركة وتأييد آلهة البحر.

ورغم الحذلقة الخادعة التي صِيغت بها هذه النظرية، إلّا أنها تظل، مع

ذلك، موضع شك. كما أن التفاصيل الدقيقة، الخادعة، التي أضفاها عليها «أ. ج. ريناك» في مقاله الذي نشره في «دورية الأديان» في سنة 1909 م، لم تفلح في دعمها وترميمها. ذلك أن تشبيه صائد الأصداف «كـورويبوس» بشيخ البحر الأسطوري، لا تستند سوىٰ على محاولة إيجاد صلة ـ وبشكل غير مُقْنع ـ بين رواية تحكي أحداثاً وقعت في القرن السابع قبل الميلاد، وبين ما يُسْتشفُّ من رسومات نُقشت على مسكوكات نقديّة كريتيّة لم تُضْرب ـ بناءً على شهادة عُلماء المسكوكات القديمة ـ سوىٰ في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. لأنه يصعب على المرء أن يقلب شخصية تحدّثت عنها الأسطورة صراحة وبدون لبْس على أنّها صائد أصداف، إلى إلٰه للبحر نصفه إنسان ونصفه حوت، ولا شيء يربطه بليبيا. أمّا الزعم بأن اسم العلم «كوروبيوس» مشتقّ في اللغة الإغريقيّة القديمة من كلمتين يعنيان: الحزن والشعور بالخيبة والإحباط ـ وهما من سِمات ملامح سُحَن شيوخ البحر الأسطوريين ـ فهذا رأي لم يحظى بإجماع العلماء المختصّين؛ هذا وإن كان بعضهم قد أيَّده، مل الإيطالي «باريتي»، في كتابه «تاريخ إسبرطة القديمة». والحقيقة أنّه ليس هنالك مدعاة لزلل الباحث أكثر من محاولة استنْطاق أسماء الأعلام! . . وإذن، فإنّه يتوجَّب علينا أن نطرح من أذهاننا الزعم بأن «كوروبيوس» ما هو إلاّ تجسيد إنساني متأخِّر لشخصية شيخ البحر الأسطوريّة. وعلينا أن نعكف فقط على استقراء ما توحي به هذه القصّة في ظاهرها وهي تحدّثنا عن المرحلة التمهيديّة لرحلة «باطوس» إلى ليبيا.

وهذا أمرٌ تفرضه علينا المعطيات الجغرافية للمنطقة: فالطريق البحري الذي يربط جزيرة «ثيرا» بمدينة «قوريني» يمرّ، بطبيعة الحال، بجزيرة كريت. ولقد كان مرفأ «إيتانوس» الكريتي يتمتّع بموقع ملائم جدّاً عند الطرف الشرقي للجزيرة، بحيث أنّه لا بُدّ وأن تَعَامُله التجاري مع المشرق ومع أفريقيا كان مهمّاً للغاية. ومن الثابت تاريخياً أن صيد الأصداف كان معروفاً في هذا المرفأ

منذ تلك الحقبة التي كان «مينوس»[1] فيها ملكاً على جزيرة كريت. ومن ناحية أخرىٰ، فإن صائدي الأصداف كانوا يضطرُّون عادة إلى قضاء فصل الشتاء منعزلين في الأماكن التي يصطادونه عندها. وبالرغم من أن قيام الثيرانيين بترك الصياد «كوروبيوس» بمفرده بجزيرة «بلاتيا»، يبدو أمراً غريباً للوهلة الأولىٰ؛ إلّا أنّه يمكن تفسير ذلك بعادة إنزواء الصيادين في فصْل الشتاء، خصوصاً وأنّه كان يوجد بالجزيرة الصغيرة المذكورة مرفأ اعتاد الصيّادون الإغريق ارتياده. كذلك فإن المسافة الفاصِلة بين «إيتانوس» وبين جزيرة «بلاتيا» ليست بالشاسعة: فالأربعمائة كيلومتـر تقريباً التي تفصل بينهما بالإمكان قطعها بيسر خلال ثلاثة أيّام إذا ما كانت الرياح مواتية. وحتى وإن لم يعد أحد في أيّامنا هذه يتفرّغ لصيد الأصداف، إلّا أن صائدي الإسفنج اليونانيين ما يزالون يجيئون حتى اليوم من جزيرة كريت ومن أرخبيل «الدوديكانيس»، حيث يرتادون على ظهور قواربهم بانتظام حافة سواحل برقة لاستغلال مصائد الإسفنج خلسة.

ولقد لوحظ ـ والتعليمات الملاحيّة التي يُزوّد بها الرّبابنة والبحارة تؤيِّد ذلك ـ وجود تيّار بحري قوي يتّجه إلى الشرق على طول الساحل الليبي، ينطلق ابتداءً من «رأس السم» الواقع على بُعد حوالي عشرين كيلومتـر شمال غربي «قوريني». فليس من المستبعد أن يكون البحّارة الإغريق قد استغلّوا، في سالف الدهر، هذا التيار للإبحار نحو مصر. بيْد أن هذا الساحل يتّسم بصعوبة الملاحة عنده؛ ولذا فإنه من الأحرىٰ بنا أن نفترض ـ طبقاً لما ذكره «سترابو» ـ أن أُولئك البحّارة كانوا يستغلّون عادةً هبوب الرِّياح الشمالية التي لا يتوقف هبوبها طوال فصْل الصيف، للإبحار مباشرة نحو مدينة «نوقراطيس»

(1) «مينوس» هو ملك كريت الأسطوري. وتزعم الأساطير الإغريقيّة أن أم هذا الملك كانت «إيوروبي»، وأن أباه كان هو الإله «زيوس». وهو يُصَوَّرُ على أنّه قانوني حكيم وأحد قضاة جهنم. وجدُّه لأمه «إيوروبي» ـ التي اشتُقّ منها اسم قارة «أوربا» ـ هو الملك «أجينور» ملك مدينة «صور» الواقعة في لبنان.

التي كانت تقطنها جالية إغريقيّة أيّام الفراعنة. وعلى أيّة حال فإن نصّ «هيرودوتس» نفسه يوحي بأن ساحل قورينائية لم يكن يُطرق بكثرة من جانب المراكب الإغريقيّة: فمركب «كولايوس الساموني» ـ الذي أنقذ «كوروبيوس» من الموت جوعاً ـ لم ترسو عند جزيرة «بلاتيا» إلاّ بعد أن حادث عن خطّ سيرها، حيث أن رياحاً شرقيّة، (وهي رياح لا يندر هبوبها في فصْل الشتاء)، قد جنحت بها عندما كانت في طريقها نحو مصر، إلى أن حطّت بها في مياه جزيرة «بمبا». ومع ذلك فإنه لا يُسْتبعد أن يكون «مرسىٰ بمبا» المتميِّز بملاءمته تماماً لرسوٍّ المراكب الصغيرة ـ دون غيره من بقية نقاط ذلك الساحل الذي يصعب الإرساء عنده ـ كان معروفاً للرّبابنة والملاّحين الإغريق.

إن الحكاية المتعلّقة بالتاجر الملاّح «كولايوس» مرتبطة جداً بقصة الصائد «كوروبيوس». وهي تعود في منشئها إلى ذلك النَّذْر القرْباني المتمثِّل في الإبريق البرونزي الذي أهداه هذا التاجر الساموني إلى معبد الإلهة «هيرا» في مسقط رأسه عند عودته من رحلته البحرية المرْبحة إلى بلاد «تارتسوس»، حسب الأسطورة. والحقيقة أن الوصف الدقيق الذي وصف به «هيرودوتس» هذا الإبريق، يدلّ على أن هذا المؤرِّخ قد شاهده بنفسه خلال إقامته بجزيرة ساموس. ولقد كانت لهذا الإبريق الأرجوسي الضخم، المزيَّن برؤوس عنقوات ناتئة، ثلاثة أرجل يرتكز عليها، في شكل ثلاثة تماثيل برونزية يبلغ طول كل منها سبعة أذرع، تمثِّل أشخاصاً جاثمين. واستحوذ هذا العمل الفنِّي الجبّار ـ الذي بلغ ارتفاع قاعدته الثلاثيّة القوائم، وحدها، أكثر من ثلاثة أمتار ـ على إعجاب «هيرودوتس»، كما أنّه أثار اهتمام علماء الآثار. ولقد نُقشت على قاعدة هذا الإبريق البرونزي عبارة تكريس مخصّصة للربّة «هيرا» ـ ونحن لا ندري ما إذا كان هذا «التكريس» أصيلاً أمْ مزيَّفاً ـ وذلك لتذكير من يتفحّصه بأصل القربان. ولا شكّ في أنّ رُهبان المعبد كانوا يضيفون إليه، بالمناسبة، ترتيلاً دينياً يُسمَّى (لوغوس) لتفسيره، كما جرت العادة. ونحن إذا ما تأمّلنا

الطريقة التي روىٰ بها «هيرودوتس» قصتيْ «كولايوس» و«كوروبيوس»؛ نلاحظ أنّه قد تعمَّد الإفاضة في ذكر التفاصيل عند وصفه للإبريق المذكور، وأطال الحديث عنه؛ بينما نلاحظ، في المقابل، أنّه تعمّد إنْهاء قصّة صائد الأصداف فجأة بمجرّد تدخُّل «كولايوس» في أحداثها؛ الأمر الذي يجعلنا نتكهّن بأن هذا التدخّل هو الموضوع الذي كان يتطرّق إليه كهنة المعبد عند ترتيلهم «اللُّوغُوس» الخاص بهذا القربان. ونحن نرىٰ أن الخاتمة الوعظية التي ينتهي بها «التكريس» المنقوش على قاعدة القُربان البرونزي ـ والقائلة بأن علامات الودّ والصداقة القائمة بين جزيرة «ساموس» وبين «قوريني» وجزيرة «ثيرا» تعود إلى نفس التاريخ الذي كُرِّس فيه هذا النَّذْر للإلٰهة «هيرا» ـ إنما هي خاتمة مزيَّفة؛ لأن «كوروبيوس»، وهو المستفيد الوحيد من مأْثرة «كولايوس» الذي أنقذه من الجوع، ليس شخصاً قورينيًّا أو ثيرانياً. ولذا فإن هذه الخاتمة، قد جاءت هي الأخرىٰ لتفضح زيْف «اللوغوس» الوعْظي. وهكذا يتسنّى لنا تحديد أحد مصادر «هيرودوتس»، وهو المتمثِّل في مشاهدته العيْنية للإبريق البرونزي الذي نذره «كولايوس» للمعبد. ولكن دعونا نؤكِّد بأن هذا لا يفيدنا سوىٰ في التحقّق من مدىٰ صحّة أو كذب قصة هذا التاجر الملاَّح. أمّا قصة صائد الأصداف «كوروبيوس»، ذات الحبكة القصصية المحكمة والصبغة الروائية الواضحة؛ فإنها هي وحدها التي نعتقد بأن «هيرودوتس» قد استقىٰ عناصرها في جزيرة «ساموس». غير أنّه ليس هنالك من سببٍ يدعونا للإفتراض بأن الرواية الثيرانية قد استُقيت برمَّتها من نفس المصدر الساموني، مثلما اعتقد الفرنسي «لوجران» في المقدمة النقدية التي صدَّر بها الترجمة الفرنسية لتاريخ «هيرودوتس».

والحقيقة أن بقيَّة الرواية تدلُّ على أنّ «هيرودوتس» قد استقاها من جزيرة «ثيرا» مباشرة. فمؤرِّخنا يقصُّ علينا كيف نظَّم الثيرانيُّون عملية الرحيل النهائي لجماعتهم المهاجِرة إلى ليبيا. والتفاصيل التي يوردها حول العملية، وكذلك

العبارات والمصطلحات نفسها التي استعملها، تجعلنا نعتقد أنّه كانت تحت ناظريه ـ وهو منهمك في تأليف كتابه ـ وثيقة رسمية قد تكون مرسوماً، وقد تكون، على الأقل، رواية خبرية استُقيت هي نفسها من وثيقة رسمية؛ خصوصاً عندما كتب يقول:

«.. وقرّر الثيرانيّون إيفاد معمّرين يتم أخذهم من بين الأُسر متعددة الأبناء، بواقع ابنٍ عن كل أسرة، يتم اختيارهم بطريق القرعة؛ على أن يؤخذ هؤلاء المعمّرون من قرىٰ الجزيرة السبع وأن يكون باطوس رئيساً لهم يُضْفي عليه لقب: ملك».

ولقد لقيت هذه المعلومات ما يعزّز صحّتها ـ وبشكلٍ غير متوقّع ـ في كشف أثري يتميّز بأهميّة فريدة، يتمثّل في اللوح النقشي الشهير المسمّى: **«لوح المؤسِّسين»**[1].

وإذا ما حكمنا على هذا اللوح من خلال الخط الذي نُقش به نصّه، فلا بُدّ وأنّه يعود إلى النصف الأوّل للقرن الرابع قبل الميلاد. ولقد احتفظ هذا اللوح بنفس هيئته تقريباً دون أن تشوِّهه عوادي الدهر؛ هذا وإن كانت قراءة نصّه تعتبر أمراً بالغ الصعوبة، بل وما تزال القراءات المقترحة للعديد من فقراته موضع شك وريبة. ومع ذلك فإنه لا يصعب فهم المعنى العام لهذا النص. ولقد قمتُ بنفسي بفحص هذا اللوح الحجري، وأجهدت ذهني محاولة مني لتخريجه؛ بل ونقلتُ نصّه على الورق، وقارنتُ قراءتي هذه له بتلك القراءة التي قام بها الإيطالي «جاسباري أوليڤيريو»، وهي القراءة القائمة على الدراسة الدقيقة التي نشرها هذا العالِم في «دورية النُّصوص الكلاسيكيّة» في سنة 1928 م، تحت عنوان: **«لوح المواثيق»**. ولكن حجر اللوح هو في حالة من القِدم، بحيث أن العديد من فقراته قد طُمست تقريباً.

---

(1) يترجمها عبد الرحمٰن بدوي بـ «نُصْب المؤسِّسين» أو «الأحلاف». انظر كتاب «الفلسفة القورينائية»، ط. دار ليبيا، 1969، ص 9؛ وهو يجعلها في ص 10: «نُصْب المتحالفين».

وإليك فيما يلي ترجمة لنصّ «لوح المؤسِّسين» هذا:

«إلهنا!.. يا طالعنا السعيد..

اقتراح داميس بن باثيكليس:

«بالنظر إلى الإلتماس المقترح من جانب الثيرانيين وكليوداماس بن إيوثيكليس، لِمَا فيه ازدهار الدولة وخير شعب قوريني، كيْ يُمْنح الثيرانيُّون حق المواطنة طبقاً للتقاليد التي تواضع عليها أسلافنا، سواء منهم أُولئك الذين قدموا من ثيرا لتأسيس قوريني، أو أُولئك الذين بقوا في ثيرا، حيث أن أبوللو قد ضمن لباطوس وللثيرانيين الذين أنشأوا قوريني أن يعيشوا في رخاء، ما ظلُّوا أوفياء للأيْمان التي أقسمها أسلافنا لبعضهم البعض عندما وجَّهوا الحملة الاستيطانية بناءً على أوامر أبوللو الطاهر، فليتحقّق الخير!

بمشيئة الشعب: سيتمتع الثيرانيُّون، حتى في قوريني، بحقوق مدنية متساوية، لها نفس الشروط الواجبة على القورينيين؛ وزيادة على ذلك فإنه يتحتّم على الثيرانيين المقيمين في قوريني أن يؤدُّوا القَسَمَ الذي أدّاه الآخرون في سالِف الأيّام، ولسوف ينتظمون في قبيلة، وفي إحدى بطونها، وفي تسع جمعيّات سياسيّة. يُنقش هذا المرسوم على لوح من المرمر الأبيض، ويودع بمعبد أبوللو الفيثي العتيد. ويُنقش كذلك على اللوح نصُّ القَسَم الذي أقسمه المؤسِّسون عندما توجَّهوا إلى ليبيا بحراً مع باطوس، مغادرين ثيرا إلى قوريني. وتُسْتقطع النفقات الضروريّة للمرْمر ولأعمال النقش من قِبَل مأموري الحسابات من ريوع معبد أبوللو.

قَسَمُ المُؤسِّسين

«قـرار الجمعية الشعبيـة: حيث أن أبوللو قـد أمـر بـاطـوس والثيرانيين صراحة بالعمـل على إنشاء قـوريني، فإن جميـع الثيرانيين قرَّروا إرسال باطوس إلى ليبيا كقائدٍ وملك. ولسوف يُبحر الثيرانيُّون صحبته. وعليهم أن يركبوا البحر في أحوالٍ متساوية ومتشابهة بالنسبة لكل أسرة، بواقع ابنٍ عن كل منها. ولِتُعْلَنْ في جميع القرىٰ قـوائم بأسمـاء الرِّجـال الراشـدين. ويحقّ لكل رجل حرّ ولديه رغبة في الإبحـار، من بين بقيّة الثيرانيين، أن يُبْحر. وإذا ما تمكّن المعمِّرون من الاستقرار في ليبيا، فإنَّ أيًّا من مواطنيهم يعنُّ له التوجّه إليها فيما بعْد، سيتمتّع بكامل الحقوق المـدنية والسيـاسيّة وستخصّص لـه، بطريق القُرعة، قطعة أرض لا مالـك لها. وعلى العكس من ذلك، إذا فشلوا في الاستقرار فيها، وإذا عجز الثيرانيُّون عن إعانتهم، وحاقت بهم المسغبة طوال خمس سنوات، فعليهم أن يرجعوا عندئذٍ إلى ثيرا آمنين، لاسترجاع ممتلكاتهم فيها، وسيُقبلوا في عِداد مواطنيها. وكلٌّ من يرفض الإبحار، رغم اختيار المدينة له للإشتراك في الحملة، فـإنه يكـون عرضـة للحكم عليه بالإعدام وتُصادر أمـلاكه. وكـل من يأوي هـذا المتخاذل أو يحاول تسهيل أمر إفلاته من القصاص، حتى ولو كان أباً يتواطأ مع ابنه أو أخاً يتواطأ مع أخيه، فإنه سيُنزل به نفس القصاص المقرّر لردْع المتخاذل نفسه».

وبحسب منطوق هذا المرسوم، فقـد أدّىٰ الجميع الأيْمـان، سواء أُولئك الـذين ظلُّوا منهم هنا في ثيـرا أو أُولئك الـذين

أبحروا لإقامة المستوطنة، واستمطروا اللعنات على كل من ينتهك هذا القَسَم ولا يفي به، سواء من بين أُولئك الذين سيستوطنوا ليبيا أو من بين الذين ظلُّوا هنا في ثيرا. ثم صاغوا تماثيل من الشمع وأحرقوها، مستمطرين جميعهم ـ رجال ونساء وأولاد وبنات ـ اللعنات التي تقول: «ليذُب كل من لا يفي بهذا القَسَم وينتهكه، فينصهر شأن هذه التماثيل الشمعية، هو، وذريَّته، وما ملكت يداه!.. أمّا أُولئك الّذين سيكونون أوفياء لِهذا القَسَم، سواء منهم الذّاهبون إلى ليبيا، أو أُولئك الماكِثون في ثيرا، فلتشملهم، هم وذريتهم كل صنوف النِّعم!».

يتألّف هذا النقش من عدّة عناصر يتوجّب التمييز بينها. فهو يسوق لنا أولاً مرسوماً قورينيًّا يؤكِّد للثيرانيين المقيمين في قوريني حقَّهم في الاستيطان بها؛ وهو الحق الذي تمتّعوا به تقليديًّا منذ البداية، وإن كان قد عفا عليه الدهر مع مضيِّ الأيام. فهو في النهاية مرسوم يعبِّر عن سياسة تتناول حق المساواة. ولسوف نشير في السياق المناسب إلى أهميّته بالنسبة لتاريخ قوريني في القرن الرابع قبل الميلاد. والمهم بالنسبة للموضوع الراهن لدراستنا هو أن حيثيًّات هذا المرسوم تستند إلى القَسَم الذي أُقْسِم في ثيرا عند رحيل الحملة الاستيطانية نحو ليبيا، وأنّه زُعِم بحسب نصّ المرسوم تسجيل «قَسَم المؤسِّسين» بعنوانٍ كبير الحروف يغطِّي سطراً كاملاً.

إن دمْج قَسَم إلى مرسوم يمنح حقّ المساواة السياسيّة ليس من الأمور الاستثنائية المستغربة. غير أن الطريف في الأمر هو عدم جعْل صيغة القَسَم نصًّا يكون قد وُضع بالمناسبة، واللجوء بدلاً من ذلك إلى نصّ أقدم يكتسي طابع القداسة، من حيث أنّه سبق وأن استُعمل في مناسبة رسمية. ويكمن

التناقض في أن نقش قوريني لا يتضمّن ـ أيًّا كان منطوقه ـ صيغة «قَسَم المؤسِّسين» في حدِّ ذاتها.

فالواقع أننا لا نعثر في هذا النقش على أيّة صيغة شبيهة بصِيغ القَسَم التي ألفناها في العديد من النصوص النقشيّة الأخرى. ونعثر، في المقابل، في النقش على ما يلي:

1 ـ مرسوم صادر عن جمعية شعب ثيرا (الأسطر من 24 إلى 40).

2 ـ وعلى رواية، ذات طابعٍ تاريخيٍّ، تختصّ بالاحتفالات الدينيّة، يتخلّلها حَلْف أيْمان واستمطار لعنات، صاحبتْ هذا المرسوم (الأسطر رقم 40 وما بعدها). وبهذه المناسبة، نعثر فعلاً على نصّ استمطار هذه اللعنات (الأسطر 46 وما بعدها)، ولكنّنا لا نجد أثراً لنصّ القَسَم في حدِّ ذاته؛ مع أنّه من الواضح أن القَسَم ضروري لضمان تنفيذ ما احتواه المرسوم.

فما الذي يتوجّب استخلاصه من هذا التنافر غير المتوقّع بين عنوان الوثيقة الذي أُثبت ضمن النصّ المنقوش على اللوح صراحة (السطر رقم 18: قَسَم المؤسِّسين)، وبين محتوى الوثيقة في حدّ ذاته؟. . وإذن، فإنه إذا كان قَسَم المؤسسين الأصلي لم يسجَّل، فلا ريْب في أن هذا قد نجم عن أن نصّه لم يكن، ساعة نقش اللوح، في متناول الناقِش. ولذا فقد أكْتُفِي بنسخ الوثائق المتوفرة؛ أي أحد مقاطع وثيقة خاصة بإنشاء مدينة قوريني، كما تنمُّ عن ذلك لهجة وأسلوب النقش بكل وضوح. فالثيرانيُّون المقيمون في مدينة قوريني وصديقهم أو تابعهم القوريني «كليوداماس بن إيوثيكليس» الذي كان قد قدّم عريضة إلتماسهم إلى الجمعية الشعبيَّة في «ثيرا»، لا بد وأنْ يكونـوا قد تحجَّجوا لدى تلك الجمعية بمستندٍ يبرِّر مطلبهم ويتمثّل في نصّ تاريخي موثوق به، بحيث حاز على موافقة القورينيين الجماعيّة.

ولا بُدّ وأن يكون هذا النص التاريخي الذي استند عليه الثيرانيُّون وثيقةً تاريخيّة ثيرانيّة. ولذا فإننا لا نندهش لشدة التشابه بين منطوق هذا النصّ

التاريخي وبين صيغة الرواية الثيرانية حول إنشاء قوريني لدى «هيرودوتس». ويكمن الاختلاف الهام الوحيد مع رواية «هيرودوتس» الثيرانيّة هذه في ذلك الدور الرئيسي الذي يعزوه مرسوم الثيرانيين إلى «باطوس»، والذي نصّه:

«.. حيث أن أبوللو قد أمر باطوس والثيرانيين صراحة بالعمل على إنشاء قوريني..». بينما نحن نعلم - بحسب «هيرودوتس» - أن «جرينوس»، ملك ثيرا، هو الذي أمرته كاهِنة معبد دلفي، دون أن يطلب منها هو ذلك، بالتوجّه إلى ليبيا لإقامة مستوطنة فيها. غير أن الدّور الذي كان يتوجّب على هذا الملك المسنّ العاجز أن يلعبه، ما لبث أن استُبدل بالدور الذي لعبه البطل الشاب «باطوس»، الذي ستقع على كاهله مهمّة تأسيس المدينة، حيث أن الثيرانيين نصّبوه رئيساً لهم ثم ملكاً للمستوطنة فيما بعد. ومن هنا فإنه لا يتوجّب علينا أن نندهش لكون الوثيقة المنسوخة على اللوح المرمري قد جعلت - هي الأخرىٰ - «باطوس» في محلّ الصدارة.

ومن ثمّ فإنه لا يمكن اعتبار مرسوم «ثيرا» - الذي نُصّ عليه في اللوح - وثيقة أصلية. لأن الزّعم بإمكانية نقل وثائق محفوظة تعود إلى تاريخ موغل في القِدَم، مثل منتصف القرن السابع قبل الميلاد، ونسخها على المرمر بكل أمانة ودقّة في النصف الأوّل من القرن الرابع قبل الميلاد، هو من قبيل الظواهر الفريدة التي لا يمكن تصديقها. وبالرغم من أننا ما نزال اليوم نجْهل، على وجه التحديد، طبيعة النظام السياسي الذي كان قائماً في جزيرة «ثيرا» خلال القرن السابع قبل الميلاد؛ إلّا أننا لا نفهم كيف يمكن للنظام الملكي - الذي كان بدون شك ما يزال النظام القائم آنذاك في الجزيرة - أن يُخوِّل الجمعية الشعبية استصدار قرار يمسُّ مسألة إقامة مستوطنة في بلدٍ قصيٍّ، مع أنّها مسألة بالغة الأهمية ويستحيل على ملك من الملوك أن يتخلّىٰ عن إصدار قرار حولها لمجلس شعبي عوضاً عنه. ولذا فإن هذا المرسوم لا بُدّ - في رأينا - وأن يكون مرسوماً مزيَّفاً تم وضعه خلال زمنٍ لاحق على زمن إنشاء مدينة قوريني؛ أي

في زمن صارت فيه مسألة إقامة المستوطنات عند الإغريق من اختصاص الجمعيات الشعبية لا الملوك.

وهنالك برهان آخر يدل على زيْف المرسوم، وهو أن هذه المستوطنة قد أُشير إليها فيه صراحة بآسمها «قوريني». وبالطبع فإنه يستحيل أن يكون هذا الاسم قد حُدِّد مسبَّقاً، حتى قبل عملية إنشاء هذه المستوطنة نفسها؛ خصوصاً وأن إنشاءها لم يقع ـ مثلما نعرف من خلال كتاب «هيرودوتس» ـ إلّا بعد انقضاء سنوات عدّة في ذلك الموقع النهائي الذي استقرّ فيه المعمّرون الإغريق في نهاية المطاف. وإذن فنحن نجد أنفسنا أمام وثيقة نقشيّة مزيّفة تم وضعها في زمنٍ لاحقٍ. زِدْ على ذلك أن هذه الوثيقة لم تُسْتلهم من نصوص «هيرودوتس» نفسها، كما قد يتبادر إلى الذهْن. ذلك أننا وإنْ كُنَّا نعثُر فيها، في الحقيقة، على نفس المعلومات الأساسية التي أوردها هذا المؤرِّخ في الفقرة رقم 153 من نصّ كتابه الرابع ـ (أي مسألة إجبار كل أسرة ثيرانيّة على التنازل عن أحد أبنائها الذكور، كي ينضمّ إلى جماعة المعمّرين المهاجرين، وعملية تجنيد المعمّرين من مختلف قرىٰ الجزيرة، وما كُلِّف به «باطوس» من دور قيادي في عملية الاستيطان في ليبيا) ـ إلّا أنّه يصعب تصديق أن تكون الأحكام والأوامر القانونية العديدة الوارِدة بالتفصيل في نصّ مرسوم ثيرا، وليدة خيال أحد النُسَّاخ، والافتراض بأن هذا الناسخ قد نقل عن نصوص «هيرودوتس» التاريخية نقلاً يشوبه التحريف والمبالغة وحريّة التصرّف في نصّ المؤرِّخ الأصلي. فنحن أَمْيل إلى الاعتقاد بأن هذه التفاصيل القانونية ذات الصبغة الواقعيّة الأصيلة، الوارِدة في نصّ المرسوم المذكور، ومعها وصْف المراسم الدينيّة التي صاحبت عملية أداء القَسَم، إنما هي تصوير دقيق للواقع، حفظته لنا الروايات الشفهية المتوارثة عبر الأجيال، عن الطابع المُلزم دينيًّا واجتماعياً، الذي جعل مسألة الإسهام في عملية الهجرة إلى ليبيا لإنشاء مستوطنة فيها أمراً لا مفرَّ منه. وعلى أيّة حال، فإن ما جاء في «لوح المؤسِّسين» من ذكرٍ لصهْر

التماثيل الشمعيّة أثناء إجراء الطقوس الجماعيّة الدينية، إنما يعكس أصداء لشعائر مغرقة في القِدَم.

والذي نميل إلى ترجيحه هو أن يكون نصّ «هيرودوتس»، ومعه نص «لوح المؤسّسين»، قد تم اشتقاقهما من نصٍ أصلي مشترك، استلهم منه كل من هذا المؤرِّخ وواضع نصّ اللوح؛ ولربما يكون هذا الأصل المشترك أحد الكتب لتاريخية القديمة التي تناولت تاريخ جزيرة «ثيرا». ولا بُدّ وأن يكون مثل هذا الكتاب مدوَّنةً حازت على ثقة الجميع؛ بحيث فرضت نصوصُها العتيدةُ نفسها، من ناحية على مؤرِّخ كبير مثل «هيرودوتس»، في القرن الخامس قبل الميلاد، ومن ناحية أخرىٰ على الجمعية الشعبيّة في قوريني عند مطلع القرن الرابع قبل الميلاد. ونحن نرىٰ أن هذا النص الأصلي المفقود يمثّل وثيقة أساسيّة هامة بالنسبة لتاريخ إنشاء قوريني.

أمّا المصادر الأخرىٰ، فإنها لا تمدّنا، في مجموعها، بأي جديد. وهي جميعها تقريباً تعود إمّا إلى «بنداروس» وإمّا إلى «هيرودوتس»؛ والحقيقة أنّه لا جدوىٰ من أن يقف المؤرِّخ المعاصِر عندها طويلاً. ومع ذلك فإن واحداً منها فقط يستحقّ إمعان النظر فيه: ففي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد قام «مينيكليس البرْقي» ـ وهو مؤلِّف قوريني محلِّي ـ بتأليف كتاب حول ليبيا. ويبدو أن كتابه هذا لم يكن كتاب تاريخ بمعنى الكلمة، بل مجرّد شتات من الروايات التي لا رابط بينها سوىٰ كونها تتعلّق جميعها بقوريناثية. وإذا ما نحن حكمنا على هذا الكاتب من خلال تلك الشذرات والمقاطع القليلة التي وصلتنا من كتابه، فإننا نلمس أنه ليس من طراز أولئك الكتّاب الملفّقين المنتحلين الذين لا تعدو مؤلّفاتهم أن تكون مجرّد نقولات انتحلوها من مدوّنات الآخرين؛ إذْ أن أسلوبه في الكتابة ينمُّ عن تأصُّل الروح النقديّة لديه. وتتبدّىٰ هذه السجيَّة عنده، على الخصوص، في ذلك المقْطع الذي يقصُّ علينا فيه، من جانبه واقعة إنشاء مدينة قوريني.

ولقد احتفظت لنا حاشية، وضعها أحد شُرّاح «بنداروس»، بنصّ «مينيكليس البرقي» هذا؛ حيث قارن هذا الشارح بين الرأي الذي يعزو رحيل «باطوس» إلى ليبيا إلى عاهة التأتأة اللسانيّة التي أصابته؛ وبين الرأي الذي يعزو هذه المغامرة إلى اضطرابات سياسيّة كانت قد اندلعت في جزيرة «ثيرا»، حيث يذكر هذا الشارح ما نصّه:

«.. وعلى أيّة حال، فإن مينيكليس البرقيْ يرىٰ أن الأقرب إلى الاحتمال هو تعليل رحيل باطوس نتيجة لوقوع اضطرابات سياسيّة في ثيرا، أمّا عزْو هذا الرحيل إلى عُقدة لسانه فإنه محض أسطورة. وهو يقول أن الثيرانيين قد إنْشقّوا على أنفسهم وتحوّلوا إلى حزبيْن متناحريْن، وأن باطوس كان يتزعّم أحدهما. ثم وقع صدام بين الحزبين، تم في أعقابه طرْد أشياع باطوس من الجزيرة، حيث نُفيوا من البلاد. فقرّر هؤلاء عدم العودة إلى وطنهم ذاك، وتشاوروا حول الوسائل التي تكفل لهم إمكانية إنشاء مستوطنة يأوون إليها. ثم توجّه زعيمهم باطوس إلى معبد دلفي واسْتنبأ كاهنته حول قضيتهم لمعرفة ما إذا كان يتوجّب على حزْبه مواصلة الصراع ضد الحزب الآخر حتى النهاية؛ أمْ أن الأحرىٰ به التوجُّه إلى بقعة أخرىٰ لإنشاء مستوطنة فيها؟ فنطق الإلٰه أبوللو عندئذ بوحْيه قائلاً: يا باطوس! إنْ أنت وازنْتَ بين مشروعيْك الإثنين، فلا تُعوِّل على أولهما؛ أمّا ثانيهما فإنه مشروع حكيم.. آرْحل!.. أُهْجر وطنك الجزيري!.. فالقارّة خير ملاذٍ لك.. إلخ».

إن تصوُّر الأحداث التي وقعت في ثيرا على الشاكلة المذكورة أعلاه يبدو بالفعل أجدر بالتصديق والقبول من الروايات الأخرىٰ؛ وهذا هو السبب في ميْل «مينيكليس البرقي» إلى الأخذ به؛ إذْ من الواضح أن الزّعْم بأن الباعث على

هجرة «باطوس» ورفاقه إلى ليبيا لإنشاء مستوطنة فيها هو وحْيٌ دلفي، لا يعدو أن يكون محض هراء لا مفرَّ من التشكيك فيه، وهذا أمرٌ واضح للعيان. ولقد شرح هذه الرواية المؤرِّخ المعاصِر «هـ. و. بارك»، في كتابه المسمَّىٰ «هيرماثينا»[1]؛ حيث ذهب إلى القول بأن ردَّ الإله «أبوللو» لم يكن في الحقيقة إجابة عن استشارة «باطوس» له في المرّة الأولىٰ، أي عندما سأله هذا الأخير عن كيفيّة التخلُّص من عِقدة لسانه؛ وإنّما هو إجابة عن الإسْتنْباء الذي ذكره «هيرودوتس» في الفترة 157 من الكتاب الرابع من تاريخه، عندما روىٰ لنا هذا المؤرِّخ قصة قدوم الثيرانيين إلى معبد دلفي ـ في أعقاب عودتهم من جزيرة «بلاتيا» ـ لاستشارة كاهنته الفيثيَّة عمّا يتوجَّب عليهم فعله. والحقيقة أنّنا إذا ما أخذنا بفرضيّة «بارك» هذه، فإن فهمنا للعديد من تفاصيل النصّ سيصبح أكثر يسْراً: من ذلك مثلاً أننا سنزداد فهماً لحقيقة أن كاهنة الموْحي لم تكن بحاجة إلى ذكر ليبيا بالاسم؛ ما دام قد سبق للمعمِّرين الثيرانيين وأن وطئوا ترابها، من حيث أنّهم أقاموا مدّة عامين في جزيرة «بلاتيا» قبل رجوعهم منها لاسْتنْباء وحي إلٰههم «أبوللو». ولذا فإن هذه الكاهنة اكتفت بنصحهم بالنزوح من تلك الجزيرة الليبيّة إلى البرّ القارِّيِّ المقابل لها؛ إذْ يبدو أن «مينيكليس البرقي» قد عثر على هذا النص في ثنايا مصنَّف أغفل تحديد مصدره بما فيه الكفاية، فظن أنّه يمثِّل أول نبوءة تلقّاها «باطوس» من الموْحي؛ وبالتالي فقد اتخذه حُجَّة لترجيح صواب الأخذ بتعليل عقلاني لأسطورة إنشاء قوريني.

وإنني أؤيِّد من جانبي، عن طيب خاطر، وجهة نظر «بارك» البارعة هذه، ولكن دون إغفال المطعن الكفيل بتفنيدها، والذي لم يفطن «بارك» إليه؛ والمتمثِّل في أنّه عندما اسْتنْبأ معمِّرو «بلاتيا» وحْي «أبوللو» فإنهم تلقُّوا منه ردًّا

---

(1) اقتبس هذا المؤرِّخ عنوان كتابه المذكور من اسم التمثال «هيرماثينا»، وهو تمثال مشهور يصور «ميركور»، إله التجارة عند الرومان، ومعه الإلهة «مينيرڤا»، وهي إلهة الحكمة عند اللاتينيين.

نقله إلينا «هيرودوتس» في صيغة بيتين من الشعر يقطران سخرية[1].

ونص البيتين المذكورين لا يشبه نص «مينيكليس البرقي» في شيء. غير أنّه ليس من المستبعد أبداً أن تكون قد عُرفت في الماضي صيغ متعددة لهذه النبوءة، مثلما هو الحال بالنسبة للنبوءة السابقة عليها، والتي جعلتها الرِّواية الثيرانيّة للأسطورة ردًّا على اسْتنْباء الملك «جرينوس» للوحْي، فيما جعلتها الرواية القورينيّة ردًّا على اسْتنْباء «باطوس» له.

ومهما يكن من أمر، فإننا إذا ما وَفَّقْنا بين شهادة «مينيكليس» وبين الفقرة التي يتحدّث فيها «هيرودوتس» عن تصدِّي الثيرانيين بالقوّة للمعمّرين العائدين أدراجهم من ليبيا ومنعهم من النزول في «ثيرا»، فإن هذا يقودنا إلى التكهُّن بأن حرباً أهليّة نشبت في جزيرة «ثيرا» قد أدّت بالفعل إلى هجرة «باطوس» وأشياعه إلى ليبيا. ونحن نذكر أنّ «لوح المؤسِّسين» قد حدّد الشروط التي يمكن بموجبها لكل معمِّر ـ في حالة فشل محاولة إنشاء المستوطنة في ليبيا ـ أن يسترجع ممتلكاته في جزيرة «ثيرا». وإذن، فإن هذا يعني، بدون شكّ، أن المعمِّرين قد تنازلوا، عند نزوحهم عن «ثيرا»، عن أطيانهم لصالح أقربائهم، حيث أن كلًّا منهم كان ينتمي لأسرة خلَّفها وراءه. وهكذا، فإنه يبدو أن مسألة إنشاء مستوطنة في ليبيا كان يُتّخذ ـ في هذه الحالة، كما في حالات استيطان إغريقيّة كثيرة أخرىٰ ـ وسيلة لحل مشكلة اجتماعية قاهرة، ونعني بها مشكلة الاكتظاظ السكّاني ونقْص الأراضي الصالحة للزراعة في بلاد الإغريق قديماً. لكن الجدير بالملاحظة هو أن الدولة نفسها قد تولّت الإشراف على عملية البحث عن مستوطنة ووضعت الشروط والمواصفات لذلك، وخصَّصت،

---

(1) ويمكن ترجمة نص هذين البيتين كما يلي:

«كم كحلْتُ العين بمرأى خصْب ليبيا!

.. أمّا أنتم فإن أعينكم لم تلمحها قط..

فكيف إذن تدَّعون معرفتها أكثر منّي.. يا لكم من عارفين!».

مقدَّماً، عقوبات رادِعة قرَّرت إنزالها بكلّ مَنْ يخرق أوامرها ويتراجع عن الهجرة. أما موْحي دلفي فإنه لم يُسْتشر من جانب السلطات الرسميّة في الجزيرة إلاَّ لمجرّد إضفاء مباركة أعلىٰ سلطة دينيّة على عملية أُقرَّت أصلاً حتى قبل استشارة هذه السلطة المتمثِّلة في موحي «أبوللو». ولعل الدولة قد لعبت كذلك في هذه المسألة دور جهة مركزية لجمع المعلومات الجغرافية، مهمّتها إرسال المعمِّرين نحو أصقاعٍ لم تكن قد استُعمرت بعدُ: ولذا فإنه يحتمل أن تكون دولة الجزيرة هي التي أشارت على الثيرانيين بالإبحار إلى إفريقيا (ليبيا) التي كانوا يجهلونها. ولقد شبَّه الباحث «ب. روسِّيل»، في مقال له نشره في مجلة الدراسات الإغريقيّة في سنة 1936 م، مراسم الإعداد للهجرة التي قادها «باطوس»، بما كانت إيطاليا قد عرفته جيّداً في سالف الدهر، من شعائر لدرء الظروف الصعبة، تمثّلت في تقديم قرابين إلى الآلهة في مواسم ظهور بواكير البذار في فصْل الربيع. والحقيقة أن الشعائر السحرية والطقوس الدينيّة التي صاحبت الإعداد لهجرة الثيرانيين إلى ليبيا، لا تُعدُّ أمراً مستغرباً في تلك الحقبة الغابرة من التاريخ؛ حيث جرت العادة على إضْفاء طابع القداسة على كُلّ عمل جماعي، حتى ولو كان هذا العمل مستلهماً من ضرورات ماديّة صرْفة.

وإذا ما صحَّت معلومات «هيرودوتس»، فإن المُلْفت للانتباه هو ما ذكره من قلّة عدد رفاق «باطوس» الذين صاحبوه في هجرته: فالمركبان، من ذوات الخمسين مجْذافاً، اللتان حملتا هؤلاء إلى ليبيا، لا يمكنهما أن تستوعبا أكثر من مائتيْ شخص بالكاد، بمن فيهم المجذّفين، أثناء رحلة بحرية طويلة كهذه. وهذا يعطينا ـ مجدّداً ـ فكرة عن مدىٰ صغر حجم دويلات المدن الإغريقية القديمة؛ حيث تكفي هجرة مائتيْ شخص لحل مشكلة اجتماعية مستحكمة. وما ذلك إلاَّ لأن مساحة جزيرة «ثيرا» محدودة: فهي لا تزيد عن واحد وثمانين كيلومتـر مربّع فقط. ولذا فإن قِطع الأراضي القليلة التي استُردَّت

من المهاجرين عند رحيلهم عن جزيرتهم إلى ليبيا، لم تكن مما يُسْتهان به.

وبآختصار، فإنه بإمكاننا أن نتصوّر أن الأحداث قد اتخذت لها المسار التالي: في حوالي منتصف القرن السابع قبل الميلاد، استفحلت في جزيرة «ثيرا» أزمة سياسيّة واجتماعية، تسبّب فيها الاكتظاظ السكّاني في الجزيرة، وكان انفجار تلك الأزمة قد حدث بمناسبة موسم حصاد مُجْدب. فأوفد الثيرانيُّون إلى معبد دلفي وفداً لاسْتنْباء وحي «أبوللو» حول جدوىٰ تهجير عدد من سكان الجزيرة غصْباً. فردَّ عليهم هذا الإِله الأسطوري بوجوب التوجُّه إلى ليبيا لإنشاء مستوطنة بها. ثم أُنيطت مهمّة قيادة حملة المهاجرين إلى شخصٍ يُدْعى «أريسطوطيليس»، وهو نفس الشخصية التي ستُدعى «باطوس» فيما بعد. فرحل هذا الرجل بحراً صحبة المواطنين الثيرانيين الـذين آخْتيروا لمرافقته، وكان عددهم مائتيْ نفر على أكثر تقدير. وبعدما توقّف هؤلاء بجزيرة كريت، حيث اصطحبوا معهم دليلاً من مدينة «إيتانوس»، فإنّهم يمّموا شطْر ساحل ليبيا، التي أسّسوا بها مستوطنة أولىٰ في جزيرة تسمّىٰ «بلاتيا».

الفَصْلُ الرابعْ

انثار قوريني

يرجع فضل التعرُّف على جزيرة «بلاتيا» إلى الرحّالة الفرنسي «باشو»[1]. ولقد قام هذا الرحّالة المِقْدام بتفقُّد الشريط الساحلي ابتداءً من الإسكندرية بحثاً عن الآثار القديمة وعن الرسوم الصحراويّة البائدة. وكانت مدن: مرسى مطروح، (التي كانت تُسمَّى: «برطون علي الغاوي»، ثم «ابْركْ المرسي»)؛

(1) هو «جان ريمون باشو»، ويعتبر أشهر الرحّالة الفرنسيين الذين زاروا ليبيا وكتبوا عنها في القرن التاسع عشر الميلادي. ولقد قام «باشو» برحلته إلى برقة في سنة 1824 م. وكان قد وصل إلى مصر قبل ذلك بعامين، في عهد محمد علي باشا، حيث تجوَّل في دلتا النيل وواحات الداخلة والخارجة والفيُّوم وسيوة. وكان «باشو» هذا ذا ثقافة يونانية ولاتينية مكينة، كما كان يتقن العربية ويكتبها، كما كان له ولعٌ خاص بدراسة واكتشاف الآثار القديمة؛ ولذا فإنه عندما سمع في مصر عن آثار برقة القديمة وعن جمال منطقة الجبل الأخضر وكثرة الآثار الإغريقية فيها، فإنه عزم على السفر إليها، حيث أقام بها مدة ثمانية أشهر، جال خلالها بين مواقعها الأثرية يستنطق نقوشها ورموزها، وزار مدن هذا الإقليم وواحاته، محاولاً إيجاد أدلَّة وشواهد أثرية تؤيد أو تدْحض كل ما كتبه المؤلِّفون الكلاسيكيُّون والمؤرخون ـ خصوصاً «هيرودوتس» ـ حول الاستيطان الإغريقي في برقة. ثم رجع إلى بلده فرنسا حيث نشر كتاب رحلته الذي ضمَّنه خلاصة النتائج العلمية التي توصَّل إليها حول هذا الموضوع، وجعل عنوانه: «قصّة رحلة في مراقية وبرقة وواحتيْ أوجلة ومرادة». وهو كتاب يعتبر من أوثق المصادر عن تاريخ برقة الإغريقي وعن آثار الإغريق فيها، كما أنّه يتضمّن معلومات قيمة عن تاريخ ليبيا أيّام القرمانليين. غير أن هذا الرحّالة والعالِم الفرنسي سرعان ما وقع فريسة لداء الإكتئاب النفسي، حيث كره الحياة وكفر بعبقريته، فانتحر بباريس في 29 يناير 1829 م ولقد أعيد طبع كتابه الشهير في سنة 1979م إحياء لذكرى مرور مائة وخمسين سنة على وفاته. ولقد قام «فرانسوا شامو» بدبْيجة مقدمة الطبعة حول «باشو» وحياته وكتابه.

والسلُّوم، (التي كانت تُسمَّى: عقبة السلوم الكبيرة)؛ وطبرق، تمثّل المراحل الأساسية لجولته العلمية هناك. ولقد توصّل «باشو» إلى اكتشاف أن مدينة مرسي مطروح الحالية هي نفس مدينة «بارايتونيوم» القديمة، وأن مدينة السلُّوم هي نفس مدينة «كاتاباخموس مانيوس» القديمة، وأن مدينة طبرق هي نفس مدينة «آنتيبيرجوس» القديمة. وبعدها وصل هذا الرحّالة إلى وسط خليج «بمبا» الذي كتب عنه وصفاً فيما يلي نصُّه:

«.. تحيط بالشاطىء الصغير، الذي كنتُ قد ذكرته، عند أقصىٰ طرفه الشرقي، أراضٍ تغطّيها بحيرات مالِحة ونباتات بحريّة. وتغصُّ هذه المستنقعات، في فصْل الصيف، بأعداد هائلة من الضفادع التي استُمدّت منها في قديم الزمان تسمية مرفأ باتراخوس[1] [. . .] ويوجد نبع ماء كبريتي جميل يُسمَّىٰ عين الغزالة، يسيل منه جدول يمرُّ على بُعد بضع خطوات من هذا المرفأ القديم، مما يؤكِّد صدْق التفاصيل الوارِدة عن هذا المكان في كتاب: الرحلة المجهولة المنسوب إلى سكيلاكس المنحول [. . .] ثم غادرنا عين الغزالة يوم 30 [نوفمبر سنة 1824 م]؛ حيث واجهتنا صعوبات جمّة أثناء عبورنا لحوافّ جون الخليج الصغير المزلّقة. وبعد اختراقنا لهذا الممرّ أخذنا نمشي معرِّجين نحو الشمال الغربي عبر أرض متماسكة التربة تقع ما بين شاطىء البحر وتلال طبرق التي تدْنو عند هذه النقطة من حافة البحر كثيراً، بحيث لا تفصلها عنه سوىٰ مسافة قصيرة

---

(1) أي مرفأ «الضفدعة الخضراء». وبمقارنتنا ـ أثناء ترجمتنا لهذا الكتاب إلى العربية ـ للخريطة التي وضعها «باشو» للمنطقة في سنة 1826 م بخريطة ليبيا الحالية (انظر: الأطلس الوطني) تبيَّن لنا أن مرفأ «الضفدعة الخضراء» (باتراخوس) القديم هذا كان يقع غربي بلدة «القرضبة» الحالية إلى الشمال من بلدة «عين الغزالة» بمسافة قصيرة.

يقطعها المرء خلال بضع دقائق. وما أنْ أشرفنا على الجوْن الخليجي حتى لمحتُ جزيرة صغيرة مسطَّحة، لا تبعُد عن الساحل كثيراً، حيث تراءت لي من عند نفس النقطة التي وقفتُ عندها جزيرة بمبا الصخرية العالية، الواقعة في عرْض البحر، إلى جهة الشمال الغربي. وبمقارنة ما ذكره سكيلاكس المنْحول في رحلته بما كنتُ أُشاهده عندئذٍ، تبيَّن لي أنّه ليس هنالك شكٌّ في أن الجزيرة التي كانت قبالتي مباشرة هي جزيرة آيدونيا، وأنّ الجزيرة الصخرية التي ترتفع منحدراتها الوعرة فوق مستوىٰ مياه البحر، خلف الجزيرة الأولىٰ، هي جزيرة بلاتيا الشهيرة»[1].

وجزيرة «بمبا» الصخرية التي ذكرها «باشو» في الفقرات التي اقتبسناها أعلاه من كتاب رحلته، هي بالتأكيد نفس الجزيرة التي رسا عندها «باطوس» ورفاقه. فلقد ذكر «هيرودوتس» أنّ هذه الجزيرة تقع إلى الشرق من «قوريني». والحقيقة أنّه لا توجد قبالة ساحل هذا الإقليم سوىٰ بضع جُزر صغيرة جداً، لا أهميّة لها، ولا يمكن أن تُعدَّ في أهمية الجزيرتين الموجودتين في خليج «بمبا»، وهما: جزيرة «البرْدة» أو «بمبا»، وجزيرة «الصّلّ»[2] أو «المراكب». وبالفعل فإنّ الرحلة المنسوبة إلى «سكيلاكس المنحول» تجعل موقع جزيرتيْ

(1) انظر كتاب رحلة «باشو» في طبعته الثانية (باريس 1979)، وهي الطبعة التي وضع مقدمتها «فرانسوا شامو»، ص—51

(2) نحن نعتقد أن اسم جزيرة «المراكب» الآخر هو «جزيرة الصَّلّ»، بالرغم من أن المؤلِّف «شامو» يجعلها «السيل ـ SEAL»؛ أي «جزيرة عجل البحر»، حيث تبعه في ذلك الدكتور إبراهيم نصحي في كتابه «قوريني وشقيقاتها» لأن نصْحي نقل عنه. وتسمية «SEAL ISLAND» التي أخذها «شامو» عن خرائط وزارة البحرية البريطانية هي في رأينا تسمية خاطئة. ونرى استبدالها بتسمية «جزيرة الصّلّ» وهي تسمية عربية، ولعل منشأ الخطأ هو التّشابه في النطق بين كلمة (SEAL) الإنجليزية وبين كلمة (الصّلّ) العربية.

«آيدونيا» و «بلاتيا» بين مرسى «بيتراس مانيوس» (أي الصخور الكبرىٰ) ـ وهو ميناء قديم لم يتوصَّل أحد إلى تحديد موقعه[1]، لكنه بالتأكيد كان يقع بين «طبرق» وبين «عين الغزالة» ـ من ناحية، وبين «رأس خيرسونيسوس»، وهو بالتأكيد ما يُسمَّى حالياً بـ «رأس التين». أما «سترابو» فإنّه لم يذكر هذه الجزيرة في مؤلَّفه. وأمّا كتاب «جغرافية بطلميـوس»، وكذلـك الكتاب المجهـول المؤلِّف: «أبعاد المسالك في البحر الكبير» فإنّهما لا يذْكران سوىٰ جزيرة «آيدونيا». أمّا «أسطفان البيزنطي» فإنه يكتفي بالقول بأن هنالك جزيرة تسمَّى «بلاتيا».

تلك هي العناصر والمعطيات التي تمدّنا بهـا النُّصوص الكـلاسيكيّة القديمة. أمّا جزيرة «الصَّل» فإنها لا تعدو أن تكون مجرّد جزيرة صغيرة وطئة قاحلة؛ في حين أن جزيرة «بمبا» ـ الأكثر اتساعاً والأشدُّ ارتفاعاً ـ فإنها هي وحدها، فيما يبدو، التي كانت تتوفّر فيها إمكانيّات تلائم عملية استحداث مستوطنة إغريقية فيها. ولقد ذكر «باشو» أنه شاهد مراكب تبحث لنفسها عن مأوى عند شواطئها الوعْرة. ولذا، فإننا نتوسَّم في جزيرة «بمبا» أن تكون ـ بدون شكّ ـ هي نفس جزيرة «بلاتيا» التي التجأ إليها أوائـل المعمِّرين الثيرانيين.

إن حطَّ الرِّحال عند جزيرة قريبة من الساحل القاري ليس من الأحداث النادرة في سياق القَصص التي تتحدّث عن موجات الاستيطان الأجنبي. ولذا فقد وجد الوافدون الثيرانيُّون الجُدد في هذه الجزيرة ـ الواقعة قبالة البرِّ الليبي

---

(1) ويرى «أندريه لاروند ANDRÉ LAORONDE» في كتابه عن قوريني الصادر سنة 1987 الذي عنوانه: «CYRÈN ET LA LIBYÉ HELLÉNISTIQUE», CNRS, Page 223. أن مرسى «بيتراس مانيوس PETRAS MAGNUS» هو «مرسى الطّْرفاية»؛ ونحن نرى أنّها قد تكون هي بلدة «القرضبة»، وهذا أمر نلاحظه بمقارنة خريطة الرَّحّالـة «باشـو» للمنطقـة بالخرائط الرسميّة لليبيا.

الذي كانوا يجهلونه ويرهبونه ـ أمناً كانوا في حاجة إليه، كما وجدوا فيها مواصفات منطلق سهل للتغلغل منه فيما بعد إلى الساحل القارِّي المقابل. ومع ذلك فإن مكوث «باطوس» ورفاقه في جزيرة «بلاتيا» كان قصيراً. إذْ أنّه ما أن انقضى عامان على قدومهم إليها ـ حيث ثبَّطت هممهم تلك الصعوبات التي اصطدموا بها ـ حتى أنفذوا من جديد مبعوثاً إلى معبد دلفي، متّهمين بالكذب كاهنته الفيثيّة التي كانت قد وعدتهم بأنّهم سيُلاقون في مستقرّهم الجديد حياة مفعمة بالرخاء. وهنا ردَّ الإله «أبوللو» على مبعوثهم بسخرية قائلاً:

«إذا كنت أنت تعرف ليبيا، دون أن تذهب إليها، معرفةً تفْضُلُ معرفتي بها، أنا الّذي زرتُ موْئل الخرفان هذا، فإنني أُجِـلُّ علمك كثيراً!».

فمـا كان من الثيرانيين إلاّ أن أطاعوه، متحوِّلين من جزيرة «بلاتيا» إلى البرِّ الليبي.

والحقيقة أن أحداً لم ينقِّب بعدُ، في جزيرة «بمبا» عن آثار ومخلّفات هذا الاستيطان العابِر لها من قِبل المهاجرين الثيرانيين. وبالتأكيد، فإن المرء لا يعوِّل على العثور في هذه الجزيرة على لُقَىً أثريّة ذات بال؛ ولكن إذا كانت هنالك فرصة للكشف عن أيّ أثر لاستيطانٍ إغريقيٍّ سابقٍ على مجيىء هؤلاء، فإن هذا هو الأجْدر، قبل كل شيء بأن تنْصَبَّ عليه أعمال التنقيب الأثري هناك. ومثلما لاحظنا، فإن قصة صائد الأصداف «كوروبيوس» يمكن أن تجد مبرِّراً تاريخيًّا لها في حقيقة قيام محطة تجارية كريتيّة قديمة في هذه الجزيرة التي يجعلها موقعها وسط الخليج في منأىً عن الرياح التي تهبُّ على السواحل المجاوِرة التي يصعُب الإرْساء عندها. ويحدِّثنا «بطلميوس»[1] في كتابه في

(1) درج كثير من الكُتّاب والمؤلفين على رسم هذا الاسم هكذا: «بطليموس» ولكن الأصح أن يُرسم: «بطلميوس». ولكن لنلاحظ أن الجغرافيين والمؤرخين المسلمين قد درجوا منذ القرنين =

الجغرافيا عن وجود بحيرة مالِحة قرب «باليـورروس»، تُلفت النظر بكثـرة الأصداف والمحار في مياهها. و «باليورروس» هذه كانت ـ وهذا أمر أيَّدته كثير من القـرائن ـ بلدة مجاورة لخليـج «بمبا»، وتقـع إلى الغرب من مـرفـأ «باتراخوس» مباشرة.

وبالفعل، فإن الساحل منخفض ومغطىً بالمستنقعات ابتداءً من بلدة «عين الغزالة». ومن المحتمل أن تكون الأصداف المتوفرة هنا ـ والتي أشار إليها «بطلميوس» ـ قد استقطبت الصيَّادين منذ قديم الزمـان؛ ونحن نذكـر أن «كورويبوس» الكريتي كان هو نفسه صائد أصداف. ولذا فإنه من الواجب الشروع في يومٍ من الأيَّام في إجراء تنقيبات أثرية في منطقة «بمبا»، فلعلَّ مفاجآت أركيولوجية ما تزال تنتظرنا هناك.

ويقول «هيرودوتس» إن الثيرانيين قد غادروا جزيرة «بلاتيا» إلى البرِّ الليبي متحوِّلين إلى مكانٍ يقع قبالة تلك الجزيرة ويسمَّى «أزيريس»، يحاذي مجرىً ماء، وتحيط به وديان تنمو فيها الغابات؛ حيث ظلُّوا في ذلك المكان مدَّة ستّ سنوات. وفي السنة السابعة أقنعهم الليبيُّون بالانتقال إلى منطقة أفضلْ؛ فرحلوا غرباً، حيث عبروا أثناء الليل إقليم «إراسا»، وذلك بحسب خدعة من جانب أُولئك الليبيين الذين كان همُّهم تحاشي توقُّف الإغريق الثيرانيين بذلك الإقليم. ثم حطَّ هؤلاء رحالهم في النهاية عند «نبْع أبوللو»[1]. وعندئذٍ نصحهم

= الثالث والرابع الهجريّيْن على رسم هذا الاسم بكيفية خاطئة، أي: «بـطليموس»، انـظر: المسعودي: «مروج الذهب»، المجلّد الثاني من طبعة «شارل بيلّا»، الباب 27، عندما تحدث المسعودي عن ملوك اليونانيين بعد الاسكندر؛ حيث قال: «.. ثم ملك بعد الإسكندر خليفته الملك بطليموس.. إلخ».

(1) بخصوص هذه الهجرة، تجدر الإشارة هنا إلى ما ذكره «كاليماخوس القوريني» في نشيده الثاني المسمى: «إلى أبوللو»، الفقرة 65، حيث يقول شعراً:

«كان أبوللو هو الذي أنبأ باطـوس ـ الذي كـان من مدينتي ـ بمـوقع الأرض =

أدلأّؤهم الليبيُّون بالاستيطان حيث هُمْ، قائلين لهم: «..لأنَّ السماء هنا مثقوبة»؛ أي أنَّ المطر غالباً ما يهطل هناك.

ولقد قام الجدل بين المتخصِّصين حول موقع «أزيريس». فالرّحّالة «باشو» يجعلها عند حافّة «وادي التميمي»، وهو مجرى ماء جافٌّ في الغالب؛ غير أنّه إذا ما حدث وأن كثرت به المياه حتى فاضت، فإنه يصبُّ في البحر قبالة جزيرة «بلاتيا». ولقد أجدبت هذه النواحي في الوقت الحاضر وصارت جرْداء موحشة؛ بحيث أنّه يستحيل أن تثير في خاطر المرء ذكريات «أزيريس» القديمة ذات الظلال الوارِفة التي وصفها لنا «كاليماخوس القوريني» في نشيده الثاني[1]. وتنْضاف إلى هذه الحقيقة ما ذكرته نصوص قديمة أخرى عن وجود مرفأ يسمَّى «أزاريس» أو «أزوليس» ـ وهو المرفأ الذي يقع بالتأكيد غرب «رأس خيرسونيسوس»، ما بين «رأس التّين» و«درنة» ـ ممَّا قاد بعض العلماء، وعلى الخصوص «موللر»، إلى الاعتقاد بأن «أزيريس» التي ذكرها «هيرودوتس» تقع في هذا الإقليم البعيد جدّاً عن «بمبا»، في منطقة تسمَّى «وادي الدِّيك». وبحسب ما ذهب إليه كلٌّ من الرّحّالة الفرنسي «باشو»

= الخصيب؛ إذْ تجسَّد على هيئة غُراب أبيض، وكان فألاً لحُسْن طالع مؤسس مدينتنا، وقاد شعبه عندما حلَّ بليبيا، وأقْسم أن يهب ملوكنا مدينةً ذات أسوار. وقَسَمُ أبوللو باقٍ أبد الدهر».

انظر الدكتور عبد اللّه حسن المسلمي: «كاليماخوس القوريني شاعر الإسكندرية»، منشورات الجامعة الليبيّة، ص 135.

(1) حيث قال «كاليماخوس» في الفقرة التاسعة والثمانين من نشيده هذا ما نصُّه:

«ولم يستطع الدُّوريُّون حتى هذا الوقت الاقتراب من منابع قوريني، وإنما وجدوا في أزيليس AZILIS [أي أزيريس AZIRIS]، ذات الوِهاد الكثيفة الأشجار، مستقرًّا».

المرجع السابق، ص 137. وانظر كذلك ما كتبه إبراهيم نصحي عن هذا النشيد في مقاله: «كاليماخوس القوريني»، المنشور بالعدد الثالث من مجلة كلية الآداب، الجامعة الليبيّة، 1969م، ص ص 18-24.

والرَّحّالة الألماني «هاينرخ بارث»؛ فإنه من الثابت أن إقليم «رأس خيرسونيسوس» يتميّز بحياة نباتية أكثف من تلك الشُّجيْرات الهزيلة التي تنمو اليوم على جانبيْ «وادي التميمي». ومع ذلك، فإن شهادة «هيرودوتس» قاطعة، ولا تحتمل اجتهاداً. ولكن «أزاريس» التي تحدّث عنها كتاب «أبعاد المسالك في البحر الكبير»، المجهول المؤلِّف؛ أو «أزوليس» التي ذكرها «بطلميوس» في جغرافيته، لا يمكن الزعْم بأيِّ حالٍ بأنّهما تقعان قبالة جزيرة «بلاتيا». ومن ناحية أخرى، فإن الإغريق ـ بحسب رواية «هيرودوتس» ـ قد عبروا، في تنقُّلهم بآتجاه «قوريني» إقليم «إراسا»، الذي قال الرَّحّالة «باشو» إنّه هو نفس الموقع الذي تقوم عنده اليوم بلدة «أُمّ الرَّزَمْ»، الواقعة على مسيرة مدة أربع ساعات إلى الأعلىٰ من خليج «بمبا». والمعتقد أن المعمِّرين الإغريق، بعدما وصلوا إلى «وادي الدِّيك»، ارتدُّوا إلى الخلْف للتوجُّه نحو «أزيريس». وإذن فإنه يتوجَّب علينا البحث عن «أزيريس» هذه إلى الشرق من بلدة «أُمّ الرّزَمْ». ولنلاحظ أخيراً أن مسلك «باطوس» وجماعته ينمُّ ـ منذ وصولهم إلى جزيرة «بلاتيا» ـ عن رهبة ووجل من قارَّة كانت تبدو لهم بقعة موحشة ومعادية. وإنّه لمن غير المحتمل أن يكون هؤلاء المعمِّرين ـ وقد أجبرهم وحيْ «أبوللو» على مغادرة الجزيرة الصغيرة القاحلة، «بلاتيا»، التي التجأوا إليها في البداية ـ قد أخذوا يبحثون بعيداً منها عن موضع آخر لإنشاء مستوطنتهم الجديدة. بل الأحرىٰ هو أن كل ما فعلوه هو أنّهم نزحوا إلى البرِّ الليبي، وظلُّوا متربِّصين هناك قبالة مأواهم المبدئي «بلاتيا». وفيما بعد فقط، وعندما عقدوا صِلات وصداقات مع السكّان الأصليين، نراهم عندئذٍ يقرِّرون ـ بعد اقتناعهم بعدم ملاءمة مقرِّهم الجديد للاستيطان لصعوبة العيش فيه ـ الاستجابة لنصائح أصدقائهم الجُدد، ويهاجرون نحو الدواخل. والواقع أن حوافَّ «وادي التميمي»، تُعدُّ، بالرغم من نباتاتها الهزيلة، وبالرغم من الآفاق الموحشة والمقْفرة التي تحيط بها حالياً، هي وحدها البقعة التي تتطابق

طبوغرافيًا مع تلك الأوصاف التي ذكرها «هيرودوتس» عن المنطقة.

ولنلاحظ، على أيّة حـال، أن «هيرودوتس» لم يـذكر في نصِّـه عن «أزيريس» أنّها مدينة؛ وإنّما قال عنها أنّها مقاطعة. وهذه، بدون شكّ، هي التسمية التي كان السكان الأصليُّون يطلقونها على هذا الإقليم الشرقي من أقاليم شبه الجزيرة القورينائية؛ ومن المحتمل جدّاً أن هذه المقاطعة كانت تمتد إلى الشمال أكثر حتى مشارف «رأس خيرسونيسوس»، (= رأس التين)؛ مما يبرِّر وصف «سيكلاكس المنْحول» لها بـ «الأرض القاحلة المغطَّاة بطبقة من الأملاح»، بحسب افتراض «موللر» الأخَّاذ في كتابه المسمَّى «صغـار الجغرافيين الإغريق». وحيث أن إقليم «رأس التين» إقليم جبلي تكسـوه الخضرة؛ فإننا لا نستبعد أن المقاطعة برمَّتها كانت خصيبة. وعلى أيّة حال، أفليست تلك هي المنطقة التي ذكرت المصادر القديمة أن القوافل القادمة من مصر، عبر الطريق الموازي للساحل، كانت تلوح لها أفياؤها وخضرتها وهي ما تزال عند دلتا النيل؟.. والمرجَّح أن «هيـرودوتس» نفسه قـد وصل إلى «قوريني» عن طريق البحر، فهذا هو الطريق الأسهل والأسرع والأكثر أمْناً. وإذن، فإن هذا المؤرِّخ لم تكن لديه حول التّخوم الشرقيّة لقورينائية سوىٰ معلومات غير مباشرة؛ أي أن معلوماته تلك لم تكن مبنيَّة على مشاهدة عيانيّة. ومن هنا فإننا نفترض أنّه وقع في الخطأ بعض الشيء ـ وأمسك «كاليماخوس القوريني» عن تسفيه كلامه وتكذيبه ـ عندما وصف «وادي التميمي» بالخضرة وبجمال المروج الزاهية؛ بالرغم من أن الخضـرة لا تتجلّىٰ في مقاطعـة «أزيريس» حقّاً سوى إلى الشمال من ذلك.

ولقد تعرَّف الرحَّالة «باشو» على إقليم «إراسا» عندما لاحظ، أثناء تجواله هناك، شبهاً كبيراً بين ما ذكره عنها «هيرودوتس» وبين نبْع «أُمّ الرَّزَمْ». ويجدر بنا الاطِّلاع في كتاب هذا الرّحَّالة على تلك اللوحة الوصفية التي رسمها بقلمه بهذا الموقع الأخّاذ: فبعدما صعَّد «باشو» على ظهر جمله ورفقة أدلاَّئه العرب

في الجبال، طوال أربع ساعات، حيث انبسطت أمام ناظريْه امتدادات السهل الساحلي القاحلة؛ نراه يصل في النهاية إلى بقعة منحدرة معشوشبة، حلَّت فيها التربة الحمراء الخصيبة محلَّ الرِّمال القاحلة التي كان قد مرَّ بها لتوِّه، وأضحت فيها الصخور مغطاة بالأعشاب والطحالب، وتبدَّت أمامه غابة من العرْعر، والزيتون، والعفص الصنوبري. ولقد استغرق منه عبور هذه الغابة المتشابكة زهاء الساعتين. ولم يكتم أدِلَّاؤه النوبيُّون والمصريُّون دهشتهم إزاء منظر هذه الطبيعة الزاهية: فها هنا أمامنا ـ بدون ريب ـ «نبْع ثستيس» (عين مارة)، الذي سيتمكَّن عنده، فيما بعد، جيش قوريني الإغريقي من هزيمة جيش فرعون مصر «أبريس» عندما كان هذا الجيش الأخير متَّجهاً إلى «قوريني» لشدِّ أزْر الليبيِّين ضد «باطوس الثاني» الذي كان قد صادر أراضيهم. فنحن إذن نفهم السبب في أن قبيلة «الجيليجاماي» الليبيّة القديمة، التي كانت تقطن التُّخوم الشرقيّة لقوريناثية، قد حرصت على أن يكون توقيت تمْرير المعمِّرين الإغريق هو ظلمة الليل، أثناء عبورهم لأجمل بقعة في منطقة تلك القبيلة، وذلك خوفاً من أن يطمع فيها أولئك المعمِّرون الوافدون، ويفكِّروا بالتالي الاستيطان بها. أمَّا أنْ يُقال أن إقليم «قوريني» نفسه، هو في التحليل الأخير، أشد خصوبة وأكثر أمطاراً؛ فإن هذا ـ برغم صحّته ـ لا يهمُّ قبيلة «الجيليجاماي» في شيء؛ من حيث أن «قوريني» وأرباضها ليست جزءاً من الأراضي التي تعيش فيها هذه القبيلة، لأن «قوريني» تقع وسط أراضي القبيلة المجاورة، وهي قبيلة «الأسبستاي».

وها هو «باطوس» ورجاله، إذن، قد حطُّوا الرِّحال أخيراً عند «نبْع أبوللو»، الذي كان السكان الأصليُّون يقدِّسونه. وها هم يؤسِّسون مدينة «قوريني»؛ فإلى أي تاريخ بالضبط يعود هذا الحدث؟ الحقيقة أننا إذا ما تركنا جانباً تلك التواريخ التي ذكرها المؤلِّف المسيحي «يوسيبيوس» في حوْليته التي حُفظت لنا في نصِّها اللاتيني الذي وضعه «سان جيروم»؛ أي: 1336 ق م/ 1333 ق م،

و 761 / 758 ق م/ 752 ق م؛ وهي تواريخ سبق لنا وأن درسنا مدلولاتها في الفصل الثاني من هذا الكتاب، فإن الوثائق الأركيولوجية والقرائن التاريخية تتفق في جعْل إنشاء مدينة قوريني في النصف الثاني للقرن السابع قبل الميلاد. أما التمثال الحديدي الصغير الذي تم العثور عليه في معبد «أبوللو» بالمدينة، وكذلك شِقَفُ الخزف الكورينثية التي اكتُشفت في معبد «الأرتيميسيون»[1]، بنفس المدينة، فإنها تكفي في تحديد هذا التاريخ. في حين أن الإشارات الواردة في نصوص القدماء، فإنها بالرغم من تضاربها، إلاّ أنها تعتبر أقلَّ لبْساً وغموضاً. ذلك أن «يوسيبيوس» يمدُّنا في حوْليته بتاريخ متأخِّر، هو سنة 631 ق م. وأيًّا كانت التحفُّظات حول مدى قيمة حوليته هذه، فإنه يظل لشهادته، فيما يتعلّق بتاريخ إنشاء «قوريني»، وزْن كبير، لأنه يُحتمل جداً أن تكون شهادته هذه قد استُقيت عن الجغرافي القوريني «إراتوسثينيس»، الذي لا بد وأن يكون قد أحاط أكثر من غيره بتاريخ موقع رأسه هذا.

والتاريخ الدقيق الوحيد الآخر الذي حفظته لنا النصوص القديمة هو نص «سولينوس»[2]، الذي كُتب في أواخر القرن الثاني بعد الميلاد، والذي يذهب إلى أن إنشاء المدينة قد وقع خلال فترة وقوع «الأوليمبياد» الخامس والأربعين، أثناء تولِّي «انكوس ماركيوس» عرش روما، وبعد انقضاء خمسمائة وست وثمانين سنة على سقوط «طروادة». ونحن على استعداد لقبول جميع هذه

---

(1) نسبة إلى الإلهة «أرتميس»، إلهة الصيد وأخت «أبوللو» في الميثيولوجيا الإغريقيّة. وهي أيضاً ربّة الطفولة وحامية الحيوانات الأليفة والمفترسة. ويصوِّر النحّاتون الإغريق «أرتميس» عادة وبيدها القوس والكنانة والسهام، وإلى جانبها غزالة أو كلب صيد أو دبّ أو خنزير. وتسمى نفس هذه الإلهة عندهم أحياناً: «بيثيا»، أو «كينثيا»، أو «فويبي».

(2) هو «جايوس يوليوس سولينوس»؛ وضع كتاباً في جغرافية العالم عنوانه: «COLLECTANEA RERUM MEMORABILIUM» انتحله من كتاب «التاريخ الطبيعي» لـ «بليني الأكبر». و «سولينوس» هذا هو مبتكر تسمية: «البحر الأبيض المتوسط MARE MEDITERRANEUM».

الإيضاحات الدقيقة، لو لم تكن متناقضة فيما بينها: فالأوليمبياد الخامس والأربعون قد أُقيم خلال السنوات الأولى للقرن السادس قبل الميلاد؛ أي ما بين سنة 600 قبل الميلاد وسنة 596 قبل الميلاد؛ في حين أن «انكوس ماركيوس» ـ بحسب ما ذكره «سولينوس» نفسه ـ قد حكم روما ما بين سنة 639 ق م، وبين سنة 615 ق م. أما سنة خمسمائة وست وثمانين بعد انقضاء حرب «طروادة» ـ وهي السنة التي أرَّخ بها «إراتوسثينيس»، الذي يبدو أن «سولينوس» قد نقل عنه ـ فإنها تقابل سنة 596 قبل الميلاد، أي سنة 1184 بحسب التقويم المعروف بـ «تقويم حكم ملوك روما».

وبإمكاننا إعطاء وزن أكبر لهذا التاريخ الأخير الذي تؤيِّده دلالتان، وليس دلالة واحدة. ولكن من الجليِّ أنَّ الإشارة إلى «انكوس ماركيوس» تمدّنا بركيزة استدلالية أكثر ضماناً: ففي نظر «سولينوس» أن تواريخ تعاقب ملوك روما على الحكم قد دُوِّنت بدقّة، وبالتالي فإنه لا مجال للشك فيها. وإذن فإنه من الأجدر بنا أن نرجِّح احتمال وقوع خطأ ما في الأرقام عند تسجيل تواريخ «الأوليمبياد»[1]، أو في تاريخ سقوط «طروادة»، والافتراض بأن ناسخاً جاهلاً قد قام بتصحيح التاريخ الآخر؛ بحيث أن خطأه هذا أحدث تطابقاً بين التاريخين. ولا شك في أن ذلك الناسخ كان يجهل من هو «أنكوس ماركيوس». وعليه، فإننا نفترض أن النص الأصلي كان يتحدث عن «الأوليمبياد» الخامس والثلاثين، وليس عن «الأوليمبياد» الخامس والأربعين، الناجم عن التصحيف الذي اقترفه الناسخ (أي XXXV وليس XXXXV)، وأنه ذكر أصلاً سنة 546 وليس سنة 586، الناجم عن التصحيف الذي وقع فيه الناسخ

(1) يقصد بـ «الأوليمبياد» الدورات الأوليمبية الإغريقية التي بدأت منذ سنة 776 ق م تمجيداً للإله «أبوللو» الأوليمبي، وهي أهم الاحتفالات عند الإغريق، وكانت تعقد مرة كل أربع سنوات. والأوليمبياد يشتمل على مهرجانين؛ أحدهما ديني تقدم فيه القرابين إلى الإله أبوللو، والمهرجان الثاني يتمثّل في عقد المباريات الرياضيّة، ومنها رمي القرص والمصارعة وسباق العجلات. وكان يُسمح للاشتراك فيها لكل فرد حُرّ وُلد من أبويْن إغريقيين.

(أي DXXXXVI وليس DLXXXVI) بعد سقوط «طروادة»؛ وهو، مثلما نرىٰ، تاريخ مقارب للتاريخ الذي أوْرده «يوسيبيوس». وعلى أيّة حال، فإن الشعور بهذا الشك في حدّ ذاته يجرِّد شهادة «سولينوس» من أيّة قيمة جادَّة، ويجعل هذه الشهادة لا تستحق التعويل عليها بالنسبة للمشكلة التي تشغل بالنا هنا، وهي السنة التي تم فيها إنْشاء مدينة «قوريني».

أما قدماء المؤلِّفين الآخرين، فإنهم أقل دقة في تحديد تاريخ إنشاء المدينة؛ فمثلاً نجد أن «ثيوفراستوس» ـ (372 ق م ـ 288 ق م) ـ يجعل في الفصْل السادس من كتابه «تاريخ النباتات»، إنشاء «قوريني» سابقاً بنحو ثلاثمائة سنة على ولاية «سيمونيدس»، وهي نفس الفترة التي ألّف فيها عالم النبات الإغريقي هذا كتابه المذكور. وحيث أن «سيمونيدس» قد تولى الحكم سنة 311 ق م، فإن «قوريني» قد أُنشئت إذن سنة 611 ق م. ولكن من الواضح أن «ثيوفراستوس» لم يُعْنىٰ ـ في ذلك الفصْل من كتابه الذي يتحدّث فيه أساساً عن ظهور نبات «السلفيوم» ـ سوى بإعطاء تاريخ تقريبي لإنشائها. أمّا التاريخ الذي ساقه لنا عالِم النبات الروماني «بلِيّني الأكبر» ـ (23 ميلادية ـ 79 ميلادية) ـ في كتابه «التاريخ الطبيعي»، وهو التاريخ الذي يطابق أيضاً سنة 611 قبل الميلاد (وهو عام 143 بعد تأسيس روما)؛ فإنه نُسخ مباشرة عن التاريخ الذي أوْرده «ثيوفراستوس»، وبالتالي فإنه لا يمكن الركون إليه. وتقول حاشية وُضعت لشرح «البوثِيَّة الثانية» لـ«بنداروس»، تتناول مسألة مقتل «أركسيلاوس»، أن أسرة الملوك الباطيين قد حكمت «قوريني» مائتيْ سنة. ولكن حتى هنا، فإن الأمر قد لا يزيد عن إيراد عدد تقريبي من السنوات؛ فالحقيقة أنَّ جهْلنا الكامل بالسنة التي أُزيحت فيها هذه الأسرة المالكة عن الحكم، يجعلنا عاجزين عن الاستفادة مما جاء في هذه الحاشية التي وضعت لشرح متْن بوثِيَّة «بنداروس» المذكورة.

وأخيراً، فإنه يتوجَّب علينا أن نأخذ في حُسْباننا تلك الفقرة التي أوْردها

«باوسانياس»[1] ـ وهو جغرافي إغريقي عاش في القرن الثاني للميلاد ـ والتي تقول إن «خيُونيس الأسْبرطي» كان واحداً من رفاق «باطوس» عند إنشاء «قوريني». بيْد أن «يوسيبيوس» قد ذكر في حوْليَّته اسم «خيونيس» هذا على اعتبار أنّه أحد الفائزين في سباقات دورات «الأوليمبياد»: التاسعة والعشرين، والثلاثين، والواحدة والثلاثين، التي جرت مبارياتها خلال الفترة من سنة 664 ق م إلى سنة 656 ق م. ولكي يقبل المرء بالزعم بأن «خيونيس» قد شارك بالفعل في حملة المعمِّرين الثيرانيين الذين قدموا لإنشاء مستوطنة في ليبيا، (وهي الحملة التي كان قدومها سابقاً على تأسيس مدينة قوريني نفسها بمدة ثمان سنوات، بحسب ما ذكره «هيرودوتس»)، فلا بد وأنّه لم يكن عندئذٍ قد بلغ سنَّ الرُّشد: وهذا لا يسمح لنا بزحزحة تاريخ إنشاء المدينة إلى ما قبل حوالي سنة 630 ق م، على أقصى تقدير. ولذا فإنه ـ في غياب أي تاريخ آخر مناسب ـ يجدر بنا إقرار هذا الحد الأقصى لتاريخ إنشائها.

والآن: كيف يمكننا تأويل كل هذه الشهادات المتباينة على نحو يجعلها تتمشّى مع ما ذكره مصدرنا التاريخي الرئيسي، أي نص «هيرودوتس»؟.. من المعروف للمتخصِّصين منذ أمدٍ طويل أن أقدم حدث وقع في تاريخ مدينة «قوريني» ـ ولدينا عنه تاريخ شبه مؤكّد ـ هو تلك الحملة المصرية التي قادها الفرعون «أبريس» ضد إغريق «قوريني»، وهي الحملة التي أدّىٰ فشلها إلى تنحية هذا الفرعون وتنصيب «أماسيس» خليفة له على عرش مصر. والواقع أنه توجد بين أيدينا حول هذه الواقعة تواريخ متزامنة يمدُّنا بها تاريخ مصر الفرعوني، وتسمح بالاعتقاد بأن هزيمة هذه الحملة المصرية قد تمّت حوالي سنة 570 قبل الميلاد. ومعركة «إراسا» التي هُزمت فيها قوّات «أبريس» المصرية قد وقعت أثناء فترة حكم «باطوس الثاني»، الملقَّب بـ«السعيد»،

(1) بعض المراجع العربية ترسم اسم هذا الجغرافي الإغريقي «باوسانياس»، وبعضها الآخر يرسمه «باوزانياس».

والذي هو ثالث ملوك قوريني الباطيين. وكان هذا الملك قد أهاب بمختلف جزر بلاد الإغريق أن تبادر إلى إرسال مهاجرين للاستيطان في قوريني. وعندما وفدت أفواج أولئك المهاجرين، فإن باطوس الثاني أخذ ينتزع من الليبيين أراضيهم الزراعية في المنطقة ليوزعها على القادمين الجُدد؛ الأمر الذي أثار نقمة أهل البلاد الأصليين وحملهم على الاستغاثة بفرعون مصر، طالبين منه مساعدتهم على استعادة أراضيهم المسلوبة. ومثلما نرى، فإن تلك الهجرة الإغريقية الجارِفة التي تسبّبت في قدوم حملة الإنقاذ المصرية، قد وقعت إبّان حكم باطوس الثاني نفسه. ولذا فإنه يتحتم زحزحة تاريخ بداية حكم هذا الأخير للمدينة بضع سنوات إلى الوراء، أي إلى ما بين سنة 580 ق م وسنة 575 ق م. إذْ لا شك أنه انقضت أربع أو خمس سنوات، على الأقل، قبل أن تغدو تلك الهجرة الإغريقيّة الجديدة إلى ليبيا ـ وهي هجرة باركها وحْي دلفي ـ سيلاً جارفاً أزعج الليبيين وحملهم على طلب العون من فرعون مصر. وبإقرار التاريخ المُشار إليه أعلاه، والذي نقترحه كبداية لفترة حكم «باطوس الثاني»، فإننا نستطيع ـ استناداً على القرائن التاريخية الأخرى التي أمدَّنا بها «هيرودوتس» ـ أن نتراجع منه إلى الوراء مدة ستة وخمسين عاماً لكي نلتقي بتاريخ قدوم الثيرانيين إلى ليبيا؛ أي التاريخ الذي بدأ فيه حكم «باطوس الأول»، مؤسِّس قوريني، وهو التاريخ الذي يقع ما بين سنة 636 ق م، وسنة 631 ق م. ولنلاحظ، مع ذلك، أن تأسيس قوريني لم يتم إلّا بعد انقضاء ثمان سنوات بعد ذلك؛ أي ما بين حوالي سنة 628 ق م، وسنة 623 ق م. بيْد أن الفقرة التي أوردها «باوسانياس»، والقائلة بأن «خيونيس الاسبرطي» كان أحد رفاق «باطوس» عند إنشاء قوريني ـ مثلما مرَّ بنا من قبل ـ تجعلنا ننظر إلى هذه التواريخ على أنّها متأخِّرة بعض الشيء.

ولنُجمل نتائج ما عرضنا له أعلاه، على النحو التالي: أوّلاً: أن جميع مصادرنا تجعل النصف الثاني للقرن السابع قبل الميلاد تاريخاً لإنشاء قوريني.

ثانياً: أن تسلسل الأحداث كما ورد عند «هيرودوتس» يمنعنا ـ داخل إطار منتصف القرن السابع ق م ـ من أن نجعل زمن تأسيس المدينة سابقاً عليه؛ فيما يمنعنا ما ذكره «باوسانياس» من أن نجعله تالياً عليه. وهكذا، فإننا نجد أنفسنا مضطرّين دائماً إلى الأخذ بأدنىٰ التواريخ الثلاثة التي أوردها «يوسيبيوس» ـ أي سنة 631 قبل الميلاد ـ لأن مما يزيد في ثقتنا في هذا المؤلِّف، من ناحية، أنه نقل مباشرة عن «إراتوسثينيس القوريني»، وأن القرائن الأركيولوجية تميل إلى تأييده، من ناحية أخرى. ولذا، فإننا، مع إقرارنا بأنّه من المجازفة في مثل هذه الأحوال، الرّكون إلى تاريخ محدّد بكل دقّة؛ إلاّ أننا نخلص في التحليل الأخير إلى الاعتقاد بأنّه لا يوجد حالياً سبب لاستبعاد هذا التاريخ. نعمْ!.. إن قوريني لا بدّ وأن تكون قد تأسّست في حوالي سنة 631 قبل الميلاد.

وجميع النصوص التي استعنّا بها حتى الآن تعزو إنشاء قوريني إلى المعمِّرين الثيرانيين وحدهم. أما «خيونيس الإسبرطي» فيبدوْ أنه لم يكن سوىٰ شخص مغمور انضمَّ إلى رفاق «باطوس» بمبادرة فردية، وبالتالي فإنه لم يكن يمثِّل سكان إسبرطة. وعلى أيّة حال، فإن تواجد هذا الشخص في جزيرة «ثيرا» لا يبعث على الدهشة، وذلك بسبب الروابط الوثيقة التي كانت بين هذه الجزيرة وبين العاصمة اسبرطة. ومع ذلك فإن فقرة من فقرات الفصْل السابع عشر لـ «حوليَّة معبد ليندوس» توحي بأن أُناساً من مدينة «ليندوس» بجزيرة رودس كانوا قد اشتركوا في حملة المعمِّرين الذاهبين إلى ليبيا؛ فنصُّ هذه الفقرة يقول بالفعل:

«.. إن الليندبين الذين انضمّوا إلى أبناء بانكيس للتوجُّه مع باطوس لتأسيس قوريني، قد نذروا تمثال بالاس[1] وتمثال أسد

---

(1) «بالاس» هو أحد ألقاب الإلهة الأسطورية الإغريقية «أثينا» إلهة الفكر والفن والعلم، وابنة إله الآلهة «زيوس» حسب زعمهم.

نيميا، الذي خنقه هرقل. وهذان التمثالان صُنعا من خشب اللوتس، ونُقش على قاعدتيهما النصّ التالي: (إن الليندين الذين انضمُّوا إلى أبناء بانكيس للتوجُّه مع باطوس لإنشاء قوريني قد نذروا هذين التمثالين إلى الإلهة أثينا وإلى البطل هرقل كضريبة عن الأسلاب التي غُنمت من.. [كلمات مطموسة في النصّ يستحيل تخريجها]. المصدر: إكزيناغوراس، من الكتاب الأوّل من حوليّته».

وكما هو واضح، فإن «تيماخيداس»[1]، الذي ألّف حوليّة معبد ليندوس هذه في سنة 99 قبل الميلاد، يشير هنا إلى قيام «باطوس أريسطوطيليس» بإنشاء المدينة. وإذن، فهل يتوجّب علينا الإقرار بأن جانباً من الليندين الرودسيين قد جاءوا إلى قوريني ـ منذ البداية ـ لتعزيز جماعة المعمِّرين الثيرانيين؟ وإذا ما صحَّ أن أُولئك المعمِّرين المتوجهين إلى ليبيا قد طلبوا عوْن أهلِ الجُزر الإغريقية الأخرى؛ فالذي نستغرب له فعلاً هو: كيف لم يشكِّك، لا «هيرودوتس»، ولا «بنداروس»، ولا «لوح المؤسِّسين»، ولا أي مصدر آخر من مصادرنا القديمة، قط، في حقيقة انتماء جميع رفاق «باطوس» الأُوَلْ إلى جزيرة «ثيرا» وحدَها؟

ولقد حلَّ «شارل بلينكينبيرج»، في كتابٍ له عن «حوليَّة معبد ليندوس»، نشره سنة 1941 م، هذا الإشكال، مقترحاً ألَّا يكون «أبناء بانكيس» الليندين ـ الذين ذكرهم «تيماخيداس» في حوليَّته تلك ـ قد قدموا إلى قوريني سوىٰ أثناء فترة حكم «باطوس الثاني»، الملقَّب بـ«السعيد»، عندما عمل هذا الملك على إغراء مهاجرين من مختلف بقاع العالَم الإغريقي على القدوم إلى ليبيا.

---

(1) هو «تيماخيداس الرُّودسي»، عاش في القرن الأول ق م، له سلسلة مطولة من تراجم المؤلّفين الإغريق في أكثر من أحد عشرة مجلد.

ولقد كان من بين الوافدين الجُدُد إلى هذه المدينة أعداد كبيرة من سكّان الجزر الإغريقيّة الأخرى؛ الأمر الذي حدا بالمُصْلح والمشرِّع المانتيني «ديموناكس» ـ الذي استُدعي لتنظيم أمورها ـ أن يحشدهم كلهم في قبيلة خاصة تضمّهم وحدهم، هي قبيلة «النيسيوتيين». فمن المحتمل إذن أن يكون «أبناء بانكيس» وصحبهم الليندييين قد ضُمُّوا إلى أُولئك «النيسيوتيين»، المميزين عن رُوَّاد المدينة الأوائل من المعمِّرين الثيرانيين. وفيما بعد، وعندما نذر أحفاد هؤلاء الليندييين قُرْباناً إلى الإلهة «أثينا» الليندية، صاروا يخلطون في أذهانهم بين الاستيطان الثيراني الأوّل للمدينة، والذي تم في سنة 631ق م، وبين الهجرة اللاحقة التي ضمّت أجدادهم الليندييين الذين شاركوا في تأسيسها مجدَّداً، ما بين حوالي سنة 575ق م، وحوالي سنة 570ق م؛ كما خلطوا بين شخص ثالث ملوكها «باطوس الثاني» وبين الشخصية البطوليّة لمؤسِّسها الحقيقي «باطوس الأوّل». وهذا هو السبب في غموض عبارات النّذْر المنقوشة على قاعدة التمثالين الخشبيين، التي ذكرتها حولية «تيماخيداس».

كان اسم المدينة الجديدة هو «قوريني»، أو بالأحرى «قورانا»، كما في اللهجة الدورية التي كان يتكلّمها أهل قوريني آنذاك. ولقد حاول العُلماء المحْدثون إرجاع هذا الاسم إلى اشتقاقات شتّى، غالبيتها غير مقنعة. فبعضهم يرىٰ أنّه مشتق من الكلمة الإغريقية (KYRTOS) ـ التي تعني «المُنْحنى» ـ وذلك إشارة إلى شكل ساحل قوريناية المنحني؛ وبعضهم الآخر ذهب إلى أن اسم المدينة مُسْتلهم من اسم الحوريَّة التسالية «قورا»، أو «قورانا»، أو «قوريني» ـ التي قتلت الأسد، كما مرَّ بنا في سياق سابق ـ ومنهم مثلاً «شتودنيكزكا» الذي ذهب إلى أن اسم المدينة مشتقّ من كلمة «عشيقة» بالإغريقية.

وإزاء هذه الفرضيّات المتضاربة وغير المؤكّدة، فإننا لا نجد ـ في التحليل الأخير ـ مفرًّا من الرجوع إلى الفرضية التي قبِل بها القدماء. فالحقيقة أن «كاليماخوس القوريني» ذكر أن «نبْع أبوللو» في المدينة كان يسمى «نبْع قورا»،

أو «نبْع قوري»؛ وهذا يعني أن تسمية «قوريني» قد اشتُقَّت من كلمة «قوري». ومن المرجَّح جدًّا، في رأينا، أن هذا هو منْشأ اشتقاق اسم المـدينة. والمعروف أن أسماء المواقع التي تنتهي بالمقطع «إيني» كثيرة في اللُّغة الإغريقية، مثال ذلك، «بيريني»، و«موكيني»، و«موتيليني»، و«كوبريني»[1]. وقد لاحـظ الباحث «بيرتولدي» أن أمثال هذه الصيغ الاسمية قد اشتُقَّت من أسماء نباتات أو حيوانات أو تربة، وأن هذا ينطبق بالفعل على تسمية قوريني؛ ذلك أن إحدى النباتات التي تنمو في إقليمها الخصيب تتمثّل في نبات «الزنبق البرِّي»[2]، وهو يسمى عند الليبيين نبات «القورا». وإذن، فإن تسمية «قورانا» ـ وهي التسمية التي أُطلقت على مدينة قوريني في اللهجة الدورية التي كان يتحدّثها مستوطنوها الإغريق ـ تعني: «المكان الذي ينمو فيه نبات «القورا» (أي الزنبق البرِّي) بكثرة».

إن هذا الاشتقاق، الذي يعود الفضل في لفت النظر إليه إلى «بيرتولدي»، هو اشتقاق يأخذ في الحسبان وقائع معروفة، أكثر من غيره من الاشتقاقات؛ فهو باستناده على التسميتين المؤكدتين: «قورا» و«قورانا»، يمدُّنا ـ فيما يتعلّق بأصل اسم المدينة ـ بتفسير يشدِّد على الصبغة الليبيّة المحلية الصرفة. ويترتب على ذلك احتمال عدم وجود أيّة علاقة بين اسم الحورية «قوريني» وبين اسم هذه المدينة. فهذه الأخيرة لم يكن لها أي وجود قبل سنة 631 قبل الميلاد؛ أمّا الحورية «قوريني» فقد سبق قبل ذلك للشاعر «هيسيودوس» ـ الذي عاش في حوالي منتصف القرن الثامن قبل الميلاد ـ وأن تطرَّق إلى أسطورتها في قصيدته «المثيلات». وبالتالي فإن هذه الحوريَّة قد تكون قد عُرفت في الأساطير

(1) PEIRENE ؛ MUKENE ؛ MUTILENE ؛ KOBRENE.

(2) الزنبق البرِّي هو نبات من فصيلة الزنبقيَّات، له سيقان طويلة عارية تنتهي بزهور بيضاء على هيئة نجمات تفوح منها رائحة زكية عابقة مثيلة برائحة النرجِس والمسك. ولقد لاحظتُ أنه ينمو بكثرة قرب شاطىء البحر بين الكثبان الرملية.

الإغريقية حتى قبل أن يذكرها «هيسيودوس» في قصيدته تلك. وإذن، فإنه لا يوجد بين اسم المدينة الليبيّة وبين اسم الحورية التّسالية سوى مجرّد تشابه اتفاقي عابر. وبالطبع فإن هذا التشابه بين الاسمين قد حمل القـورينيين الإغريق ـ فيما بعد ـ على جعل هذه الحورية التي وقع الإله «أبوللو» في حبّها، إلهتهم الحامية لهم؛ ومن ثم فإنهم نقلوا مسرح قصة الحب الأسطورية التي وقعت بين هذه الحورية وبين الإله «أبوللو» من تساليا إلى أرض قوريني. غير أنه يبدو أن اتّخاذ الإغريق القورينيين للحوريّة إلهة لهم لم يتم دفعة واحدة، وإنما على نحوٍ تدريجي مقصود. والحقيقة أن جميع المصادر التي حدّثتنا عن أن أهل قوريني الإغريق كانوا يعبدون هذه الحوريّة محلياً، نفهم منها أن عبادتهم لها لم تظهر إلاّ في وقتٍ متأخّر نسبياً. وهكذا فقد ظلّت الحورية «قوريني» أمداً طويلاً غريبة عن المدينة التي ينمو في مروجها نبات «القورا»!

الفصل الخامس

قوريني حتى إصلاحات المشرِّع ديموناكس

يقول «هيرودوتس» في تاريخه ما نصُّه:

«.. طوال فترة حكم باطوس المؤسِّس، الذي حكم أربعين سنة، ومن بعده ابنه أركسيلاوس، الذي حكم ستَّ عشرة سنة، لم يكن يقطن مستوطنة قوريني سوى المهاجرون الأُوَلْ».

وهذا هو كل ما ذكره هذا المؤرِّخ عن أوّل ملكين إغريقيين حكما قوريني ـ وذلك إذا ما تركنا جانباً تلك الرواية التي ساقها لنا عن تأسيس هذه المدينة، وهي الرواية التي عرضنا لها في صفحات سابقة. وإن دلّ ذلك على شيء، فإنما يدلُّ على مدى جهلنا بما جرى خلال السنوات الخمسين الأولىٰ من عمر هذه الدولة الجديدة الممتد، إجمالاً، من سنة 630 ق م، وحتى سنة 580 ق م. فهل يتوجَّب علينا، يا تُرى، أخْذ عبارة «هيرودوتس»، المذكورة أعلاه، على علّاتها؟.. بيْد أنَّ رفاق «باطوس» ـ إنْ كانوا قد قدموا فعْلاً إلى سواحل ليبيا على ظهر مركبين من ذوات الخمسين مجذافاً ـ فإن عددهم لن يزيد في هذه الحالة عن المائتين. لكنه من الصعب علينا تصديق أنْ يكون بوسع قلَّة من المهاجرين بهذا العدد الصغير أن تعيش أمداً طويلاً في بلدٍ غريب كليبيا، دون أن تعزِّز تواجدها هناك أفواج أخرىٰ من المهاجرين. وإذن، فإنه من المحتمل

أن الثيرانيين الآخرين الذين مكثوا في جزيرتهم ولم يهاجروا إلى ليبيا مع ذلك الفوج الأوّل من المعمِّرين، قد ظلُّوا على اتّصال مستمر مع مُنْ سبقوهم إلى المستوطنة الناشئة، وأنّ الكثيرين منهم ـ وقد علموا بأنّها قد أخذت تزدهر ـ قرّروا النّزوح إليها، للحاق بجماعة «باطوس» فيها. ذلك أن العون الذي قدّمه أهل البلد الأصليين للمستوطنين الثيرانيين الأُوَلْ لم يكن بالتأكيد كافياً ـ على سبيل المثال ـ لتشييد صرح في مثل ضخامة معبد أبوللو في شكله المبدئي. ثم إنه إذا كان العنصر الثيراني قد انحصر في نسْل المؤسِّسين وحدهم، فإنه ما كان لهذا العنصر وأعقابه إلاّ أنْ يندثروا في مدّة قصيرة في خضمٍّ سيْل مهاجريٍّ الجزر الإغريقيّة الأخرى الذين أغراهم باطوس الثاني بالنزوح إلى المدينة. ولذا فإنه لا بد وأن عبارة «هيرودوتس» المذكورة لا تعني سوى مجرد التشديد على حقيقة التوسّع المحدود وعلى الطابع الثيراني المتجانس لهذه النواة الأولىٰ للاستيطان الإغريقي في قوريني؛ وذلك في مقابل كثرة وتعدُّد انتماءات أُولئك الذين شكّلوا الهجرة الكبيرة اللاحقة.

لم يكن بوسع رفاق «باطوس» اصطحاب نساء معهم إلى ليبيا؛ ولذا فإن الكثيرين منهم لم يجدوا بُدًّا من الاقتران بنساء ليبيّات بغية تكوين أُسر لهم في موطنهم الجديد. والحقيقة أن مثل هذا الزواج المختلط لم يكن من الأمور النادرة في قوريني؛ إذْ أن قرائن لاحقة قد أيَّدت حدوثه. ولقد عقد هذا الخليط من السكّان الإغريق علاقات طيِّبة مع الليبيّين الذين لم يكونوا آنئذٍ قد فطنوا بعدُ لخطورة قيام مستوطنة إغريقيّة صغيرة فوق أرضهم. وتتحدّث البوثيّة التاسعة ـ التي أنشدها هذا الشاعر للتّنويه بانتصار البطل القوريني «تيليسيقراط» في دورة الألعاب البوثيّة الثامنة والعشرين التي أُقيمت في بلاد الإغريق سنة 474ق م ـ عن تلك العلاقات الوديّة التي كانت قائمة بين الطرفين الليبي والإغريقي؛ ففيها نرىٰ الإغريق يخطبون، في «إراسا»، يد بنت شيخ قبيلة «الجيلياماي» الليبيّة، ونرىٰ الليبيين والإغريق يشتركون سويًّا في سباق تقرَّر أن

أُيقام بمناسبة عرس تلك الفتاة، على أن يحظى بها الفائز في ذلك السباق. وكان ذلك الفوز من نصيب الإغريقي «أليكسيداموس»، حيث قُوبل ذلك الحدث من جانب الفرسان الليبيين بالهتاف والتهليل.

اشتهر مؤسِّس قوريني، باطوس الأوّل، بالدَّماثة والورع؛ فهل يعود ذلك إلى ما لصق بالأذهان عن فترة حكمه العادل من ذكريات طيّبة، أم أن الأمر يقتصر على مجرّد الإشادة بمدىٰ ما تميّز به هذا الملك من استقامة؛ على عكس ما اشتهر به أواخر الملوك الباطيين من طغيان وجبروت؟.. الحقيقة أن الشاعر اللاتيني «سيليوس إيتاليكوس» يحدّثنا عن هذا الملك القوريني - في ملحمته «الحروب البونيّة» التي ألّفها في القرن الأوّل للميلاد - بلهجة عاطفية تدعو إلى السخرية، حيث يقول ما نصّه:

«.. كان باطوس في ذلك الوقت يقيم في قوريني صرْح امبراطوريته التي يخيِّم عليها التسامح، حيث اعتاد هذا الملك الطيِّب العطوف دوماً البكاء كلما نما إلى سمْعه أن مصاباً حلَّ بأحد رعاياه».

بيْد أن المؤرِّخ الإغريقي «ديودوروس الصقلّي»، كان قد أبان في مؤلَّفه «المكتبة التاريخية» عن شدّة التباين بين مسْلك ملك قوريني الأوّل هذا، وبين مسلك خلفائه، حيث قال:

«.. اسْتنْبأ أركسيلاوس، ملك قوريني، [المقصود هنا هو بدون شكّ: أركسيلاوس الرابع]، موْحي دلفي حول مصائب كانت قد حلّت به. فردّ عليه الإله أبوللو قائلاً أن ذلك كان نتيجة للغضب الإلٰهي بسببٍ من أن ذريّة باطوس الأول لم تسرْ على المبادىء المثلىٰ التي وضعها السلف. فباطوس الأوّل لم يكن ملكاً سوى بالاسم فقط؛ فلقد كان يمارس الحكم باعتدال

وبروح ديموقراطية، وكان فوق كل شيء حريصاً على تمجيد الآلهة. أما خلفاؤه، فإنهم كانوا، على العكس من ذلك، يمارسون على الناس سيطرة تحوّلت شيئاً فشيئاً إلى طغيان، ووضعوا أيديهم على ريوع الدولة، وأهملوا تمجيد الآلهة».

ولا يشك في أن إطراء «ديودوروس الصقلّي» لباطوس الأوّل، وثلْبه لأسلافه، على هذه الشاكلة، ما هو إلاَّ تعبير عمّا جُبل عليه هذا المؤرِّخ من نزعة تهذيبيّة أخلاقيّة لا تُقاوم؛ بل ولعلّه قد تأثَّر هنا كذلك بتلك الأحكام التي روَّج لها أعداء الباطيين بعد اندثار حكمهم في قوريني، وهي أحكام طالما حاول بعض النُّقّاد البحث لها عن أصداء حتى عند «هيرودوتس» نفسه. ومع ذلك فإنه لا بُدّ لنا من الإقرار بأن لهذه الأحكام المتواترة سند من الواقع: فحتى خلال حياة «أركسيلاوس الرابع» نفسه نرىٰ «بنداروس» يتغنّى في بوثيَّته الخامسة بـ «باطوس التليد، واهب النِّعم»، ويعدِّد أعماله التي تنمُّ عن الورع، حيث ذكَّر بأن هذا الملك قد شيَّد معابد رحْبة في قوريني لتمجيد الآلهة، وأقام التراتيل والصلاوات لاسترضاء «أبوللو» وتمجيده. ويصوِّر لنا هذا الشاعر في بوثيَّته تلك الأعراف الدينيّة التي درج الملوك الباطيُّون على الإيفاء بها. وهذا أمر جدير بالملاحظة، خصوصاً وأن الحفريات الأركيولوجية قد برهنت على صحته؛ فلقد أدّىٰ ما أُجري منها في قوريني إلى اكتشاف تلك المعابد الرحْبة التي ذكرها «بنداروس»، حيث تم العثور، تحت مبانٍ إغريقيّة أحدث عهداً، على أنقاض أوّل معابد شُيِّدت في المدينة قبيل نهاية القرن السابع قبل الميلاد، أو إلى مطلع القرن السادس قبل الميلاد، على أكثر تقدير.

ومن بين هذه المعابد التي تُعدُّ أوّل ما شُيِّد في قوريني، نجد معبد «الأرتيميسيون»؛ وهو أوّل معبد كُرِّس لعبادة «أرتيميس»، إلهة الصيد والعُذْرية والولادة، وهو عبارة عن مُصلّىٰ متواضع البناء، به أعمدة محورية. ومنها على الخصوص معبد «أبوللو» القديم، وهو صرْح هائل، سُداسي الشكل، تحيط به

صفوف من الأعمدة. ولا شكّ في أن باطوس الأوّل كان هو نفسه الذي أمر بتشييد هذا المعبد الضخم فوق المصطبة العالية الواقعة في مستوى أدنىٰ من «الكهف المقدّس» الذي يوجد به «نبْع أبوللو». ولذا فإنه يمكن القول بأن باطوس الأوّل قد زاد في المساحة المخصّصة لـ «حرم أبوللو» والتي كانت منحصرة ـ حتى بناء هذا المعبد ـ في النّبع وحده، والذي كان أصلاً محلّ تقديس لدى السكان الأصليين حتى قبل نزوح الإغريق إلى بلادهم. ثم جاء هؤلاء فخلطوا بين معبود أولئك السكان وبين الإلٰـه الإغريقي «أبـوللو»، مُطْلقين على النّبع تسمية «نبْع أبوللو». أمّا فيما يتعلّق بـ «الطّريق المبلّط، المستقيم، الواسع، الذي يسمع العابر له وقع أقدامه على بلاطه» ـ كما يقول الشاعر «بنداروس»، نظْماً، في بوثيَّته الخامسة، عند وصفه لهذا الطريق الذي أنشأه باطوس الأوّل ـ فإنه ما يزال يعتبر حتى اليوم الطريق الرئيسي في الجانب الفوْقي من مدينة قوريني. وما يزال ميدان «الأجورا» الرئيسي قائماً في موضعه القديم عند نهاية هذا الطريق، رغم التحويرات اللاحقة التي أدخلت على المدينة. ولقد تم العثور عند الطرف الغربي لهذا الميدان على مبنى أثري مدوَّر الشّكل، بالغ الضخامة، من المرجّح أنّه قد أعيد بناؤه فيما بعد. ويرىٰ البعض أن هذا المبنى هو مقبرة البطل باطوس الأوّل نفسه. وبالرغم من أن هذا الصرح الأثري يوحي للوهلة الأولىٰ بأنّه قد لا يكون شديد القِدَم؛ إلاّ أن بعض تفاصيله تنمُّ، مع ذلك، بأنّه أقدم بكثير مما يُظنُّ. ومن الملاحظ أن هذه المقبرة المستديرة قد اشتملت في داخلها على حجرة غريبة الشكل، شبيهة بالمذْبح، بحيث قد تكون مقْدساً لاسْتنْباء الوحي، وتوجد تحتها خَلْوة مقامة تحت الأرض وتتّصل بقناة مزدوجة لطرْد دماء القرابين والنُّذُر المُراقة على ذلك المذبح. وتتميّز المقابر القورينيّة عادة بكثرة القبور المستديرة فيها؛ ولذا فإن احتواء هذه المقبرة المستديرة على ما يشبه الموْحى، زيـادة عن طابعهـا الجنائزي، ينمُّ على أنّها بالفعل هي مقبرة باطوس الأوّل. هذا، وإنْ كنّا نعتقد

بأن هذه المقبرة في شكلها الأصلي قد بادت واندثرت، وبأن المبنىٰ القائم حالياً ليس سوى تجديد لها، تم في زمنٍ لاحقٍ. وعلى أيّة حال، فإن جميع الدلائل تشير إلى احتمال أن تكون هذه هي مقبرة مؤسِّس قوريني[1].

وصروح قوريني الكبرى، الأقدم عهداً، ثلاثة؛ وهي: «معبد أبوللو»، و«معبد الإلهة أرتيميس»، و«مقبرة باطوس الأوّل». وعلى عكس ما ذهب إليه «شتودنيكزكا» في مؤلَّفه عن قوريني، في أواخر القرن الماضي، فإن هذه الصروح تدلُّ جيّداً على أن المهاجرين الإغريق قد استقرُّوا، أوّل ما استقرُّوا، عند التلّ الغربي للمدينة، بجوار «نبْع أبوللو»؛ مستفيدين بذلك من الموقع الدفاعي المنيع الذي شيدوا عنده قلعة «الأكروبول» التي أقاموها ما بين «وادي بوغدير» العميق، الواقع إلى الغرب وإلى الجنوب من هذه القلعة، وبين منحدرات «وادي بوتركيّـة» الصخرية الممتدة تحت المصطبة المسطحة التي أُقيم فوقها معبد أبوللو، باتجاه الشمال والشرق. وليس في وسع أحد أن يصل إلى هذا الموقع المثالي المحصّن طبيعياً، الذي أنشئت عليه مدينة قوريني القديمة، إلاّ بعد عبوره للامتداد الصخري الضيِّق بعض الشيء، الذي يتفرّع منه الواديان المذكوران. أما توسُّع قوريني حتى شملت التلّ الشرقي، حول الموقع الحالي لمعبد الإله «زيوس»، فلا بدّ وأنّه قد طرأ خلال زمنٍ لاحقٍ، عندما تطوّرت هذه المدينة. ذلك أن المتطلبات الأمنية، ومقتضيات تزويد السكّان الإغريق القاطنين فوق هذه الهضبة الشرقيّة المفتوحة بالمياه، لم تكن في البداية ملائمة لأي توسُّع عمراني هناك، ولذا فإن إنشاء أحياء جديدة للمدينة في تلك الناحية قد تأخّر كثيراً.

ولا جدال في أن الاتجاه إلى تكثيف حفريات الأعماق من قِبل المختصّين

---

(1) ذهب عالم الآثار الإيطالي الشهير «ستوكيُّ»، في بحث جديد ألقاه ضمن أعمال «ندوة نبات السلفيوم» التي نظّمها «مركز الجهاد الليبي» في أواخر العام الماضي (1989) بطرابلس، إلى أن القبر المستدير المذكور ليس هو قبر «باطوس الأوّل»، وهذا يخالف رأي «شامو» هنا.

وقيامهم باكتشافات أثرية منظمة وفعّالة عند موقع «الأكروبول» ـ وهي جهود ما تزال في بداياتها ـ ستمكّننا من إحراز معلومات أدقّ عن طبوغرافيّة وشكل مدينة قوريني القديمة. غير أنّه بإمكاننا منذ الآن تخيُّل هيئتها، من حيث أنّها مكوّنة من ثلاثة عناصر أساسيّة، هي: أوّلاً: الساحة الدينيّة: حيث يقوم «معبد أبوللو»؛ وثانياً: «الأكروبول» الخاص بالملك؛ وهو مثابة دفاعية يجرىٰ التّحصُّن داخلها عند الضرورة؛ وثالثاً: المدينة نفسها، والتي كان ميدان «الأجورا» الحالي يشكِّل عندئذٍ ـ إلى جانب مقبرة باطوس الأوّل ـ أقصىٰ امتداد لها إلى ناحية الشرق. أمّا الطريق المستقيم الذي ذكره «بنداروس» في بوثيّته الخامسة، فإنه يصل ما بين «الأكروبول» وبين ميدان «الأجورا». ولا شك في أنّه كان يتفرّع من هذا الميدان ذلك الطريق الذي يخترق وادي (شحّات) الحالي، وينحدر بآتّجاه «معبد أبوللو». وهنالك دروب ضيِّقة أخرىٰ، منْقورة في الصخر، كانت تربط مباشرة ما بين «نبْع أبوللو» وبين الهضبة التي أُقيم عليها هذا المعبد. ولكن من المؤكّد أن الدرْب الذي كان يربط ما بين ميدان «الأجورا» وبين المعبد المذكور ـ مروراً ببطن الوادي ـ قد لعب دوراً رئيسيّاً في حياة المدينة؛ ذلك أنه يربط بين وسطها الذي تتركّز فيه مؤسّساتها المدنيّة والثقافيّة في الجانب الأعلىٰ منها، وبين الهضبة المسطّحة التي أُقيم عليها المعْبد في الناحية السُّفلىٰ. وكانت مواكب استدْرار الشفاعة من الإِله التي كانت تهبط من الجانب الأعلىٰ للمدينة، بآتّجاه المنطقة الوطئة التي شُيِّد فيها المعبد، تخترق هذا الدرْب. ويُقال أن باطوس الأوّل هو الذي أمر بإقامة مثل هذه المواكب الدينيّة تمجيداً للإِله «أبوللو».

عندما توفي «باطوس الأوّل»، بعد حكم امتد زهاء أربعين سنة، أي بعد سنة 600 قبل الميلاد ـ إذا ما سلَّمْنا بالتسلسل التاريخي الذي ذكره كلٌّ من «هيرودوتس» و«يوسيبيوس» ـ فإن دعائم الدولة القوينية الجديدة التي أنشأها باطوس الأوّل كانت قد توطّدت. وإذا ما قارنّا الشخصية القوية التي تميَّز بها

هذا المؤسِّس، بشخصية ابنه وخليفته «أركسيلاوس الأوّل»، فإن هذا الأخير يتبدّىٰ لنا وكأنّه لا شيء إلى جانب والده. فالأعوام الستّة عشر التي حكم خلالها هذا الابن مدينة قوريني، لا تعدو أن تكون مجرّد تكملة للسنوات الأربعين لحكم والده العظيم؛ إذْ خلالها استكملت الدولة الباطية بناء أُسسٍ كان ذلك الملك المؤسِّس قد وضع لُبناتها الأولىٰ، حيث تضاعف عدد سكّان المدينة من ذوي الأصل الثيراني القُحّ، على نحوٍ طبيعي، وأخذوا يحيطون ذكرىٰ ذلك القائد الراحل بإجلالٍ لا يحظىٰ به سوىٰ الأبطال العظام.

وفي حوالي سنة 580 قبل الميلاد ـ أو على الأرجح، قبل ذلك بقليل ـ اعتلىٰ باطوس الثاني عرش قوريني. ولا ريْب في أنّ مردَّ تلقيب هذا الملك بـ «السعيد»، يرجع إلى نجاحه في تحقيق مشروع اتّسم بأهميّة كبرىٰ، ونعني بذلك استحثاثه لمزيد من الهجرات الإغريقيّة للحلول بمدينة قوريني. ذلك أنّه أدرك بأنّه ليس في وسع جزيرة «ثيرا» وحدها أن تمدّه بما يكفي من المعمِّرين الجُدُد لتعزيز التواجد الإغريقي في قوريني الليبيّة، حيث أغراهم بإقطاع كلّ وافد جديد منهم قطعة من الأرض الزراعية. ومدَّ الإله «أبولـلو»، من جانبه، مجدّداً، يد العوْن والمساعدة للمستوطنة الفتيّة؛ حيث أوْحى إلى كاهنة معبده البوثيّة بأن تقول على لسانه:

«. . إن كلّ من يتلكّأ في النّزوح إلى ليبيا الفاتِنة، ولا يضع يده على نصيب من أراضيها، فإنه سيعضّ يديه ندماً، لا محالة».

وهكذا، فقد تدفّق المغامرون الإغريق على قوريني من كل حـدْبٍ وصوْبٍ، وعلى الأخص، من شبْه جزيرة «البيلوبونيز»، ومن جزيرة كريت، ومن باقي الجُزُر الإغريقيّة الأخرىٰ. ومثلما ذكرنا من قبل، فقد وفد ـ في خضمّ تلك الهجرة الكاسحة نحو المدينة ـ أُولئك الليندِيُّون القادِمون من جزيرة رودس تحت قيادة «أبناء بانكيس».

ولكي يكافأ المعمّرون الجُدد بالأراضي التي كانوا قد وُعدوا بها لقاء

نزوحهم إلى ليبيا، فإنه لم يكن هنالك مفرّ من اغتصاب أراضي الليبيّين. ولم يعبأ الإغريق بالمُلّاك الوطنيين، حيث انتزعوا منهم أراضيهم دون مُداراة. ومنذئذٍ حلّ العداء الصريح محل العلاقات الطيِّبة التي كانت في السابق قائمة بين الليبيّين والإغريق[1]. ولذا فإن قبيلة «الأسبستايْ» الليبيّة التي كان يتزعّمها شيخها «أديكران»، لم تجد مفرًّا من الاستنجاد بفرعون مصر «أبريس» (= واح إيب رعْ).

وكان استنجاد هذه القبيلة بفرعون مصر أمراً طبيعيًّا للغاية؛ ذلك أن علاقات الليبيّين مع مصر كانت حميمة على مدىً عدّة قرون، إلى درجة أن أسرات حاكمة ليبيّة كانت قد توالت على السلطة في وادي النيل، منذ أيّام «شيشنق» الليبي وخلفائه، وتمثّل ذلك في الأسرة الثانية والعشرين التي حكمت مصر من سنة 950 قبل الميلاد، وحتى سنة 730 قبل الميلاد. بل إن الجيش المصري كان يتألّف في معظمه من مرتزقة ليبيّين، منذ عهد الأسرة العشرين التي حكمت ما بين سنة 1200 ق م، وحتى سنة 1085 ق م. ومع ذلك فإن ملوك مصر الصاويين ـ الذين ربما كانوا هم أنفسهم من أصلٍ ليبي ـ كانوا يفضّلون إبّان فترة حكمهم تجنيد مرتزقة إغريق في جيوشهم. غير أن هؤلاء الملوك كانوا يعتبرون أنفسهم سادة ليبيا؛ حتى وإنْ لم يكن حكمهم يشمل واحات الصحراء الليبيّة إلّا اسميًّا. وهكذا فإنه لم يكن أمام الفرعون «أبريس»[2]، إلّا أنْ يهبّ

(1) أجمع كثير من المؤلّفين القدماء، من أمثال «ديودوروس الصقلّي»، و «سونسيوس القوريني» ـ وتبعهم في ذلك مؤلّفون محدثون ـ على أن هذا العداء الذي استحكم فجأة بين الليبيين وبين إغريق قوريني، قد تحوّل منذئذٍ إلى سلسلة من الحروب التي خاضها الليبيُّون ضـد هؤلاء المعمِّرين الوافدين. وهي حروب استمرّت بدون هوادة حتى وقوع الفتح العربي لليبيا.

(2) يسمى «أبْريس» أيضاً: «واح إيب رعْ»، كما يسمَّى «خفرع». وقد حكم مصر زهاء خمس وعشرين سنة، وهو أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين التي حكمت ما بين سنة 663 ق م، وسنة 525 ق م. وفي أيّام «أبْـريس» وصلت مصر الفـرعونيـة في العصر الصـاوي إلى أوجّ ازدهارها، وكانت جيوشه تضم أعداداً كبيرة من المرتزقة الليبيين والإغريق. وكان الإغـريق يشكّلون حرسه الخاص.

لنصْرة شيخ «الأسبستايْ» الزعيم «أديكران» وقبيلته ضد مغتصبي أراضيها الإغريق. بيْد أن «أبريس» رأىٰ ألّا يجازف بمصير حملته المتوجهة إلى ليبيا، ولذا فإنه منع العناصر الإغريقيّة العامِلة في جيوشه من الالتحاق بهذه الحملة؛ خشية خيانتهم وانحيازهم إلى أبناء جلدتهم إغريق قوريني؛ وبالتالي فإنه حرص على أن تكون تلك الحملة مؤلّفة برمّتها من الجنود المصريين[1].

وخرج جيش قوريني الإغريقي لملاقاة الحملة المصريّة، حيث عسْكر الإغريق في إقليم «إراسا»، (= أُم الرّزمْ) ـ التي تعتبر الحدّ الأقصىٰ للأراضي الخصبة في قوريناثية من ناحية الشرق ـ وظلّ جيشهم، المزوّد بمؤن كافية، يترقّب وصول الحملة المصرية التي لا بدّ وأن يكون عبورها الشاق لمسافات صحراوية طويلة قد أنهك جنودها. ثم اندلعت المعركة بين الجيشين قُرْب «نبْع ثستيس»، (= عين مارة)، الذي لا شك في أن جيش قوريني الإغريقي قد اختاره عمداً كمسرح للمعركة مع أعدائه المصريين بسبب توفّر المياه هناك. وعجزت القوّات المصرية عن مقارعة مُشاة إغريق قوريني، المدجّجين بالأسلحة، فأُبيدت أعداد كبيرة من تلك القوّات التي لم تتمكّن من الإفلات منها إلى مصر سوىٰ قلّة من عناصرها المهزومة. وأدّت هزيمة الحملة المصرية إلى الإطاحة بالفرعون «أبريس»، وتنصيب «أحمس الثاني»[2] على عرش مصر بدلاً منه. ومثلما ذكرنا من قبل، فإن المصادر الفرعونية قد أتاحت لنا تحديد تاريخ وقوع معركة «إراسا»، وهو سنة 570 ق م.

والحقيقة أننا لا نعرف عن عهد «باطوس السعيد» في قوريني شيئاً، عدا ما

(1) يذهب الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم ـ في كتابه «مصر والشرق الأدنىٰ القديم»، ج / 1، الكتاب الثاني، ص 317 ـ إلى أنّه كان على رأس جيش الحملة المصريّة الحرس الخاص لهذا الفرعون؛ ولذا فإنّه عندما هزم إغريق قوريني تلك الحملة اتُّهم «أبْريس» نفسه بالضلوع في الخيانة، من حيث أن حرسه الخاص كان مشكّلاً من الإغريق.

(2) حكم «أحمس الثاني» مصر من سنة 570 ق م إلى سنة 526 ق م.

ذكره «هيرودوتس»، ونقلناه أعلاه. ولقد تميزت فترة حكم هذا الملك الباطي بأهمية كبرى؛ فهو قد نجح خلالها في تحويل قوريني من بلدة محدودة السكان، مزعزعة الوجود، وتكتنفها المخاطر بسببٍ من وجودها وسط منطقة غريبة ومعادية؛ إلى مدينة كبرى، مكتظّة بالسكان، ومرهوبة الجانب عسكريًا. ذلك أن هذا الملك تمكّن، قبل موته، من شدِّ أزْر المعمِّرين الثيرانيين الأُوَلْ بأعدادٍ كبيرة من الهلّينيين الذين وفدوا إليها من شتّى الجزر الإغريقيّة. بل ولعلّ «باطوس السعيد» هذا تمكّن حتى من عقد معاهدة تحالف مع الفرعـون «أماسيس»، (= أحمس الثاني)؛ ذلك أن البعض يذهبون إلى أن المرأة الإغريقيّة المسمّاة «لاديكي»، التي تزوّجها «أماسيس» المصري، كانت هي إحدى بنات باطوس الثاني(1). وعلى أيّة حال، فإن إغريق قوريني رأوا أنّه يتوجّب عليهم منذئذٍ فصاعداً إخضاع القبائل الليبيّة المجاورة لهم. وصارت دولة قوريني الجديدة ـ نتيجة لِمَا أصبحت تتمتّع به من قوّة، وما أخذت تحقّقه من نجاحات شتّى ـ مصدر استلهام ووحي للشعراء؛ حيث ألّف الشاعر القوريني «إيوچامون»(2) آنئذٍ قصيدته المسمّاة «تيليجونيا»، وهي القصيدة التي رفع فيها هذا الشاعر نسب الباطيين إلى عقب الملك «أوديسيوس» ملك «إيثاكة» وأحد أبطال حرب طروادة، الذي مجّده «هوميروس» في «الأوديسًا». ومثلما نرى، فإن «باطوس الثاني» لم يُلقّب بـ «الملك السعيد» جُزافاً.

أمّا ابنه ووريثه «أركسيلاوس الثاني»، فإنه كان يتّسم بشخصية معاكسة له تماماً؛ ذلك أن هذا الابن ـ الملقّب بـ «العنيد» ـ ما إن تربّع على عرش

(1) ذكر «هيرودوتس»، في الفقرة 181 من الكتاب الثاني من تاريخه، أن البعض يعتبرون «لاديكي» بنتاً لباطوس؛ فيما يرى غير هؤلاء أنها ابنة «أركسيلاوس»، أو ابنة أحد أعيان قوريني يُدعى: «كريتوبولس».

(2) «إيوچامون القوريني» شاعر ملحمي عاش في القرن السادس ق م، وهو مؤلّف ملحمة «التيليجونيا» التي تعتبر تكملة لاحقة لأودسًا «هوميروس»، حتى وفاة بطلها «أوديسيوس» على يد ابنه «تيليجونوس» وزواج هذا الأخير من زوجة أبيه «بينيلوپي».

قـوريني، حتى دخل في خصـومات ضـد إخوتـه الأربعة: «بيـرسيوس»، و«زاخينثوس»، و«أريستوميدون»، و«ليكوس»، وطفق يضطهدهم؛ الأمـر الذي أجبر هؤلاء على الفرار من المدينة والاستجارة بالقبائل الليبيّة المجاورة. فهل كان عناده حقيقةً هو السبب الوحيد فيما نشب بينه وبين إخوته هؤلاء من خصومات خطيرة؟.. أليس من الأرجح أن تكون تلك الخصومات تعبيراً عن انفجار أولىٰ الصراعات التي نشبت بين أفراد البيت المالِك في قوريني وبين أعيان المدينة وعلية القوم فيها؟.. هذا أمر غير مستبعد. وعلى أيّة حال، فإن إخوة الملك الأربعة انفصلوا عنه وغادروا قوريني، حيث استقرّ بهم المقام على بُعد مائة كيلومتر إلى الغرب من هذه المدينة. في تلك الجهة يوجد سهل، تحيط به سلسلتان من الجبال. وهو سهل يمتد فوق الهضبة مع ميلٍ قليل إلى الارتفاع باتّجاه البحر. ويبلغ طول هذا السهل حوالي عشرين كيلومتر؛ أمّا عرضه فهو يقدَّر بحوالي عشرة كيلومترات، وارتفاعه يقلّ، بشكل ملحوظ، عن ارتفاع موقع قوريني نفسها، إذْ أن هذا الارتفاع لا يزيد عن ثلاثمائة متر. وتهطل على السهل المذكور أمطار تقلّ عن تلك التي تهطل عادة على إقليم قوريني. غير أن له ميزة خاصة تتمثّل في أن تربته حمراء لا تتسرَّب منها المياه إلى طبقات أعمق. وهو سهل خصيب إلى حدٍّ مُدْهِش، وهذه الميزة جعلته حتى اليوم أغنىٰ إقليم زراعي في البلاد. ولقد توجَّه إخوة «أركسيلاوس الثاني»، الذين شقّوا عصا الطاعة عليه؛ إلى هذا السهل الخصيب، حيث أسَّسوا فيه، هم وأشياعهم، مدينة «باركي»[1].

---

(1) مدينة «باركي» هي مدينة (المرج) الحالية، وموقع رأس العبْد الفقير إلى ربِّه الذي ترجم لك كتاب «شامو» هذا إلى العربيّة؛ وهي نفس مدينة «برقة» التي افتتحها عمرو بن العاص سنة 22 هـ صُلْحاً؛ وفي ذلك يقول ابن عبد الحكم (توفي سنة 257 هـ): «.. فسار عمرو بن العاص في الخيل حتى قدِم برقة، فصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار، يؤدُّونها إليه جزْية»، وفيها يقول عبد الله بن عمرو بن العاص: «ما أعلمُ منزلاً لرجلٍ له عيال أسلمَ من برقة، ولولا أموالي بالحجاز لنزلت برقة»، وهو يعبِّر بذلك عمّا كانت تتمتّع به من أمْن. وعن =

ونكاية في «أركسيلاوس الثاني»، قام إخوته الأربعة الفارُّون من مدينة قوريني، بتأليب الليبيِّين ضده وبتحريضهم على الثورة في وجهه. وسرعان ما وجد ذلك صدىً في نفوس هؤلاء، لأنهم لم يكونوا قد تناسوا بعدُ ذكرى اغتصاب والده «باطوس الثاني» لأراضيهم. بل ولعلّ سبباً آخر ـ استجدَّ في الأثناء ـ هو الذي دفعهم إلى الثورة؛ ذلك أن الأسرة الباطيّة المالِكة كانت قد احتكرت عندئذٍ تجارة نبات «السلفيوم». وكان الليبيُّون قد اعتادوا، قبل ذلك، على تحقيق أرباح كبيرة من وراء جنيْ وبيع هذا النبات الفريد الذي لم يكن ينمو إلّا في تلك المنطقة، والذي اشتد عليه الطلب في كلّ مكان بسبب فوائده الطبيّة التي لا تُحْصى؛ ولذا فلا بدّ وأن هؤلاء الليبيين قد تضرَّروا كثيراً من جرَّاء احتكار ملك قوريني الباطي لسوقه. وليس أدلّ على تلك المكانة الخاصة التي كان يحتلّها «السلفيوم» في حياة قوريني الاقتصادية، من تلك الصورة

= حُمْرة تربتها يقول ابن حوْقل، (توفي حوالي 380 هـ): «.. وأرضها حمراء خلوقيَّة التربة، وثياب أهلها أبداً محمرَّة، ويُعرف أهلها بالفسطاط من بين أهْل المغرب بحُمرة ثيابهم». أمّا أبو عُبيد البكري، (توفي سنة 487 هـ) فيقول عنها: «.. ومدينة برقة في صحراء حمراء التربة والمباني، فتحْمرُّ لذلك ثياب ساكنيْها والمتصرّفين فيها، وعلى ستة أميال منها الجبل، وهي دائمة الرخاء، كثيرة الخير، تصلح بها السائمة وتنمي على مراعيها، وأكثر ذبائح أهل مصْر منها..». أمّا ياقوت الحموي فقد كرَّس لها ولإقليمها، في «معجم البلدان»، صفحة كاملة، وتحدّث هو الآخر عن حُمْرة تربتها. أمّا محمّد بن عبد المنعم الحمْيري، (توفي سنة 900 هـ)، فقد ذكر في «الرَّوْض المعْطار» أن ببرقة «آثار للأوّل كثيرة». ووصفها قائلاً: «.. وهي مرْج أفْيح وتربة حمراء [...] وأكثر ذبائح أهل مصْر والإسكندرية من أغنامها لعِظم خلْقها وكثرة شحمها ولذَّة لحمها». أمّا «كتاب الاستبْصار» المجهول المؤلِّف فيصفها بأنّها «بلدة أزلية». ولربما يعني وصفه لها بـ(الأزلية) أنها كانت قائمة حتى قبل مجيىء الإغريق إلى شرقيْ ليبيا وقبل التجاء إخوة «أركسيلاوس» الثاني إليها في القرن السادس قبل الميلاد؛ وهذا أمرٌ ذكرته مؤلَّفات القدماء، من أمثال «سرفيوس»، و«سوفوكل»، و«اسطفان البيزنطي». ولقد ناقش مؤرّخون غربيُّون مُحْدثون فرضية احتمال أن يكون قيام مدينة «باركي» (المرج) هذه، سابقاً على مجيىء الإغريق إلى البلاد، ومن هؤلاء «ثريْدج» و«أوريك بيتس»؛ كما أنّ هنالك فرضيّات جديرة بالنظر، حول هذا الموضوع، طرحها المؤرِّخ الليبي الأستاذ محمّد بازامة في كتابه القيِّم: «قورينة وبرقة ونشأة المدينتيْن في التاريخ».

المستديرة التي خلّدته على أديم «قدح أركسيلاوس» الشهير؛ وهو قدح يصوِّر «أركسيلاوس الثاني» جالساً يرقب عملية وزن رزمات هذا النبات القيِّم.

وخرج هذا الملك على رأس قوّاته لقمْع التمرُّد. غير أن الليبيين ـ وقد استوعبوا نتائج تجربة هزيمة المصريين على يد هذا الجيش الإغريقي ـ رفضوا الدخول في معركة فورية ضد إغريق قوريني، وفضّلوا استدراج جيشهم بعيداً، باتّجاه الشرق. وكان «أركسيلاوس الثاني» أقلّ حذراً وحنكة من والده؛ فلم يفهم الفخّ الذي نُصب له ولجيشه، وطفق يطارد الليبيّين حتى مشارف الصحراء. وعندما وصلت جموع هؤلاء إلى مكانٍ يُسمَّى «ليوكون»، رأوا أن اللحظة قد أصبحت مناسبة لخوض المعركة ضد الجيش الإغريقي، حيث انقضُّوا عليه بغتة، يساعدهم في ذلك تمرُّسهم الطويل بالقتال في وسط صحراوي، فتمكّنوا من سحْق جيش قوريني الذي فقد في تلك المعركة سبعة آلاف من المشاة الإغريق المدجَّجين بأحدث أسلحة ذلك الزمن؛ فانتقموا بذلك لهزيمة حلفائهم المصريين في معركة «إراسا».

وفي تلك الأثناء وقع «أركسيلاوس الثاني» فريسة المرض، حيث عُولج بدواء سُقيَ له. وبينما هو مسجًّى على فراشه، لا يستطيع حراكاً، بسبب تأثير ذلك الدواء، هجم عليه أخوه «ليارخوس» وخنقه، فمات في التَّوِّ. ثم قام هذا الأخ القاتل بالاستيلاء على السلطة كوصيٍّ على العرش فيما يبدو. ثم سوَّلت له نفسه الزواج من أرملة أخيه القتيل التي تُدْعى «إريكسو». غير أن هذه الأخيرة بادرت بدورها إلى اغتيال «ليارخوس» في حجرة عرسها انتقاماً لزوجها الأوّل. فكانت تلك الاغتيالات فاتحة مآسي الحكم التي طالما لوَّثت بالدماء أسرة الباطيين[1]. والحقيقة أن هذه القصّة قد توفّرت لها جميع العناصر

(1) إذْ ستتلو هذه المأساة مآسٍ أخرى، منها مثلاً ما سنعرض له من قصة «أركسيلاوس الثالث» وأمّه «فريتيمي»؛ ومنها كذلك ذلك المصير المُحْزن الذي لقيه «أركسيلاوس الرابع». بل ويتحدث المؤرِّخون أيضاً عن مأساة أخرى تعرّضت لها هذه الأسرة الباطيّة، ووقعت عند منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، حيث أوْدت بحياة «ديميتريوس الوسيم».

المأساويّة؛ إذْ أنّها كانت محصّلة لمختلف ضروب الخديعة والمكر، وكيْد النساء اللاتي تفوق فظاظتهن أحياناً فظاظة الرجال. بل إنه يبدو أن هذه المأساة قد وقعت نتيجة لإيعازٍ من الخارج، وذلك إذا ما صحَّ ما ذكرته بعض المصادر من أن «ليارخوس» ما استطاع اغتيال أخيه «أركسيلاوس» إلّا بتواطوءٍ من بعض عناصر المدينة الإغريقيّة المؤيِّدة لمصر. ولقد أبان اقتراف هذه الفيجعة عن مدى ما انجرفت إليه ـ في بضع سنوات، هذه السُّدَّة الهلينية الحاكمة، التي أقام «باطوس الأوّل» دعائمها على ركائز من الحلم والتسامح ـ من نزوع إلى الحكم الاستبدادي. ولذا فإنه لا يُدْهشنا تطلُّع السواد الأعظم من سكان قوريني ـ بعدما صدمهم اقتراف هذه الجرائم التي لا تُنْسى ـ إلى ضرورة إحداث تحوير جذري في النظام السياسي الذي كان مطبَّقاً في مدينتهم.

وكانت الظروف القائمة آنئذٍ مواتية بالفعل لإحداث مثل ذلك التحوير. فلقد كان الملك الجديد ـ وهو نجْل أركسيلاوس الثاني ـ مصاباً بعاهة تسببت في تشويه إحدى رجليه؛ وهذا هو السبب في أنّه كان يلقَّب بـ «باطوس الأعرج». والظاهر أن هذا الملك الجديد نفسه لم يكن معارضاً لتلك الإصلاحات التي تطلّع إليها شعب قوريني الإغريقي.

ومرّة أخرى نرىٰ أهل هذه المدينة التي كانت قد وضعت نفسها في حِمى الإله «أبوللو» منذ تأسيسها، يلجؤون إلى موْحاه في «دلفي»، ببلاد الإغريق، مبتهلين إليه كي يرشدهم إلى جادَّة الصواب، فيما هم مُقْدمون عليه. وكالعادة، ردَّ عليهم «أبوللو»، على لسان كاهنته الفيثيّة، يأمرهم باستقدام أحد المصلحين من مدينة «مانتيني» الإغريقيّة ليصوغ لهم تشريعات ملائمة. ولم تكن الاستعانة بمشرِّع غريب، لفضّ النزاعات بين الطبقات الاجتماعية المتصارعة، بالأمر النادر الحدوث في المدن الإغريقيّة، إبّان تلك الحقبة من الزمن. وكان المشرِّعون الذين ينتمون إلى إقليم «أركاديا» ـ الذي تقع فيه مدينة «مانتيني» بشبه جزيرة «البيلوبونيز» ـ يتمتّعون بصيتٍ طيِّب. ولقد استجابت

مدينة «مانتيني» لمطلب سكان قوريني وأرسلت إليهم أحد أبرز مشرِّعيها؛ وهو «ديموناكس». وأستهلَّ هذا المشرِّع مهمته في قوريني بإجراء تحرِّيات بين سكّانها أنفسهم، حيث خلُص من ذلك إلى صياغة دستورٍ لهم. ووفْقاً للتشريع الجديد الذي وضعه، نرى «ديموناكس» هذا يقسِّم القورينيين الإغريق إلى ثلاث قبائل جديدة[1]، طبْقاً للمنْشأ الذي قدم منه كل واحد من سكان قوريني: وهكذا فقد ضمَّت القبيلة الأولىٰ قُدامىٰ الثيرانيين ومعهم «البيريئكيين»[2]. أما القبيلة الثانية فقد ضمَّت «البيلوبونيزيين» والكريتيين. وأمّا القبيلة الثالثة والأخيرة، فقد أُدْمج فيها نسْل أُولئك الذين هاجروا إلى قوريني من الجُزُر الإغريقيّة الأخرى. وبموجب هذا التشريع، ظلّت للملك اليد الطُّولىٰ في إدارة المؤسّسات الدينيّة وتنظيم محافل العبادة. أمّا جميع الوظائف والمهام الأخرى ـ أعني كل السلطات السياسيّة والقضائية التي كانت من اختصاص الملك ـ فقد تم إسنادها إلى «مأمورين قضائيين» تم انتقاؤهم من بين أفراد شعب المدينة الإغريقي. وهكذا، فإن الصبغة المزدوجة لهذه الإصلاحات التي صاغها «ديموناكس»، قد تمثّلت من ناحية في جعْل المعمِّرين الإغريق الجُدد يتمتّعون بالمواطنة الكاملة في مدينة قوريني، أُسْوة بجيل الرُّوَّاد الدُّوريين الأوائل؛ وتمثّلت من ناحية أخرى في إسناد السلطات الملكية إلى حُكّام شعبيين متعدِّدين.

---

(1) جرت العادة على تقسيم كل مدينة من المُدن الدُّورية في بلاد الإغريق إلى ثلاث قبائل.

(2) اختلف المتخصّصون حول المقصود بفئة «البيريئكيين»: فالبعض يرىٰ أنّه يُقصد بهم نسْل المولَّدين من زِيْجات إغريقيّة ليبية قديمة؛ وبعض آخر يذهب إلى أنهم المزارعون الليبيُّون الذين اختلطوا بإغريق قوريني (ولقد حدَّثني عالِم آثار ليبي مؤخراً بأنّه قد عثر في منطقة «شحّات» (= قوريني) على شواهد قبور لبعض «البيريئكيين» تحمل أسماءً ليبيّة قديمة؛ وهو أمر يؤيِّد الزعْم بأنّهم ليبيُّون لا إغريقاً). أما «فرانسوا شامو» نفسه، فإنه يرىٰ أن مصطلح «البيريئكيين» الغامض يعني المزارعين الريفيين الإغريق الذين كانوا يمارسون الزراعة في ضواحي قوريني؛ ولسوف يفصِّل لنا المؤلِّف رأيه هذا في فصْل لاحق من هذا الكتاب.

وتكشف هذه الإجراءات نفسها النقاب عن الأسباب الدفينة الكامنة وراء الاستياء الذي كان يعمُّ أهالي قوريني، وهو الاستياء الذي ظل مكبوتاً إلى أن حرَّكته تلك الخصومات الدامية التي مزّقت تماسك الأسرة الباطيّة الحاكِمة؛ ثم وقعت كارثة هزيمة جيش قوريني الإغريقي على يد القوّات الليبيّة في موقعة «ليوكون» ففجَّرته في وضْح النهار. وكان على المشرِّع «ديموناكس»، أن يخترع ـ منذ شروعه في مهمّته ـ حلاًّ لتلك المشكلة التي ترتبت على حدوث الهجرة الإغريقيّة الكاسحة التي تعرّضت لها قوريني في عهد «باطوس الثاني». ذلك أن النَّواة الأولىٰ من المعمِّرين الثيرانيين ـ وقد حوَّلتهم تلك الهجرة التالية إلى مجرّد أقليّة صغيرة ـ نجحوا مع ذلك، شيئاً فشيئاً، في أن يخلقوا من أنفسهم طبقة اجتماعية مغلقة تتمتّع بالحقوق السياسيّة في المدينة بمفردها. فهؤلاء الثيرانيُّون المخضرمون كانوا ينفردون، بدون شكّ، دون غيرهم، بالانتماء إلى القبائل الدُّورية الثلاث الممثّلة للصفْوة «الجنتيليسيّـة» التي احتكرت كـل المناصب الهامّة في مدينة قوريني، كما اعتادوا أن يفعلوا في جزيرة «ثيرا» قبل أن يطردهم منها خصومهم السياسيُّون. وكانوا يجدون لأنفسهم في قوريني سنداً قوياً عماده أولئك الأتباع من المزارعين الإغريق الذين كانوا يعيشون في أرياف المدينة، ويُعرفون بـ«البيريئكيين». وإلى جانب هذه الطبقة الثرية الموسرة، صاحبة الامتيازات، كانت تقوم جمْهرة المهاجرين الإغريق الجُدد، الذين ينادون بالمساواة في الحقوق بين جميع سكّان المدينة.

فالمشكلة التي كانت تعاني منها قوريني هي اختلال ميزان بُنْيتها المدنيَّة، أكثر منه مشكلةً في تفاوت توزيع الثروات فيها؛ ذلك أن ليبيا «الغنيَّة بأغنامها» كانت تملك من الموارد ما يكفي لسدِّ احتياجات الجميع، وأراضيها الصالحة للزراعة كانت من الوفرة، بحيث أنّه كان بوسع كل إغريقي نزح إليها أن يحوز على نصيبه منها. فكل ما كان على المشرِّع «ديموناكس» أن يفعله هو أن يُقنِّن، فحسب، الكيفيّة التي تُمكِّن تلك الفئة من الدُّخلاء الإغريق الجُدد من

حيازة حق المواطنة في المدينة، أُسْوة بقدماء الثيرانيين. وهذا هو السبب في أن «ديموناكس» قد استحدث في قوريني تنظيماً دستورياً جديداً، أكثر انفتاحاً، ويقوم على أخْذ المنْشأ العرْقي في الاعتبار؛ حيث أحلَّه محلَّ تنظيمها القديم الذي كان يقوم على ممالاة الصفوة الثيرانيّة العتيدة التي كان على قمَّتها زعيم وراثي، هو الملك، وذلك دون المساس بمبدأ تقسيم سكان المدينة إلى ثلاث قبائل، وهو المبدأ الذي كان سارياً من قبل. فاستطاع بذلك فتْح الباب أمام الوافدين الجُدد، كيْ يتساووا في الحقوق المدنيّة مع قدماء المهاجرين. ولقد أدّىٰ هذا التشريع الجديد إلى إحداث تحويرٍ عميق في حياة الناس بمدينة قوريني. فالهيكل المدني الثيراني القُحّ، المتمسِّك بالتقاليد الطبقية القديمة، الذي كان يميِّز البُنْية الاجتماعية للمدينة، قد انهار الآن، وصارت قوريني بالتالي مدينة كبرى، تعجُّ بمختلف الأعراق الإغريقيّة المختلطة، وتُسْهم في شتّى تيّارات الحضارة الهلينية؛ شأنها في ذلك شأن المستوْطنات الغنيّة، المختلطة الأجناس، التي أنشأها الإغريق في جزيرة صقلية؛ بل وشأن بلاد الإغريق الأم نفسها. ولقد لُوحظ أن حتى فنّ النحت القوريني، الذي كان حتى ذلك الوقت يتمسّك بتقاليد النحت الثيراني، قد أخذ ـ ابتداء من تلك الحقبة ـ يتأثّر بالتيارات المستحدثة وينفتح عليها. وهذه إحدى النتائج المباشرة للإصلاحات التي أدخلها في المدينة المشرِّع المانتيني «ديموناكس».

وكان على هذا المشرِّع، في نفس الوقت، أن يجد حلاًّ لمشكلة أخرى: ففي حين أن غالبية السكان كانوا يطالبون بحيازة حق المواطنة الكاملة في المدينة؛ نجد أن جانباً منهم ـ على الأقلّ ـ كان يُلحُّ على ضرورة إشراكه في تولِّي المناصب والوظائف العامة. ولذا، فإنه كان على «ديموناكس» أن يقوم، في آنٍ واحد، بإعادة تنظيم حقوق المستوطنين جميعهم، وأن يُحْدث إصلاحات مناسبة في التنظيم الحكومي في قوريني. ولقد تحقّقت كل هذه الإصلاحات على حساب نظام ملكي مُنْهك، أضعفته هزيمة جيشه على يد

الليبيين في معركة «ليوكون»، ومزَّقته الخصومات والنزاعات الأسـرية شـرَّ ممزّق. وهكذا، فإن «ديموناكس» ـ بحصْره للامتيازات التي يتمتّع بها الملك في المجال الديني وحده ـ قد جعل هذا الملك الباطي شبيهاً بالوالي في الدستور الأثيني. بل إنه ليس هنالك ما يؤكّد أن هذا المشرِّع ترك للملك صلاحيّات القيادة العسكرية للجيش، التي كان حتى ملوك اسبرطة يتمتعون بها. وليس خطأً أن يُقال أن «ديموناكس» قد جعل الملك شبيهاً بالحُكّام الإسبرطيين، على الأقل فيما يخصّ مدىٰ ما تُرك لهم من حقوق وامتيازات محدودة: ففي قوريني ـ مثلما كان عليه الحال في إسبرطة ـ لم يتبقّ للملوك من صلاحيات سوىٰ الإشراف الاسمي على عملية ممارسة السلطة الملكية. وعلى أيّة حال، فإن هيئات دستورية، مثل مجلس الشيوخ (الجيروسيا)، أو مجلس الشورى (البولي) ـ وإن كانت قائمة حتى قبل إجراء هذه الإصلاحات ـ قد قويَ مركزها الآن كثيراً.

وكل هذا يبيِّن لنا مدىٰ ما انطوت عليه إصلاحات «ديموناكس» في قوريني من أهميّـة، وأيضاً، من قصـور، في آنٍ واحد. ويُـزْعَمُ عادة بـأن هذه الإصلاحات الدستورية قد أحدثت في المدينة ثورة حقيقيّة. ولكن، في اعتقادي، أن مثل هذا الزّعْم ينطوي على خطأ فادح؛ لأنه زعْم يمسخ كليةً ذلك المفهوم الذي ساد لدىٰ المؤرِّخين حول النظام الملكي القوريني؛ كما سأبرهن على ذلك في صفحات تالية. ذلك أن الاعتقاد بإمكانية قيام نظام شعبي حقيقي، عند منتصف القرن السادس قبل الميلاد، إنما هو اعتقاد ينطوي على مغالطة تاريخية كبرى، خصوصاً في قوريني الإغريقيّة؛ لأن الطابع الزراعي لاقتصادياتها ـ آنذاك ـ كان ملائماً لمتانة استقرار الوضع الاجتماعي القائم ولسيطرة طبقة مُلّاك الإقطاعات الزراعية. وعندما كتب «هيرودوتس» يقول بأن السلطات الملكية في المدينة «قد أُسْندت إلى الشعب»؛ فما ذلك إلَّا لأن هذا المؤرِّخ كان ينظر إلى الأمور من حيث أنه هو نفسه كان معاصِراً للزعيم

الأثيني «بركليس»[1]. فالحقيقة أن «ديموناكس» قد قام باستبدال دستور الحكومة الإستبدادية في المدينة بدستورٍ مُسْتلهم من أفكار الخطيب الأثيني «إيسوقراطوس»، الذي كان يدعو إلى المساواة التامة بين جميع الناس أمام القانون. بيْد أن المستفيد الحقيقي من ذلك الدستور القوريني الجديد كان هو طبقة الارستقراطيين من مُلاَّك الأراضي، وهي الطبقة الاجتماعيّة الوحيدة التي كان بإمكانها ـ آنئذٍ ـ التّطلُّع إلى ممارسة السلطة السياسيّة في المدينة. فقوريني ـ شأنها شأن المدن الإغريقيّة الأخرى ـ لم تقفز من الحكم الملكي المطلق إلى حكم الشعب مباشرة. ثم إنه، هل يمكن لأحدٍ أن يتصوّر أنْ تُنْجب منطقة «أركاديا» المجبولة على المحافظة بطبيعة أهلها، مُشرِّعاً متطرِّفاً في تقدُّميته مثل «ديموناكس»؟. . وإذن، فإن هذا المشرِّع ـ الذي ينتمي هو نفسه إلى الطبقة الارستقراطية في «مانتينيا» الأركادية ـ كان لا بدّ له وأن يحسم لصالح أكابر وأعيان قوريني الإغريق، ذلك الصراع الذي نشب بين هؤلاء وبين ملكهم القوي الذي بدأ يفقد اعتباره.

ونحن إذا ما نظرنا إلى هذا التنافس الذي أَلَّب ضدّ «أركسيلاوس الثاني» إخوته أنفسهم، من هذه الزاوية، فإنّنا نعثر له على معنى جديد: فإخوة الملك المنشقّون هؤلاء، كانوا يمثّلون حزب «الأوليجارشيين»؛ وهو الحزب الذي كان ينادي بضرورة تركيز جميع السلطات بأيْدي قلّةٍ من أبناء الارستقراطية القورينيّة، تحت زعامتهم هم. وهذا هو السبب في أنّهم نجحوا، دون كبير مشقّة، في حشْد عددٍ كافٍ من الأشياع والأنصار، ومغادرة قوريني بقصْد

---

(1) وُلد «بركليس» سنة 495 قبل الميلاد، وتوفي سنة 429 قبل الميلاد. وهو سياسي وخطيب كان يتزعّم الحزب الديموقراطي الأثيني. وبعد إبرام صُلح الأربعين سنة بين أثينا وإسبرطة، وانتصار أثينا في الحرب بين المدينتيْن (446 ق م)، وجّه «بركليس» اهتمامه إلى بناء قوة أثينا البحرية والاستعمارية، وكفل سيطرتها على الاتحاد الأثيني، كما شجّع ازدهار الفنون والآداب فيها. وعموماً يُعتبر عصره هو عصر أثينا الذهبي.

تأسيس مدينة إغريقيّة جديدة هي «باركي»، (= برقة = المرج). ونرى هؤلاء الإخوة - منذ البداية - يُخضعون هذه المدينة الجديدة لنظام سياسي «أوليجارشي» جماعي، تسيطر عليه النُّخبة الارستقراطية الدُّورية النازحة إليها معهم. ولذا فإن «باركي» لم تعرف القلاقل السياسيّة والاجتماعية التي كانت، في تلك الفترة، تعْصف بقوريني؛ كما لم تكن في حاجة لأن تطأها، هي الأخرى، قَدَمُ مُصْلحٍ مثل «ديموناكس».



ثار بين المؤرِّخين جدل عقيم حول حقيقة فترة حكم «أركسيلاوس الثاني». فنجد، على سبيل المثال، أن المؤرِّخ الألماني «بيلوخ» يزعم بأن فترة حكم الملوك الباطيين في قوريني هي من الطول، بحيث يصعب تصديق أن يكون عدد ملوكها ثمانية فحسب. ولذا فإن هذا المؤرِّخ يفترض أن «باطوس الثالث» كان أخاً لـ «أركسيلاوس الثاني»، لا ابناً له. وفي اعتقادنا أن هذا الرأي لا يقوم على أساس، وإنّما هو وليد خيال صاحبه؛ إذْ ليس هنالك ما يدعو حقيقة إلى إجْراء أيّ تحوير في المعطيات النَّسَبيَّة الخاصة بالأسرة الباطية، كما وردت عند «هيرودوتس». أمَّا العالِم الإيطالي «س. مازّارينو»، فإنه ذهب من جانبه - في كتابه المسمَّى «بين الشرق والغرب»، الذي نشره في فلورنسا سنة 1947 م - إلى القول بأن بوسعه البرهنة على أن «أركسيلاوس الثاني» لم يتربَّع على عرش قوريني سوىٰ لمدة سنة واحدة، أو سنتين اثنتين، على أكثر تقدير، أي أنّه حكمها للفترة ما بين سنة 569 قبل الميلاد، وبين سنة 568 قبل الميلاد. ويستند «مازّارينو» في زعْمه هذا على تخريجه لنقش بابلي يعود إلى فترة حكم ملك بابل المسمَّى «نبوخذ نصْر»[1]؛ وهو نقش مدوَّنٌ

(1) حكم «نبوخذ نصْر» مملكة بابل، التي قامت في بلاد ما بين النهريْن (العراق) ما بين سنة 605 قبل الميلاد، وبين سنة 562 قبل الميلاد، وحارب مصر في عهد الفرعون «نكاو الثاني»، ثاني =

باللغة المسماريّة، ناله كثير من التشويه بفعل عوادي الدهر، حتى إنه ليصعب على المرء تخريجه على نحوٍ سليم. ويتحدث هذا النقش عن حملة قادها «نبوخذ نصْر» ضد جيوش فرعون مصر «أماسيس» (= أحمس الثاني)، في سنة 568 قبل الميلاد. ولقد أكبَّ «مازَّارينو» على دراسة بعض أسطر النقش البابلي المذكور، التي انطمست كثير من كلماتها، وضاعت منها كلمات أخرى بسبب ثلْم شوَّهها، واجتهد في تخريج هذه الأسطر، وخلُص من ذلك إلى القول بأن النقش يفيد بأن إغريق قوريني قد اشتركوا ـ تحت قيادة «ليارخوس»، (الذي مرَّ بنا أنّه اغتال أركسيلاوس الثاني) ـ في خوض الحرب المصريّة الأشورية، إلى جانب حليفهم المصري «أماسيس»؛ وأنَّ هذا يبرهن بالتالي ـ حسب رأي «مازَّارينو» ـ على أن «ليارخوس» كان في سنة 568 / 567 قبل الميلاد، وصيًّا على عرش قوريني.

غير أنّنا نرىٰ أن ما خلُص إليه هذا البحَّاثة الإيطالي هنا يرتكز على حجَّة واهية؛ لأن النقش المسماري المذكور قد تعرّض لكثير من التشويه وطمْس الكلمات، بحيث إنه يصعب على المرء أن يستنبط منه نتائج تاريخيّة مؤكّدة. ولذا فإن ما ذهب إليه «مازَّارينو» هو محض افتراض لا يقوم على بيِّنة. ثم إنه كيف لنا أن نتصوّر إمكانية أن يفرض «أماسيس» المصـري حمايتـه على قوريني، وأن يُشْرِك قوّاتها الإغريقيّة في حربه ضدّ الآشوريين بعدما مُنِيَ جيشه هو نفسه على يد قوّاتها تلك بالهزيمة في معركة «إراسا» مباشرة؟ حيث أن هذا يعتبر أمراً بعيد الاحتمال. ومن ناحية أخرى، فإنه لا يُعْقل أن يُرسل ملك قوريني الإغريقي مُشاة جيشه المسلحين إلى مصـر، دون أن يسوق لنـا «هيرودوتس» هذا الحدث الهام في تاريخه، ولو في بضعة أسطر. وأخيراً فإنه

= ملوك الأسرة السادسة والعشرين الفرعونية؛ كما احتلّ «نبوخذ نصْر» مدينة القدس وجانباً من جزيرة العرب.

من الملاحظ أن ما زُعِمَ من تدخُّل مصر في خصومات البيت المالك في قوريني، وما جرَّ إليه ذلك من اغتيال «أركسيلاوس الثاني»، هو أمر لم يأتِ على ذكْره سوىٰ قلّة من المؤرِّخين المتأخرين، من أمثال «بلوتارخوس»؛ بينما لم يُشِر إليه «هيرودوتس» البتَّة، مع أنّه المصدر الأساسي في تاريخ هذه المدينة. وهكذا، فإن هذه الأسباب مجتمعة تحملنا على التشكيك في جدوىٰ ما ذهب إليه «مازَّارينو» حول فترة حكم «أركسيلاوس الثاني» وما تخلَّلها من أحداث؛ ما لم تؤيِّد رأيه وثيقة تاريخية أخرىٰ تكون أكثر وضوحاً وأشدُّ صراحة.

الفصل السادس

أركسيلاوس الثالث والملكية الاستبدادية

قَبِل «باطوس الثالث» بالتشريع الدستوري الذي وضعه «ديمونـاكس» لمدينة قوريني، دون معارضـة. بل إننـا نلاحظ أن حتى زوجتـه الملكة «فريتيمي» ـ التي سنراها فيما بعد تُقْحم أنفها في شئـون الحكم بكل قواها ـ لم تحرِّك ساكناً وهي تشْهد تقلُّص وتلاشيَ تلك الامتيازات الملكية التي كانت تنعم بها الأسرة الحاكمة. بيْد أن الأمور سرعان ما تبدَّلت على إثر وفاة زوجها الأعرج، وترْكه عرش المدينة لابنه «أركسيلاوس الثالث».

ذلك أنَّ هذا الأخير لم يكن من طرازٍ يقبل بوجود قوانين تحدُّ من سلطاته وصلاحياته. ودعونا نسوق هنا نصَّ ما أوْرده «هيرودوتس» حول مدىً تهوُّر هذا الملك. يقول مؤرِّخنا:

«. . أدّىٰ تقاسم السلطات، في عهد أركسيلاوس بن باطوس، إلى وقوع اضطرابات خطيرة. حيث أعلن أركسيلاوس هـذا ـ ابن باطوس الأعرج وفريتيمي ـ بصـلافة وكبـرياء، أنّـه لن يذعن للدستور الـذي صاغـه ديمونـاكس المانتيني؛ وطـالب باسترجاع السلطة السياسيّة التي كان يتمتّع بها أجداده. فحشد الأنصار، مُعْلناً تمرُّده. بيْد أنه أخفق في مسعاه، وأُرْغم على مغادرة المدينة إلى المنفى؛ حيث وجد لنفسه ملاذاً في جزيرة

ساموس. في حين انسحبت أمّه إلى سالامين بقبـرص، لدى ملكها إيفيلثون، (وهـو نفس الذي نـذر إلى معبد دلفي تلك المبْخـرة الـرائعـة التي ضُمَّت إلى مجمـوعـة نفـائس الكنْـز الكوريتي). وما أن أُستُقبلت فريتيمي في بلاط ذلك الملك، حتى أخذت تنادي بأن يمدَّها بجيش يساعدها على العودة هي وابنها إلى قوريني. غيـر أن إيفيلثون كـان مستعدًّا لتلبيـة أي مطلب تتقدَّم به، عدا إمدادها بجيش. وكانت فريتيمي تتقبَّل هداياه وتصفها بأنّها في منتهى الرّوعة؛ إلاَّ أنها كانت تُرْدف في كل مرة قائلة: إنّه سيكون من الأروع لو أنّه جهَّز لها جيشاً. وظلّت تردِّد نفس القول كلَّما أتْحفها بهدية جديدة؛ إلـى أنْ حدث وأن أرسل إليها إيفيلثون، في النهـاية، مغْـزلاً ذهبيًا، وغَزْلاً وكمية من الصوف. وحيث أنّها لم تكـفّ عن ترديد نفس الطلب، فإنـه ردّ عليها قـائلاً: إنَّ هـذه هي الهدايـا الخليقة بالنساء، لا الجيوش.

وفي تلك الأثناء، كان أركسيلاوس يجنِّد في جزيرة ساموس كل من صادفه من مرتزقة، واعداً إيّاهم بتوزيع أراضٍ عليهم. فتم له، على هذه الشاكلة، تجهيز جيش قوي. ثم كلَّف من يسْتنْبيء له موْحى دلفي في أمر عودته [إلى قوريني]. فنزل على لسان الكاهنة وحي إلٰهي يقول: إن أبوللو قد أذِنَ لأسرتكم بأن تحكم قوريني طوال ثمانية أجيال؛ أربعة منكم يحملون اسم باطوس، والأربعة الآخرون يحملون اسم أركسيلاوس. وهو يُلْزمكم بعدم تجاوز هذا الحدّ. أمّا أنت، فيتوجَّب عليك بعد رجوعك إلى وطنك، أن تتصرَّف بـاعتدال. وإذا مـا وجدت الفُرْن وقد امتلأ بالقوارير؛ فـإيَّاك أن تحْـرقها: ودَع الـرياح

تتمايل بها كما تشاء. وإذا ما فكَّرت في إيقادِ الفُرْن، فحذاري أن تدخل المدينة التي يطوِّقها اليَمُّ؛ وإلاَّ فإن الموت سيكون مصيرك أنت ومعك أجمل الثيران[1].

ذلك هو الوحي الذي أنبأت به الكاهنة أركسيلاوس. ثم رحل الملك [أركسيلاوس] عن جزيرة ساموس صحبة قواته [المرتزقة]، وعاد إلى قوريني، حيث استولىٰ على السلطة فيها بالقوّة. غير أنّه ـ وقد تناسى نبوءة الموْحى ـ أراد الانتقام من أولئك الذين كانوا قد قمعوا محاولة تمرُّده الأولىٰ وأجبروه على الخروج إلى المنفى. وكان معظمهم قد غادر البلاد. ومع ذلك فإنّه تمكّن من القبض على بعضهم الآخر، حيث أرسلهم إلى قبرص ليلاقوا حتفهم فيها. غير أن المركب الذي نقلهم جنح قرب كنيدوس، فانتشلهم أهلها وحملوهم إلى ثيرا.

وكانت طائفة من القورينيين قد استلاذت بقصرٍ كبير يملكه شخص يُدْعى أجلوماخوس؛ فأمر أركسيلاوس بتطويق القصر بأكوام من الحطب، وأحرقهم أحياءً. ثم أدرك، بعد فوات الأوان، أن ما اقترفه هو بالضبط ما قصدته النبوءة عندما حذَّرته الكاهنة الفيثيَّة من الإقدام على إحراق القوارير في الفُرْن. ولذا، فإنه حرَّم على نفسه، منذئذٍ، دخول مدينة قوريني، محاولة منه للإفلات من الموت الذي تنبَّأ له الموْحى بأنه مُلاقيه؛ ذلك أنّه كان يعتقد بأن «المدينة التي يطوِّقها اليَمُّ»، هي

(1) لسنا ندْري مَنِ المقصود هنا بـ «أجمل الثيران». ولعلّه «ألازير»، صهر أركسيلاوس. ولنلاحظ أن منطوق الوحي هنا لم يردْ في صيغة شعرية. وقد لا يرمز «الثور» هنا إلى أحد، وإنّما هو مجرّد إطناب لا معنىٰ له. انظر الفقرة 163 من «الكتاب الرابع» لـ «هيرودوتس».

قوريني[1]. وكان متزوجاً من إحدى قريباته، وهي ابنة أحد ملوك مدينة برقة (باركي)، يُدْعى ألازير. وبينما كان أركسيلاوس في ضيافة هذا الملك، تعرّف عليه نفرٌ من سكان مدينة برقة ومن المُبْعدين القورينيين، فاغتالوه وسط السوق، هو وحماه ألازير. وهكذا لاقىٰ أركسيلاوس ما خبّأه له القدر،

---

(1) لقد حيّرت هذه الفقرة شُرّاح «هيرودوتس» كثيراً. لكن الذي له معرفة ميدانيّة مباشرة بتضاريس ومناخ إقليم برقة، في وسعه أن يفسّرها على نحوٍ سليم. فـ «هيرودوتس» يقول هنا عن قوريني إنها مطوّقة بالمياه، من حيث أن التّل الذي أُقيمت عليه يحدُّه من الجانبيْن واديان هما: «وادي بوغديـر»، و «وادي بوتركيـة» اللذان تجري فيهما جداول مائية تستمد مياهها بـاستمرار من عيون باطنية. وهذا هو السبب في أن «أركسيلاوس» اعتقد بأن وحْي «أبوللو» قد أمره بأن يحْذر هذه المدينة لتحاشي الموت فيها. أمّا فيما يتعلّق بمدينة «باركي» (أي مدينة المرج)، الواقعة وسط سهْل مقفل، فإنها في الأيّام الاعتيادية غير مطوّقة بالمياه. ولكن خلال موسم الأمطار تتجمّع المياه الراكدة في حوضها، الذي تتميّز تربته بـالاحتفاظ بـالمياه، بحيث يصعب تصريفها؛ الأمر الذي يترتب عليه محاصرة مياه الفياضات للمدينة. ولذا فإن هذه الظاهرة التي لا تقع إلاّ في فصْل شتاء غزير الأمطار، يمكنها أن تفسّر لنا المغزى الحقيقي لتحذير موْحى دلفي لأركسيلاوس، الذي لم يحْفل بهذا التحذير ولم يفهمه على وجهه الصحيح. والحقيقة أن مدينة المرج القديمة (= باركي الإغريقيّة)، كانت تتعرّض حتى وقوع زلزال سنة 1963 م الذي هدمها، لفيضانات في فصْل الشتاء، كلما كانت الأمطار غزيرة، حيث تتسبّب في عزْل الكثير من أحيائها بالمياه التي تتدفّق نحوها من سلسلة جبال «الشليوني» الواقعة جنوبها، وتأخذ مياه الفياضانات تلك في التجمّع مكونة سيلاً متدفّقاً يسمى عند أهلها «سيْل القَوْد»، الذي كانت مياهه تجتاح ـ حتى مطلع الخمسينات من هذا القرن ـ أحياء وبيوت المحلّة الغربيّة من مدينة المرج القديمة، حيث كان ينضمُّ إلى ذلك السيل سيلُ آخر، يتدفّق نحوها من الغرب ويسمّى «سيل الرَّوْزة». ثم يلتحم هذان السيْلان، فيطوّقان المدينة من الغرب والشمال. ثم تتدفّق مياههما نحو الأحياء المنخفضة في شرقيّها، لتصبُّ وتستقرُّ في بقعة دائرية وطئة يسمّيها الناس «الغريق». وكانت مياه الفيضانات الشتوية تلك تظل متجمّعة في منخفض «الغـريق» الخصيب حتى منتصف فصْل الصيف، حيث يُستغلُّ في زراعة الخضروات بنجاح. ولكن هذه الفيضانات كفّتْ اليوم، بفضل سلسلة السُّدود الفعّالة التي أُقيمت عند سفح جبال «الشليوني» في السنوات الأخيرة. وإذن فإن المدينة «التي يطوّقها اليمُّ» ـ بحسب نبوءة كاهنة معبد دلْفي ـ هي مدينة «باركي» لا مدينة «قوريني».

لأنه أساء تفسير نبوءة الوحي».

انتهى نصّ «هيرودوتس».

فيا لروعة البيان، ويا لبلاغة الأسلوب!.. إنّ عظمة «هيرودوتس» الأدبيّة تتجلّىٰ هنا كاملة، يواكبها نزوعه إلى تطعيم روايته التاريخية دائماً بحكايات جانبية طريفة، (مثال ذلك ما قصّه علينا من حكاية «فريتيمي» مع ملك قبرص)، وما أوْلاه من اهتمامٍ خاص للنبوءات الإلٰهية؛ إلى جانب إلْماعه من حينٍ لآخر إلى ذكريات مشاهداته الشخصيّة أثناء حطّه وترْحاله (ومن ذلك إشارته إلى تلك المبْخرة التي أهداها ملك قبرص إلى معبد دلْفي، حيث شاهدها مؤرِّخنا هناك بنفسه). ويتبدّىٰ في هذا النصّ على الخصوص ما تتميّز به سليقته في الكتابة من خصائص فنيّة يستحيل تقليدها، من حيث ما تحتويه من اطّراد خاطف، وإضمارٍ مُبْهم مُحيِّرٍ عند قصّ الأحداث؛ بحيث يُخيَّل إليك دائماً أنه يضنُّ عليك بمعارفه ومعلوماته ويتعمّد عدم الإفصاح عنها كلية، وأنّه يفضِّل التلميح والإشارة على صريح الكلام. وأنت تراه: يستطرد، ويتمهَّل ويطيل، حتى عند روايته لمجرد حدث جانبي لا أهميّة له؛ لا لشيء إلاّ لأن ذلك الحدث التافه يستهويه. فيما تراه ـ على العكس من ذلك ـ يقفز بك، كالبرق الخاطف عندما يصل بك إلى ما هو جوهري في روايته، مارًّا به مرور الكرام. وبعد كل هذا يتركك حائراً لا تعرف كيف تفسِّر أو تؤوِّل تلك المعلومات التاريخية التي ساقها لك، والتي يُلْقىٰ بها إليك أحياناً، بلا اكتراث، وكأنّها نوافل الكلام.

أراد «أركسيلاوس الثالث» أن يسترجع تلك السلطات التي كان «ديموناكس» قد حرمه منها بتوزيعها بين حُكّام صغارٍ منتخبين. ولكي يصل الملك إلى مأربه هذا، نراه يؤلِّف حزباً: فمن أين تأتّىٰ له الحصول على العناصر المناسبة لتكوين مثل هذا الحزب، إنْ لم تكن قد انتُقيت من بين أفراد شعب قوريني الإغريقي نفسه؟.. فالمهمة التي أخذها على عاتقه كانت هي

التصدِّي لمُلاّك الأراضي الإقطاعيين الذين كانوا هم المستفيدين الرئيسيين من وراء الإصلاحات التي فرضها المشرِّع «ديموناكس». ولم تكن أمام هذا الملك الذي انتُزعت منه كل سلطة فعلية، أية فرصة لفرْض نفسه على أعدائه هؤلاء سوىٰ بالاعتماد على فقراء المدينة، المعادون بطبيعة وضعهم لأثريائها. وهكذا فإنه لم يكن أمامه من طريقٍ يمضي فيه سوىٰ ذلك الطريق المفضي إلى الاستبداد. ولذا فإن محاولة «أركسيلاوس الثالث» هذا إيقاد الثورة قد بدت وكأنّها محاولة لإقامة حكومة استبدادية. بيْد أن الطبقة الكادحة الحضريّة في قوريني - التي هي مدينة زراعية بالدرجة الأولىٰ - لم تكن كثيرة العدد، كما لم تكن طبقة منظمة؛ ولذا فإن الملك لم يجد فيها سنداً فعّالاً، وبالتالي فإن محاولته مُنيت بالفشل.

ولا يصعب على أحد تصوُّر المسلك الذي أصبح لزاماً على الملك سلوكه بعد فشله هذا. ففي حين وجدت أمّه «فريتيمي» لنفسها ملاذاً في مدينة «سالامين» بقبرص، رأينا، كيف استلاذ هو نفسه بجزيرة «ساموس». فلماذا إذن اختار «أركسيلاوس» هذه الجزيرة بالذات؟.. لا جدال في أن علاقات تجارية كانت قد قامت من قبل بين «ساموس» وبين قوريني. غير أن تلك العلاقات المصلحية لم تكن - في المقابل - تربط تجار «ساموس» بملك قوريني نفسه، بقدْر ما كانت تربطهم بكبار منتجي ومصدِّري القمح والصوف القورينيين المتعاملين معهم. وبالتالي فإنه لا يمكن للمرء أن يجد تعليلاً لاختيار «أركسيلاوس الثالث» لجزيرة «ساموس»، دون غيرها من الجُزُر الإغريقيّة، سوىٰ بردٍّ ذلك إلى ميوله السياسيّة. فهذه الجزيرة كانت واقعة آنئذٍ تحت حكم الطاغية «بوليقراطيس»[1] الذي كان غلوُّه في الاستبداد مضرب

(1) استولى «بوليقراطيس» على جزيرة ساموس سنة 533 ق م. تحالف مع الباطيين في قوريني ومع الفرس في مصر، وحاول مساندة «قمبيز» في إحكام قبضته على وادي النيل؛ ومع ذلك فإن مرزبان مصر الفارسي اعتقل بوليقراطيس هذا وأعدمه سنة 522 ق م بتهمة التآمر ضد الامبراطور «دارا الأول»، ملك الفرس.

الأمثال. وكما استلاذت أم «أركسيلاوس» بطاغية قبرص «إيفيلتون»، استلاذ هو نفسه ببلاط طاغية «ساموس»؛ لأن التآزر الذي كان يشدُّ طغاة ملوك الإغريق وحكّامهم في تلك الحقبة، هو الذي حمل «بوليقراطيس» على الترحيب بملك قوريني الهارب، الذي وإن كان قد وصل إلى حكم قوريني عن طريق الوراثة، لا العنف؛ إلاّ أنّه كان يُعتبر في نظر طاغية «ساموس» هذا شخصاً مستبدًا مثله، مستعدٌّ للجوء إلى نفس أساليبه هو للاستيلاء على الحكم، ويتربّص به نفس الطراز من الأعداء والخصوم.

وإذن، ها هِيَ الرؤية تتّضح أمامنا: فالنظام الملكي الحاكم في قوريني لم يجْمد ولم يتقوْقع وكأنّه شكل من أشكال الحكم التي عفا عليها الدهر، مثلما اعتقد كثير من المؤرِّخين الذين ذهبوا إلى أن عزلته في بلد غريب، مثل ليبيا، قد جعلته وكأنّه على هامش مُجْريات الأمور وتطوراتها في العالَم الهليني. بل على العكس، فإن كل هذا يبرهن على أن قوريني قد أخذت، منذ منتصف القرن السادس قبل الميلاد، تُسْهم إسهاماً فعّالاً في جميع مظاهر الحضارة الإغريقيّة. إذْ كيف لها أن تبقىٰ بمنْأى عن الحركات السياسيّة التي نشب فيها الصراع آنئذٍ بين دُعاة حكم الأرستقراطية الموسرة، من ناحية، وبين الحكام الإغريق الطغاة، من ناحية أخرى؟. . ذلك أن بُنْية قوريني الاجتماعية، القائمة على الإقطاع وحيازة وتقاسم الأراضي الزراعية الشاسعة، قد جعلتها على غِرار كُبريات المدن التي استعمرها الإغريق في آسيا الصغرىٰ وفي صقلية؛ حيث ترعرعت في قوريني طبقة متميِّزة من مُلاّك الأراضي الإقطاعيين، لا تختلف عن مثيلتها في جزيرة «ساموس» وفي «سيراكوزا» الصقليّة سوىٰ في التسمية. ويمكننا تصوُّر «أركسيلاوس الثالث» وهو يستعرض مثالب أعدائه من مُلاّك الأراضي الأغنياء في قوريني، في حضْرة مُجيره «بوليقراطيس»، طاغية «ساموس». ثم يبادر ـ بموافقة حكومة «ساموس» المحليّة ـ إلى استعمال جميع الأساليب الغوْغائية، لإقناع فقراء هذه الجزيرة بالانخراط، كمرتزقة، في ذلك

الجيش الذي أخذ يشكِّله هناك توطئة لاسترداد سلطته في قوريني، واعداً هؤلاء بنحْلهم أراضٍ زراعية يتقاسمونها فيما بينهم هناك. وإنَّ موقفاً كهذا ليحملنا على الاعتقاد بأن «أركسيلاوس الثالث» لم يَعِدْ المرتزقة الساموسيين - في هذه المرة - بتوزيع أراضي الليبيين عليهم؛ وإنما وعدهم بتمليكهم ضيْعات ومزارع أعدائه، دُعاة حكم الأرستقراطية، الأغنياء، الذين طردوه من عرشه.

وعلى أيّة حال، فإنه بمساعدة أُولئك المرتزقة المجنّدين في جزيرة ساموس، تمكّن «أركسيلاوس الثالث» من الرجوع إلى قوريني بالقوة. وبمجرَّد استعادته لسلطته في المدينة، أخذ يطارد أعداءه. وكان معظم هؤلاء قد هربوا من قوريني قبل مجيئه ولجأوا إلى مدينة برقة (باركي) التي قام فيها - منذ إنشائها في عهد جدّه «أركسيلاوس الثاني» - نظام حكم الارستقراطي. أمّا من تمكن من القبض عليهم ممن تبقّىٰ منهم في قوريني، فإنه أرسلهم إلى جزيرة قبرص، كي يُعْدموا فيها. وهذا مظهر آخر من مظاهر التآزر في السَّرَّاء والضَّرَّاء بين أُولئك الحكّام الإغريق الطُغاة. فلقد كان طاغية قبرص «إيفيلثون» - الذي استضاف «فريتيمي» - على استعداد لتمكين هذه الملكة الأم من إشفاء غليلها والانتقام بنفسها في جزيرته من أعداء ابنها المبْعدين عن قوريني. ولكن خاب أمل هذه الملكة، المتعطّشة للانتقام، لأن تصاريف الأقدار شاءت أن يجنح المركب الذي كان يُقلُّ أولئك المُبْعدين القورينيين، حيث نجح أهل مدينة «كنيدوس»[1] في إنقاذهم من الغرق، ثم نقلوهم إلى جزيرة «ثيرا». وهذه الإشارة الهامة التي أوردها «هيرودوتس» تبيِّن لنا أن الفئة المعادية للباطيين كانت تنحدر، على الخصوص، من سلالة المعمَّرين الثيرانيين الأُوَلْ؛ وهي

---

(1) «كنيدوس» هي مدينة دورية قديمة من مُدن «كاريا» المطلّة على بحر إيجة، بآسيا الصغرى، وكانت مستعمرة إسبرطية.

السلالة نفسها التي تكوّنت منها ارستقراطية قوريني التي كانت تتحكّم في أراضي المدينة الزراعية وأطيانها.

ولدينا حول هذا الأمر برهان آخر جسّـده لنا «هيـرودوتس» في ثوب أقصوصة «الفُرْن والقوارير» التي تضمَّنتها نبوءة موحي دلفي، التي أوردنا نصّها: ذلك أن قصر «أجلوماخوس» ـ (وهو اسم نصادفه عدة مرّات بين أسماء أعيان قوريني في القرن الرابع قبل الميلاد) ـ ليس سوى قصر ريفي محصّن أقيم وسط ضيْعة كبيرة من الضيعات التابعة للمدينة. وأثناء تعقُّب الملك للأرستقراطيين ومطاردتهم، فإنّهم فرُّوا إلى إقطاعاتهم وضيعاتهم للاستلاذة بها. غير أنّه بعدما استعاد «أركسيلاوس الثالث» سيطرته على المدينة نفسها، فإنه بادر إلى بسْط سيطرته على الأرياف المحيطة بها، وهي الأرياف التي استلاذ بها أعداؤه هؤلاء.

ولقد استغرقت عمليات تعقُّب الأرستقراطيين داخل مزارع وضيعات قوريني بعض الوقت. وبينما كان الملك منشغلاً بعمليات التطهير والمطاردة تلك للقضاء على أعدائه؛ فإنّه قرر تفويض أمّه «فريتيمي» ـ التي كانت قد عادت لتوِّها من قبرص ـ أمر تسيير دفة الأمور في مدينة قوريني نفسها وحكمها باسمه. فنرى هذه الملكة، التي اؤتُمنت على سلطة ابنها الملكية، تقوم بترؤُّس جلسات مجلس الشورى (= البولي) نيابة عنه. ولقد اندهش الإغريق لمنح مثـل هذه الامتيـازات السياسيّـة الهامـة لامرأة؛ بـل واندهش لهـذا الأمر «هيرودوتس» نفسه. ومن المؤكّد أن ما فعله «أركسيلاوس الثالث» هنا يعكس مدىٰ تأثُّر الملوك الباطيين بالتقاليد المشرقيّة القديمة التي كانت تحترم المرأة وتحمِّلها المسئوليات الجسيمة. ويستشفُّ المرء من وراء ذلك سمة من سمات المنظار الذي كانت تنظر به أسرة الباطيين لطبيعة الحكم الذي كانت تمارسه، وهي نظرة كانت غريبة عن تقاليد الفكر السياسي الإغريقي في تلك الحقبة من التاريخ. وبالتأكيد فإن إشراك «أركسيلاوس» لأمه في الحكم، على ذلك النحو

ـ رغم ما نلمسه لديه من ميْل إلى التّفرُّد بالسلطة، ورغم ما أبداه من طغيان غوغائي تجاه خصومه الأرستقراطيين ـ يعتبر السِّمة المميِّزة لفترة حكمه.

وهكذا، فقد كان طبيعيًا ـ وقد اعتنق «أركسيلاوس الثالث» مثل هذه المبادىء الغوغائية ـ أن يقلب نظام الحكم في قوريني إلى نمط من أنماط الملكيّات المشرقية المستبدَّة القديمة. ولقد وجد هذا الملك في صديقه «بوليقراطيس»، طاغية جزيرة «ساموس»، أنموذجاً يُحْتذىٰ في خسَّته وتقلُّب طباعه. ذلك أن هذا الأخير لم يتردَّد في الانسحاب ـ سنة 527 ق م ـ من التحالف الذي كان قائماً بينه وبين فرعون مصر «أماسيس»؛ حيث قلب له ظهْر المِجَنّ وهبَّ لمؤازرة عدوه «قمبيز بن قورش»، ملك الفرس، الذي كان آنئذٍ يُعدُّ العُدَّة لغزو مصر. ولم يلبث «أركسيلاوس الثالث» أنْ برهن على أنّه لا يقلُّ عن صديقه «بوليقراطيس» خسَّةً، فبرغم الحرب التي نشبت بين الجيش المصري والجيش القوريني في معركة «إراسا»، إلاَّ أن العلاقات سرعان ما تحسّنت بين مصر وقوريني الإغريقيّة، حيث تحوّلت إلى صداقة. ولقد سبق لنا وأن ذكرنا أن «أماسيس» كان قد تزوّج من امرأة إغريقيّة قورينية، تدعى «لاديكي»، التي قد تكون واحدة من أميرات البيت الباطي المالك. ولما اختلىٰ بها هذا الفرعون ليلة عرسها لإتيانها، فإنه لم يجد في نفسه قدرة على ذلك في البداية ـ بحسب ما ذكره «هيرودوتس» ـ ثم نجح «أماسيس» في النهاية وتمكن من مضاجعة زوجته القورينية هذه. ولذا فقد أرسلت «لاديكي» إلى مدينة قوريني بنذْرٍ كانت قد تعهَّدت بينها وبين نفسها بإهدائه إلى موقع رأسها هذا، كعرفان بالجميل للإلهة «أفروديت» على قيامها بتخليص زوجها «أماسيس» من هواجس فراشه. وهذا النَّذْر هو عبارة عن تمثالٍ كبير، شاهده «هيرودوتس» بنفسه في معبد «أفروديت» بقوريني. كما أهدىٰ «أماسيس»، من جانبه، إلى المدينة تمثالاً مكسوًّا بالذهب، يمثِّل الإلهة «أثينا»، ومعه لوحة نُقشت عليها صورة هذا الفرعون.

ورغم هذه العلاقات الوديّة التي صارت قائمة بين مصر وبين قوريني الإغريقيّة، فإن «أركسيلاوس الثالث» لم يحْجم عن الانضمام إلى الطرف الأقوىٰ عندما تمكنت جيوش «قمبيز» الفارسية، في سنة 525 قبل الميلاد، من سحق الجيوش المصرية. هذا، وإن كان «أماسيس» نفسه قد توفي قبيل ذلك[1]. ولقد بادر الليبيُّون وإغريق قوريني، على الفور، إلى توجيه وفدٍ عنهم إلى مصر لتهنئة «قمبيز» بالنصر، ولإعلان خضوعهم له، ولقد حدث ذلك أثناء محاصرته لمدينة «ممفيس» (= منف الحالية). وتقبَّل «قمبيز» هدايا الليبيين بسرور؛ إلاَّ أنه أظهر في نفس الوقت احتقاره لمبلغ الخمسين ألف (دراخمة) الفضيّة التي أرسلها إليه إغريق قوريني، حيث قام بتوزيعها، حفنة حفنة، على جنوده ولم يحتفظ بها. ومع ذلك، فإنه أبدى ارتياحه لموقف «أركسيلاوس الثالث» الذي سارع بمحض إرادته إلى الانضمام إلى صفوف الفرس، ولقد تمثّل ذلك في تلك اللفتة الكريمة التي شمله بها عندما أطلق سراح أرملة «أماسيس» القورينية «لاديكي»، حيث وصلت إلى قوريني سالِمة.

وهذه الأحداث تزودنا بثاني تاريخ مؤكّد عن ماضي قوريني، إلى جانب التاريخ الآخر الذي ذكرناه سابقاً، وهو سنة 570 قبل الميلاد، التي وقعت فيها معركة «إراسا» بين الجيشين المصري والقوريني. و«هيرودوتس» يذكر صراحة أن «أركسيلاوس الثالث» قد وضع قوريني تحت حكم «قمبيز» في مصر، وبأنه ارتضى دفع جزية له. ولا يمكن لـ«أركسيلاوس» اتخاذ مثل هذا القـرار المسئول إلاّ بعدما صار سيد المدينة المطلق؛ أي بعد عودته من منفاه في جزيرة «ساموس». وفي وسْعنا اتِّخاذ السنة التي استولي فيها «بوليقراطيس» على الحكم في جزيرة «ساموس» ـ وهي سنة 533 / 532 قبل الميلاد ـ كحدٍّ

(1) توفي «أماسيس» في نفس سنة 525 قبل الميلاد، بعدما حكم مصْر طوال أربع وأربعيْن سنة. وكان عند موته شيخاً هرماً.

تقريبي أقصىٰ للتاريخ الذي نُفي فيه «أركسيلاوس الثالث» إلى هذه الجزيرة. ومن جهة أخرى، فإن التسلسل التاريخي لتتابع الملوك الباطيين على عرش قوريني ـ كما نستشفُّه من نصوص «هيرودوتس» ـ لا يسمح لنا بجعل تاريخ ميلاد «أركسيلاوس الثالث» سابقاً على حوالي سنة 550 ق م؛ هذا إذا ما حرصنا على احترام اطِّراد التَّسلسل النَّسَبي المباشر لتولِّي الملوك الباطيين حكم المدينة، وهو الاطِّراد الذي أكّده «هيرودوتس». وإذن، فإن نفْيَ «أركسيلاوس الثالث» إلى جزيرة «ساموس»، ثم عودته منها لافتكاك عرش قوريني بالقوة ثانية، قد وقع في حوالي سنة 530 قل الميلاد؛ بل ولعل من الأرجح أن يكون ذلك قد وقع ما بين السنة المذكورة وبين سنة 525 قبل الميلاد، لأن رواية «هيرودوتس» توحي بأن الأحداث قد تعاقبت على نحوٍ سريع.

أمَّا عن الملابسات التي لاقىٰ خلالها هذا الملك حتفه فإننا لا نعرفها إلَّا على نحوٍ تخميني. فمن هو هذا الـ «ألازير» الذي تزوج «أركسيلاوس الثالث» من ابنته؟.. هل هو أمير ليبي، كما يوحي بذلك اسمه؟.. أم أنّه أحد أحفاد إخوة «أركسيلاوس الثاني» ظل يعيش بمدينة برقة كأمير من الأمراء الباطيين، وبالتالي فهو يرتبط بأركسيلاوس الثالث، أصلاً، بأواصر القربىٰ حتى قبل أن يتصاهر معه ويتزوج ابنته؟.. فمدينة برقـة، التي كانت بيـد ارستقراطيـة إغريقيّة، منذ حلول إخوة «أركسيلاوس الثاني» بها في الماضي ـ ويصرْف النظر عمّا إذا كانت تلك الأرستقراطية قد احتفظت، ولو صوريًّا، بهويَّتها الملكية السابقة ـ قد آوت بالفعْل عدداً من ارستقراطيِّـي قوريني الفارِّين من وجه «أركسيلاوس الثالث». ويمكننا أن نتصوّر، بدون عناء، أن هذا الأخير قد أخضع مدينة برقة عن طريق القسوة التي عامل بها سكانها، ثم كلَّف حماه «ألازير» بإدارة شئـونها نيابة عنه. ولا بد وأن «ألازير» هذا قد اشتطَّ وتهوَّر، مقترفاً بعض التجاوزات والأخطاء في حقّ أولئك السكّان. ولذا فإنه عندما علمت تلك الجماعة من ارستقراطيِّـي قوريني وأشياعهم السياسيين من أهل

مدينة برقة بتواجد «أركسيلاوس الثالث» بها، قاموا بتدبير مكيدة له ولحميِّه «ألازير» واغتالوهما سويًا.

ونتيجة لوقوع هذه النهاية المأساوية التي لقيها الملك في مدينة برقة؛ فإن المكانة التي كانت تحتلّها أمّه «فريتيمي» في مدينة قوريني قد انهارت. وسواءً اندلعت في قوريني حركة تمرّد ضد هذه الملكة العجوز، أم لا، فإنها في كل الأحوال فرّت إلى مصر، واحتمت بواليها الفارسي، المرْزبان «أرياندس» الذي نصَّبه «قمبيز» حاكماً لمصر. وفي هذه الأثناء جلس «دارا» على عرش الإمبراطورية الفارسية، بعد وفاة «قمبيز» في سنة 521 قبل الميلاد؛ الأمر الذي يجعل توقيت وقوع هذه الأحداث بعد سنة 522 ق م. ولقد طالبت «فريتيمي» العجوز المرْزبان «أرياندس» بالانتقام لمقتل ابنها «أركسيلاوس الثالث»، زاعمة له بأن هذا الأخير قد أغتيل لنزعته «الميديَّة»؛ أي بسبب ولائه للفرس. فما كان من مرزبان مصر الفارسي إلاّ أن وجَّه إنذاراً إلى مدينة برقة يطالب أهلها فيه بتسليمه قتلة «أركسيلاوس». غير أن هؤلاء البرقيين ـ الذين كانت أفئدتهم تقطر كراهية ضد طاغية قوريني المقتول ـ رفضوا الإستجابة لذلك الإنذار، وأعلنوا أنّهم جميعهم يتحمّلون مسئولية قتله. وعندئذٍ قام المرْزبان بتوجيه حملة بريّة وبحرية ضد مدينة برقة، وانضمَّت «فريتيمي» إلى جيش تلك الحملة الفارسية[1].

وحاصر الجيش الفارسي مدينة برقة طوال تسعة أشهر، لكنه فشل في احتلالها بالحرب، فلجأ إلى أسلوب الخديعة، التي مكّنته في النهاية من احتلالها. وبادرت «فريتيمي» فنكّلت بكل مغتالي ابنها، هم ومن تواطأ معهم من أهل المدينة، بما في ذلك النساء، وأذاقت هؤلاء جميعاً مُرَّ العذاب. أما

---

(1) عالج الأستاذ الدكتور إبراهيم نصحي معضلات فترة حكم «أركسيلاوس الثالث» في بحثٍ قيِّمٍ له بالإنجليزية، نُشِر ضمن كتاب: ليبيا في التاريخ، الذي نشرته الجامعة الليبيّة في سنة 1969، ص ص 53-78.

بقية السكان فقد تم استرقاقهم، حيث أرسلهم الملك «دارا الأول» إلى مقاطعة «بخطريان» (= بلخ)[1] - الواقعة حالياً في شمالي أفغانستان - لاستيطانها وتعميرها. ولكن آلهة السماء - بحسب عبارة «هيرودوتس» - ما لبثت أن أنزلت القصاص بالملكة «فريتيمي»، لما اقترفته من وحشية، حيث ألمَّ بها داءٌ غريب، وأخذت الديدان تنهش جسدها المتقيِّح حتى قبل أن تفارق الحياة.

وبعدها اتَّجه الجيش الفارسي غرباً حتى مدينة «يوسبيريدس» - (وهي مدينة برنيق، والتي تسمى حالياً: بنغازي) - ثم قفل راجعاً نحو مصر، حيث اخترق مدينة قوريني التي فتح له سكّانها بوّاباتها، بزعْم أن نبوءة إلٰهية قد أمرتهم بذلك. وعسكرت قوّات ذلك الجيش خارج أسوارها، عند التلّ المسمى «تل زيوس»، وهو التّلّ الذي لن يلبث أن يُقام عليه أكبر معابد قوريني الإغريقيّة، ثم نرىٰ القوّات الفارسية تندم على تفويت الفرصة بعدم احتلال المدينة، وتكرُّ راجعة نحوها لدخولها. غير أن تلك الفرصة كانت قد ضاعت عليها تماماً؛ لأن القورينيين عندما لمحوها تتقدّم نحو مدينتهم، فطنوا لِما بيَّتت النيَّة عليه، فلم يسمحوا لها، في هذه المرّة، بالاقتراب من بوّاباتها، واكتفوا بتزويدها بالمؤن وهي خارج أسوارها. فلم يجد الجيش الفارسي بدًّا من استئناف مسيرته نحو مصر. ولقد تعرَّض ذلك الجيش أثناء عودته لهجمات الليبيين عليه، الأمر الذي جعله يتكبَّد خسائر جسيمة في الأرواح.

* * *

وتتوقف رواية «هيرودوتس» لتاريخ الباطيين عند هذا الحدّ. فهذا المؤرِّخ الذي ظل ينير لنا الطريق أثناء استكناهنا لخفايا تاريخ قوريني، منذ نشأتها، كأنّه الدليل الذي يرشد الحيارىٰ، سوف يتخلّىٰ عنّا منذ الآن فصاعداً، ويتركنا نتحسّس طريقنا الصعب دون عون منه. ونحن وإن كنا قد لمنا «هيرودوتس»

---

(1) كانت «بلخ» عاصمة لخراسان، إفتتحها ابن قيس الأحنف سنة 33 هجرية، ثم دمّرتها قوات جنكيزخان سنة 617 هجرية.

كثيراً لأنه كان ضنيناً علينا بسرْد بعض الأحداث والتفاصيل حيث اكتفى بالإلماع إليها على نحوٍ خاطف؛ وعتبْنا عليه لإيجازه المفرط في السّرْد، والإسراف في تطعيم روايته بالخرافات والأساطير؛ إلاَّ أنّنا بالرغم من كل هذا ـ وبالرغم من ميله الشديد إلى قصِّ الحكايات الطريفة المسلّيّة، التي ليس لها أيّة قيمة تاريخية، وسَوْقه هنا وهناك لأقاصيص ليس لها من أهمية سوىٰ مغزاها الأخلاقي والتأديبي، وجنوحه دوماً إلى الاستطراد والتشعيب، وإقحامه لنوادر مستقاة مما كان يعرض له شخصياً في رحلاته ـ نجده قد نجح، بوجهٍ عام، في إعطائنا صورة صادقة عن تاريخ هذه المدينة، حتى وإن جاءت هذه الصورة ناقصة. ولا شك في أن هذه الهنات التي لمسناها في الكتابة التاريخية عند «هيرودوتس» قد جعلت موهبته كمؤرِّخ قاصرة عن تقصِّي الأسباب والعِلل العميقة الكامنة وراء الأحداث السياسيّة التي تعرَّض لها. غير أنّه في كل مرّة أمكن لنا فيها عقد مقارنة بين روايته هو وبين ما أوردته وثائق تاريخية أخرىٰ، أو مع الحقائق التي وقف عليها بنفسه؛ نراه قد برهن عن دقّة معلوماته ونزاهتها. وزيادة عن كل هذا، فإن دراستنا لجميع نصوصه حول قوريني، قد مكنتنا من استجلاء مسألتين هامتين، تتعلّق أولاهما بسيرة حياته هو، وتتعلّق الثانية بمنهجه في التأليف:

فهنالك أولاً مسألة رحلته إلى قوريني؛ حيث ما تزال هنالك شكوك ـ حتى الآن ـ في مدىٰ صحّة قيامه فعلاً بهذه الرحلة. صحيح أن «هيرودوتس» لم يذكر لنا صراحة بأنّه قد زار ليبيا. كما أنّه قد يكون من الصحيح كذلك ـ فيما يخصّ الجزء المتعلّق بهذا البلد في كتابه ـ أن هذا الجزء قد طغت فيه نقولاته عن المصادر المدوّنة، وبشكل كبير، على المعلومات التي استقاها من مشاهداته العيْنية. ومع ذلك فإنّه توجد قرائن عديدة تُوحي بأنّه كانت لمؤرِّخنا معرفة مباشرة بليبيا. فهنالك أوّلاً الفقرة رقم 181 من الكتاب الثاني من تاريخه؛ وهي الفقرة التي تتحدّث عن التمثال الذي أهدته السيِّدة «لاديكي» إلى مدينة

قوريني إيفاءً بالنذْر الذي نذرته للإلهة «أفروديت». فـ «هيرودوتس» يشير إلى هذا التمثال قائلاً إنه: «.. ما يزال سليماً حتى زماني، هنالك في المكان الذي كان قد نُصب فيه، خارج مدينة قوريني». حقّاً إن لهذه العبارة في مصطلح مؤرِّخنا هنا دلالة زمنيّة صرفة، مما لا يُسْتنتج منه بالضرورة الاعتقاد بأن «هيرودوتس» قد شاهد بأمّ عيْنه ما يتحدّث عنه هنا. ولكن استعماله في هذا السياق لفعل الماضي الناقص ـ زماناً ـ مع ما صاحب ذلك من تحديد طبوغرافي ـ مكاناً ـ يوحي بأن مؤرِّخنا يتحدّث عن ذكرىٰ مشاهدة شخصية. ويزداد هذا الانطباع رسوخاً لدينا عندما نقرأ، بعد بضعة أسطر تالية، تلك الفقرة التي تحدّث فيها عن التماثيل التي أهداها الفرعون «أماسيس» لمعبد الإلٰهة «هيرا» بجزيرة «ساموس»، حيث ذكر «هيرودوتس» هذه التماثيل التي شاهدها بنفسه عند زيارته للجزيرة؛ مستعملاً نفس العبارات التي وصف بها التمثال الذي أهدته «لاديكي» إلى قوريني. فتشابه التعبير المستخدم في كلا الوصفين يجعلنا نستنتج بأنّهما متساويان في القيمة العينيّة للمشاهدة.

وتوجد كذلك قرائن أخرىٰ؛ منها أن «هيرودوتس» يُطْلعنا في الفقرة رقم 203 من الكتاب الرابع من تاريخه، على حقيقة أن الجيش الفارسي ـ عند عودته إلى مصر بعد حملته ضد مدينة برقة ـ قد عرَّج على مدينة قوريني وعسكر في ظاهر هذه المدينة «عند تل زيوس». إذ يبدو أن دقّة هذه الإشارة الطبوغرافية تقوم على معرفته المباشرة بالمنطقة التي يتحدّث عنها. ومنها أيضاً أن مؤرِّخنا، عند حديثه في الفقرة رقم 199 من نفس الكتاب الرابع من تاريخه، عن الزراعة في إقليم قوريني؛ قد شدَّد على مدىٰ التفاوت القائم بين ثلاثة مواسم متتابعة لجنْي المحاصيل الزراعية، تبعاً لمستويات ارتفاع سطح المنطقة المزروعة الثلاثة؛ وهي: المستوى الساحلي المنبسط عند ساحل البحر؛ ومستوى التلال، المتوسط الارتفاع؛ والمستوى الجبلي الشاهق. ومثل هذه الملاحظة، هي من نوع الملاحظات الدقيقة التي لا تتأتّى سوى عن مشاهدة عيْنيّة، لأن

منطقة قوريني تختلف بالفعل من الوجهة الجغرافية التضاريسيّة، عن بقية بقاع ليبيا. ولقد أبدىٰ «هيرودوتس» هذه الملاحظة على نحو عفوي يوحي بأنها ملاحظة شخصية صرفة.

وأخيراً فإنه لا بدّ لنا من التنبيه على كثرة الإشارات إلى «القورينيين» لديه، من حيث أنّهم هم مصدر معلوماته. فهو مدين لهؤلاء بالرواية «القورينية» لإنشاء المدينة. والحقيقة أنّه لم يكن في مستطاع «هيرودوتس» أن يستقي تفاصيل تلك النبوءة التي أوردها في الفقرة 163 من الكتاب الرابع إلّا من أفواه هؤلاء القورينيين. وهي بالطبع نبوءة مزيّفة نسجها الخيال فيما بعد، لأنها تومىء إلى أن العرش الباطي سينهار وشيكاً. كما يذكر «هيرودوتس» أنّه التقىٰ ببعض «القورينيين» العائدين من واحة سيوة، حيث كانوا في رحلة حجٍّ إلى معبد «آمون». ولقد حدَّثه هؤلاء طويلاً عن رحلة استكشافية قام بها بعض الشُّبَّان الليبيّين المغامرين لاكتشاف منابع نهر النيل. وحيث أن مؤرِّخنا ذكر لنا أولئك الذين أمدُّوه بهذه المعلومات، على هذا النحو الصريح؛ فإنه لا يحق لنا طرح شهادته. وفي اعتقادنا أنه التقى بالحُجّاج القورينيين في مدينة قوريني نفسها[1].

وأنا أقرُّ بأنّه إذا ما أُخذت هذه القرائن، كلٌّ على حدة، فإنها لا تكفي في التدليل على أن «هيرودوتس» قد زار قوريني فعلاً. ومع ذلك، فإننا إذا ما غربلناها من مجموع نصوصه على هذا النحو الذي فعلْتُه هنا؛ فإنها ستدعم بعضها البعض، وستكتسب بالتالي صبغة الدليل على قيام هذا المؤرِّخ بزيارة المدينة. كما أنّه يتوجّب علينا ـ زيادة على ذلك ـ انْتخال جملة من الملاحظات المتفرّقة والعابرة التي تنمُّ عن أن «هيرودوتس» كانت لديه معرفة مباشرة ببعض

(1) أنصح القارىء عند قراءته لهذا الفصْل من ترجمتنا لكتاب «شامو» أن يرجع إلى نصوص «هيرودوتس» نفسها أو إلى أيّة ترجمة عربية أمينة للكتاب الرابع من تاريخه، حتى يتسنّى له أكثر فهم القرائن التي يوردها «شامو» هنا للتدليل على اعتقاده بأن «هيرودوتس» قد زار قوريني فعلاً.

مظاهر الحياة في ليبيا، بحيث لا يمكن أن تكون ملاحظاته تلك مجردّ معارف استقاها من الكتب وحدها. مثال ذلك: تلك المقارنة التي عقدها بين شجرة السَّنْـطْ التي تنبت في مصر، وبين شجرة النبق التي تنبت في قوريني. وهنالك على الخصوص ذكره لـ «صيْحات النساء الليبيَّات»[1] التي وصفها بأنها شجية؛ إذْ لو لم يكن «هيرودوتس» قد سمع هذه الصيحات بنفسه في مدينة قوريني؛ لما كان قد أضفىٰ عليها هذا الوصف.

وهكذا، فإنه لا بدّ وأن يكون «هيرودوتس» قد زار ليبيا. إذْ أن قدوم رجل كثير الترحال، مثله، إلى هذا البلد، لا يمكن أن يكون قد جشّمه الكثير من عناء الأسفار. فالعلاقات التجارية التي كانت قائمة بين قورينائية وبين بلاد الإغريق، كانت وطيدة؛ والمراكب كانت تُقْلع باستمرار من كبريات الموانىء الإغريقيّة باتّجاه قوريني. ومن المحتمل أن يكون مؤرِّخنا قد قام برحلته تلك بعد اندلاع الثورة التي أطاحت بنظام الباطيين الملكي، أي بعد حوالي سنة 440 قبل الميلاد. غير أنّه يبدو أن إقامة «هيرودوتس» في ليبيا كانت من القِصر، بحيث أنها لم تمكّنه من التجوُّل كثيراً خارج مدينة قوريني، التي كانت هي الهدف الرئيسي لزيارته لهذا البلد. إذْ لو أنّه فعل وتجوَّل خارج هذه المدينة وتوغل في فيافي شرقيّ قورينائية؛ لما كان قد وصف لنا إقليم «أزيريس»، (= وادي التميمي)، بالخضرة وكثرة الغابات ووفرة جداول المياه؛ بينما الحقيقة هي أن هذا الإقليم معروف بأنه جدْب وقاحل. كذلك فإن مبالغته في التّنويه بما زعمه من خصوبة تربة مدينة «يوسبيريديس» (= بنغازي) وما يحيط بها؛ وقوله بأن إقليم هذه المدينة المحيط بها يعطي في المواسم الحسنة مردوداً من الغلال يوازي مائة ضعف ما يبذر في أرضه؛ إنّما هو أبلغ برهان على أنّه لم يشاهد بنفسه هذه المنطقة المقفرة. وإجمالاً فإنّه في وسْع المرء أن يخلُص إلى

(1) يذهب د. مصطفىٰ عبد العليم في كتابه «دراسات في تاريخ ليبيا القديم»، ص 72 إلى أن الصيحات المذكورة قد تكون زغاريداً. ولكن هذا في رأينا بعيد الاحتمال أنثروبولوجيًّا.

أن مؤرِّخنا قد أقام بعض الوقت في مدينة قوريني، وأنّه قد استقىٰ في هذه المدينة جُلَّ المعلومات التي أوْردها فيما أسماه بـ «الكتاب الليبي»[1]؛ وأن إقامته بهذه المدينة هي التي جعلت هذا الكتاب نابضاً بالحياة.

كذلك فإن المنهج الذي اتَّبعه «هيرودوتس» في صياغة فقرات «الكتاب الليبي» جدير بأن نعيره هنا شيئاً من اهتمامنا. ولقد سبق لعدد من الدارسين قبلنا وأن لاحظوا شدَّة تعقيد هذه الفقرات وعدم تجانسها؛ فهي تجْنح أحياناً إلى ضربٍ من الاستطرادات التي تجعلها مطوَّلة أكثر مما يجب، وفي أحيان أخرى نُفاجأ بتغيّر موضوعها بغتة وانتقالها بنا من سياقٍ إلى آخر. وهكذا. وهذه هي في الحقيقة بعض معضلات التَّناول السَّرْدي التي عوَّدنا عليها «هيرودوتس». لكنَّ الذي لا مِراء فيه هو أن فقرات «الكتاب الليبي»، بالذات، تفتقر فعلاً إلى طراز ذلك الجهد الذي بذله مؤرِّخنا، بشكل جليّ، عبر بقية فصول وفقرات تاريخه الكبير، حيث لمسنا منه هناك حرصه الشديد على إضفاء نوعٍ من الوحدة والاتّساق على الموضوعات التي عالجها. ولعل السبب في هذا التباين هو أن «هيرودوتس» لم يقمْ بتدوين فقرات «الكتاب الليبي» إلاّ في زمنٍ لاحق؛ فلم يتوفَّر لديه الوقت الكافي لتنقيحه وتشذيبه وتحسين نصّه؛ فجاء ـ على ما نرىٰ ـ فجَّ الأسلوب والصياغة ويفتقر إلى الحبْكة وإحكام العبارات. وعلى أيّة حال، فإنه قد يترتب على تفكّك أسلوب فقرات «الكتاب الليبي»، على هذه الشاكلة، نشوء صعوبات جمَّة يصطدم بها مُطالعُهُ عند محاولته فهم واستيعاب فكرته الرئيسيّة؛ على افتراض أنّه ينطوي بالفعل على فكرة رئيسيّة تربط بين عناصره. ومع ذلك، فإنه يبدو لي أنّنا لو قمنا بتجزئة فقراته تجزئةً مُحكمة ـ ونحن نقرؤه ـ فإنه سيصبح بإمكاننا اكتشاف السبب

(1) الحقيقة أنّنا إذا ما ترجمنا هذه التسمية عن الإغريقيّة القديمة حرفياً؛ فإنها تكون: «الأحاديث الليبية»، لكنني فضّلت تسمية «الكتاب الليبي».

الحقيقي وراء إقدام «هيرودوتس» على صياغة «الكتاب الليبي» بهذه الكيفيّة الصعبة.

ولقد اتّفق المتخصّصون على تجزئة هذا الشتات المعقّد من المعلومات التاريخية التي تضمّنتها فقرات هذا الكتاب الليبي، إلى خمسة أو ستّة أقسام رئيسيّة. أمّا فيما يتعلّق بي، فإنني اقترح تجزئته إلى العناصر التالية:

1 ـ تاريخ تأسيس مدينة قوريني، والإرهاصات التي سبقته: (من الفقرة 145 وحتى الفقرة 158).

2 ـ تاريخ ملوك قوريني الأربعة الأُوَلْ: (من الفقرة 159 وحتى الفقرة 161).

3 ـ أركسيلاوس الثالث: حياته ومماته: (من الفقرة 162 وحتى الفقرة 164).

4 ـ الملكة الأم «فريتيمي» ومرْزبان مصر الفارسي «أرياندس»: (من الفقرة 165 وحتى الفقرة 167).

5 ـ وصف ليبيا: (من الفقرة 168 وحتى الفقرة 199).

6 ـ الحملة الفارسية ضد مدينة برقة، ونهاية الملكة «فريتيمي»: (من الفقرة 200 وحتى الفقرة 205).

وبتفحُّصنا للمادة التاريخية المندرجة تحت كل بندٍ من بنود هذه التجزئة التي نقترحها هنا لفقرات «الكتاب الليبي»، نلاحظ على الفور أنّ الفقرات المتضمّنة في البندين الأول والخامس تمثّل استطرادين طويلين يجرّاننا، أحياناً، إلى وقائع وتفاصيل بعيدة عن مدينة قوريني، بل وبعيدة حتى عن الموضوع المطروق صراحة، وهو موضوع الحملة الفارسية على قورينائية. أمّا البند الثاني من تجزئتنا المقترحة لفقرات الكتاب ـ وهو الذي جعلنا عنوانه: تاريخ ملوك قوريني الأربعة الأُوَلْ ـ فإنه يصلح لأن يكون مقدمة تاريخية عامة لذلك الكتاب برمّته. وهو على أيّة حال قسم مقتضب يكتفي بذكر ما هو

جوهري. أما البند الثالث من تقسيمنا ـ والذي جعلنا عنوانه: أركسيلاوس الثالث: حياته ومماته ـ فإنه يفي بموضوعه ويغطيه، ويصلح لأن يكون استهلالاً مباشراً للتأريخ لحملة المرْزبان الفارسي «أرياندس» ضد مدينة برقة؛ وهي الحملة التي خصّصنا لها في تقسيمنا هذا البنْدين الرابع والسادس. وهكذا، فإن الفقرتين الطويلتين اللتين تتناولان ـ على التوالي ـ الأساطير المتعلّقة بظروف تأسيس مدينة قوريني، وجغرافية ليبيا، تبدوان وكأن «هيرودوتس» قد أقحمهما، كعادته، قحاماً، وعلى نحوٍ تعسُّفي في سياق تاريخي تقرَّر موضوعه سلفاً.

ونحن إذا ما صرفنا النظر عن هذين الاستطرادين الحشويّيْن وتركناهما جانباً؛ فإننا نجد عندئذٍ أن السياق العام لروايته قد أصبح أكثر يسراً وأسهل على الفهم. فبعدما يعرض «هيرودوتس»، بإيجاز، للأحداث السابقة بقصد إعطاء فكرة عن الوضع الذي كان سائداً في مدينة قوريني قبل اعتلاء «أركسيلاوس الثالث» لعرشها؛ نراه يصبّ اهتمامه أساساً على الموقف الشائك الذي تعرَّض له هذا الملك، وعلى الكيفيّة التي استرجع بها سلطته المسلوبة؛ ثم يتناول الوقائع المأساوية التي أفضت إلى موته، وأخيراً نراه يحدّثنا عن انتقام أمّه «فريتيمي» من أعدائه البرقيين. ومن هذا المدخل يلج بنا «هيرودوتس» إلى موضوع احتلال الفرس لقورينائية. بيْد أنّه كان بإمكان مؤرِّخنا أن يقصَّ علينا، ببساطة، أحداث هذه الحملة الفارسيّة، دون حاجة منْه إلى التوطئة لها بكل هذه المقدّمات المسْهبة. والحقيقة أن اهتمام مؤرِّخنا هنا ينصبُّ كلّه على شخص «أركسيلاوس الثالث» نفسه؛ كما ينصبّ، بشكل عرضي، على شخصية أمّه «فريتيمي». فروايته تدور أساساً حول هاتين الشخصيتين؛ حيث أنّهما يحتلّان ـ تناوباً ـ المرتبة الأولىٰ في السرد، واهتمامه بالشخصيتين المذكورتين واضح لا لبْس فيه. ومن المؤكّد أن «هيرودوتس» قد رصد لهما، عمداً، هذه القصة المشوِّقة، التي لو قمنا بغرْبلتها من بعض التفاصيل الدخيلة

على موضوعها؛ لصارت بالتالي من أكثر الأقاصيص التي رواها لنا مأساويةً ونبوضاً بالحياة.

فما هو السبب في كل هذا الاهتمام الذي أوْلاه مؤرّخنا بهاتين الشخصيتين يا ترى؟.. هنا تبرز، مرة أخرى، أهمية التفسير التاريخي الذي خلُصنا إليه أعلاه. ومثلما رأينا، فإن «أركسيلاوس الثالث» كان، في واقع الأمر، طاغية متجبِّراً. والحقيقة أن «هيرودوتس» كان يبغض الحكّام الطغاة؛ إمّا نتيجة لتربيته وتقاليد أسرته، وإما نتيجة لتجربته الشخصية، أو بسببٍ من قناعاته الأخلاقيّة. وزيادة على ذلك، فإننا نراه يُوْلي اهتماماً خاصاً لأمثال هؤلاء الحكّام، ربما لبواعث نفسية كامنة لديه. وهو في كتابه ينتهز كل فرصة تتاح له لرسم صورة واضحة المعالِم لأحد هؤلاء الرِّجال المشئـومين الأفذاذ، كي يبرهن لنا على أن أساليبهم وسياساتهم الاستبدادية تقود دائماً إلى كوارث. ويمكن القول بأن ما رواه مؤرّخنا عن هؤلاء الحكّام يعتبر من أروع ما حفظه لنا الدهر من نصوص قديمة عن طغاة الإغريق. وإذا كان هنالك من مغزى أخلاقي تأديبي يمكن أن يكون قد حرَّك تفكير مؤرّخنا عند تأليفه لـ «الكتاب الليبي» ـ إضافةً إلى شغفه باسْتكناه خفايا التاريخ الغابر ـ فلا شكّ في أن ذلك يكمن في اعتقاده بأنّه لا بدّ للآلهة من أن تقتصّ، في يومٍ من الأيّام، من أُولئك الذين يتجاوزون الحدود المعقولة في ممارسة السلطة. والواقع أن الطاغية «أركسيلاوس الثالث» قد تجسَّدت فيه هذه العبْرة أروع تجسيد؛ لأنه عندما عاد إلى قوريني منتصراً ـ بفضل ما لجأ إليه من أساليب غوغائية ـ فإنّه لم يعرف كيف يتصرّف بحكمة وحلم واعتدال. ولذا فقد كُتِب عليه سلفاً ـ بمشيئة إله الحكمة والعدل، «أبوللو» ـ أن يُجازىٰ لقاء أفعاله الشرِّيرة بموت مُفْجع؛ من حيث أنّه انتهك الوصايا والتعاليم «الـدِّلْفيَّة» القـائلة: «.. ويلٌ للسَّـادرين في ضلالتهم». وهكذا، فإن «أركسيلاوس الثالث» لقي نفس مصير صديقه «بوليقراطيس»، طاغية جزيرة «ساموس»، الذي هلك مصلوباً، بالرغم من كل ما فعله للإفلات

من القصاص الإلٰهي، «حيث توجّب عليه أن يلاقي قـدره المحتوم حتى النهاية»، بحسب عبارة «هيرودوتس» في الفقرة 164 من الكتاب الـرابع. وبالمثْل، فإن الملكة العجوز «فريتيمي» ـ التي تتوَّقت لإشفاء غليلها من دماء رعاياها المتمرّدين، وأذاقتهم صنوفاً من مُرِّ العذاب الذي تقزّزت له نفوس الإغريق وصرخت له ضمائرهم ـ قد جلبت على نفسها، هي الأخرى، نوازل القصاص الرّبّاني، الذي لحقها في صورة داءٍ غريب أوْدى بحياتها. ويعزوْ «هيرودوتس» الموت الشنيع الذي لاقته هذه الملكة ـ صراحة ـ إلى غضب الآلهة عليها. ومثلما نرىٰ، فإن مؤرّخنا لم يهتم بـ «أركسيلاوس الثالث» وبأمّه «فريتيمي» كل هذا الاهتمام، ولم يُسْهب في سرْد قصتيْهما؛ إلّا لأنه أراد أن يجعل منهما أنموذجين يجسِّد بهما فكرته في حتمية نزول القصاص الإلٰهي بمستحقّيه.

وهكذا، فإننا نرىٰ أن «الكتاب الليبي» ـ الذي يشكّل تاريخُ «أركسيلاوس الثالث» عنصرَه الأساسي ـ لا يعتبر في الحقيقة مجرّد استطراد حَشْوي أقحمه «هيرودوتس» ضمْن تاريخه لمجرّد تطريز مؤلَّفه هذا بحكايات مسلّيّة، أو بهدف إيجاد مبرِّرٍ لإقحام وصف جغرافيٍّ لليبيا؛ وإنّما هو قسْم هام تربطه صلة وطيدة بأحد المباحث الرئيسيّة التي تنبع منها الوحدة الحقيقيّة القائمة بين الكتب التسعة التي يتألّف منها كتابه: «التواريخ». فـ «هيرودوتس» قد توخّىٰ سلفاً أن يحتلّ ملكُ قوريني الباطي «أركسيلاوس الثالث»، مكانتَه البارزة؛ جنباً إلى جنب، مع بقية طغاة الإغريق. وهذا هو ما يفسِّر لنا تلك الأهمية التي أسْبغها مؤرّخنا على مغامرة هذا الملك المأساوية. وتحقيقاً لهذا الهدف، اضطرّ «هيرودوتس» إلى التطرُّق في كتابه إلى تلك المعلومات القيِّمة والمقتضبة ـ التي لا نكاد نملك سواها ـ عن تاريخ أوائل ملوك قوريني. وبالتأكيد، فإن مؤرخنا لم يكن يجهل ما تلا ذلك من فصول هذا التاريخ الباطي حتى سقوط الملكية. غير أن الهدف الذي كان يرمي إليه لم يكن البتّة هو سرْد تاريخ هذه

الأسرة المالِكة حتى منتهاه. وما علينا الآن، إذن، إلَّا توطيد النفس على فُراق هذا الأنيس الأثير، الذي لا تُقدَّر معلوماته التي أمدَّنا بها بثمن. وسوف لن نعثر من الآن فصاعداً، على أيّة رواية متّصلة، تُشْفي غليلنا، وتسدِّد خطانا نحو اسْتِكْناه خفايا اللاحق من أحداث تاريخ قوريني الباطي؛ وإنّما هي شذرات وأشْتات متفرّقة نلمْلمها من هنا أو من هناك: ذلك أنّه لم يكد يمرّ من تاريخ هذه المدينة سوىٰ قرن واحد، فحسب، حتى توارت بقية عقابيله في ليل النسيان الطويل، فصمت عنه المؤرِّخون إلَّا لماماً.

الفصلُ السّابع

باطوس الرابع وتبعيّة قوريني لمرزبان مصر الفارسي

بوفاة الملكة الأُمّ «فريتيمي»، انتقلت السلطة في قوريني إلى حفيدها «باطوس الرابع»، الملقَّب بـ «الوسيم»، والذي لا نعرف عنه شيئاً سوى لقبه هذا. كما أنّنا نجهل على وجه الدقّة تاريخ بداية حكمه وتاريخ نهايته؛ ولكن في وسْعنا التكهُّن بأنّه حكم فترة طويلة. فالحقيقة أن «هيرودوتس» قد اعتبر حملة الفرس ضد مدينة برقة ـ وهي الحملة التي اعتلىٰ على إثرها «باطوس الوسيم» عرش قوريني ـ معاصرة لحملة «دارا الأوّل» الفارسية ضد بلاد «سكيثيا»[1]. وإذا كان لنا أن نصدِّق صحة هذا التّزامُن بين وقوع الحملتين؛ فإننا نستنتج من ذلك أن فترة حكم «باطوس الرابع» قد بدأت ما بين حوالي سنة 515 قبل الميلاد، وحوالي سنة 510 قبل الميلاد. والحقيقة أنّنا سنلاحظ، في صفحات تالية، أن خليفة «باطوس الوسيم» ـ وهو «أركسيلاوس الرابع» ـ كان ما يزال في سنة 462 قبل الميلاد صبيًّا غرًّا.

وإذا كانت المصادر القديمة لم تُسْعِفْنا بشيءٍ حول فترة حكم «باطوس الرابع»؛ فإن هذا لا يعني أنها كانت فترة عديمة الأهمية في تاريخ قوريني. إذْ

(1) «سكيثيا» هي بلاد كانت في قديم الزمن خاضعة للإغـريق، وكانت تقـع في شمال شـرقي أوربـا، إلى الشمال من البحر الأسود. ويرى «بوسولت ـ Busolt» أن حملة الفُرس ضدها قد وقعت حوالي سنة 514 قبل الميلاد.

من المؤكّد أن مطلع القرن الخامس قبل الميلاد كان بالنسبة لهذه المدينة عصر رخاء وازدهار، وهذا ما يشهد به ما تمّ الكشف عـنه من آثارها. فمعابد قوريني غنية بتماثيل رائعة، لا تقلّ من حيث قيمتها الفنيّة عن تلك التماثيل التي تعجّ بها معابد بلاد الإغريق نفسها، مثال ذلك: تماثيل معبد «أبوللو» التي تضاهي في جمالها تماثيل «أكروبول» أثينا؛ وكذلك الأمر بالنسبة للأعمال النحتيّة، ذات الأسلوب المبسّط الخالي من الزخْرفة، التي عُثر عليها في قوريني، والتي تُعدُّ من بين أروع ما ابتدعه النحت الإغريقي في تلك الحقبة. كما تتّسم النقود والعملات التي سُكّت في المدينة بأهميّة ونفاسة وتنوُّع، لم يعرفها الإغريق من قبل. وأخيراً ـ وبوجهٍ خاص ـ لا بدّ وأن يُنْسب، بالتأكيد، إلى فترة حكم «باطوس الرابع» فضل تشييد أعظم المعابد الإغريقيّة في أفريقيا؛ وهو معبد الإله «زيوس»، الواقع على التّلّ الشرقي المُحْدق بالمدينة. إذْ لكي يكون بالمستطاع إنجاز إقامة هذا الصرح الأثري الهائل ـ الذي يماثل في حجمه معبديْ «البارثينون» و«الأوليمبي» الأثينييْن المشهورين ـ فإنّه لا بدّ وأنّ موارد خزينة دولة قوريني كانت آنئذٍ وفيرة؛ ذلك أن تشييد معبد «زيوس» هذا، خلال فترةٍ تزامنت مع فترة الحروب الميديّة الطويلة، التي نشبت بين الإغريق والفرس في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد؛ يدلُّ على أن تلك الحروب المدمِّرة لم تُلْحق بمدينة قوريني أيَّ أذىً.

ويبدو أن «باطوس الرابع» قد انتهج، في الحقيقة، نفس النّهْج الذي سار عليه والده، وأنّه اتّبع تجاه جارتيْه القويتين ـ قرطاجة والأمبراطورية الفارسية ـ سياسة وفاق كامل؛ إنْ لم تكن سياسة تبعيّة. ولقد كانت قوريني، بالفعل، في وضع مكّنها من التزام جانب هذا التّحفُّظ المُجْزي؛ خصوصاً وأن موقعها الجغرافي قد ساعدها على ذلك. فعُزْلتها الجغرافية التي كفلتها لها الصحراء الليبيّة من ناحية الشرق، وقفار ومفازات «سرْت» الموحشة، من ناحية الغرب، قد جعلتها في منأى عن أيّ اعتداءٍ خارجي محتمل. ولذا، فإنّه لم يكن هنالك

ما يجبرها على الدخول في مغامرة عسكرية ضد أحد؛ اللهمّ إلاّ إذا ما هاجمتها قوة خارجية بناءً على مسعى مُلحّ صادرٍ عن جهة متواطئة من داخل البلاد نفسها، مثلما فعلت الملكة «فريتيمي»، عندما استنجدت بجيوش الفرس الرابضة في مصر وأغْرتها باحتلال مدينة برقة؛ أو إرغمهـا على خوض الحرب أيُّ تحدي عسكري خارجي سافر، لا يمكن السكوت عليه. وهكذا فقد عرفت قوريني كيف تتجنّب الدخول في أيّة مغامرة غير محمودة العواقب ضد إحدى الدُّول المجاورة؛ الأمر الذي هيّأ لها العيش في ظلّ سلام وطيد.

ولا نملك حتى الآن أيّة دلائل على أن احتكاكاً عسكريًّا مباشراً قد نشب بين دولة قوريني وبين قرطاجة. غير أن ذلك المشروع الذي فكّر فيه «قمبيز» الفارسي، مبدئياً، بُعيْد احتلال قواته لمصر، ثم صرْف النظر عنـه ـ وهو المشروع الذي كان يقضي بالقيام بمغامرة عسكرية ضد قرطاجة ـ لا بدّ وأنّه جعل البونيقيين يحْذرون إمكانية أن تغزوهم الجيوش الفارسية من مصر، عبر أراضي قورينائية. ولقد كشفت حقيقة تأسيس مدينة «يوسبيريدس» (بنغازي) قبيْل وقوع الحملة الفارسية ضد مدينة برقة، عمّا عزم عليه إغريق قوريني من التّحكُّم في منْفذ هضبة برقة الخصيبة من ناحية الغرب. لكنه يبدو أن هؤلاء لم يفكّروا في مدّ نفوذهم غرباً إلى أبعد من ذلك، سوىٰ بعد انقضاء زمنٍ طويل. وهذا يظهر لنا جيداً من خلال موقفهم السلبي تجاه المحاولة التي قام بها مهاجرون إغـريق قدمـوا إلى ليبيا من إسبـرطة، تحت زعـامة «دوريـوس الاسبرطي»، لإنشاء مستوطنة لهم عند مصب نهر «كنييبس» (= وادي كعام).

فلقد راجت في أواسط إغريق قوريني معلومات خيالية حول منطقـة «كنييبس» هذه، وما تتمتّع به من خصوبة مزعومة؛ وهي معلومات وجدنا لها أصداءً ـ بعد انقضاء حوالي ستين سنة على ذيوعها ـ في الكتاب الرابع من «تواريخ هيرودوس». وهذا يبرهن، في حدّ ذاته، على مدىٰ جهل الناس في قوريني بهذه المنطقة التي حيكت حول خصوبتها المزعومة الأساطير، والتي لا نشكّ

في أنّ أيًّا من إغريق المدينة قد سمع بها إلاّ من خلال تلك الحكايات التي قصَّها عليهم أفراد قبيلة «الناسامونيين» الليبيّة، التي كانت تعيش على رقعة الساحل الواقعة ما بين «يوسبيريدس» (= بنغازي)، وبين خليج سرت، وتمتد منطقة سكناها في الدواخل حتى واحة «أوجلة». ولقد ذاع الزّعْم القائل بخصوبة «كينيبس» حتى وصلت أصداؤه إلى بلاد الإغريق نفسها؛ حيث إشرأبّت نحوها أعناق جوّابي الآفاق والمغامرين. وعندئذٍ قرّر أحد هؤلاء ـ وهو «دوريوس»، ابن «أناكساندريداس» ملك إسبرطة؛ والذي كان قد ملَّ العيش خاملاً في كنف شقيقه الأكبر «كليومينيس» وريث العرش ـ أن يتوجَّه إلى «كينيبس» هذه، على رأس جماعة من المغامرين الإسبرطيين، قصْدَ إنشاء مستوطنة فيها. فركب «دوريوس» الإسبرطي البحر صحبة جماعته متوجهاً إلى ليبيا، يعاونهم في ذلك بعض الأدلاّء من البحّارة الثيرانيين، حيث توقّف، أوّل ما توقّف، بالطبع، في «ميناء قوريني»[1]. وفي هذه المدينة تعرَّف «دوريوس» على شخص ثري يُدْعى «فيليبوس بن بوتاكيدس»، وهو مواطن كروتوني كان منفيًّا في قوريني، حيث قبِل هذا الثريّ أن يساعده على تحقيق المشروع الذي أقدم عليه، وقام بإعداد مركب مزوّدة بثلاثة مجاذيف، على نفقته الخاصة، للإبحار به نحو «كينيبس» هو و«دوريوس» وجماعته. وبعد وصول هؤلاء المعمِّرين الجُدد إلى المنطقة التي يصب فيها نهر «كنيبيس»، استقرُّوا فيها؛ إلاّ أن المقام لم يطبْ لهم هناك لأكثر من عامين، حيث أن قبيلة «الماكايْ»

(1) كلّنا يعرف أن قوريني (شحّات الحالية) لا تقع على البحر؛ ولذا فإن المقصود بـ «ميناء قوريني» هنا هو بالطبع ميناء «أبولونيا» (سوسة الحالية). ولقد ظل مرسى «سوسة» الحالي يحمل تسمية «ميناء قوريني» حتى العصْر الهلينستي. ويرجِّح البعض أن «بطلميوس الأوّل» هو الذي فصل هذا الميناء عن مدينة قوريني، فيما بعد، حيث ازدادت أهميته في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد، وصار مدينة بحرية قائمة بذاتها، ولا تتبع قوريني. وصار يحمل اسم «أبولونيا» تبرُّكاً بالإله «أبوللو»، الذي أوصىْ وحْيُه في دلْفي أساساً بإنشاء مستوطنة إغريقيّة في ليبيا، بحسب زعْم الأسطورة.

الليبيّة، التي كانت تقطن المنطقة سرعان ما ضاقت ذُرْعاً بوجودهم، وشنّت ضدهم هجوماً ـ متحالفة في ذلك مع القرطاجيين ـ وأجبرتهم على الهروع إلى مركبهم وترْك المنطقة لأهلها.

ويرىٰ بعض المؤرّخين المحدثين أن هذه المغامرة ـ التي لا بدّ وأن تكون قد وقعت ما بين سنة 514 قبل الميلاد وبين سنة 512 قبل الميلاد ـ ربما تكون قد تمّت بإيعاز من قوريني. غير أنّه يبدو لي، على العكس، أنّه إذا ما قُرِيء نصّ «هيرودوتس» ـ الذي ألمع إلى هذه المغامرة على نحوٍ مقتضب ـ بتجرُّد وموضوعية وبدون التأثُّر برأي سبْقي، فإنه لا يوحي إطلاقاً بمثل هذا التفسير. فتعريج المغامرين الإسبرطيين على «ميناء قوريني» (= أبولونيا)، لا يُثبت لنا شيئاً من هذا؛ لأن ارتياد إغريقيين مثل هؤلاء لميناء إغريقي كهذا الميناء، وهم في طريقهم إلى «كينيبس»، إنما هو أمر طبيعي. وعلى النقيض من ذلك، فإن ما ينطوي على دلالة كبرى، في رأينا، هو حقيقة أن «دوريوس الإسبرطي» قد سعى ـ خلال بحثه عمّن يرتاد به سواحل خليج سرْت ويوصله إلى مصب نهر «كنيبيس» ـ في ذلك لدى أهل جزيرة «ثيرا»، وليس لدى إغريق قوريني. مع أن القورينيين كانوا دائماً على علاقة وطيدة مع الإسبرطيين، وكانوا يعتبرون إسبرطة عاصمتهم الكبرى؛ ولذا فإنه كان من الأجدر بالإسبرطي «دوريوس» أن يتوجّه إليهم هم لطلب العون في هذا الشأن، لأنه كان لديهم بالتأكيد أدلاَّء بحريُّون أوسع خبرة بسواحل ليبيا من ملاَّحي «ثيرا». ولا شكّ في أن «دوريوس» ما اضطر إلى الاستعانة بالثيرانيين، إلاّ لأن القورينيين أنفسهم هم الذين رفضوا مدَّ يد المساعدة له. وترتدي هذه الفرضيّة ثوب اليقْين القاطع عندما نكتشف أن «دوريوس» لم يجدْ في قوريني، عند توقُّفه بها، من ينضمُّ إليه في مغامرته سوىٰ شخص غريب عن المدينة، هو المُبْعد الكروتوني الثري «فيليبوس بوتاكيدس»، الذي ـ لكي يرحل باتجاه «كينيبيس» (= وادي كعام) ـ اضطر إلى استئجار مركب على حسابه الخاص، وإلى توفير بحارة له مقابل

ثمن باهظ. وخلاصة القول، أن إغريق قوريني لم يشجعوا مشروع الاستيطان الإسبرطي في «كينيبس»؛ فلقد كانت حكومة «باطوس الرابع» تقف ضد القيام بمثل هذه المغامرة[1].

ويلاحظ أن قوريني كانت تنتهج نفس هذه السياسة الحذرة في علاقاتها مع الإمبراطورية الفارسية التي كانت آنئذٍ تحتل مصر. ذلك أن ملك قوريني الباطي لم يكن ـ بطبيعة الحال ـ ليجني أيّة ثمرة من وراء التّحرُّش بهذه الامبراطورية القوية، التي بوقوفها إلى جانب أسرته في مدينة برقة، قد بعثت الحياة مُجدَّداً في أوصال السُّدَّة الباطيّة التي آل أمرها إليه. ولذا فإنه قبِل بدفع جزية إلى ملك الفرس، «دارا الأوّل»، مثلما فعل من قبله والده «أركسيلاوس الثالث» تجاه «قمبيز». فإمبراطورية الفرس الأخمينية كانت تعتبر إقليم قوريناثية جزءاً من المرْزبة[2] الفارسية السادسة، التي كانت تشمل ـ بحسب «هيرودوتس» ـ البلاد التي تعيش فيها القبائل الليبيّة المجاورة لمصر؛ كما كانت تشمل مدينتيْ قوريني وبرقة الإغريقيتين. ويبدو أن اعتبار الفرس لإقليم قوريناثية إقليماً مُلْحقاً بمستعمرتهم مصر لم يكن يعني أن هؤلاء كانوا يفرضون على هذا الإقليم رقابة صارمة، نظراً لبُعْد الشُّقَّة بينهم وبينه. ونحن نعتقد أن تلك الجزية التي كانت إغريق قوريني يسدِّدونها للخزينة الفارسية في مصر، لم تكن تشكّل سوى جزء بسيط من السبعمائة وزْنة فضيَّة بابلية، التي هي إجمالي الجزية التي كانت تدفعها مصر لمحتلّيها الفرس سنوياً. ويبدو أنّه

---

(1) وذلك خشية أن يترتب على ذلك حدوث احتكاك مع القرطاجيين الذين لن يقبلوا بالتأكيد امتداد رقعة التواجد الإغريقي غرباً حتى يجاور مناطق نفوذهم .

(2) «المرزبة» هي لفظة فارسية الأصل تعني «ولاية». و «المرْزبان» ـ وجمعها مرازب ومرازبة ـ هو الحاكم الإقليمي أو الوالي بالفارسية. ويعرِّف الخوارزمي، في كتابه «مفاتيح العلوم» لفظة (المرازبة) قائلاً: «المرازبة، هم جمْع المرْزبان؛ وهم ما وراء الملوك، وهم ملوك الأطراف، و «مرْز» هو الحدُّ بالفارسية، ومرْزبان هو صاحب الحدّ».

لم يكن يقيم في قورينائية أي ممثّل مباشر لإمبراطور الفرس؛ وإنّما كان يشرف عليها ـ عن بُعْد ـ من مقرِّه في مدينة ممفيس (= منف) المرْزبان «أخايمينس» ـ خليفة المرْزبان السابق «أرياندس»، الذي كان الامبراطور «دارا الأوّل» قد أقاله من مرْزبة مصر ثم أعدمه ـ ولم يكن مرْزبان مصر هذا سوىٰ السيِّد الإسمي لـ «باطوس الرابع»، يشرف عليه من مصر البعيدة، على نحو صوري لم يكن ليضايقه كثيراً؛ فملك قوريني الباطي كان يتمتع بالتأكيد، آنئذٍ، باستقلالٍ فعلي واسع يفوق استقلال أيّ طاغية من طغاة المدن الإغريقيّة التي كانت خاضعة هي الأخرىٰ للسيطرة الفارسيّة.

ومما هو جدير بالذكر هو أن «هيرودوتس» قد ذكر مدينة برقة صراحة إلى جانب ما ذكره عن قوريني. وإذن، فإن برقة، التي ناصبت مقرَّ السُّدَّة الباطية ـ قوريني ـ العداء، قد ظلّت، بالرغم من تلك الأهوال التي لاقتها على يد الجيوش الفارسية، محتفظة بمكانتها وبشيء من استقلاليتها[1]. ولقد شرعت مدينة برقة في سكِّ نقودها الخاصة بها إبَّان هذه الفترة بالذات؛ حيث اقتبست عن عملة قوريني شعارها المتمثِّل في نبات السلفيوم، هذا، وإن كانت قد أضافت إليه ـ على الوجه الآخر لِقِطع نقْدها ـ شعارات أخرىٰ خاصة بها، وهي: النخلة، والعجْل، ورأس الكبش. ولقد ظلّت تقاليد النزوع إلى الانعتاق والاستقلالية حيَّةً في هذه المدينة؛ ذلك أنّها كانت هي وحدها ـ من بين جميع مدن قورينائية الإغريقيّة ـ التي صدر عنها ردّ فعل عنيف ضد

---

(1) يصعب التكهُّن بنوع العلاقات التي كانت قائمة آنئذٍ بين «باطوس الرابع» وبين مدن قورينائية الإغريقيّة الأخرى. ونجد الشاعر «بنداروس» يطلق، في «بوثيَّته» الخامسة، على «أركسيلاوس الرابع» لقب: (ملك المدن القوية)؛ وهي تسمية نستنتج منها أن هذا الملك ربما كان يسيطر على قورينائية كلِّها. ولكن هل كان هذا الوضع قائماً قبل وقوع الحملة الفارسية الثانية ضد مدينة برقة؟ . . إن أحداً لا يستطيع أن يجزم بذلك. أمّا مدينة «تاوخيرا»، (هي العقورية الحالية وتوكرة سابقاً)، فقد تأسّست منذ نهاية القرن السادس قبل الميلاد.

الفرس، بمناسبة نشوب الحروب الميديَّة، التي تواصلت سنيناً طوالاً بين هؤلاء وبين أمّة الإغريق (500 ق م، 475 ق م).

ونحن لا نعرف شيئاً عن هذا الموقف الذي اتخذته برقة من الفرس، سوىٰ ما ذكرته إحدى فقرات كتاب «الحِيَلُ الحربية» لـ «بولين»؛ حيث وصف لنا هذا الخبير العسكري الروماني ـ الذي عاش في القرن الثاني للميلاد ـ تلك الخديعة التي لجأ إليها الفرس لاحتلال مدينة برقة، عندما شرع هؤلاء في محاصرتها ثانية قُبَيْل قيام إمبراطورهم «خشايارشا الأول» ـ، (= إكزركسيس)(1) بحملته الكبرىٰ ضد بلاد الإغريق. وبالنظر إلى أن «بولين» قد تطرّق كذلك، في صفحات تالية من كتابه المذكور، إلى تلك الحيلة التي سبق لمرْزبان مصر الفارسي «أرياندیس» وأن لجأ إليها لاحتلال نفس المدينة عندما حاصرتها جيوشه خلال الحملة الفارسيَّة الأولىٰ ضدّها؛ فقد اختلط الأمر على العديد من الباحثين المحدثين، وظنُّوا أن صاحب كتاب «الحِيَل الحربية» هذا، إنما كان يتحدث، في المرتين، عن نفس الحصار، وبالتالي فإنهم اعتقدوا أن الفرس لم يحاصروا مدينة برقة سوى مرة واحدة، أي على إثر اغتيال «أركسيلاوس الثالث». وفي رأيي أنّه وقع هنا الْتباس لدىٰ هؤلاء الباحثين في محاولتهم فهم مغزى كلا نصَّيْ «بولين». إذْ أنّه من الحُمْق حقًّا أن نتصوّر أن «بولين» يكرِّر الإشارة إلى نفس الواقعة مرتين على التوالي، دون أن ينتبه إلى ذلك. والحقيقة أن الحيلتيْن اللتين لجأ إليهما الفرس عند احتلالهم لمدينة برقة كانتا مختلفتين تمام الاختلاف، وهما يُعْزيان بشكل قاطع إلى قائدين مختلفين من قادة الفرس؛ أوّلهما هو: «أرياندس» ـ وهو مرْزبان مصر الذي هرع على رأس الحملة الفارسيَّة الأولىٰ بناء على دعوة الملكة «فريتيمي» ـ أما ثانيهما فهو قائد

(1) هو ابن «دارا الأوّل»، ووريثه على العرش الفارسي؛ وُلِد حوالي سنة 519 ق م، وتوفي سنة 465 ق م. وقام بقمع ثورة المصريْين ضد الاحتلال الفارسي. واصل الحرب ضد بلاد الإغريق وخرَّب مدينة أثينا، لكن جيوشه هُزمت في قبرص. توفي مُغتالاً.

عسكري يدعىٰ «أرساميس» (= أعْحمس). ولقد أشار «هيرودوتس»، من جانبه، إلى «أرساميس» هذا في الفقرة 69 من الكتاب السابع من «التواريخ»، قائلاً إنه أحد كبار ضبّاط جيش «خشايارشا» تم تكليفه بقيادة القوّات العربية والأفريقية في ذلك الجيش الفارسي. والواقع أن «بولين» قد أوْضح في كتابه المذكور بجلاء أن «أرساميس» قد اشترط على سكّان مدينة برقة ـ أثناء تفاوضه معهم حول شروط الصلح خلال محاصرته للمدينة ـ أن يزوِّدوه بوحدات من عرباتهم الحربية لتنضمَّ إلى الحملة الفارسية التي كان يجري إعدادها آنئذٍ، على قدم وساق، ضد بلاد الإغريق في إطار الحروب الميديَّة. وإذن، فإن كل ما ذكره «بولين» في «الحِيَلْ الحربية» يبدو منسجماً مع واقع الأحداث؛ وبالتالي فإنه ليس هنالك من سببٍ وجيه يحملنا على تجريد رواية هذا المؤرِّخ الروماني من قيمتها التاريخيّة.

ولذا فإنه يتوجَّب علينا الإقرار بأنّه قد اندلع في مدينة برقة تمرُّد ضدّ الفرس قبيل شروع هؤلاء في إعداد حملتهم الثانية الرامية إلى إخضاع بلاد الإغريق. ولقد صارت الفرصة مواتية للقيام بهذا التّمرُّد عندما انفجرت في مصر نفسها ثورة ضد الاحتلال الفارسي، وذلك في أعقاب هزيمة الجيوش الإغريقيّة للجيش الفارسي في معركة «ماراثون»[1]، خلال السنوات الأخيرة من حكم «دارا الأوّل» للإمبراطورية الفارسيّة. ونحن نعتقد أن حملة «أرساميس» ضد مدينة برقة قد وقعت حوالي سنة 483 قبل الميلاد؛ وذلك بعد نجاح الإمبراطور الفارسي «خشايارشا الأوّل» ـ خليفة الامبراطور «دارا الأوّل» ـ في إخماد الثورة في مصر. وعندئذٍ احتل الفرس مدينة برقة وقاموا بنهْبها. وبعد ذلك أصبحت هذه المدينة أكثر خضوعاً من السابق لسيادة قوريني، التي حرص ملكها

---

(1) هزم الإغريق القوّات الفارسية في هذه المعركة في سنة 490 ق م، في قرية «ماراثون» الواقعة على بُعد أربعين كيلومتر من مدينة أثينا.

«باطوس الرابع» على عدم شقّ عصا الطاعة على حُماته الفرس. والحقيقة أن دراسة النقود العائدة إلى تلك الحقبة تكشف عن أن العملة النّقْدية التي كانت مدينة برقة قد أصدرتها باسمها من قبل، قد اختفت في حوالي سنة 480 قبل الميلاد، ولم تعدْ تُتداول طيلة عشرين سنة؛ ثم عادت فظهرت من جديد، وإن كانت قد صارت تحمل في هذه المرة شعارات نقدية مطابقة تماماً لشعارات عملة قوريني.

وعند اندلاع الحرب الميديَّة الثانية بين الفرس والإغريق، كانت سيادة الأخمينيين الفرس على قورينائية قد صارت أمراً واقعاً لا جدال فيه. وحين انعقدت الجمعية الهلينية الموسَّعة في «كورنثـة» قبيل نهاية سنة 486 قبل الميلاد، بقصد الاتفاق على إيجاد الوسائل الكفيلة بالتصدِّي للخطر الفارسي الداهم الذي كان يتهدَّد بلاد الإغريق؛ نجد أن مدينة قوريني كانت ـ شأنها في ذلك شأن مدينة مرسيليا القاصية، والمدن الإغريقيّة الواقعة تحت نيْر الحكم الفارسي ـ من بين المدن التي لم تُستدع لحضور ذلك الاجتماع المصيري الهام الذي التأم لجمْع كلمة أمّة الإغريق من أجل الدفاع عن نفسها ضد أعدائها الفارس. فهل يعني هذا أن قوريني قد اشتركت في غزو بلاد الإغريق الأم إلى جانب الجيوش الفارسية؟.. الحقيقة أنّه لا وجود لأيّة وثيقة تؤيِّد ذلك. نعم! لقد تحدّث «هيرودوتس»، في الكتاب السابع من «تواريخه» عن وجود وحدات ليبيّة في الجيش الفارسي. ولكنه سبق لنا وأن نبّهْنا إلى أن الصِّفة «ليبيَّة» لا تعني في مصطلح هذا المؤرِّخ ـ بالضرورة ـ صفة «قورينية»[1]. ثم أن الأوصاف التي يوردها هذا المؤرِّخ حول كيفية تسليح أفراد

---

(1) يتُضح تمييز «هيرودوتس» بين ما هو «ليبي»، وبين ما هو «قوريني»، على الخصوص، في الفقرة 13 من الكتاب الثاني من تواريخه؛ حيث يحدُّثنا فيها عن موقف «الليبيين»، و«القورينيين»، من «قمبيز»، على إثر احتلاله لمصْر، فيقول «هيرودوتس» ما نصُّه: =

القوات الليبيّة، لا توحي بأنهم من القورينيين الإغريق؛ فهو يذكر أنّهم كانوا يرتدون جلود حيوانات ويتسلّحون برماح ذوات رؤوس صلبة. وبالرغم من استعمالهم للعربات الحربية ـ وهو تقليد محلي قديم لديهم، يعود إلى فترة قيام الدولة الحديثة في مصر (1580 قبل الميلاد ـ 1090 قبل الميلاد) ـ فإنهم بدون شك ليبيُّون من أهل البلاد الأصليين، وليسوا من إغريق قوريني. وإذن فإننا نرى أن القورينيين الإغريق لم ينحازوا إلى صف الفرس أثناء دخول هؤلاء في الحرب ضد بلاد الإغريق. وهكذا، فإن قوريني الإغريقيّة لم تقترف جريمة خيانة القضية الهلّينيّة، فلم تتواطأ مع الفرس ضد الوطن الأم، مثلما فعل إغريق آخرون، من أمثال الأيونيين، وإغريق الشمال، والتّساليين، والبيئوتيين.

وبالرغم من أن «باطوس الرابع» قد رضخ، حتى ذلك الوقت، للتّبعيّة الفارسية التي لم تكن، بدون شك، تُثْقل كاهله كثيراً؛ إلّا أن الهزائم التي مُنيَ بها إمبراطور الفرس «خشايارشا» على أيْدي القوات الإغريقية في جزيرة «سالامين» سنة 480 قبل الميلاد؛ وفي مدينة «بلاتيس» في سنة 479 قبل الميلاد؛ وما أعقب ذلك مباشرة من هجوم بحري شنّته عليه قوّات أثينا؛ قد وضعت حدًّا للسيطرة الفارسية على المدن الإغريقيّة في ليبيا. إذْ كيف لنا، في الحقيقة، افتراضُ أن قوريني الإغريقية ـ التي هيَّأت لها الصحاري المحيطة بها موقعاً آمناً ومنيعاً ـ وقد واصلت تسديد الجزْية للإمبراطورية الفارسية التي تبدَّدت هيْبتها على إثر تلك الهزائم التي حلَّت بها؛ في حين أننا نجد أنه حتى مدن الأناضول الساحلية، الأقرب من قوريني بكثير إلى مركز هذه الإمبراطورية الأخمينية، قد أخذت تتشوَّف إلى خلْع نيْر السيطرة الفارسية؟.. بل إن مصر المحتلّة نفسها قد عادت فثارت مجدّداً ضد مستعمريها الفرس، وصارت تغلي

= «.. وسارع الليبيُّون والقورينيُّون، على الفور، إلى توجيه وفود عنهم إلى مصر لتهنئة قمبيز بالنصر..».

ضد حكمهم وتموج بالقلاقل[1]، ووجد والي مصر الفارسي ـ آنذاك ـ المرْزبان «أخايمينس» نفسه محاصراً هو وحاميته في مدينة منف؛ حيث أسهم الأمير الليبي «إيناروس» (= أرتان حرارو)، الذي كان مقيماً في مريوط، في إثارة المصريين ضد محتلّيهم. ولم تنتظر قوريني اندلاع هذا التمرُّد الذي قاده «إيناروس» في مصر، في حوالي سنة 460 قبل الميلاد[2]، لكي تعلن من ناحيتها استقلاليتها عن الفرس الذين لم يعودوا في وضع يسمح لهم بالوقوف في وجه هذا الاستقلال. ولعل لإصدار قوريني، عندئذ، لعملة نقدية جديدة تختلف عن سابقتها بشكل واضح، علاقة بهذا التوجُّه السياسي الجديد الذي نزعت المدينة الإغريقية إليه. إذْ نلاحظ أنه بعد سنة 480 قبل الميلاد مباشرة، اختفت مِنْ على وجْهيْ عملة قوريني النقدية تلك الشعارات المتعدِّدة التي كانت نقودهَا تتميز بها في السابق؛ وحلَّ محلّها شعار جديد تمثَّلَ في نقش نبات السلفيوم على أحد وجْهيْ نقدها، ونقش صورة الإله الليبي «زيوس ـ آمون»، الجميلة، على الوجه الآخر. ويحقُّ لنا أن نستشفَّ من الاختيار الحاسم لهذين الرمْزين: السلفيوم وصورة الإله «زيوس ـ آمون» ـ وهما الشعاران اللذان سيظلاّن حتى النهاية شعاريْ الدولة القورينيّة المستقلّة المفضّليْن، تعمُّدُ التأكيد من جانب هذه المدينة على استقلاليتها الفعليّة ونفْضها لهيمنة الفرس. وتتَّضح عودة قوريني إلى حظيرة المدن الإغريقية الحرَّة ـ كذلك وعلى نحوٍ صارخ ـ في اشتراك مواطني هذه المدينة الإغريق في كُبْريات التظاهرات والاجتماعات والاحتفالات الهلّينية الموسَّعة التي مُثِّلت فيها أمّة الإغريق قاطبة: فعندما اشترك الرياضي القوريني «تيليسيقراط» في دوْرة الألعاب البوثيَّة الكبرىٰ، في سنة 474 قبل الميلاد، ونجح في تسجيل اسمه على رأس قائمة الفائزين في

(1) ثارت مصر ثانية في عهد إمبراطور الفرس الجديد «لونجيمانوس»، الذي ارتقىٰ عرش الإمبراطورية في سنة 464 قبل الميلاد.

(2) يجعل «ديودوروس الصقلّي» تمرّد «إيناروس» الليبي في حوالي سنة 463 قبل الميلاد.

مبارياتها؛ فقد برهن بذلك للإغريق جميعهم بأن وطنه قوريني لم يعد خاضعاً لسلطان الميديين الفرس.

وهكذا فإننا نرىٰ أن لفترة حكم «باطوس الرابع» ـ التي يمرُّ بها المؤرّخون عادة مرور العابرين ـ أهمية كبرى في تاريخ قوريني. فلقد استطاع هذا الحاكم القوي أن يوحِّد قورينائية برمّتها تحت قيادة هذه المدينة الأُمّ، وساد السلام والأمن حتى في ربوع صحرائها، بفضل سهر الحاميات الفارسية على حدودها. وتحت جناح هذه السلطة الفارسية، التي كان لها من القوة والبأس ما مكّنها من فرْض احترامها على إغريق قوريني ـ وإن كان مركز تلك السلطة الفارسية من البُعْد عن قوريني، بحيث لم يتململ القورنيون الإغريق تحت وطأتها كثيراً ـ استطاعت قوريني أن تتطوَّر وأن تغتني. وأخذت علاقاتها التجارية تتّسع، واندفع عبر الصحراء الليبيّة، التي سادها السلم، تيّار قوي للمبادلات التجارية، عن طريق القوافل؛ الأمر الذي مكّن إغريق قورينائية ـ لأوّل مرّة ـ من إنشاء علاقات لهم مع سكّان الواحات المصرية. فظهرت في قوريني عبادة الإله الليبي «آمون»[1] ـ الذي يوجد موْحاه في واحة سيوة ـ الذي فرض نفسه كإله على إغريق قورينائية، وذلك كنتيجة وكرمْز لهذا التبادل التجاري. أمّا علاقات قوريني مع بلاد الإغريق نفسها، فإنها بدلاً من أن تضعف نتيجة لسيطرة الفرس على هذه المدينة؛ نراها على العكس من ذلك تزداد رسوخاً: فكثير من تماثيل قوريني الأثرية ـ سواء قبل أو بعد انتصار الإغريق على الفُرس في معركة «ماراثون» في سنة 490 ق م ـ ظلّت تحمل طابع التأثُّر بالنحت الأثيني. وظلّت المراكب القورينيّة تتردّد على ميناء «بيراوس»

---

(1) هنالك إلٰهان يطلق عليهما اسم «آمون»: أحدهما إله مصري هو «آمون طيبة»؛ والآخر إله ليبي هو «آمون سيوة». والمُلاحظ أن «هيرودوتس» يميِّز في تواريخه بين هـذيْن الإلٰهين؛ حيث يسمِّي «آمون الليبي» باسم «زيوس آمون» ويسمي «آمون المصري» باسم «زيوس طيبة».

الأثيني بلا انقطاع. وفيما ارتفع معبد الإله «زيوس»[1] الأعظم شاهقاً إلى عنان السماء، فوق التّلّ الشرقي لمدينة قوريني، ليشْهد على مدىٰ القوة التي صار يتمتع بها سابع ملوك هذه المدينة «باطوس الوسيم»؛ فإنّه خُيِّل لهذا العاهل الإغريقي الباطي أن سلالته المالكة ستظل تنْعم، لأمدٍ طويل، بفترة حكم مزدهرة. لكن ممارسة الحكم عند هذا الملك الذي لم يحدْ عن المبادىء التي أرساها أجداده، طغىٰ عليها الطابع الاستبدادي الذي أوْرثه إيَّاه والده «أركسيلاوس». وفي قوريني ـ مثلما كان عليه الحال في المستوطنتين الإغريقيتين في آسيا الصغرى: «إيونيا» و«كاريا» ـ كان الأخمينيُّون الفرس يشكّلون أهم الدّعامات التي كان يستند عليها هذا الطاغية الذي تبوَّأ عرشه القوريني تحت ظلِّهم. وبينما مكّنت انتصارات الإغريق على الفرس مملكة قوريني من استرجاع استقلالها الكامل؛ إلاّ أن تلك الانتصارات نفسها أفْقدتها ـ كذلك ـ ميْزة الحماية التي كان هؤلاء الأخمينيُّون يشملونها بها: فالعملة النقديّة البرَّاقة التي أصدرتها هذه المدينة احتفالاً باسترجاعها لحريّتها من ربْقة التّبعيَّة للفرس، لم تكن بقادرة على أن تُسْبغ على نظامها الملكي الهشّ سوىٰ أوهام عظمة كاذبة؛ ذلك أنّه ما أنْ توفي «باطوس الرابع» وخلفه ابنه الشاب «أركسيلاوس»، حتى تكالبت المصاعب والاضطرابات على هذا الأخير مجدّداً.

---

(1) «زيوس» هو «جوبيتر» عند الرومان، وتعتبره الميثولوجيا الإغريقيّة حاكم العالَم ورئيس سائر الآلهة والبشر، وهو ابن الإله «كرونوس» والإلهة «ريًّا»، وشقيق الإله «بوسيدون»، والإلهة «هيرا» التي صارت زوجته وأنجبت له الإله «أريس»، كما أنّه أب للإله «أبوللو» والإلهة «أرتيميس»، ومن بناته كذلك «أثينا» و«أفروديتي». وكان «زيوس»، في زعمهم، يترأس مجالس آلهة جبل الأوليمبوس العِظام. ويصوره المثالون الإغريق في هيئة مهيبة له خصلات شعر نافرة ولحية كثّة، ويصوّر كثيراً وإلى جانبه النسر، وهو طائره المفضّل، وبيده صولجان الألوهيّة. وكانت تُقام له معابد في كل مكان. وكثيراً ما يصوّر «زيوس» وله قرون ماعز. ولقد زعم الكهنة أن الإسكندر المقدوني ابنٌ له.

الفصل الثامن

اركسيلاوس الرابع
أو: الشاعر بنداروس في قوريني

تعتبر معلوماتنا عن «أركسيلاوس الرابع» جمّة، إذا ما قارنّاها بتلك النُتف القليلة التي تبقّت لنا عن سلفه «باطوس الرابع». ويعود الفضل في ذلك إلى تلك الفكرة الرائعة التي خطرت لأركسيلاوس هذا بتكليف الشاعر «بنداروس» بوضع نشيديْن ينوِّهان بالانتصار الذي أحرزته عربته في سباقات الألعاب البيثيّة[1]. ويشكِّل هذان النشيْدان اللذان ألّفهما هذا الشاعر بالمناسبة ـ وهما البوثيّة الرابعة والبوثيّة الخامسة، إلى جانب شروحهما ـ المصدر الرئيسي لمعلوماتنا عن هذا الملك الباطي. ولذا فإنّه من الأهميّة بمكان تحليل هذين النشيديْن تاريخيًّا. ولكن يتوجّب علينا قبل ذلك أن نتناول بالدراسة نشيداً ثالثاً، سابق عليهما، وهو البوثيّة التاسعة، التي تُشيد، هي الأخرىٰ، بفوْز أحد عدّائي قوريني الرياضيين، وذلك لكي يتسنّىٰ لنا تمييزها عن سابقتيْها.

عندما وضع «بنداروس» البوثيّة التاسعة، كان قد ناهز الرابعة والأربعين من

(1) الألعاب البوثيّة، أو (البيثيّة)، كانت تُقام مرة كل ثلاث سنوات ببلاد الإغريق خلال شهريْ أغسطس وسبتمبر: وتجري خلالها مباريات في الموسيقى والغناء والتمثيل وإلقاء الشعر والخطابة، إلى جانب المباريات الرياضيّة التي من بينها سباق العجلات. وكان كبار الشعراء الإغريق حريصين على مدح الأبطال والفائزين في قصائدهم من حيث أنّهم سعوا لإحراز الفوز والنصْر طلباً لشهرتهم هم وشهرة وشرف ومجْد المُدن التي ينتمون إليها. ولقد أفرد «هوميروس» للمباريات الرياضيّة مكاناً في الإلياذة.

عمره. وفي تلك السنة ـ وهي سنة 474 قبل الميلاد ـ عُقدت في بلاد الإغريق الدورة الثامنة والعشرون للألعاب البيثيّة، وهي الدورة التي فاز فيها البطل القوريني «تيليسيقراط بن كازنثاد» بالمرتبة الأولى في سباق العدّائين. وتخليداً لذكرى فوز هذا البطل، تم نحْت تمثال له، أُودع موْحى دلفي، حيث يشاهده المرء مرتدياً اللباس الخاص بذلك السباق، ورأسه مغطّاة بخوذة. وبعد انقضاء ثمان سنوات ذلك ـ أي في سنة 466 قبل الميلاد ـ فاز هذا العدّاء القوريني ثانية في الدورة الثلاثين للألعاب البيثيّة.

وكلّف «تيليسيقراط» الشاعر «بنداروس» بوضع نشيد يمجّد الانتصار الذي حقّقه في المرة الأولى في تلك الألعاب. ومن البيِّن أن الشاعر لم يؤلِّف هذا النشيد في مدينة قوريني؛ ذلك أن البيْت الثالث والسبعون منه، وما تلاه من أبيات، تدلُّ جيداً على أن «تيليسيقراط» لم يكن ـ عند تأليف هذا النشيد ـ قد رجع بعدُ إلى وطنه قوريني؛ بدليل أن «بنداروس» يقول في البيت المذكور ما نصّه:

«ستستقبل قوريني ابن كارنثاد بفرحة غامرة، عندما يعود من دلفي، مُثْقلاً بأكاليل النصْر، إلى وطنه حيث النساء الفاتنات الجمال».

ولقد جرى الاحتفال الذي أنشد فيه «بنداروس» هذه البوثيّة التاسعة في نفس مسقط رأس هذا الشاعر، وهو مدينة «طيبة»[1] الإغريقيّة. ويتضح لنا ذلك من خلال المقطع التّثليثي الرابع لهذه البوثيّة، الذي كثيراً ما شدَّ اهتمام الشُّرّاح. وهذا المقطع من القصيدة هو استطرادٌ شعريٌّ تطرّق فيه «بنداروس»

---

(1) «طيبة» هي أعظم مُدن إقليم بيؤتيا الواقع في بلاد الإغريق الوسطى، وهي بالطبع ليست مدينة طيبة المصرية القديمة. وبعض المراجع العربية ترسم اسم «طيبة» الإغريقيّة هكذا: «ثيبة» رفعاً للّبس.

إلى ذكْر أسطورة كانت شائعة في مدينة «طيبة». وهي الأسطورة التي تتحدّث عن هذه المدينة وعن بطلها الشهير «هرقل»، وتنوِّه بجَلَدِه، وتمجِّد قوّته الجسمانيّة الخارقة، وتتعرّض لمؤازرة آلهة المدينة له عند تصـدِّيه لشتّى المصاعب. وإذن، فإنه ليس لهذا المقطع من البوثيَّة أيّة علاقة بقوريني وببطلها «تيليسيقراط»، لا من قريب ولا من بعيد؛ فهو مقطع أقحمه الشاعر في البوثيّة إقحاماً للتَّغنّي بمسقط رأسه؛ لا لشيء سوىٰ تملُّق عواطف مواطنيه الطِّيبيين الذين أنشد بوثيَّته أمامهم. وبعد ذلك يعود «بنداروس» فجأة للحديث عن «نيليسيقراط» القوريني، منوِّهاً بفوزه ابتداء من البيت السابع والتسعين من أبيات البوثيَّة وما يليه، بقصد ربط ذلك بالموضوع اللاحق من الموضوعات التي عالجها النشيد، جرياً على عادته في قصائده.

وإذا ما استثنيْنا الاستطراد الذي أشرنا إليه، فإننا نلمس منتهى الترابط بين مقاطع البوثيَّة الأخرىٰ: فالشاعر يعالج فيها بدْءاً أسطورة الحورية قوريني، وهي تلك القنَّاصة المتوحشة التي وقع الإله «أبوللو» في حبِّها، كما ذكرنا في فصْل سابق من هذا الكتاب. ويبدو أن «بنداروس» لم يعالج هذا الموضوع استناداً على مصدر قورينيٍّ بحْت. فالشارح المجهول الذي تصدّىٰ لشرح هذه البوثيّة يشير، على العكس ـ وليس لدينا أي سببٍ للتشكيك في صحّة ما ذهب إليه ـ إلى أن «بنداروس» قد استلهم أبياته من قصيدة «المثيلات»[1] للشاعر «هيسيودوس»؛ وهي القصيدة التي تحدّث فيها ذلك الشاعر الإغريقي عن الحورية التسالية. وإذنْ، فإن «بنداروس» قد استلهم مادة هذا الجزء من بوثيّته التاسعة من «هيسيودوس».

ويعد سرْد «بنداروس» لهذه الأسطورة، التي تشكِّل عنصراً أساسياً من عناصر بوثيّته هذه، نراه يقوم بإقحام الاستطراد الذي تعرّضنا له أعلاه والخاص بمسقط

(1) «EHOIAI» وهي من الشِّعر القصصي البطولي، وقد سبقت الإشارة إليها.

رأسه مدينة «طيبة». ثم يلتفت مجدداً إلى العدَّاء القوريني «تيليسيقراط»، حيث نراه يذكِّر بكل ما أحرزه في السابق من انتصارات رياضيّة في مدينته قوريني، لا في دوْرات الألعاب البيئيّة الإغريقيّة الجامعة. وهذا ليس بالأمر المستغرب، لأن «تيليسيقراط» كان ما يزال عندئذ شابًا في مقتبل العمر، ولا طاقة له بمقارعة ومنافسة أبطال هذه الألعاب الإغريقيّة الكبرىٰ المتمرِّسين. ذلك أن هذا الرياضي القوريني لم يكن قد نال، قبل سنة 474 ق م، شهرته بعدُ، ولم يكن بالتالي معروفاً إلاّ في إطار الألعاب الرياضيّة القورينيّة المحلية. ولذا فإننا نجدْ أن البيت السابع والتسعين من البوثيَّة المذكورة، والأبيات الخمسة التالية عليه، لا تشكِّل سوىٰ استعراض للألعاب الرياضيّة التي أُقيمت في قوريني، تمجيداً لآلهة الإغريق، وهي الألعاب التي حاز فيها «تيليسيقراط» على قصْب السَّبْق عدة مرّات.

ونرى «بنداروس» يتناول عبْر المقاطع الأخيرة من البوثيَّة التاسعة أسطورة أخرىٰ كُرِّست هذه المرة للحديث عن نسب ملوك قوريني الباطيين. ولقد حالف التوفيق الشاعر في ذلك، لأنه جعل للدورات الرياضيّة القورينية هنا سنداً أسطوريًا يُشيدُ بعراقة هذا النسب الملوكي. إذْ نراه يعود بنا إلى بدايات الاستيطان الإغريقي في ليبيا، قبل انتقال المهاجرين الثيرانيين من «إراسا» إلى موقع قوريني؛ ويروي لنا قصة ابنة شيخ ليبي من شيوخ قبيلة «الجيليجاماي»، وهي فتاة عذراء جميلة كانت تعيش في بلدة «إراسا». ولقد استلفت جمالها انتباه العديد من الخُطَّاب ـ من ليبيين وإغريق ـ طالبين يدها من والدها. ولكي يتمكّن والدها من تزويجها بمن هو أجدر بها من بين هؤلاء الخُطَّاب العديدين الذين تزاحموا حولها؛ فإنّه اشترط إجراء سباق يتبارون فيه جميعهم، بحيث يحظى بها الفائز في ذلك السباق. وفي النهاية كان السَّبْق والفوْز من نصيب الإغريقي «أليكسيداموس» ـ جدُّ «تيليسيقراط ـ حيث تقرَّر تزويجه الفتاة. ويختتم «بنداروس» بوثيَّته هذه بمشْهد شعري رائع يصوِّر فيه الفتاة الليبيّة

الجميلة وعريسها الظافر «أليكسيداموس»، أثناء اختراقهما لصفوف الفرسان الليبيّين الـذين اصطفُّـوا على صهوات جيـادهم لتحيّتهمـا؛ حيث أخـذوا يمطرونهما بالزهور والأوراق الخضراء، احتفالاً بعرسهما.

ونرىٰ من خلال هذا التحليل أنّه ليس للبوثيَّة التاسعة صبغة قورينية صرْفة، كما قد يُعتقد. و«بنداروس» يستلهم بوثيَّته هذه أساساً من إحدى قصائد «هيسيودوس»، الذي كان على معرفة أكبر بالأسطورة التسالية، وليس بالأدب الشعبي القوريني. ويجعل «بنداروس» تساليا مسرحاً للأحداث التي يتناولها بالتفصيل في بوثيَّته التاسعة؛ حيث يعرض لطفولة الحورية، ولصراعها مع الأسد، وللحوار الذي جرىٰ عنها بين الإلٰه «أبوللو» وبين المارد «خيرون». ولقد عرضت هذه البوثيَّة البِنْداريَّة لتلك المُطارحات الغرامية التي جرت بين «أبوللو» وبين الحورية على الأرض الأفريقية، في ثوب إيماءات خاطفة كأنّها الغمْز والتلميح، بدون ذكْر محدَّد لأيّة تفاصيل ملموسة. أمّا فيما يتعلق بأسطورة «أليكسيداموس»، فإنه من الواضح أن «بنداروس» قد استقىٰ فحواها من فم «تيليسيقراط» لدعْم الزّعْم بأن هذا البطل القوريني قد ورث عادة إحراز الانتصارت وبزِّ الآخرين والتفوُّق عليهم، من أجداده. كذلك فإن الإشارة إلى الاحتفالات التي أُقيمت بمدينة قوريني بمناسبة فوْز «تيليسيقراط» في الألعاب البيثيَّة، تنْصبُّ على هذا البطل وحده، دون الدخول في أيّة تفاصيل أخرى[1]. وخلاصة القول أن البوثيَّة التاسعة تنطوي على عنصريْن رئيسييْن: عنصرٌ مُسْتلهم من قصيدة الشاعر «هيسيودوس» المسماة «المثيلات»، من ناحية؛ وإشارة إلى كل ما له علاقة بشخص «تيليسيقراط» وحده، من ناحية أخرى؛ إذْ

(1) وللشاعر بنداروس ولعٌ خاص بتمجيد الأبطال الرياضيين المنتصرين، وهو قد ألَّف ديواناً شعريًّا أسْماه: «الأناشيد النيميَّة»، وهو خاص بدورات مباريات رياضيّة كانت تُقام سنوياً في مدينة «نيميا» بإقليم «أرجوس» بشبه جزيرة «البيلوبونيز».

أنّها تخلو من أيّة إشارة إلى مدينة قوريني، أو إلى آلهتها وأعرافها وتقاليدها. وليس لذلك من سببٍ سوىٰ أن «بنداروس» لم يكن قد احتكّ آنئذٍ بعدُ بهذه المدينة الكبرى احتكاكاً مباشراً. وهي كانت ما تزال بالنسبة له مدينة غريبة عنه ولم تحُزْ على إعجابه بعدُ. فكل ما في الأمر أنّه ألّف قصيدة مدح بطلب من شخص زار مسقط رأسه، طيبة، زيارة عابرة، وبالتالي فإن شاعرنا يتغنّى بهذا الشخص في طيبة لا في قوريني. وهذا هو السبب في أن «بنداروس» لم يجد غضاضة في إقحام الاستطراد الخاص بمدينة طيبة في القصيدة. والحقيقة أنّه ليس لقوريني أن تلوم الشاعر على هذا المنْحى الذي نحاه في بوثيّته؛ لأن القصد من وراء تأليفها لم يكن هو التّغنّي فأمجاد هذه المدينة، وإنما هو الإشادة بخصال ومزايا مواطن عادي من مواطنيها، لم يتعهّد له «بنداروس» سوى بالتّنويه به وبانتصاره الرياضي. لكن الأمر يختلف بالنسب للبوثيتين الرابعة والخامسة، لأنهما ما أُلّفتا أصلاً إلّا لمدح ملك هذه المدينة نفسه.

* * *

وتقودنا هاتان البوثيّتان إلى تاريخ قوريني السياسي، الذي تحدّدان لنا منه ـ هما وشروحهما ـ معالم الحقبة الوحيدة التي نعرفها بشيء من التفصيل والاستفاضة دون بقيّة حقبات هذا التاريخ خلال القرن الخامس قبل الميلاد.

في سنة 462 قبل الميلاد كان «أركسيلاوس الرابع» هو ثامن الملوك الباطيين الذين تتابعوا على عرش قوريني. ويبدو أنّه كان ما يزال آنذاك صغير السنّ، وذلك إذا ما حكمنا على عمره من خلال اللهجة التي خاطبه بها «بنداروس» في بوثيّتهْ. ثم أن هذا الشاعر يُثنّي فيمتدح في إحداهما ما كان يتمتع به هذا الملك من فصاحة وثقب نظر تتجاوزان سنه الصغير. وإذن، فإنه يبدو أن «أركسيلاوس» لم يكن ـ عندما أشاد به «بنداروس» على هذا النحو ـ قد اعتلى عرش قوريني سوى منذ أمدٍ قصير. ولا بد وأن وفاة «باطوس الرابع» وانحسار السيطرة الفارسية عن نظام قوريني السياسي، قد بعثا الأمل مجدّداً

في نفوس قوى المعارضة التي أُذلّت وأهينت كثيراً في السابق على أيدي «أركسيلاوس الثالث» وأمّه «فريتيمي». وهكذا، فإن «أركسيلاوس الرابع» ـ الصغير السنّ ـ قد جُوبه فور اعتلائه العرش الباطي بتمرّد واسع، لم يجد مفرًّا من قمْعه بقسوة؛ حيث قضىٰ على جانب من معارضيه، وأجبر بقيّتهم على مغادرة قوريني فراراً من بطشه. ولكي يعيد هذا الملك الهيْبة إلى سلطته المتزعزعة، فإنه ـ بحسب ما ذكره المؤرِّخ «ثيوتيموس» في كتاب له عن قوريني ـ قد رأى اللجوء إلى مناورة مزدوجة: فهو من ناحية قد جلب إلى مدينة «يوسبيريدس» (= بنغازي) نواة من المعمِّرين الإغريق الذين كانوا يدينون له بالولاء؛ وأراد من ناحية أخرى خلْق صيت طيِّب لنفسه، عن طريق إحْراز انتصارات في الألعاب الهلينية الكبرى الجامعة المقامة في بلاد الإغريق، محاولاً بذلك استعراض قوّته أمام الجميع، والتأكيد على أن مدينة قوريني قد تخلّصت من نيْر التبعية الفارسية.

وكان قد مضى عندئذٍ على تأسيس مدينة «يوسبيريدس» حوالي نصف قرن من الزمان على الأقل. ولقد بدأت عملة هذه المدينة في الظهور منذ مطلع القرن الخامس قبل الميلاد؛ ولكن هذا لا يعني أبداً أنّها كانت تتمتّع باستقلالية تامة. فخضوع مدن قوريناثية، من حيث المبدأ، لسلطة مرْزبان فارسي ـ كما هو الحال بالنسبة لإقليم قوريناثية برمّته تجاه ملك مدينة قوريني نفسها ـ لم يكن يمنع من سكّ نقود وإصدار عملة؛ وقد سبق لنا وأنْ سُقْنا شاهداً على ذلك فيما يتعلّق بمدينة برقة. وإذن، فإن «يوسبيريدس» كانت واحدة من «المدن الكبرى» التي كان يحكمها «أركسيلاوس» إلى جانب مدينة قوريني وميناثها (أبوللونيا فيما بعد)، ومدينة برقة، ومع هذه الأخيرة بدون شك مدينة «تاوخيرا» (= العقورية) التابعة لها. ولقد عوَّل العاهل الشاب «أركسيلاوس الرابع» على تأمين ملجأ لنفسه يستليذ به ويحتمي فيه؛ فوقع اختياره على «يوسبيريدس» التي هي أقصى مدن مملكته غرباً. ولقد أجبرته الظروف فيما بعد، بالفعل،

على الاحتماء داخل هذه المدينة. ولعلّه كان يخطّط كذلك لمباغتة سكّان مدينة برقة والانقضاض عليهم من الخلف، إذا ما دعت الضرورة لذلك، لأنه كان يدرك جيداً أن هؤلاء لم يكونوا قد تناسوا ذكرى تنْكيل الملكة الباطية العجوز «فريتيمي» بهم، وكان يعرف أنّهم كانوا لا يطيقون الحكم الباطي ولا يتحمّلونه إلّا على مضض.

ولتحقيق مشروعه بجلْب معمِّرين موالين له إلى مدينة « يوسبيريـدس »، نرى «أركسيلاوس الرابع» يوفد بعثة لهذا الغرض إلى بلاد الإغريق، تحت رئاسة شخص يدعى «يوفيموس». وكلَّف الملك هذا الأخيـر، في نفس الوقت، بأن يصطحب معه إلى هناك عربة سباق تجرُّها أربعة جياد، للإسهام في سباق العربات المُقام ضمن مباريات الدورة الحادية والثلاثين للألعاب البوثيّة الجامعة. ولقد رافق البعثة إلى بلاد الإغريق صهـر «أركسيلاوس» المسمّى «كارخوتوس»، الذي اختير كسائسٍ للعربة الملكيـة في السباق الكبير. وابتسم الحظ لـ «كارخوتوس» في دلفي، حيث فازت العربة التي يسوسها في ذلك السباق. بيْد أن رئيس البعثة القورينيّة نفسه عاجله الموت في بلاد الإغريق، في تلك الأثناء، فتولّىٰ صهر الملك رئاسة البعثة بدلاً منه، فقام بالتعاقد مع المرتزقة الإغريق الذين أوْصى «أركسيلاوس» باستجلابهم إلى مستوطنة «يوسبيريدس».

تلك هي الظروف التي تضافرت وأدّت إلى تكليف «بنداروس» بوضع البوثيتين الرابعة والخامسة. ذلك أن «كارخوتوس» كان، في الواقع، هو الذي استدعى هذا الشاعر الإغريقي الكبير إلى قوريني للتغنّي في هاتين البوثيتين بفوْز العربة الملكيّة في تلك الدورة من الألعاب الإغريقية الجامعة. وكان «بنداروس»، في سنة 462 قبل الميلاد، قد بلغ من العمر ستة وخمسين عاماً؛ وكان في قمّة مجده وأوجّ شهرته، وفي أكمل درجات نضجه الشعري. وكان هذا الشاعر المرموق قد أقام لنفسه علاقات وشيجة بالأسر الأرستقراطيـة

الموسرة في معظم المدن الإغريقيّة. وكان «بنداروس» قد تغنّى في قصائده، قبل ذلك، بالانتصارات التي أُحرزت في كثير من المباريات الرياضيّة التي أُقيمت تحت رعاية أوسع ملوك المستوطنات الإغريقيّة في إيطاليا ثراءً. وإذن، فإن اختيار «كارخوتوس» لـ «بنداروس» بالذات، للتّغنّي بفوز عربة ملك قوريني في الألعاب البوثيَّة، كان أمراً مقصوداً ومدبّراً؛ بالنظر لاشتهار هذا الشاعر بمدح ملوك الإغريق.

ولقد أُنْشدت البوثيّتان في مدينة قوريني نفسها، بأصوات جوقة تراتيليَّة جماعية، كان يقودها في الغناء «بنداروس» نفسه؛ فتلك هي التقاليد التي كانت متّبعة عند إنشاد قصائد الشعر الغنائي الإغريقي في زمن هذا الشاعر، حيث جرت العادة بأن يتولى الشاعر المؤلّف، شخصيًّا، دور قيادة جماعة «الكورال» الإنشاديَّة. ويتحتّم ألاّ يغْرُب عن بالنا أن مؤلِّفي القصائد الغنائيّة كانوا، في تلك الفترة، هم مؤلِّفوا الموسيقىٰ المصاحبة للإِنْشاد، وأن النصّ الشعري لم يكن يشكّل سوىٰ أحد عناصر العمل الفنِّي الذي يبتكره الشاعر. والمهمُّ بالنسبة لعملٍ شعريٍّ يوضع حسب الطلب ـ مثلما هو الحال بالنسبة لهاتين البوثيتين ـ هو تنفيذه وإنشاده صحبة موسيقاه، في نفس اليوم المحدّد للاحتفال الذي أُعدّ من أجله. ولذا فإنه كان من الطبيعي أن يأتي «بنداروس» بنفسه شخصياً إلى قوريني، للتأكّد بنفسه من أن كل شيء قد تم وفْق ما أراده لكيفيّة التغنِّي بالقصائد التي ألَّفها. ثم أن عاهلاً عظيماً من طراز «أركسيلاوس الرابع»، كان جدير بأن يتجشّم «بنداروس» العظيم مشاقّ القدوم إليه من مدينة «طيبة»، ومدحه شخصياً في قوريني، إكباراً له.

وفي تلك الأزمنة، كان الشعراء ـ وكذلك النّحاتون ـ يجوبون أطراف العالَم الإغريقي بكل سهولة، وينْتقلون بأنفسهم إلى مقارِّ زبائنهم الموسرين، حتى وإن حالت بينهم المسافات؛ وذلك لتنفيذ الأعمال الفنيّة التي تكلّفهم بإنجازها المدن الإغريقيّة وأثرياؤها الذين لم يكونوا ليبْخلوا عليهم ـ في

المقابل - بالجزاء الأوْفىٰ، لقاء التلذّذ بسماع أو بمشاهدة روائع فنّهم. ولذا فإنني لا أفهم السبب في إرهاق بعض العلماء المحدثين لأذهانهم بحثاً عن قرائن تدلِّل على أن الشاعر الكبير «بنداروس» ربما لم يحضر بشخصه إلى مدينة قوريني، وعلى الزعم بأنّه عندما خاطب «أركسيلاوس» في البيت الثاني والسبعين - وما يليه - من أبيات بوثيّته الخامسة، بشكل يوحي بأنّه كان يلقي ساعتئذٍ هذه الأبيات الشعرية في حضرته شخصيًّا، لم يكن - حسب رأيهم - متواجداً في المدينة؛ وإنما تظاهر بذلك في سياق قصيدته. ومثل هذا الزعم؛ إنما هو تفسير تعسُّفي كان الأجدر بهؤلاء العلماء أن يوفّروه على أنفسهم. فالواقع أن الصبغة المباشرة للهجة مناجاة «بنداروس» للملك الباطي - في كِلا البوثيتين الرابعة والخامسة - تُوحي فعلاً بأن الشاعر كان ماثلاً في حضرة هذا العاهل القوريني يخاطبه بأبياته وجهاً لوجه.

ويتأكّد لك هذا الانطباع كذلك من خلال الإشارات الواقعية التي انطوت عليها البوثيّتان، فيما يتعلّق بطبوغرافية وشكل مدينة قوريني وروعة طبيعتها الخضراء. ولقد زعم شُرّاحُ البوثيتين بأن المقطع الوصفي الشهير الذي ساقه «بنداروس» في البيت التاسع والثمانين، والأبيات التالية عليه، في البوثيّة الخامسة - وهو المقطع الذي يصف فيه شارع قوريني الرئيسي الذي يصل ما بين «الأكروبول» وبين سوق «الأجورا» - ليس مستلهماً من تجربة الشاعر الشخصيّة ومشاهدته لهذه الأمكنة مشاهدة عيْنية؛ بل هو مجرد أصداء متخيَّلة لأوْصاف زوَّده بها بعض أصدقائه ممن عرفوا المدينة وأقاموا فيها. غير أنّه - أوّلاً - لا يمكننا تصوُّرُ شاعر إغريقي فحْلٍ من خيرة شعراء القرن الخامس قبل الميلاد، من طراز «بنداروس»، يبلغ به التَّدنّي حدَّ الْتقاط تفاصيل وأوصاف تصويرية من أفواه الآخرين، ثم يرضى بأن يصوغ على ضوئها أبيات إحدى قصائده. ذلك أن مثل هذا التّدنّي والإسفّاف في إستلْهام الصُّور الشعرية هو أبْعدُ من أنْ نُلْصقه بما عُرف عن آداب وفنون تلك الحقبة من رقيّ وإتقان

وجمالية؛ وما الحقيقة أنَّ اتّهام شاعرٍ في عظمة «بنداروس» بشيءٍ من هذا القبيل لا يعدو أن يكون تجنّيًا صارخاً على عبقريته، يُؤسف له. فالشاعر الحقّ عندما يكتب، فإنه يفعل ذلك بعفوية، من حيث أنّه رأىٰ ما تحدّث عنه في شعره رأي العين، فهزَّ ما رآه أوتار نفسه؛ وهو لا يقبل أن يكون عمله الشعري مجرَّد أوصاف ماحلة استقاها من الآخرين سماعاً. فالشيء الوحيد الذي يصحُّ لشاعرٍ إغريقيٍّ قديم، في مثل مكانة «بنداروس»، أن يقتنص معلوماته أو تصوّراته عنه من أفواه الناس أو من خلال سطور المدوَّنات، قد يقتصر، مثلاً، على تصورات مجرَّدة كالأساطير ومفاهيم وطقوس العبادات؛ لكنه لا يمكن أن يشمل أموراً حسيَّة ملموسة كأوصاف المدن وطبوغرافيتها. ولنتأمَّل فقط مدىٰ نُدْرة الإلماعات والإشارات الوصفيّة في أشعار «بنداروس» ـ حتى عندما يكون الأمر متعلّقاً بأماكن معروفة للجميع جيداً؛ مثل جبل الألمب، أو معبد دلفي، أو مدينة طيبة ـ وعندئذٍ سنُدرك، بالمقارنة، مدىٰ ما يتميّز به وصفه لمدينة قوريني من طابع حسِّيّ استثنائي قائم على المشاهدة العيْنيَّة المباشرة.

وعندما يكون المرء قد تجوَّل بنفسه ـ مثلما فعلتُ أنا شخصيًا ـ عبر الطريق المبلَّط الذي ينطلق من عند أقدام مبنىٰ «الأكروبول» في قوريني، ثم ثنّىٰ فمرَّ بمحاذاة ميدانها العام، وتاه بعد ذلك بين مسالك ومسارب هضبتها الموحشة، وتأمَّل ـ قُرْب الطرف الشمالي لسوق «الأجورا» القديم ـ ذلك البناء الأثري المدوَّر المقبَّب، الذي قد يكون بالفعل هو قبر «باطوس الأوّل» مؤسِّس المدينة؛ فإنه لن يخالجه بعدئذٍ أيُّ شكّ في أنَّ «بنداروس» قد رأىٰ قطعاً بأمّ عينه هذا المشْهد الفريد من الأبنية الشامخة التي تضمّها قوريني، والتي لم تكن لتُضاهيها، حتى في بلاد الإغريق نفسها، في حوالي سنة 460 قبل الميلاد ـ وهي الفترة التي يُفْترضُ أن شاعرنا قد زار مدينة قوريني خلالها ـ أبنية وصروح أيّة مدينة إغريقيّة أخرى، من حيث ضخامتها وروعة هندستها المعمارية. فـ «بنداروس» الذي تعوَّدت عيناه مشاهدة أزقّة مدن بلاد الإغريق

الضيِّقة المتعرّجة، الهابطة أو الصاعِدة دوْماً عبر سفوح تلالها؛ قد أدهشته، بدون ريب، رحابة واتّساع هذا الطريق المستقيم الذي يخترق مدينة قوريني، والذي لا تصادفه أيّة عقبة طبيعيّة تضطرّه إلى التعرُّج أو الانحناء؛ كما أدهشه، بالتأكيد، عراء تلك الهضبة العليا التي تبدو للناظر إليها من عند المدينة منطرحة عبر آفاقٍ لا يحدّها شيء، ولا يغشاها أيّ عائق جبلي، وهو منظر لم يتعوّد على مشاهدته في بلاده إغريقي كشاعرنا.

فنحن لا نشكّ في أنّه عندما ألَّف «بنداروس» بوثيّته الخامسة، قد كانت ما تزال تتردّد في أسماعه أصداءُ وقْع حوافر الجياد على بلاط شارع قوريني الكبير، عندما كانت كوكبات الفرسان، وموجات العربات التي تجرُّها الخيول، تمرُّ من أمامه في موكب ديني انطلق من عند المواقع المقدّسة الواقعة على الهضبة، مارًّا بمبنى «الأكروبول» وبسوق «الآجـورا»، ثم متجهاً إلى معبد المغارة، الواقع عند المنحدرات الصخرية. و«بنداروس» قد شارك - بلا ريب - في تلك المآدب المقدّسة التي نُصبت عند مدخل هذا المعبد، تحت ظلال أشجار حديقة «أفروديت»؛ وعاش جوّ الشتاء الذي إدْلهمّت بسببه آفاق سماء قوريني الرحب؛ وسمع هدير العواصف المتواصل فوق السهل، ولمح أشعة الشمس تنفذ، هنا وهناك، من بين كتل السحاب الهائلة المرعبة. ثم لا شكّ في أنّه استُضيف، بعد ذلك أو قبله، في قصر «أركسيلاوس الرابع»، حيث نعم بلذّة الدفْء، جالساً بمحاذاة نار حطبٍ تمّ إيقادها لاتِّقاء لذْعة زمهرير شتاء قوريني القارص(1).

أما البوثيَّة التاسعة التي قلنا إن «بنداروس» قد ألَّفها في مسْقط رأسه «طيبة»، قبل قيامه برحلته إلى قوريني؛ فإنهـا خاليـة كلية من مثـل هذه

(1) جميع هذه الأوصاف والمشاهدات التي يسوقها «شامو» هنا عن مدينة قـوريني، ليست هي أوصافه هو لها، وإنما هي صياغة بأسلوبه لتلك الأوصاف التي أوْردها «بنداروس» في شعره.

الانطباعات المُعاشة. بينما نجد أن البوثيَّة الخامسة تعجُّ بها، وكذلك الحال بالنسبة للبوثية الرابعة. وبالرغم من أن شاعرنا قد خصَّص معظم أبيات هذه البوثية الأخيرة لأسطورة إغريقيّة تنْأى بنا بعيداً عن قورينائية؛ إلَّا أنها ربما تنطوي ـ من حيث دقّة ملاحظاتها ـ على البرهان القاطع الدّالّ على أنّه كانت لـ «بنداروس» معرفة مباشرة بالبيئة القورينية.

وهكذا، فإن «بنداروس» قد زار ـ في رأينا ـ مدينة قوريني حقيقة، ونزل ضيفاً على «أركسيلاوس الرابع»، بناءً على طلب صهْره «كارخوتوس»، وألَّف فيها البوثيتين الرابعة والخامسة. فيا تُرى أيُّ هاتين البوثيتين قد أُلّفت وأُنْشدت أمام الجمهور القوريني قبل الأخرى؟.. بالرغم من أنّه ليست لدينا أيّة قرائن مؤكّدة تماماً حول هذا الموضوع؛ إلَّا أنه يمكننا مع ذلك أن نسْتشفّ من محتوى البوثيتين أن الخامسة لا بدّ وأن تكون سابقة في تأليفها على الرابعة. فالواقع أنّه في حين أن هذه الأخيرة ـ وهي أطول من الخامسة ـ لا تتعرّض لقصة فوْز عربة «أركسيلاوس» في الألعاب البوثيّة سوى مرتين، تلميحاً فحسب ولمجرد التذكير؛ نجد أن البوثيَّة الخامسة مرادِفة لنشيد نصرٍ حقيقي كُرِّس كلّه للتّنويه بالانتصار الذي أحرزته عربة هذا الملك. وهذه البوثيَّة الخامسة تروي لنا المفارقات والمواقف العويصة التي تغلَّب عليها سائس العربة «كارخوتوس»، بحنكة ومقدرة، أثناء السباق؛ وتمتدح مزايا هذا المتسابق القوريني الذي حاز قصب السَّبْق وانتصر بآسم صهره الملك. ولقد تم عرض هذه البوثيّة على المسرح أثناء الاحتفال الرسمي الذي أُقيم بمناسبة تحقيق هذا النصر الرياضي. وعلى العكس من ذلك، فإن البوثيَّة الرابعة تقف عند حدّ التذكير بهذا النصر، دون الدخول في تفاصيله؛ ثم تتّخذ هذه الواقعة كمجرّد مناسبة أُتيحت للشاعر لينطلق منها متغنيًا بأمجاد الأسرة الباطيّة التليدة. ولا بدّ لنا وأن نفترض أنّه بمجرد وصول «بنداروس» إلى مدينة قوريني، فإنه استهلّ مقامه فيها بالعكوف على إنجاز المهمة المحدّدة التي استُدْعي من أجلها إلى

هذه المدينة أصلاً؛ وهي التَّغنِّي بنصر عربة الملك؛ حيث بادر فأمْطر «كارخوتوس» بكل ما يستحقّه من ثناء، من حيث أنّه كان هو سائس العربة المنتصرة؛ كما أشاد بشِيَم ومزايا الخيول القورينيّة الأصيلة. أمّا «أركسيلاوس» ـ وقد تعرَّف، على هذا النحو، على شاعرنا، وفُتِنَ بجزالة ألفاظه الشعرية ـ فإنه طلب منه أن يخصّه هو نفسه بنشيد جديد، أوْسع تناولاً وأكثر عظمة؛ فكانت البوثيَّة الرابعة.

وعلى أيّة حال، فإن هذا العرض التاريخي الذي أوردناه هنا لإبراز الخصائص التي تميّزت بها البوثيَّتان الخامسة والرابعة، من حيث الموضوع، يفترض أن يكون بنداروس قد أقام في مدينة قوريني لمدة عدة أشهر، خَبِرَ خلالها المدينة، وتأتّت لديه بها وبأهلها أُلْفة كشفت لنا عنها البوثيَّتان بكل وضوح. بيْد أن أيّة محاولة لتحديد تاريخ تأليف وإنشاد هاتين البوثيتين، على نحوٍ أكثر دقّة، سيكون في رأينا من قبيل الرَّجْم بالغيْب. وكل ما أستطيع أن أجزم به، عن يقين ـ استناداً على التلمحيات والإيماءات التي تضمَّنتها البوثيّتان، والتي سبقت الإشارة إليها أعلاه ـ هو أن «بنداروس» قد أمْضى في قوريني فصل شتاءٍ؛ هو بدون شك شتاء سنة 462 / 461 قبل الميلاد.

* * *

وتعتبر البوثيَّة الخامسة ـ التي ألَّفها «بنداروس» أصلاً للتّنْويه بالانتصار الرياضي الذي حقّقته عربة «أركسيلاوس الرابع» في الألعاب البيثيَّة الجامعة في سنة 462 قبل الميلاد، بفضل براعة سائسها «كارخوتوس»، صهر هذا الملك ـ أكثر أناشيد النصْر الإغريقيّة إغراقاً في الصبغة الكلاسيكيّة. ويستهلُّ شاعرنا هذه البوثيَّة بتقريضٍ يمدح فيه عاهل قوريني الباطي (الأبيات 1-23)؛ ثم ينتقل إلى وصْف تلك المفارقات والمفاجـآت التي وقعت أثناء إجراء السباق، منوِّهاً ببراعة سائس العربة «كارخوتوس»، الذي ظل يقطع ميدان

السباق على ظهر العربة الملكيّة اثنتيْ عشرة مرة بلا كلل، باذلاً جهده لبزّ الأربعين متسابق الآخرين والتقدّم عليهم. فكان هو الوحيد، من بين هؤلاء، الذي نجح - حتى نهاية السباق - في تحاشي المآزق والحوادث المميتة التي تعرّض لها المتسابقون. وبعدها يذكر لنا «بنداروس» أنّه ما أن تحقّق النصْر لـ «كارخوتوس» حتى توجّه بالعربة إلى معْبد «أبوللو» في دلفي، حيث قدَّم هذه العربة الملكية قرباناً للإله، معبِّراً له بذلك عن شكره على ما أحاطه به من عناية حتى أحرز النصر في السباق، (الأبيات 23-53)[1]. ثم نرىٰ الشاعر يقوم في بوثيَّته هذه بتمجيد الإله «أبوللو»، رافعاً ابتهالاته إليه بأن يصون مدينة قوريني التي ينتمي إليها سائس العربة، وبأن يحفظ السُّدَّة الباطيّة ويطيل في أمْد حكمها. وينتهز «بنداروس» هذه المناسبة كي يسرد بإيجازٍ شديد تاريخ أجداد «أركسيلاوس الرابع»، مركِّزاً على مآثر وسجايا «باطوس الأوّل» مؤسِّس قوريني (الأبيات 54-102). ويختتم الشاعر بوثيَّته بامْتداح خصال ملك قوريني «أركسيلاوس» مجدَّداً، متمنياً له تحقيق انتصارات جديدة (البيتين 102-103).

أمّا البوثيَّة الرابعة - التي يخاطب فيها الشاعرُ «أركسيلاوسَ» مباشرة - فإنّها أطول من البوثيَّة الخامسة بكثير. ونلاحظ أن «بنداروس» قد رفع، في قصيدته الرابعة تلك؛ إلى ملك قوريني، رجاءً خاصًّا ومُلِحًّا بأن يتكرّم فيصْفح عن صديقٍ أثير لديه يُدْعى «داموفيلوس»، وهو في نفس الوقت أحد أقارب هذا الملك، ولكنه شقَّ عليه عصا الطاعة، وتواطأ، في الماضي، مع حزب النبلاء الأرستقراطيين القورينيين في مؤامرة كانت ترمي إلى نحية أركسيلاوس نفسه.

---

(1) يجعل بنداروس ابتهاجه بفوز الأبطال في المباريات الرياضيـة مناسبة دينية يبيِّن فيهـا قدرة الإنسان على بلوغ سعادة شبيهة - في زعمه - بسعادة الآلهة. وهو يقحم في «أناشيد النصْر» التي يؤلِّفها أساطير متفرِّقة - لتأكيد النقاط الأساسية فيهـا، دون أن يسرد هـذه الأساطير بالتفصيل. انظر: الدكتور عبد اللطيف أحمد علي: «مصادر التاريخ اليوناني»، طبعة كريدية إخوان، بيروت، 1973، ص ص 158-159.

لكن المؤامرة فشلت، فصُودرت أموال وأملاك «داموفيلوس» الذي اضطر إلى الفرار إلى مدينة «بنداروس» طيبة والعيش فيها كلاجيء. ويهيب الشاعر بالملك أن يتعطّف فيسمح لهذا المنفي بالعودة من طيبة إلى قوريني، دون إنزال أي عقابٍ به.

ويمكن تقسيم البوثيّة الرابعة هذه إلى ثلاثة مقاطع مطوّلة: ففي المقطع الأول منها، (الأبيات 1-69)، يتحدّث «بنداروس» عن السُّدّة الباطية الحاكمة في قوريني؛ ويتناول في المقطع الثاني (الأبيات 70-262) سياقات متعددة لأساطير قديمة ـ من بينها أسطورة «الأرجونوتيين» ـ بقصْد الإيحاء إلى «أركسيلاوس الرابع» بآسْتلهام العبرة التاريخيّة والأخلاقيّة منها، والتّحلّي بالرأفة والشفقة والحلم؛ حاثًّا إيّاه على الصفْح عن صديقه المنفي «داموفيلوس»، وتناسي خصومته السابقة معه دون اللجوء إلى العنف. أمّا المقطع الثالث من البوثيّة الرابعة (الأبيات 263-299)، فإنها تتركّز في الدفاع عن «داموفيلوس» وطلب الرأفة به، والتّنويه بسجايا هذا المُبْعدْ السياسي القوريني الذي نُكب بمصادرة أمواله وقاسىٰ آلام الغربة بعيداً عن مدينته؛ متذرِّعاً بكمال شخصيته وخلقه وتعشُّقه للحرية، طالباً من الملك أن يأذن له بالرجوع إلى بيته في قوريني والمشاركة مجدّداً في حياة هذه المدينة بسلام. واعداً الملك بأنّه سوف يقنع بالعيش فيها بهدوء، مكرِّساً ما تبقّىٰ له من العمر في دراسة الفنّ ومخالطة المسالمين من مثقّفي قوريني، ومتعهِّداً بعدم ممارسة السياسة أو التدخُّل في شئون الحكم، وبالإخلاص للملك(1).

---

(1) أَلفتُ نظر القارىء العربي إلى أنّني قد اختصرت هذا المقطع العويص من كتاب «شامو» وغرْبلْته من كثير من التفاصيل المملّة التي لا علاقة لها بتاريخ قوريني. وهي تفاصيل تنصبُّ على البوثيتين الرابعة والخامسة، من وجهة نظر فلسفيّة وميثولوجية كثيرة التشْعيب، وتنْحو إلى تطبيق مناهج النقد الشعري ومقاييس فقْه اللغة الإغريقيّة القديمة على أسلوبهما. لكنني انتخلتُ وأبقيت على كل ما يهم تاريخ قوريني فيه. والمقطع المذكور يقع في الأصل الفرنسي بين صفحة 179 وبين صفحة 198، لمن يريد مراجعة هذا النصّ المختصر بالعربية هنا.

ودعونا الآن نُوجز المعطيات التاريخية التي أمدَّتنا بها بوثيّات «بنداروس» حول تاريخ قوريني، تحت حكم «أركسيلاوس الرابع»، في الأسطر التالية:

في حوالي سنة 460 قبل الميلاد كان ثامن ملوك الأسرة الباطيّة، «أركسيلاوس الرابع»، يحكم مدينة قوريني وبقية المدن الإغريقيّة في قورينائية. وكان هذا الملك في مُقتبل العمر عند اعتلائه عرش المدينة، لكنه كان طاغية مستبداً؛ الأمر الذي جعله يمْحق في المهْد محاولة تمرُّدٍ شرعت في تدبيرها الطبقة الأرستقراطية الإغريقيّة في المدينة. وواصل «أركسيلاوس الرابع» انتهاج الأساليب الاستبداديّة التي كان أسلافه قد مارسوها من قبْله، واسْتجْلب إلى مدينة «يوسبيريدس» معمِّرين جنَّدهم من بلاد الإغريق نفسها، حيث أبقىٰ عليهم في تلك المدينة، تحت الطلب، للإحتماء بهم فيها، إذا ما اضطرّته الظروف إلى الفرار من قوريني فجأة. ولقد كان هذا الملك يحيا حياة بذخٍ وسط بلاطه الراقي ويُكْثر من إقامة الحفلات. ولقد أسهم في علوٍّ مكانته انتصاران رياضيّان أحرزتْهما عربته الخاصّة في اثنين من السباقات الجامعة التي جرت في بلاد الإغريق الأمّ وأُقيم أوّلهما في «دلفي»، في سنة 462 قبل الميلاد، وأُقيم الثاني في «أوليمبيا» في سنة 460 قبل الميلاد؛ حيث كلَّف «أركسيلاوس» شاعراً مرموقاً من أعظم شعراء الإغريق، هو «بنداروس»، بالتَّغنّي بأوّل هذيْن النصرْين. وبالنظر إلى أهميّة ذلك النصر الرياضي، فإنّه من الطبيعي أن يخلِّد «أركسيلاوس الرابع» فوز عربته في السباق بإهداء العربة نفسها إلى معْبد الإله «أبوللو» في دلْفي لتنْضاف إلى بقية القرابين الدينيّة المحفوظة في ذلك المعبد.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن «باوسانياس» يحدِّثنا في القرن الثاني بعد الميلاد، في كتابه المسمىٰ: «الوصف الجغرافي لبلاد الإغريق»، عند حديثه عن معبد «أبوللو» في دلْفي، عن أنّه كان يوجد بين التماثيل المعروضة في الساحة الملحقة بالمعبد ـ وهي التماثيل التي كانت تُنْذر لـ «أبوللو» كقرابين

دينيّة ـ تمثالٌ يزْعم هذا المؤلِّف أنَّ شعب قوريني الإغريقي هو الذي أهداه للمعبد. والتمثال يصوِّر «ليبيا» في هَيئة امرأة تقوم بتتْويج «باطوس الأوّل»، وتجلس «قوريني» إلى جانبهما في شكل حوريَّة تقوم بدور سائس العربة. ويقول «باوسانياس» أن المثَّال الذي نحت هذا التمثال القُرْباني هو الفنّان الإغريقي «آمفيون القنوسوسي»، ابن «أكيسوتور». ونحن نعـرف أن هذا النحّات قد عاش في فترة قريبة بعض الشيء من تاريخ الإطاحة بالنظام الملكي الباطي في قوريني، أي بُعيْد منتصف القرن الخامس قبل الميلاد. وفي رأينا أن الذي أهدىٰ التمثال إلى معبد «أبوللو» في دلفي ليس هو شعب قوريني، وإنّما هو الملك «أركسيلاوس الرابع»؛ لأنه لا يُعْقل أن تقوم الدولة القورينيّة أو شعب قوريني بتكليف مثَّال بنحت تمثال كهذا تُمجِّدُ فيه شخصيةُ مؤسس السُّدَّة الباطيّة المالِكة، «باطوس الأوّل»، في وقتٍ كان قد أُطيح فيه بهذه الأسرة وحلَّ محلّها نظام جمهوري يمقت أيّة إشارة إليها. ولذا، فإنه لا مفرٌ من الافتراض بأنَّ آخر الملوك الباطيين الطُّغاة، «أركسيلاوس الرابع» نفسه هو الذي أهدىٰ التمثال كقُرْبان للمعبد، وذلك بمناسبة فوْز عربته الخاصة في الألعاب البوثيَّة لسنة 462 قبل الميلاد. ولا ننْسى أن شخصيّات «باطوس الأول»، و«ليبيا»، و«قوريني» ـ التي يرمز لها التمثال المذكور ـ هي نفس الشخصيّات الرئيسيّة التي ورد ذكرها، في صبْغةٍ أسطوريةٍ، في بوثيّات «بنداروس». وهكذا، فإن هذا التشابه الرمْزي بين هذا العمل النحتي، الذي نقشه إزْميل المثَّال «آمفيون القنوسوسي»، وبين العمل الشعري الذي صاغه الشاعر «بنداروس» في بوثيّاته نظْماً، يكشف لنا عن أن هاتين المأْثرتين الفنيتين لا بد وأن تكونا قد نُفِّذتا، كلتاهما، بإيحاءٍ من «أركسيلاوس الرابع»، ولا أحد غيره.

الفصل التاسع

الإطاحة بالملكية الباطية

حوالي نفس الوقت الذي كان يحتفل فيه «أركسيلاوس الرابع» بالنصر الذي أحْرزته عربته في الألعاب البيثيَّة، كانت هنالك أحداث خطيرة تجري في مصر. فلقد أدّىٰ اغتيال إمبراطور الفرس «خشايارشا» (= إكزركسيس)، في سنة 465 قبل الميلاد، إلى وقوع أزمة حول العرش الفارسي. وفي مصر نفسها، انتهز أمير ليبي يُدْعى «إيناروس»[1]، هذه الفرصة لتحريض المصريين ضد الاحتلال الفارسي. واستجاب المصريُّون لدعوته، فانضمُّوا تحت لوائه؛ ممَّا مكَّنه من طرْد جُبَاةِ الضرائب الفرس وإجبار جنود المرْزبان الفارسي «أخايمينس» على الاحْتماء بأسوار مدينة «منف». ولكي يضْمن «إيناروس» تواصُل نجاح حركته التحريريّة، نراه يتّصل بأثينا ويلتمس عونها، حيث رحَّبت هذه بذلك ـ لأنها كانت تطمع آنئذٍ في إنشاء محطّات تجارية لها على الشواطىء المصرية ـ فأمدَّتْه بأسطول بحري، وصل إلى مصر، وعبر مياه

---

(1) «إيناروس» هو أحد أُمراء مملكة «لوبيا» التي كانت قائمة بين النيل والصحراء والبحر وتشمل معظم مناطق الوجه البحري. وهو ابن «بسمتيك» الذي يُحتمل أنّه كان ينتمي إلى فرع الأسرة الصاوية القديمة التي كانت تحكم مصر قبل ذلك التاريخ بحوالي ستّين عاماً. انظر: سليم حسن: «مصر القديمة»، ج / 13، ط. دار الكتاب العربي، مصر (د. ت)، ص ص 111-114. وانظر كذلك نجيب ميخائيل إبراهيم: «مصر والشرق الأدنىٰ القديم»، ج / 1 ـ الكتاب الثاني، دار المعارف بمصر، 1958، ص 338.

النيل، وانضمّت قوّاته الإغريقيّة إلى قوّات «إيناروس». وأخذت هذه الحملة الإغريقيّة تحارب ضد القوّات الفارسية في مصر لعدّة سنوات، واشتركت مع قوّات «إيناروس» في ضرب الحصار حول القوّات الفارسية التي كانت تستليذ بقلعة «ممفيس» (= منف). غير أن إمبـراطور الفـرس الجديـد «أردشير» (= أرتكزركسـس) عجّل بإرسال تعزيزات قوية من قوّاته إلى مصر، قُدِّر عددها بعشرات الآلاف من الجنود، فتمكنت تلك القوّات من شنٍّ هجوم ضـد أعدائها. وبعد مقاومة شديدة أجبر الفرس قوّات «إيناروس» وحلفائه الأثينيين الإغريق ـ التي كانت قد حُوصرت بدورها في جزيرة «بروزوبيتيس»، الواقعة بين فرعين من فروع نهر النيل ـ على التّسليم، وذلك في سنة 454 قبل الميلاد[1]. فأحرق الفرس سفن الأسطول الأثيني، إلّا أنّهم سمحوا لجنوده الإغريق بالعودة إلى بلادهم. فتوجّه هؤلاء إلى قوريني عبر الصحراء، حيث هلك معظمهم أثناء الطريق، بينما وصل الباقون إلى قوريني، حيث أبحروا بعد ذلك من مينائها [أبوللونيا فيما بعد] عائدين نحو بلادهم.

ولقد ساد في أوساط المؤرِّخين رأيٌ مفاده أن الثوّار المصريين الذين كانوا تحت إمْرة الأمير الليبي «إيناروس»، قد عقدوا ـ زيادة على حصولهم على دعمٍ عسكري من الأسطول الأثيني ـ تحالفاً مع عاهل قوريني «أركسيلاوس الرابع». وتتمثّل الحجّتان الإيجابيتان الوحيدتان اللتيْن استند عليهما القائلون بهذه الفرضيّة، من ناحية، في مقطع من مقاطع البوثيّة الرابعة لـ «بنداروس»، (البيت الثالث والخمسون وما بعده)، حيث يُوحي مغزى هذا المقطع بأن الشاعر يلمِّح فيه إلى حملة قورينية توجّهت آنذاك إلى مصر؛ وتتمثّل، من ناحية أخرى، في واقعة مؤكّدة، وهي أن ما ظل من الجنود الأثينيين الذين سمح لهم الفرس بمغادرة مصر، بعد هزيمة حملتهم عليها، قد رجعوا إلى أثينا

(1) وعندئذٍ قبضت القوّات الفارسية على الثائر الليبي «إيناروس» وأعدمته صلباً.

عن طريق قوريني. لكننا نرىٰ من جانبنا أن الحجتين المذكورتين لا تكفيان في التَّدليل على أن «أركسيلاوس الرابع» قد تحالف بالفعل مع حركة «إيناروس». ذلك أن هؤلاء المؤرِّخين الذين قالوا بهذه الفرضيّة التاريخيّة، قد فهموا المقطع المذكور من البوثيَّة الرابعة ـ الذي حاولوا الاستناد عليه ـ فهماً خاطئاً. والحقيقة أن «بنداروس» قد تعرَّض في هذا المقطع لأمور أخرىٰ؛ عندما كان يتطرَّق في ختام بوثيَّته تلك لنبُوءة الساحرة «ميديا»، التي أنْبأت ركاب المركب «آرجو» بما يخبئه القدر لنسْل أحد ركّابها، وهو «إيوفيموس»، جدُّ الباطيين المزعوم؛ حيث يقول «بنداروس» أن هذه الساحرة قد أبلغت «إيوفيموس» بأن أحد أحفاده:

«.. سيأتي، في أحد الأيّام، إلى معْبد دلفي، ليتلقّىٰ من الإلٰه أبوللو نبوءة تأمره بآصطحاب العديد من الرِّفاق في مركب يبحر به نحو معبد آمون في بلاد النيل..».

غير أن الذي لا ريْب فيه هو أن الذي قصده «بنداروس» في هذه الأبيات هو تأسيس مدينة قوريني، في حدّ ذاته، على يد أحد أحفاد «إيوفيموس»، أعني: «باطوس الأوّل». ويجب علينا ألاَّ ننْخدع هنا لذكر «بلاد النيل»؛ لأن المفاهيم الجغرافية في أيّام «بنداروس» كانت ما تزال غائمة وغير محدّدة. وصاحب البوثيَّة الرابعة كان يرىٰ في قورينائية، قبل كل شيء، بلداً يُعْبدُ فيه الإلٰه آمون الذي يقوم معبده في واحة سيوة الواقعة غير بعيدٍ عن التُّخُوم الفاصلة بين مصر وبين هذا الإقليم. وعلى أيّة حال، فإننا لا نرىٰ في هذا المقطع من بوثيَّة «بنداروس» ما يمكن أن يُسْتشفّ منه إطلاقاً أيّة محاولة من جانب «أركسيلاوس الرابع» للهجوم على مصر.

أمّا فيما يتعلّق بعبور الجنود الأثينيين لقورينائية واتخاذهم لمدينة قوريني نقطة يركبون البحر من عندها وهم في طريقهم إلى أثينا، بعد هزيمتهم في معركة «بروزوبيتيس» على يد القوّات الفارسيّة؛ فإنه أمر لا يترتب عليه إطلاقاً الافتراض بأن قوريني كانت قد اشتركت بقوّاتها في الحملة الأثينية المذكورة

ضد التواجد الفارسي في مصر. فالواقع أنّه بعد إحراق الفرس لمراكب الحملة الأثينية، لم يعد هنالك من مفرٍّ أمام جنود هذه الحملة سوىٰ التوجُّه برًّا، عبر الصحراء، بٱتّجاه أقرب مدينة إغريقيّة مستقلّة، وهي قوريني. ولا شك في أن رجوع أولئك الجنود الأثينيين المهزومين إلى بلادهم برًّا، كان مغامرة محفوفة بالمخاطر والصعاب؛ فهم قد اضطرُّوا إلى عبور فيافي صحراء مراقية (البطنان) التي يقطنها الليبيُّون المعادون لإغريق قوريني، والذين لم تعد تُرْهبهم صولات الحاميات الفارسية الرابضة عند حدود إقليمهم مع مصر؛ ولذا فلا بد وأنّهم قد هاجموا شراذم الجنود الأثينيين المتقهقرين وعاثوا فيهم تقتيلاً. ولعل هذا هو ما تمنّاه «ميجابيز»[1]، قائد القوّات الفارسية في معركة «بروزوبيتيس»، عندما سمح لجنود الحملة الأثينية المهزومين بعبور صحراء مراقية، أثناء تقهقرهم باتجاه قوريني. وإذا ما نحن استقْرأنا القرائن الأركيولوجية، فأننا نجد أنه من المؤكّد أن قوريني كانت لها آنذاك علاقات تجارية مع أثينا. وهي علاقات كانت قد توطّدت بين المدينتين الإغريقيتين منذ وقتٍ طويل. بيْد أن هذا لا يعني ألبتَّة أنْ تكون قوريني قد شاركت في الحملة البحريّة الأثينيّة ضد الفرس في مصر. بل على العكس من ذلك، فإنّه لا بد وأن تكون سياسة الحذر والحياد التي سار عليها الملوك الباطيُّون باستمرار، قد أوحت لـ «أركسيلاوس الرابع» بعدم إقحام نفسه في هذه المغامرة الحربيّة التي دارت رحاها على أرض مصر البعيدة؛ خصوصاً وأنَّ هذا العاهل كان مشغولاً آنئذٍ بتعقيدات ومصاعب الموقف المحلّي في قوريني، والتي كانت تتهدَّد عرشه.

وإذن، فإن قوريني لم تلعب، بالنسبة لحملة أثينا ضد القوّات الفارسيّة في مصر، سوىٰ دور المستضيف المُغِيث لشراذم الجيش الأثيني المتقهقر من

---

(1) كان «ميجابيز MÉGABYZE» يشغل آنئذٍ منْصب المرْزبان الفارسي الحاكم في الشام. وكلّفه إمبراطور فارس بقيادة القوّات التي أرسلها إلى مصْر للتصدّي للحملة البحرية الأثينيّة ولقوّات الأمير الليبي «إيناروس».

مصر، وتسهيل أمر عودته إلى بلاده. فإن هذا هو الدور الذي فرضه على هذه المدينة موقعها الجغرافي. وهذا لا يعني أن قوريني قد أسهمت بالفعْل في تلك الحرب؛ وإنّما يعني فقط أنّها كانت تتمتّع آنذاك باستقلال كامل عن الامبراطورية الفارسية، لأن هذه المدينة لم تنتظر ـ على عكس ما زعمه بعض المؤرِّخين ـ اندلاع التّمرّد المصري الذي قاده الليبي «إيناروس» ضد القوّات الفارسية، كيْ تستعيد استقلالها هذا وتُنْهي تبعيّتها للفرس. إذْ أن هنالك العديد من القرائن التي تحملنا على افتراض أن قوريني قد شرعت ـ منذ نهاية الحرب الميديَّة الثانية ـ في التخلُّص في صمْت من نيْر السيطرة الفارسية. ومع ذلك، فإنه كان للتمرُّد المصري ضد الفرس نتائج لا يُسْتهان بها بالنسبة لقوريني؛ ذلك أن النصر الذي أحْرزته القوات الفارسية في معركة جزيرة «بروزوبيتيس» ضدّ قوات أثينا البحريّة، وإنْ كان قد مكّن الفرس من استرجاع سيطرتهم على معظم الأراضي المصريّة؛ إلاَّ أنّه لم يضع نهاية للمقاومة الوطنية المصرية ضدّهم. ففي المناطق التي تغمرها المستنقعات بدلتا النيل، واصل أحد زعماء التمرّد المصري ـ وهو الأمير «أميرتي» (= امنحـر)، أمير مدينة «صا الحَجرْ» ـ التصدِّي لقوّات الاحتلال الفارسي. ولذا، فإنه لم يكن في وسْع مرْزبان مصر الفارسي الجديد «أوتانيس»[1] التفكير في إرسال حملات ضد قورينائية على شاكلة الحملتين اللتين أرسلهما، في الماضي، تباعاً، كل من «أرياندس» و «أرساميس» (= أعحمس) الفارسيين، من مصر، ضد مدينة برقة. وهكذا، فإن مدينة قوريني الإغريقيّة ظلّت تحيا في أمان خلف الموانع الصحراوية التي ليس من السهل اجتيازها، ولم تعُد منذئذٍ تخشىٰ صولات الجيوش الفارسية في مصر.

---

(1) صار «أوتانيس» مرْزباناً فارسيًا لمصْر بعد وفاة مرْزبانها السابق «أخايمينيس»، الذي قتله الأمير الليبي الثائر «إيناروس» وأرسل جثّته إلى ملك الفُرس ـ تحدياً له ـ في سنة 459 ق م.

ومثلما رأينا من قبل، فإن التّخوُّف من المخاطر الفارسية المحتملة الوقوع، كان يشكِّل بالنسب لأواخر الملوك الباطيين في قوريني أكبر ضمان لاستمرارية حكمهم. فهل كان انحسار تلك المخاطر الخارجية هو الذي عجَّل - بحدٍّ ذاته - في سقوط الحكم الملكي فيها؟. . إننا في الحقيقة لا نعرف عن هذه الواقعة شيئاً، اللَّهمّ إلاَّ من خلال إشارة خاطفة أوْردها أحد شُرَّح بوثيَّات «بنداروس» المجهولين، وكذلك من خلال نصّ قصير ينْسبُ إلى الفيلسوف «هيراقليطس القنْطري»[1]. فلقد ذكر شارح «بنداروس» المجهول أن «أركسيلاوس الرابع» قد اغتيل على يد القورينيين، وبأن النظام الملكي قد انهار بموته. أمّا «هيراقليطس القنْطري»، فإنه يُعْزىٰ إليه خبر فيما يلي نصُّه:

«. . شاهد الناس، خلال حكم أركسيلاوس غُراباً أبيضاً؛ فتطيَّروا من رؤية هذه الظاهرة العجيبة. واستردّت الديموقراطية مكانتها، وانسحب باطوس إلى مدينة يوسبيريدس التي مات فيها؛ حيث احتزَّت الدَّهْماء رأسه ورمت به في البحر. .».

ونستخلص من ذلك أن الحزب المُناوىء للباطيين قد لجأ عامداً، في حملته ضد ملك قوريني، إلى استعمال اسطورة خرافية كانت متداولة آنئذٍ بين الناس؛ بحيث أنّنا وجدنا لها صدى حتى لدى مؤرِّخ مثل «هيرودوتس»؛ حيث لوَّح خصوم الملك «أركسيلاوس الرابع» ضدّه بفحْوى هذه الأسطورة التي تتوعّده بنذير شؤم سيحلُّ به قريباً. ونحن نعرف أن «كاليماخوس القوريني» قد أشار في نشيده الثاني، الذي عنوانه: «إلى أبوللو»، إلى أسطورة تتحدّث هي

---

(1) «هيراقليطس القنْطري» هو فيلسوف إغريقي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد، وهو أحد تلامذة أفلاطون، بل وربما تلميذ لأرسطو والفيثاغوريين. له مؤلّفات مفقودة في: التاريخ، والأخلاق، والطبيعة، والفلك، والموسيقى، والنحو. وضع نظرية في ديناميكيّة الجُزيْئات عارض بها نظرية ديموقريطس في الذّرة. وُلد هيراقليطس القنطري في 390 ق م، وتوفي سنة 310ق م.

الأخرى عن «غراب أبيض»، حيث ذكر أن «أبوللو» كان قد ظهر أصلاً في صورة هذا الطائر العجيب اللون، وقاد «باطوس» وأوائل المعمِّرين الثيرانيين نحو الموقع الذي أنشئت عليه مدينة قوريني[1]. ولذا، فإن ظهور هذه الآية العجيبة مجدّداً ـ سواء كانت أعجوبة حقيقيّة أم مجرّد أسطورة مختلقة ـ قد فُسِّر على أنّه أمرٌ يحْمل في طيّاته نذير شؤم لن يلبث أن يحلَّ بالأسرة الباطيّة المالكة.

وإذا ما نحن أخذنا بالمنطوق الحرفي لهذين النصين القديمين، فلا بد لنا من أن نفترض أن «أركسيلاوس الرابع» قد أغتيل على أيدي القورينيين، وبأن الديموقراطية قد أُعلنت واستتبَّ لها الأمر في قوريني، على إثر ذلك، وبأن شخصاً يُدعى باطوس قد راح بعد ذلك ضحية على أيدي سكان مدينة «يوسبيريدس» (= بنغازي). ولعل «باطوس» الذي أشار إليه نص «هيراقليط القنطري» هو ابنٌ لـ «أركسيلاوس الرابع». ومع ذلك، فإن بعض المؤرِّخين يعتقدون بأن هذا النص المنسوب إلى الفيلسوف الإغريقي المذكور ـ المنشور ضمن مباحث الكتاب المسمّى «مقتطفات تاريخيّة إغريقيّة» ـ قد وقع فيه تحريف، وبأنّه ـ كي يستقيم لنا معناه ـ يحْسُن بنا استبدال الاسم «باطوس»، الوارد فيه، باسم «أركسيلاوس». وعندئذٍ يكون «أركسيلاوس الرابع»، الذي تغنّى بأمجاده الشاعر «بنداروس» هو الذي لاقى نهاية مأساوية في مدينة «يوسبيريدس»، التي هي نفس المدينة التي كان يعوِّل على الاستلاذة بها وقت

---

(1) يقول «كاليماخوس» في نشيده المذكور: «.. كان فويبوس هو الذي أنْبأ باطوس ـ الذي كان من مدينتي ـ بالموْقع الخصيب؛ إذْ تجسَّد على هيئة غراب أبيض، وكان ذلك فألًا لحُسْنِ طالع مؤسِّس مدينتنا. وقاد [باطوس] شعبه عندما حلّ بليبيا، وأقسم أن يهب ملكونا مدينةً ذات أسوار، وقَسَمُ أبوللو باقٍ أبد الدهر..». انظر كتاب الدكتور عبد الله حسن المسلمي: كاليماخوس القوريني شاعر الإسكندرية؛ منشورات الجامعة الليبيّة، كلية الآداب، 1973، ص 135. والمعروف أن «كاليماخوس» قد تغنّىٰ بقوريني في مؤلّفه «الأناشيد ـ HYMNES» وفي كتابه «الإبيجرامات EPIGRAM».

الشدّة طلباً للنجاة من أي خطرٍ قد يتهدّد حياته. ومما يؤيّد هذه الفرضية هو تمشّيها، أكثر من غيرها من الفرضيّات، مع ما ذكره «هيرودوتس» من أن عدد ملوك قوريني الإغريـق يقف عند حدّ الثمانية ملوك. غير أنّه ما تزال تنقصنا قرائن قطعية حتى يمكننا التسليم بهذه الفرضيّة على نحوٍ جازم.

وزيادة على محاولة الوقوف على تفاصيل هذه الثورة التي أوْدت بحياة «أركسيلاوس الرابع»، نرىٰ أنّه من الأهمية بمكان، كذلك، التعرُّف على التاريخ الذي وقعت فيه. غير أن الشك، ما يزال لسوء الحظ، كبيراً حول هذا التاريخ. والقرينة الوحيدة، التي قد تبدو مقبولة، هي تلك التي أمدَّنا بها شارح بوثيّات «بنداروس» المجهول، الذي يذهب إلى أن أسرة الباطيين المالِكة قد حكمت قوريني مدة مائتيْ سنة. وإذا ما نحن سلَّمْنا بأن سنة 631 قبل الميلاد، هي التاريخ الذي أُسِّست فيه المدينة، وإذا ما افترضنا أن فترة حكم مؤسّسها «باطوس الأوّل» تبدأ مع إقلاعه مع جماعته من المعمّرين من جزيرة «ثيرا» ـ أي قبل التأسيس الفعلي للمدينة بمدة ثمان سنوات، أعني في سنة 639 قبل الميلاد ـ فإننا نستنتج من شهادة شارح بوثيّات «بنداروس» المذكور، القائلة بأن الباطيين حكموا قوريني مائتين من السنين، بأن النظام الملكي الباطي قد أطيح به في سنة 439 قبل الميلاد. ولكن، مثلما سبق لنا وأن رأينا، فإن تاريخ إنشاء المدينة بالضَّبْط لم يُعرف قطّ على نحوٍ يقيني جازم. ومن ناحية أخرى فإنه من حقّنا أن نتساءل عمّا إذا كان يجدر بنا الرُّكون إلى إشارة عابرة ساقها شارح مجهول؟.. ألا يجوز أن يكون رقم المائتين من السنين الذي جعله هذا الشارح عمْراً لحكم الباطيين مجرّد رقم تقريبي؟. ويمْسك المؤرِّخون المحدثون عادة عن إقرار صحة هذا الرقم. لكن موقفهم هذا يدل ـ في رأيي ـ على شطط في الحذر والريبة من جانبهم؛ لأن الشارح المذكور لا يمكن أن يكون قد اختلق من عنده هذا الرقم. فهو قد عثر عليه، بلا ريب، في أحد المصادر التي استشارها أو اسْتقىٰ معلوماته منها حول تاريخ قوريني. وبما أنّنا

نعرف أن «هيرودوتس» ليس هو مصدره ـ من حيث أن هذا المؤرِّخ لم يحدّد لنا مدّة حكم الباطيين لقوريني ـ فلا بـد وأن شارح «بنداروس» هذا قد استقى ذلك من كتابات المؤرِّخين الهلنيستيين. حقًّا أن هؤلاء قد عوَّدونا أحياناً ـ عند معالجتهم لوقائع تعود إلى تواريخ مُغْرقة في القِدَم ـ على عدم التَّورُّع عن تحريف تلك الوقائع أو تفسيرها مثلما يعِنُّ لهم؛ غير أنّهم، فيمـا يتعلق بالتسلسل التـاريخي لها، في حـدّ ذاته، يـظلُّون في الغالب عـالةً على «هيرودوتس»، الذي تتّفق حسابات التواريخ وعدُّها لديه مع حسابات الرياضي والفلكي القوريني «إراتوسثينيس». وفي رأي هؤلاء المؤرِّخين الهلينستيين فإن سنة 631 ق م تعتبر تاريخاً يُحْتملُ أن يكون مؤكّداً كتوقيت أُنشئت فيه المدينة. وإذا كان هؤلاء المؤرِّخون اللاحقون قد ذكروا بأن الملكية الباطيّة قد عمَّرت مائتين من السنين، فذلك لأن الإطاحة بهذه الملكية قد وقعت بعد انقضاء حوالي مئتي سنة تقريباً، بدْءاً من التاريخ المعتمد لقيامها. وإذن، فإنني اعتقد بأن شهادة شارح «بنداروس» المجهول، ليست، في حدّ ذاتها، قمينة بأنْ تُرْفض. ولذا، فإن القول بأن موت «أركسيلاوس الرابع» قد تم في سنة 439 قبل الميلاد ـ أو قُبيْلها، أو بُعيْدها بقليل ـ لا بد وأن يؤخذ في الاعتبار بكل جديَّة، حتى وإن لم تؤكّده لنا قرائن أخرى.

يربط بعض المؤرخين المحدثين ـ من أمثال «مالتن» ـ بين واقعة تنْحية «أركسيلاوس الرابع» عن الحكم بالقضاء على حياته، وبين مرور القوّات الأثينيّة بمدينة قوريني، في أعقاب هزيمتها في معركة جزيرة «بروزوبيتيس» الواقعة بين فروع نهر النيل، في حوالي سنة 454 قبل الميلاد. وفي اعتقادي أن هذه الفرضيّة إنّما هي محض هراء؛ ذلك أن شراذم جيشٍ كان قد هُزِمَ لتوِّه، كالجيش الأثيني الذي هرع نحو قوريني الصَّديقة، طالباً غوْثها ونجدتها في ملمَّته، ليس لديه من حوْلٍ ولا قوّة ـ ولا ذريعة ـ لإحداث ثورة سياسيّة في هذه المدينة. وعلى أيّة حال، فإننا حتى ولو افترضنا جدلاً بأن حدثاً كهذا قد وقع

بالفعل؛ فإنّه ما كانت لتفوت مؤرِّخ إغريقي أثيني، ثقةٍ، كـ«ثوكيديدس»[1] فرصة الإشارة إليه، وهو الذي اشتهر بتسجيله لكل الأحداث الهامّة التي وقعت في تلك الحقبة. ولذا فإننا نرىٰ أن تاريخ سنة 454 قبل الميلاد ـ وهو تاريخ هزيمة الأثينيين على يد الفرس في مصر ـ لا علاقة له البتّة بالموضوع الذي يشغل بالنا في هذا الفصْل، وهو الإطاحة بآخر الملوك الباطيين.

ولكن ـ في المقابل ـ فإن تاريخ زيارة «هيرودوتس» لمدينة قوريني سيشكِّل، بالنسبة لنا، حدثاً هامًّا، في حدِّ ذاته؛ لو أنّه كان بالإمكان تحديد تاريخ وقوع هذه الزيارة على وجْه الدّقة. والذي لا ريب فيه، حقيقةً، هو أنّ «هيرودوتس» قد وصل إلى قوريني بعد الإطاحة بحكم دولة الباطيين. وفي حوْزتنا العديد من القرائن التي تشهد بذلك؛ من بينها مثلاً: أن تلك المعلومات التي تحصّل عليها مؤرّخنا أثناء زيارته تلك للمدينة، تبدو في الغالب مناهضة للنظام الباطي؛ خصوصاً فيما يتعلّق بتلك النبوءة التي عرضْنا لها في السابق، والتي تحدّد عُمر الحكم الباطي بثمانية أجيال[2]، وهي نبوءة رواها «هيرودوتس» بدون مجاملة وبشيء من التّشفِّي؛ مما يوحي بأنّها نبوءة مزيّفة إختُلقت اختلاقاً بعد سقوط العرش الباطي.

وللأسف، فإن تاريخ زيارة «هيرودوتس» لقوريني ما يزال غير محدَّد.

---

(1) «ثوكيديدس الأثيني ـ THUCYDID» يعتبر أعظم مؤرِّخي الإغريق. وُلِد في أثينا حوالي سنة 465 قبل الميلاد، وتوفي سنة 395 قبل الميلاد، وهو مؤلِّف كتاب: «تاريخ الحرب البيلوبونيزية»، التي وقعت بين الأثينيين والإسبرطيين. وهو معروف بموضوعيّته وعدم تحيُّزه، ويغْلب طابع الاختصار والإيجاز على أسلوبه في سرْد الوقائع التاريخية، ويهتم كثيراً بتعليل هذه الوقائع. وهو يُعتبر أعمق قدماء المؤرِّخين غوْراً، بل ويُعتبر أوّل مؤرِّخ اتّبع المنهج العلمي التحليلي في التأليف.

(2) انظر الفصل السادس من هذا الكتاب (نص الفقرة 163 من هيرودوتس) حيث خاطبت كاهنة معبد أبوللو الملك أركسيلاوس الثالث قائلة: «.. إنّ أبوللو قد أذن لأسرتكم بأن تحكم قوريني طوال ثمانية أجيال..».

والحقيقة أن جميع تلك التعليلات التي قصد أصحابها من ورائها ربْط زيارة هذا المؤرِّخ الكبير للمدينة برحلته التي زار فيها مصر، تبدو لنا غير مُقْنعة؛ بل إنه لمن المستحيل ـ حتى ولو استنْطقنا نصوصه نفسها ـ التَّوصُّل إلى معرفة أيٍّ من الزيارتين سابق على الآخر. ويقترح علينا المؤرِّخ الألماني «جاكوبي» أن يكون مرور «هيرودوتس» بقوريني قد تم في تاريخ مقاربٍ لسنة 443 قبل الميلاد. لكنه ليس هنالك ما يمنع من الافْتراض بأن زيارته لقوريني تلك قد تمّت بعد هذا التاريخ المقترح. إن تاريخ الإطاحة بنظام حكم الباطيين نفسه، هو الحريُّ في الواقع بأن يُتَّخذ عنصرَ دلالةٍ لتوقيت التاريخ الذي زار فيه هذا المؤرِّخُ المدينةَ، وليس العكس.

بيْد أن القرينة التاريخيّة الكفيلة بتأييد ما ذكره شارح بوثيّات «بنداروس» المجهول هي الآن بالفعل في حوزتنا منذ أنْ اسْعفتْنا بها الكشوفات الأثريّة. ذلك أن التنقيبات الأثرية التي أجراها علماء الآثار الإيطاليُّون إبّان فترة استعمار إيطاليا لليبيا، قد أدّت إلى العثور ـ بالقرب من الرُّكْن الجنوبي الغربي لمعبد «أبوللو» في قوريني ـ على لوحة نحْتية نافرة تُصوِّر رأساً من البرونز لرجل له لحْية، ويطوِّق هامته إكليل. وهذه اللوحة تمثِّل، بدون أدنىٰ شكٍّ ـ لا أحد الآلهة ـ بل، بالأحْرى ملكاً من الملوك. ولقد أمكن تحديد زمن نقش هذه الرأس البرونزية ـ على نحو يقيني لا يقبل الشك ـ بإرجاعها إلى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، وذلك استناداً على جملة من الاعتبارات الآخذة في الحُسبان الأسلوبَ الفنيَّ الذي استُعمل في تشكيلها. وإنه لمن المستحيل في ذلك التاريخ أن يُقْدِم فنّان من الفنّانين، في قوريني، على نقْش صورة لشخصية ملوكية خلافَ شخصية «أركسيلاوس الرابع»، لأنه هو الوحيد، من بين جميع الملوك الباطيين، الذي كان ما يزال عنئذٍ على قيْد الحياة. وإذن، فإنه ليس من المستبعد أن تكون هذه الرأس البرونزية هي رأس هذا الملك الباطي.

ومن الواضح أن هذه اللوحة كانت قد قُدِّمت كنذْرٍ قُرْباني للإله «أبوللو» عندما كان «أركسيلاوس الرابع» ما يزال على قيْد الحياة. ويدلُّ سُمْكُ الطبقة الأرضيّة التي عُثر فيها على هذه الرأس البرونزية على أنّها قد طُمرت في التراب خلال فترة تشييد معبد «أبوللو» الثاني، العائدة، إلى القرن الرابع قبل الميلاد. وليس أمامنا ـ في هذه الحالة ـ سوى أن نفترض بأن نذْر «أركسيلاوس الرابع» القرْباني هذا قد أُزيل من فوق قاعدته المخصّصة له بالمعبد؛ حيث تم تحطيمه ودوْسه بالأقدام على الأرض، عند اندلاع الثورة التي أطاحت بالملكية. وإذن فإن تاريخ نحت هذا الأثر الفنّي كفيل بأن يمدّنا بالتاريخ التقريبي لتوقيت اندلاع تلك الثورة.

والحقيقة أن تطوُّر الأساليب الفنيّة النحتية إبَّان تلك الحقبة من حقبات النحت الإغريقي جعلها تتّسم بِفُجاجيَّة التنفيذ، وهو أمرٌ معروف للمتخصِّصين، بحيث يمكننا من هذه الوجهة التعرُّف على التاريخ الذي تمّ فيه تنفيذ عمل فنيٍّ كهذا، متميِّزٍ بسمات محدَّدة، وأبقىٰ عليه الدهر في حالة ممتازة. والواقع أنه بفضل أجهزة قياس أعمار الآثار الفنيّة التي صارت متوفرة بين أيدينا اليوم، يمكننا أن نؤكّد ـ دون مجازفة تُفْضي إلى الوقوع في الزلل ـ بأن هذا العمل النحتي الذي يمثِّل رأس «أركسيلاوس الرابع» قد تم تنفيذه في تاريخ لاحقٍ لسنة 450 قبل الميلاد؛ بل إننا إذا ما قارنّاه بأعمال فنية أثرية أخرىٰ معاصِرة له، يمكننا أن نخلص حتى إلى القول بأنّه قد نُفِّذ في حوالي سنة 440 قبل الميلاد.

وهكذا، فإن تحفة قوريني البرونزية هذه قد أسعفتْنا بالقرينة التاريخية التي كنّا نفتقر إليها في محاولتنا تحديد تاريخ الإطاحة بالدولة الباطيّة في قوريني. إذْ لا بدّ وأن الملك «أركسيلاوس الرابع» قد استمر في الحكم حتى حوالي سنة 440 قبل الميلاد؛ وبالتالي، فإن ما ذكره شارح «بنداروس» المجهول، من أن الأسرة الباطيّة قد عمَّرت زُهاء المائتين من السنين، إنّما هو أمر جدير بالتصديق إلى حدٍّ بعيدٍ. وبناءً عليه، فإنه يمكننا كذلك القول بأن التاريخ التقريبي الذي

تمّت فيه زيارة «هيرودوتس» لمدينة قوريني، هو، بلا ريْب، تاريخ لاحق على سنة 440 قبل الميلاد؛ وفي هذه الحالة، فإن زيارته لها تكون لاحقة على رحلته إلى مصر، لا سابقة عليها.

وبناءً عليه، فإن القبول بسنة 440 قبل الميلاد، كتاريخ تقريبي للإطاحة بالملكية الباطيّة في قوريني، يمكن أن يقودنا إلى تفسير ظاهرة برزت قبيل نفس ذلك التاريخ؛ ونعني بها ذلك التغيُّر الملحوظ الذي نلمسه في العملة القورينية العائدة إلى تلك الحقبة؛ فإن بنْط الصبِّ، الخالي من أيّة زخرفة، الذي ضُرِب به محيًا الإله «آمون» الجميل على قطع نقد العمْلة القورينيّة، واتخذته هذه العملة رمزاً لها إبَّان فترة حكم آخر مليكين من ملوك قوريني الباطيين؛ قد تم استبْداله، منذئذٍ، ببنط أكثر تطوراً، وإنْ يكُن أدنىٰ روعة؛ ولعل هذا الاستبدال للبنْط القديم قد حدث على إثر فترة انقطعت أثناءها قوريني عن إصدار عملة تماماً. وزيادة على كل ذلك، فإن عيار العملة الأثيني الذي كان معتمداً في ضرْب «دراخمات» العملة القورينية الرباعية الشكل، حتى ذلك الوقت، قد استُبدل بعيار أخفّ وزناً، يُطلق عليه اسم «العيار الآسيوي». ولا شك في أن لهذه التحويرات العميقة التي نالت العملة القورينية ـ وهي تحويرات نجهل مغزاها الحقيقي ـ علاقة بالإطاحة بالنظام الباطي.

* * *

وفيما يلي، نُلْحق بهذا الفصْل، جدولاً يُلخِّص المعطيات التاريخية الأساسيّة الخاصّة بفترات حكم الملوك الباطيين في قوريني، ويُوجز الأحداث الهامّة التي وقعت في عهد كلّ منهم. وهي معطيات مستخلصة من كل ما سردناه في الفصول السابقة:

جدول حول أهمّ شخصيات وتواريخ وأحداث العهد الملكي الباطي في قورينيّ

تعاقب الملوك	الملوك الباطيُّون	تواريخ فترات حكمهم	تواريخ هامّة أخرى
1 ـ	باطوس الأوّل (المؤسِّس).	639 ق م ـ 599 ق م.	تأسيس مدينة قوريني في سنة 631 ق م.
2 ـ	أركسيلاوس الأوّل.	599 ق م ـ 583 ق م.	ـــــ
3 ـ	باطوس الثاني (السعيد).	583 ق م ـ بعد 570 ق م.	معركة «إراسا» ضد الجيش المصري حوالي 570 ق م.
4 ـ	أركسيلاوس الثاني (العنيد).	بعد سنة 570 ـ ؟.	معركة «ليوكون»: هَزَمَ الليبيُّون فيها جيشَ قوريني الإغريقي (مجهولة التاريخ).
5 ـ	باطوس الثالث (الأعرج).	؟ ـــ ؟.	إصلاحات المشرِّع «ديموناكس» (مجهولة التاريخ).
6 ـ	أركسيلاوس الثالث.	بدأ حكمه قبل 525 ق م وانتهى بعد 522 ق م.	نفْيُه إلى جزيرة «ساموس» بعد 533 ق م ـ وتبعيّته لـ «قمبيز» الفارسي: 525 ق م.
7 ـ	باطوس الرابع (الوسيم).	بدأ حكمه حوالي 515 ق م، وانتهى قبل 462 ق م.	حملة مرْزبان مصر الفارسي «أرياندس» ضد مدينة برقة حوالي 515 ق م. ثم الحملة الفارسية الثانية ضد هذه المدينة، أيّ حملة «أرساميس»، حوالي 483 ق م. ثم تخلُّص قوريني من التبعيّة للفرس: بين 479 ق م ـ و 474 ق م.
8 ـ	أركسيلاوس الرابع.	بدأ حكمه قبل 462 ق م وانتهى حوالي 440 ق م.	فوز عربة هذا الملك في دورة الألعاب البيثيّة الجامعة في 462 ق م؛ وفوزها كذلك في دوْرة الألعاب الأوليمبيّة في سنة 460 ق م. ثم مرور شراذم الجيش الأثيني الذي هزمه الفرس في مصر عبر قوريني أثناء عودتها إلى أثينا في 454 ق م.

الفصل العاشر

حضارة قوريني في العهد البطلمي: المجتمع والاقتصاد

عندما غادر باطوس الأوّل ورفاقه جزيرة ثيرا، فإنّهم حملوا معهم ـ كعادة المعمِّرين الإغريق ـ ضروب عباداتهم وتقاليدهم وحطّوا بها في أرض قورينائية. وبالرغم من ندرة المعلومات التي بين أيدينا في هذا الشأن، إلّا أنّه يمكن الافتراض بأن المؤسسات المدنية والسياسيّة الأولية للمستوطنة الإغريقيّة الجديدة في إقليم قورينائية كانت نسخة من تلك المؤسسات التي كانت قائمة في بلاد الإغريق نفسها. غير أن الظروف المادية التي كانت موجودة آنذاك في هذا الإقليم ـ ومعها صُدف التاريخ ـ قد أدّت إلى تطوير هذه المؤسّسات.

كان الشعب في جزيرة ثيرا موزَّعاً بين القبائل الدُّورية التقليديّة الثلاث: الهيليانيين، والديمانيين والبامفيليين. وليس هنالك أي دليلٍ على أن إغريق قوريني قد راعوا هذا التقسيم المتعارف عليه في جزيرتهم الأُمّ. ولكن ما دام المشرِّع «ديموناكس» قد قسَّم سكان قوريني ـ بحسب تشريعه الذي وضعه لهم ـ إلى ثلاث قبائل، فإن هذا يحملنا على الاعتقاد بأن تقسيمه الثلاثي هذا ما هو إلّا صدىً لذلك التقسيم الثيراني الثلاثي القديم، وبأن المشرِّع المانتيني قد أبقىٰ في مشروعه الإصلاحي على نفس عدد القبائل المبدئي، مكتفياً بإجراء تحوير في مبدأ الانضمام إلى كلٍّ منها. فهو، مثلما رأينا في السابق، قد أقام التوزيع القَبَلي الجديد على أساس الإنتماء العرْقي إلى جماعة تقليديّة؛

وهو بذلك قد أقحم في بُنْية المدينة المهاجرينَ الإغريق الجُدد إلى جانب أوائل المعمِّرين الثيرانيين. ويُسْبغ «هيرودوتس» على هذه القبائل الجديدة تسمية «الأقسام». ولكن ليس هنالك ما يحمل على الاعتقاد بأن هذه التسمية قد استُعملت بالفعل. والنص النقشي الوحيد الذي ذُكرت فيه القبائل الإغريقيّة في قوريني ـ وهو «لوح المؤسِّسين» ـ يبرهن على أن المصْطلح الذي كان مستعملاً هو مصْطلح «قبائل».

ولقد قُسمت القبيلة إلى «بطون» وإلى «منظَّمات»[1] ونحن استقينا تقسيم القبائل القورينيّة على هذا النحو من نفْس «لوح المؤسِّسين» الذي يذكرها بنفس الترتيب. وإذا كان تقسيم القبائل إلي «بطون» هو أمرٌ عرفته جميع المدن الإغريقيّة، فإن تقسيم «البطون» إلى «منظّمات» كان ـ على العكس من ذلك ـ أقلّ انتشاراً في بلاد الإغريق، فهو لم يُعرف سوىٰ في جزيرتيْ كريت وثيرا. ولذا فإنه من المرجَّح أن وجود هذه «المنظَّمات» في قوريني ـ من حيث هي عنصرٌ تكويني للمدينة ـ قد تم اقتباسه عن نُظم جزيرة ثيرا. وعلى أيَّة حال، فإنه ليس بين أيْدينا ما يحدِّد طابع هذه التّجمُّعات التي سُمِّيت بـ «المنظَّمات».

هذا هو الشكل الذي تظهر لنا من خلاله المؤسَّسات المدنيَّة في قوريني، في بدايات عهدها. فلا بُدّ وأن التنظيم السياسي فيها قد تم اقتباسه، في البداية، من التنظيم السياسي الذي كان سارياً في جزيرة ثيرا. وكان الملك هو الذي يقبض على زمام المهام الدينيّة الأساسيّة، ويسيطر على كل ما هو جوهري بالنسبة للسلطة السياسيّة والعسكرية. ولقد خلّد باطوس الأوّل وخلفاؤه في قوريني نموذج «جرينوس» ملك ثيرا. وكان يساعد الملك في مباشرة سلطاته مجلس أُطلق عليه اسم «مجلس الشيوخ ـ (الجيروسيا)» ـ الذي كان قائماً عند نهاية الفترة الكلاسيكيّة، في كلّ من مدينتيْ: قوريني ويوسبيريدس

(1) قبيلة: «PHULA»؛ بطن «PATRA»؛ منظمة «ETAIREA».

(بنغازي). وهذا المجلس هو مؤسسة تقليدية عرفتها الملكيّات الإغريقيّة منذ قديم الزمان. كذلك، فإن هيئة «المأمورين القضائيين»، (إيفور)، كانت تشكِّل جزءاً من نظام الحكم في قوريني إبّان عهدها الأوّل. فنحن نعرف أنّه كان لهؤلاء وجوداً بهَا منذ تلك الحقبة؛ وذلك بفضل نصّ يُنْسب إلى الفيلسوف «هيراقليطس القنْطري»، الذي نوّه بالكفاءة القانونيّة التي تميّز بها هؤلاء المأمورون القضائيُّون، الذين قال عنهم إنهم كانوا مكلّفين بإصدار الأحكام ضد الوُشاة والنَّمّامين والأشرار. ثم جاء دستور «بطلميوس الأوّل»[1] ـ الذي لم يُحْدث تحويراً يُذكر في قوانين قوريني السابقة ـ فأبقىٰ على عدد هؤلاء المأمورين القضائيين كما هو، حيث ظل عددهم خمسة؛ وهو نفس العدد الذي عرفته إسبرطة. والحقيقة أنّه فيما عدا إسبرطة وقورينائية، فإن هذه الهيئة القضائية لم تعرفها سوىٰ جزيرة ثيرا وبعض المستعمرات الإغريقيّة في إيطاليا؛ وهو بدون شكّ نظام قضائي ورثته قوريني عن إسبرطة، حيث جاءها عن طريق جزيرة ثيرا. ونحن أمْيل إلى الافتراض بأن المأمورين القضائيين قد تم تعيينهم في البداية ـ مثلما كان عليه الحال في إسبرطة ـ من قِبَل الملك، لكي يتحمّلوا عنه جانباً من أعباء مهامه القضائية. ثم جاءت إصلاحات المشرِّع «ديموناكس» فنقلت صلاحيات تعيينهم إلى الشعب، (أي إلى الطبقة الأرستقراطية في واقع الأمر)، فصاروا يقومون، لبعض الوقت ـ مثلما هو الحال في إسبرطة ـ بدور القيِّمين على سلطة الملك؛ وبالتالي صاروا هم زعماء المدينة الحقيقيُّون المتنفِّذون في شئونها. والحقيقة أن هذه ليست سوىٰ وجهة نظر افتراضية محضة. غير أنّه خلال الفترة التي سرىٰ فيها مفعول دستور سنة 322 قبل الميلاد ـ الذي وضعه بطلميوس الأوّل» ـ ازدادت أهمية المأمورين القضائيين،

---

(1) بعد موت الإسكندر المقدوني، صار بطلميوس والياً على مصْر، واحتلّ مدينة قوريني في سنة 322 ق م، وبالتالي فقد خضعت هي وبقية مُدن قورينائية لحكم البطالمة.

حيث أصبح إثنان من المشرِّعين الذين صاغوا هذا الدستور البطلمي الجديد، هم أنفسهم، من ضِمْن المأمورين القضائيين المكلَّفين بتطبيقه. ويشير نفس نقش «لوح المؤسِّسين»، العائد إلى القرن الرابع قبل الميلاد ـ والذي يطلعنا على وجود مجلس للشيوخ في «يوسبيريـدس» ـ إلى أن هيئة المـأمورين القضائيين في هذه المدينة كانت مكلَّفة، إلى جانب أعضاء مجلس الشيوخ، برفع مشاريع القوانين إلى «مجلس الشورىٰ» (البُولي). وهنا أيضاً يظهـر المأمورون القضائيُّون كممثلين للصفوة الأرستقراطية. ويتشابه دستور قوريني، في هذه الناحية، مع دستور «يوسبيريدس».

ويُطلعنا دستور «يوسبيريدس» على أنَّه كان يوجد في هذه المدينة، إلى جانب هيئة المأمورين القضائيين، مجلس للشيوخ وآخر للشورىٰ. وينصّ الدستور الذي وضعه «بطلميوس الأوّل» لمدينة قـوريني على وجود نفس الهيئات الدستورية، إلى جانب مجلس الشعب (الأكليسيا). ونحن نجهل الدور الذي كان يلعبه في قوريني «مجلس الشعب» هذا، إبَّان الفترة الملكية. والحقيقة أن قيام هيئتيْ «مجلس الشيوخ» (الجيروسيا)، و«مجلس الشورىٰ» (البُولي) جنباً إلى جنْب ـ وهذا المجلس الأخير هو أوسع تمثيلاً من مجلس الشيوخ ـ يتمشّىٰ مع التمايز الذي نادىٰ به الفيلسوف «أرسطو» بين الهيئة المحدودة الأعضاء، الممثّلة للطبقة الأرستقراطية من حيث المبدأ، وبين الهيئة الأخرىٰ العديدة الأعضاء، والممثّلة لجمهرة الشعب. وهذه البنية الهرمية من الجمعيّات التي يتناقص عدد أعضاء كلٍّ منها عن عدد أعضاء الجمعية القائمة تحتها، بالتّدرُّج؛ بدءاً من «مجلس الشعب» في أسفل هذا الهرم، ومروراً بـ «مجلس الشورىٰ» في الوسط، وانتهاءً بأرْفعها، وهو «مجلس الشيوخ»، قد سهَّلت جعْل مقاليد الأمور بيد عدد محدود من الأُسر. ولذا، فإننا نلاحظ وجود مثل هذه البُنية الهرمية في العديـد من الدسـاتير التي صـاغتها الطبقات الأرستقراطية حفاظاً على مصالحها. ونحن لا نعرف متى تبنّت قوريني هذا

النظام التشريعي. وتشير فقرة من فقرات «هيرودوتس»، وهي الفقرة 165 من الكتاب الرابع، بوضوح، إلى أن الملكة «فريتيمي» ـ والدة «أركسيلاوس الثالث» ـ كانت تحضر جلسات «مجلس الشورىٰ» في قوريني. ولكن ليس من المؤكّد على الإطلاق أن عبارة «مجلس الشورىٰ» كانت تعني في سياق نص «هيرودوتس» المذكور المعنى الاصطلاحي المُتعارف عليه بالنسبة لمثل هذه التسمية؛ بل لعلّ مؤرِّخنا قد قصد بها «مجلس الشيوخ».

كذلك، فإننا نفتقر ـ فيما يتعلّق بفترة الحكم الملكي في قوريني ـ إلى معلومات كافية حول الوظائف والألقاب التي أُسبغت على ملوكها الباطيين، وحدثتنا عنها وثائق نقشيّة عائدة إلى فترات زمنية لاحقة من تاريخ هذه المدينة؛ مثال ذلك وصْف الملك بألقاب مثل: «كاهن الآلهة»، و«المدبِّر»، و«الاستراتيجي» و«الوصي على القوانين».. إلخ. إذْ أن الوثائق لا تسعفنا بشيءٍ في هذا الشأن، ونحن مضطرُّون هنا إلى الركون إلى مجرّد التكهّن والاستنتاج. ومن شبه المؤكّد أن من بين المهام الدينيّة التي كانت منوطة بشخص الملك، بالدرجة الأولىٰ، هي ترؤُّس طقوس الكهنوت؛ ومن هذه الوجهة فقد أُسْبغ عليه لقب «كاهن أبوللو». ولكن بعد الإطاحة بالملكية، أصبحت هذه الوظيفة تُمارس من قِبَل أيّ مواطن قورينيٍّ مشْهود له بالاستقامة والورع ويحظى باحترام وتقدير الجميع. ويفيدنا ترؤُّس الملك للمراسم الكهنوتية في معبد «أبوللو» في تفسير طقوس «التليسفوريا»[1] الدينية الغريبة التي كانت معروفة لدىٰ إغريق قوريني خلال الحقبة الكلاسيكيّة: فهذه الطقوس كانت تقضي بأن ينطلق موكب القرابين الديني من عند «الأكروبول»

(1) «التليسفوريا» هي طقوس كان القورينيُّون يؤدُّونها منتظمين في موكبٍ ديني يترأسه الملك نفسه، وحوله الكهنة والقُضاة، وخلالها يتم ذبح عدد من الثيران كقرابين للإله «أبوللو» ، حيث تحرق في هيكل المعبد على أنغام المزامير والتراتيل الدينيّة. أما التسمية «تليسفوريا» فهي مشتقّة من اسم الإله «تليسفوروس»، إله الموقد والشفاء.

ـ حيث كان يقوم القصر الملكي ـ ليتّجه نحو معبد «أبوللو» المُقام في أسفل المدينة. ولقد ظلّ هذا التقليد الديني سارياً حتى بعد انقضاء الزمن الذي كان ملوك قوريني يقيمون فيه بالأكروبول.

وكان ملوك قوريني يضطلعون كذلك بمهام كهنوتية أخرىٰ، إلاّ أنّنا نجهل كُنْهها الآن. وعندما وضع المشرِّع «ديموناكس» تشريعاته الإصلاحية، فإنه أبقىٰ للملك على حقّ ممارسة المهام الدينيّة، كما أبقىٰ له كذلك على تلك العقارات والأملاك التي كانت ريوعها تمكِّنه من مواجهة أوْجُه الإنفاق التي كان يضطرّه إليها اضطلاعه بهذه المهام الدينيّة المختلفة. وأعتقد أنّه قد عُهد بعد الإطاحة بالملكية بإدارة هذه العقارات والأملاك إلى «مُدبِّرين ديميورجيين» كُلِّفوا بجباية إيراداتها ورُيُوعها التي كانت تُودع في خزائن خاصة بتمويل أوجه الإنفاق ذات الصبغة الدينيّة. ولقد احتفظت لنا مجموعة من النقوش، العائدة إلى الفترة الواقعة ما بين القرن الخامس قبل الميلاد وبين القرن الثاني قبل الميلاد، بقوائم حسابات هؤلاء «المدبِّرين الديمورجيين» الذين كانت تتشكّل منهم هيئة من ثلاثة أعضاء، يتم تجديد مـدّة عضويتهـا سنويًّـا. وتسمية «المدبِّرين الديميورجيين» هذه هي تسمية واسعة الدلالة، وتُناط بمتقلِّديها مهام متعدّدة جدًّا. وتشير الوثائق النقشية المكتشفة في قوريني عن أنّه كان يقصد بهؤلاء «الديميورجيين» أولئك المسئـولين المكلّفين بإدارة واستثمار الأحباس والأوقاف الدينيّة، كما يدل لقبهم نفسه عن أنّهم كانوا يقومون بمهامهم هذه باسم الشعب. ونستنتج من كيفيّة تأسيس هيئتهم على هذه الشاكلة، على أنّ مدينة قوريني كانت قد وضعت يدها على عقارات وممتلكات الملك.

أمّا امتيازات الملك الأخرى، التي نقلها المشرِّع «ديموناكس المانتيني» إلى مأمورين «الديميورجيين» تّم اختيارهم من بين أفراد شعب قوريني، فإنها كانت تنصبُّ على السلطات السياسيّة والعسكرية والقضائية التي كان يضطلع بها، إبّان الفترة الكلاسيكيّة، أعضاء هيئة «المأمورين القضائيين» (الإيفور)،

و«القضاة العسكريُّـون» (الستراتيجيُّـون)، وكذلـك «القيِّمون على تـطبيق القوانين» (النوموفيلاكيون). وإذا كانت مناصب المأمورين القضائيين موجودة في قوريني، منذ البداية بدون شكّ؛ فإنه من المحتمل أن يكون «ديموناكس» هـو الذي ابتـدع مناصب «القضـاة العسكريين»، و«القيِّمين على تـطبيق القوانين». ولكن من الممكن كذلك ألَّا يكون هؤلاء قد ظهروا إلّا بعد الإطاحة بالملكيّة. وعلى أيّة حال، فإنّه ما كان لنظام حكم «أركسيلاوس الثالث» الاستبدادي وخلفائه أن يسمح بوجود أمثال هؤلاء الموظفين المتنفِّذين ذوي السلطات الواسعة.

إن مصادرنا التاريخية الشحيحة لا تسعفنا حول المؤسّسات السياسية للملكية القورينية سوىٰ بهذه الإشارات والإلماعات الناقصة وغير الدقيقة. بيْد أن الصدفة قد حفظت لنا ـ لحُسْن الحظّ ـ تحفة أثرية تمدُّنا عن ملك قوريني، أثناء مباشرته لصلاحياته الملكية، بصورة حيّة وملموسة؛ ونعني بها ذلك القدح الأثري المحفوظ في خزائن المكتبة الوطنيةببـاريس، والمسمى بـ«قدح أركسيلاوس». إذْ ليس هنالك من ريْب في إمكانية التحقّق من هوية الشخص المرسوم على أديم القدح. فهذه الشخصية التي نراها جالسة، هي بالتأكيد شخصية رابع ملوك قوريني، «أركسيلاوس الثاني»، الذي نراه قابعاً على مقعد صغير تحت مظلّة تقيه حرارة الشمس، للإشراف على تجميع رُزم نبات السلفيوم، الذي كان احتكاراً ملكياً خاصّـاً. ويُلاحظُ أن الـرّسّام يجعـل «أركسيلاوس»، في هذا الأثر الفنِّي الدقيق، أكبر حجماً من بقية الأشخاص الآخرين الذين تمثّلهم الصورة؛ وفي ذلك إكبار لمقامه الرفيع، وهو يتجلّىٰ ممسكاً بصوْلجان المُلْك المزخرف الذي يرمز للبأس والجبروت، ويرتدي الزيَّ الرسمي المتمثّل في رداءٍ طويل أبيض، ومعطف مطرَّز، وقبّعة واسعة مزدانة بالزهور، وحذاء مزخرف. وينسدل شعر رأسه الطويل حتى خاصرته وهو مضفـور في خُصل منمَّقة. وبفضل هذه الوثيقة الفنيّة الفريدة، تتجلّىٰ أمامنا

أُبّهة أحد ملوك قوريني الباطيين في أروع صورها.

* * *

كم كان عدد سكان قوريني إبّان الحقبة الملكية؟.. إن أحداً لا يستطيع الإجابة عن هذا السؤال. بيْد أنه فيما بعد ـ أي ابتداءً من القرن الرابع قبل الميلاد ـ تجمعت قرائن، منها اتساع المدينة ونموها وراء أسوارها، وعظمة وتعدُّد القرابين المتمثّلة في تلك التحف النحتيّة التي تم العثور عليها في المعابد؛ وكثرة المقابر؛ فهذه جميعها تعتبر مؤشرات وقرائن تدلّنا على مدىٰ العظمة التي وصلت إليها هذه المدينة. لكنّه فيما يتعلق بالحقبة الأولىٰ من تاريخها، فإنّه من الصعوبة بمكان التّكهُّن بمدىٰ نصيبها من العظمة. وكل ما يمكن للمرء أن يقوله هو أن ما كانت عليه قوريني من الازدهار المادِّي، لهو أمر واضح لكل من له عين، وأن كل هذا الرُّقي والازدهار كان مصدره استثمار أطيانها وأراضيها.

والواقع أن الاستيطان الإغريقي في قورينائية يتجلّىٰ منذ بدايته على أنّه استعمار استيطاني زراعي. فنزوح المعمِّرين الثيرانيين عن جزيرتهم الأُمّ كان سببه نقص الأراضي الصالحة للزراعة؛ ولذا فإنّهم ما قدموا إلى هذا الإقليم، إلّا بحثاً عن الأطيان والأراضي الزراعية. وخلال إقامتهم الأولية في جزيرة «بلاتيا»، نلاحظ أنّهم لم يبذلوا أيّة جهود لاستغلال مصائد الأسماك الوفيرة في مياه خليج «بمبا». فلقد ظلُّوا فوق أرض تلك الجزيرة خاملين، قبل انتقالهم إلى يابسة الشاطىء القورينائي، حيث طفقوا يبحثون فيه عن إقليم ملائم للزراعة. وبعد ذلك مُنح كل معمِّر قادم لتوِّه من بلاد الإغريق إلى قورينائية قطعة أرض لاستصلاحها واستثمارها. وكان النداء الذي وجّهه «باطوس الثاني» إلى أمّة الإغريق لتعزيز عدد السكان الوافدين في مدينة قوريني يَعِدُ بتوزيع الأراضي والأطيان على المهاجرين الجُدد. كذلك، فإن «أركسيلاوس الثالث»

قد أخذ يُغْري المرتزقة الذين عمل على جلْبهم من جزيرة «ساموس» إلى قوريني، بأن وعدهم بإقطاعهم أطياناً وإقطاعات واسعة. ويتّضح لنا من كل هذا أن غِنىٰ قوريني كان نابعاً قبل كل شيء من خصوبة أراضيها.

ولذا فإننا نجد أن الريف القوريني والجماعات الإغريقيّة الوافدة التي عملت في حقل الزراعة قد خُصَّت من قِبل سكان المدينة بآهتمام ظل واضحاً طيلة حقبات تاريخها الباطي. ودعونا نضرب هنا بعض الأمثلة ذات المغزى في هذا المجال: فعندما استعاد «أركسيلاوس الثالث» عرش قوريني، نراه لا يلبث أن يغادر هذه المدينة على رأس قوّاته لمطاردة خصومه السياسيين الذين التجؤوا إلى الأرياف؛ حيث أخذ يتعقّبهم من ضيْعة إلى ضيْعة ومن حصن إلى حصن. وفي القرن الرابع قبل الميلاد، عندما تم نقش نصوص القوانين المقدّسة على «لوْح المؤسِّسين»، نجد أن سطور هذا اللوح قد نصَّت بوضوح على أنّه إذا ما تفشّى في الأرياف المحدقة بالمدينة أي وباء، فإنه يتحتم الإسراع بتطهيرها، كما لو أنّ الوباء قد انتشر فيها هي نفسها. وفي سنة 153 ق م، عندما أوْصى «بطلميوس السادس»، في وصيته الشهيرة، بوضع قوريناثية تحت حكم الرومان، نراه يوصيهم بالتدخّل عسكريًّا في حالة إقدام أيٍّ عدو بغزو أريافها، لأن في ذلك تهديد لمدنها. إن استيطان الإغريق في قوريناثية لم ينحصر في بضع مدن تعيش من ريوع المتاجرة مع الليبيّين أهل البلاد الأصليين، مثلما هو الحال بالنسبة لمستوطنات إغريقيّة أخرى؛ وإنما كان تغلغلاً عميقاً في الدواخل، حيث انشئت على أيديهم، منذ بداية ذلك الاستيطان، مدن هامة وقرىٰ زراعية تحمل أسماءً إغريقيّة ويقطنها إغريق. ومنذ الحقبة الأولىٰ لهذا الاستيطان نجد أن من بين الثلاث مدن الكبيرة التي أنشأها الإغريق في قوريناثية، إثنتيْن ـ هما الأهم والأقدم، ونعني بهما مدينتيْ «قوريني» و «برقة» ـ قد اقيمتا بين المزارع وسط الهضبة القوريناثية الخصيبة؛ بينما لم يحظَ ميناءاهما اللذيْن تم إنشاؤهم في زمنٍ تالٍ ـ وهما «أبوللونيا»

(= سوسة) و «بطوليمائس»[1] (=الدرسية = طلميثة سابقاً) - بمركز ومكانة المدن المستقلّة إلاَّ فيما بعد. أمَّا المدينة الثالثة، وهي «يوسبيريدس»، فإنها تقع على ساحل البحر. بيْد أن الإزدهار الذي لاقته هذه المدينة الأخيرة - وهي «بنغازي» الحالية - لم يتأتَّ لها أساساً بسبب من ثروتها البحرية، وإنما نتيجة لما حوته تربتها الخصيبة. وزيادة على ذلك، فإن الإقطاعيات الزراعية التي كان يقوم وسط كل منها حصن، يحتمي داخله الإقطاعي الإغريقي عند الضرورة، قد انتشرت في كل بقعة من الهضاب القورينية على جانبيْ المسالك والطُّرُق المهّدة[2]. وكان لُكلّ إقطاعية زراعية جهازها الإداري وقضاتها وجمعيتها وكهنتها. ولقد تم العثور على نصّ قانون إنشاء إحدى هذه الإقطاعيّات في مكانٍ يقع على بُعد ستة عشر كيلومتر إلى الشرق من مدينة قوريني، وهو نصّ يفيدنا في تصوُّر نمط حياة هذه الجماعات الفلاحية الإغريقيّة التي عرفت كيف تستثمر خصوبة أراضي قورينائية.

وعندما يدرك المرء طبيعة هذا التغلغل الاستيطاني الإغريقي العميق في قورينائية، فإنه سيفهم - في اعتقادي - أكثر أحد التفاصيل الغامضة التي أوردها «هيرودوتس» في تاريخه، وأعني بذلك ماهية طبيعة فئة «البيريئيكيين» الذين ألحقهم المشرِّع المانتيني «ديموناكس» بقدامىٰ الثيرانيين عند تشكيله للقبيلة الأولىٰ من قبائل قوريني الثلاث.

---

(1) وردت تسمية «أبوللونيا» لأوّل مرّة عند «سترابو»، وكانت قبل تُنعت فقط بـ «ميناء قوريني»، أما تسمية «بطوليمائس» (طلميثة) فقد وقعت في عهد «بطلميوس الثالث»، الذي حكم للفترة من سنة 280 ق م إلى سنة 221 ق م؛ ومنذئذٍ استقلّت هذه الأخيرة عن مدينة برقة (باركي)، ولم تعد مجرّد ميناء لها.

(2) عندما استعمر الإيطاليُّون ليبيا - فيما بعد - نرى معمِّريهم يفعلون نفس الشيء؛ حيث أنشأوا قلاعاً ومحارساً دفاعية ونقاط مراقبة، داخل مستوطناتهم الريفيّة، خشية بأس المجاهدين الليبيّين وهجماتهم المباغتة. وما تزال بعض هذه المجارس قائمة حتى الآن؛ مثلما شاهدتُ بنفسي مؤخراً في مشروع «غوْط السلطان» الزراعي، شرقي بنغازي.

والرأي السائد بين المؤرِّخين هو أن هؤلاء «البيريئيكيين» إنّما هم ليبيُّون متأغرقون، يُعتقد أن المعمِّرين الثيرانيين الأُوَل قد استخدموهم في زراعة الأراضي التي صادروها. وهذا الرأي ما هو إلاّ انعكاس لتلك النظريات التي تحاول تفسير كل ما كان يجري في المستوطنات الإغريقيّة من خلال الفوارق العرْقيّة بين المعمِّرين الوافدين وبين أصحاب البلاد الأصليين. غير أنّه من المستغرب ألاّ يثير الزعْم بأنّهم ليبيُّون متأغرقون أيّة شكوك كافية لدىٰ المتخصصين. ومع ذلك، فإنه من الممكن التحقّق من مدى بطلان هذا الزعْم. ويذهب «ج. أ. لارسن» - مستنداً على أنموذج قوريني - إلى حدّ القول بأن مستوطنات إغريقيّة أخرى، مثل «سيباريس»، و«سيراكوزا» الإيطاليتين قد عرفت هي الأخرى فئات من العناصر السكانية المحلية المتأغرقة، حيث اعتُبِرت تلك الفئات - من حيث هي بيريئيكية - من مواطنيْ تلك المستوطنات. والحقيقة أن هذا الرأي - الذي لا يستند على أي دليل - يعتبر مخالفاً لكل ما نعرفه عن تصوُّر الإغريق لمفهوم المدينة. ذلك أن حقّ المواطنة، في نظر هؤلاء، إنّما هو امتياز لا يتمتّع به سوىٰ الهلينيُّون وحدهم. فمنح هذا الحقّ إلى أجانب يُعتبر من الأمور النادرة لديهم، ولا يُسمح به سوىٰ في ظروف استثنائية. ولذا، فإن الرأي القائل بأن مدن قوريني وسيراكوزا وسيباريس الاستيطانية الإغريقيّة قد ضمَّت بين صفوف مواطنيها الإغريق الأقحاح أعداداً هائلة من الأهالي الأصليين - حتى وإن كان هؤلاء قد تأغْرقوا - إنّما هو رأي لا يمكن التعويل عليه والاعتداد به.

والواقع أنّه لو أنّنا أمْعنّا النظر في طبيعة فئة «البيريئيكيين»[1] في المدن الإغريقيّة، حيث يُستعمل هذا المصطلح لتمييز جانب من سكانها، فإننا سنلاحظ أنّهم في جميع الأحوال - سواء في إسبرطة، أو في «إليسْ»، أو في

(1) باللغة الإغريقيّة القديمة: «PERIOIKOI».

«أرجوليدا» ـ كانوا إغريقاً أقحاحاً يعيشون في الأرياف، ويحيون عادة ضمن جماعات تقطن قرىً ريفيّة، ولا يتمتّعون سوى بمكانة أدنىٰ من مكانة المواطنين الكاملي الحقوق، وتتراوح أحوالهم المعيشيّة ووضعهم الاجتماعي ما بين وضع مواطنين من الدرجة الثانية وبين وضع أتباع أذلّاء. ولكن لا ننسىٰ، على الخصوص، أن فئة «البيريئيكيين» في إقليم «لاكونيا» البيلوبونيزي، كانوا، على العكس من ذلك، من الأحرار، وكانوا يتمتّعون بحقّ حمْل لقب الإسبرطيين، وكانوا ينخرطون في الجيش، في فِرق المُشاة الثقيلة، شأنهم في ذلك شأن الإسبرطيين أنفسهم.

ودعونا ننظر الآن في مدىٰ تشابه وضع «البيريئيكيين» في قورينائية مع مثيليهم في المراكز الاستيطانية الإغريقية الأخرى. فعند قدوم أوائل المعمِّرين الإغريق ـ الذين كانوا قليلي العدد ـ إلى قورينائية، أحسن الليبيُّون وفادتهم، وسمحوا لهم بالزواج من نسائهم. ولكن منذ أن وفد على قوريني أولئك المعمِّرون الجُدد الذين استجلبهم «باطوس الثاني»، نلاحظ أن العلاقات التي ظلّت قائمة بين القورينيين الإغريق وبين أهل البلاد الليبيين، قد أخذت تميل إلى التوتُّر. وأدّىٰ ذلك إلى قيام كلٍّ من «باطوس الثاني» وخلفه «أركسيلاوس الثاني» بتوجيه حملتين ضد الليبيين وضد حلفائهم المصريين. وكانت هاتان الحملتان فاتحةً لسلسلة طويلة من الحروب «الليبيّة»، أو قُلْ «المراقيّة»[1] التي تعاقبت طوال تاريخ قوريني الإغريقي برمّته منذئذ. إن الصبغة الزراعية التي اتّسم بها الإستيطان الإغريقي في قورينائية، وتغلغل هذا الاستيطان الاستعماري في أعماق الدواخل، كان يثير على الدوام ردود أفعال عدائية لدى الليبيين، الذين كانوا في سوادهم الأعظم من الأقوام الرُّحَّل ورعاة الملشية والأنعام. ذلك أن القبائل الليبيّة القديمة الشديدة البأس التي دفع بها

(1) نسبة إلى إقليم «مراقية» (البطنان)، الممتد ما بين الحدود الليبيّة مع مصر شرقاً وحتى وادي درنة غرباً.

المعمّرون الوافدون بعيداً نحو السهوب شبه الصحراوية، لم تستسلم قط لهذا المصير، ولم تقبل بانتزاع الإغريق لأفضل وخيرة مراعيها منها وتوزيعها على معمّرين وافدين؛ فقاومت بكل ما كان باستطاعتها، إلى أن انتهى الأمر بها ـ حتى قبيل وقوع الفتح العربي ـ إلى إرغام هؤلاء المعمّرين على التزام العيش داخل حزام محدود المناطق على الشريط الساحلي لقورينائية. أفهل يمكننا، والحالة هذه ـ خصوصاً على إثر الهزيمة المروّعة التي مُني بها جيش المعمّرين الإغريق على أيْدي الليبيين في معركة «ليوكون»[1]، حيث تجلّى الخطر الليبي بكل جسامته، وأدّت هزيمة القوّات الإغريقيّة القورينية إلى انفجار الاستياء العام بين سكّان مدينة قوريني ـ أن نفترض إمكانية تفكير القورينيين الإغريق في أن يُدْمجوا في صفوفهم جانباً من هؤلاء الليبيين الذين كانوا قد هزموهم لتوِّهم في المعركة المذكورة شرَّ هزيمة؟.

ويتضح لنا من الدستور الذي وضعه «بطلميوس الأول» أن المولَّدين ـ أبناء الإغريق من زيجات بليبيَّات ـ كانوا هم وحدهم الذين سُمح لهم بالتمتّع بحقوق المواطنة في المُدن الإغريقيّة بقورينائية، وليس الليبيين الأقحاح. ثم أنّه لو سُمح بالفعل لأعداد كبيرة من الليبيين بممارسة حقوق المواطنة الكاملة في قوريني، لكان هذا قد ترك أثره البارز في أسماء الأعلام القورينية التي نعرفها حقّ المعرفة، ابتداءً من القرن الرابع قبل الميلاد، بفضْل الوثائق النقشيّة التي لا تكاد تخلو من قوائم الأسماء التي كانت متداولة في المدينة آنذاك. ولكن حقيقة الأمر هو أنّه فيما يتعلّق بأسماء الأشخاص الشائعة في قوريني آنئذٍ لا نعثر سوىٰ على استثناءات نادرة جداً للأسماء ذات المنْحى المحلّي الليبي، مثل اسم «باكال» واسم «ألازير»، التي يمكن تفسير وجودها بأنّها أسماء لليبيين مُنِحوا حقوق المواطنة في المدينة الإغريقيّة بصفة شخصيّة؛

---

(1) راجع الفصْل الخامس من هذا الكتاب.

بل ولعلّ هذه لا تعدو أن تكون مجرّد كُنىً وألقاب مستعارة. كذلك فإن عقب المولَّدين وذرياتهم، ممن ولدوا من أرحام نسوة ليبيّات، يكفي في تعليل الملامح الليبيّة القديمة الصريحة، التي نلاحظها في بعض التماثيل التي تم العثور عليها في قوريني؛ وبالتالي فإنها لا تمثِّل، في رأينا، العنصر الليبي الخالص. وأخيراً، فإنّنا إذا ما تأمَّلنا حضارة قوريني في جملتها، كما تتجلّىٰ لنا في أوْجه عباداتها وفي آثارها الباقية؛ فإننا لا نملك سوىٰ الإقرار بأنّها كانت حضارة هلينية صرْفة، ولا يستطيع المرء أن يستشفّ من خلالها وجود أيّة مؤثِّرات ليبيّة محلية، اللهمّ إلاَّ فيما يتعلّق ببعض الأمور المحذور على النساء تعاطيها؛ حيث أنّهن كنّ ـ مثلاً ـ يحرِّمن على أنفسهنّ أكل لحوم الأبقار، وهو أمرٌ ذكره لنا «هيرودوتس» في الفقرة 186 من الكتاب الرابع.

وتقودنا جميع هذه الاعتبارات إلى الاعتقاد بأنّه لم يحدث قطّ وأن منح إغريق قوريني حقوق المواطنة إلى فئة كاملة من الليبيين. وإذن، فإننا نذهب إلى أن «البيريئيكيين» الذين ألحقهم المشرِّع «ديموناكس» بالقبيلة الأُوْلى من قبائل قوريني الثلاث، إنّما كانوا إغريقاً. بيْد أنّهم كانوا من إغريق الأرياف، مثلما تدل عليه تسميتهم هذه. وهؤلاء لا بد وأنّهم كانوا من أُولئك الثيرانيين الذين وفدوا على قوريني فيما بعد، أو لعلّهم من فقراء الإغريق الذين حال فقرهم بينهم وبين الإقامة داخل مدينة قوريني نفسها؛ فاضطرُّوا إلى سُكنى الأرياف والمزارع المحدقة بها: إنهم سكان الإقطاعيّات، والمزارعون الحقيقيُّون، الذين كانوا، على نحوٍ أو آخر، من تُبَّاع أوائل المعمِّرين المستفردين بالثروة. ولقد كان حقّ المواطنة ـ حتى قيام المشرِّع «ديموناكس» بوضع تشريعه للمدينة ـ وقفاً على هؤلاء الأخيرين. ولكن بعدما قام هذا القانوني المانتيني بإعادة تنظيم شئون قوريني المدنية والقانونية؛ نرى هذه الطبقة الأرستقراطية تشكِّل القبيلة الأُوْلىٰ، هي وأتباعها الريفيُّون من «البيريئيكيين». وبالرغم من أن هذا التشريع الإصلاحي قد أفضىٰ إلى توسيع

دائرة الهيئة المدنية في قوريني؛ إلاَّ أنه حافظ، مع ذلك على طابعها الإغريقي الصرْف.

وهكذا، فإن العنصر الليبي لم يكن طرفاً في هذه المدينة الإغريقيّة. وإنه ليصعب علينا تحديد علاقات هذا العنصر المحلّي مع الإغريق الوافدين؛ هذا، وإنْ كُنّا نرىٰ أنّه كان هنالك تفاوت في نوع علاقات هؤلاء الأخيرين مع مختلف القبائل الليبيّة. وحول هذه المسألة نجد أن «هيرودوتس» يمدُّنا ـ فيما يتعلّق بالفترة التي كتب عنها؛ وهي الفترة الواقعة ما بين حوالي سنة 440 قبل الميلاد، وبين سنة 430 قبل الميلاد ـ بمعلومات قيِّمة. وبالتأكيد فإن وصْف هذا المؤرِّخ لقورينائية قد استقاه، في جوهره، من مصادر مدوَّنة، وخصوصاً من المؤرِّخ والجغرافي الإغريقي «هيكاتئيوس الملطي»[1]، الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد، في كتابه الموْسوم بـ«رحلة حول الأرض». ولقد برهن لنا «جاكوبـي» على ذلك بكيفيّة مقنعة، وذلك عند عقده لمقارنة بين وصفيْن لليبيا؛ هما: وصف «هيرودوتس» ووصف «سكيلاكس المنحول».

والواقع أنّه يمكن تفسير التشابه بين ما ذكره هذان المؤرِّخان عن ليبيا، بالتَّكهُّن بأنّهما قد نقلا، كلاهما، عن مصدرٍ مشترك، ولا يمكن أن يكون هذا المصدر سوىٰ «هيكاتئيوس الملطـي». ولكن إذا كانت المصادر المدوَّنة تطغى بشكل كبير وملحوظ في مصنَّف «هيرودوتس»؛ إلاَّ أنّ هذا لا يمنع من أن هذا المؤرِّخ قد حرص ـ فيما يتعلّق بإقليم قوريني ـ على تنقيح معلوماته النقلية وغربلتها وإثرائها، استناداً على ملاحظاته الشخصيّة عند قيامه بزيارته بنفسه للمدينة. ومن هنا فقد أصبح للمعلومات التي أمدَّنا بها قيمة استثنائية، خصوصاً فيما يتعلّق بالفقرات من 169 وحتى 172 من الكتاب الرابع.

(1) هيكاتئيوس الملطي، له كتابان هما: «كتاب التواريخ» وفيه يعرض للأنساب وخصوصاً نسب أسرته؛ و«رحلة حول الأرض» الذي وصف فيه أوربا وآسيا، ومصر وليبيا، وبقية شعوب البحر الأبيض، غير أن «كاليماخوس القوريني» و«إراتوسثينيس القوريني» قالا بزيْف ما ذكره في كتابه هذا، واتّهمه الأخير بأنّه انتحله من كتابات القرن الرابع ق م.

نرى قوريناثية، في حوالي هذا التاريخ - أي حوالي سنة 440 ق م - وقد تقسّمت إلى ثلاث مدن إغريقيّة، وإلى عددٍ من القبائل الليبيّة. وهذه المدن هي: قوريني، وبرقة، ويوسبيريدس. . فأمّا قوريني، فإنها تسيطر على المنطقة الساحلية الممتدة ما بين جزيرة «أفروديسياس» (وهي نفس جزيرة كرْسة الواقعة إلى الغرب من مدينة درنة)، وبين نقطة غير محدّدة، حيث يبدأ الإقليم التابع لمدينة برقة. ونحن لا نعرف بالضبط إلى أي مدى تغلغل الإغريق في أعماق الدواخل، هذا وإنْ كنّا لا نشكّ في أنّه لم يكن هنالك حدّ معيّن توقفوا عنده في ذلك الاتجاه. ولقد وُجدت آثارهم حتى في بلدة «مسّة»، الواقعة عند أقصى «وادي الكوف»؛ وبالتالي فلربما تكون هذه البلدة هي أبعد بلدة كانت تابعة لقوريني الإغريقيّة من جهة الغرب. ويوجد بالقرب من مدينة «البيضاء» معبد «أسكليبيوس» الذي كان معروفاً منذ القرن الرابع قبل لميلاد، حيث كان قائماً بأعلى موقع كان يقطنه سكان إغريق في شرقي قوريني. كذلك فإنه قد تم العثور في «نقارنس»، و«لملودة»، و«القبّة»، على آثار هلينية. أمّا في بلدة «سلنْطة»، الواقعة في الداخل، فلقد تم العثور على رسومات منقورة في الصخور، وذات طابع ليبي قديم واضح؛ الأمر الذي يدل على أن الاستيطان الإغريقي لم يتمكّن من التوسّع والانتشار، على نحوٍ مستمر، في هذه الناحية القريبة من الصحراء.

وإلى الغرب من قوريني، توجد مدينة برقة التي تشرف على إقليم واسع رحب، مركزه بالطبع هو حوضها الداخلي الشديد الخصوبة، حيث تقع المدينة نفسها عند مدْرج الهضبة الأوّل. وكان يتبع مدينة برقة ذلك الساحل الممتد ما بين حدود قوريني شرقاً وحتى إلى ما وراء بلدة «تاوخيرا» (= العقورية = توكرة سابقاً) غرباً؛ حيث كانت هذه البلدة تابعة لها. ومع ذلك، فإنّه ليس من المؤكّد أن «تاوخيرا» كانت هي المنْفذ الرئيسي لمدينة برقة على البحر. فالميناء الذي اسمه «بطوليمائيس» (= الدرسيّة = طلميثة سابقاً)، الذي حلّ

محل قوريني كعاصمة للإقليم، ابتداءً من القرن الثالث قبل الميلاد، لا بد وأن يكون قد استُعمل - في زمنٍ سابقٍ - كمرْفأ لمدينة برقة؛ إذْ أنّه يتمتع بنفس الميزات الطبيعيّة التي توفّرت لميناء «أبوللونيا» (= سوسة). فجُزره الساحلية الصغيرة جداً، المتّصلة بالشاطىء عن طريق لسان رمْلي قد هيّأت لهذا المرفأ مرسىً يناسب رسُوَّ المراكب الصغيرة. أمّا مرفأ «تاوخيرا»، فتعوزه ميزات الرّسُوِّ الطبيعيّة التي يتمتع بها مرفأ «بطوليمائيس».

وإلى الغرب من «تاوخيرا» توجد «يوسبيريديس»، وهي تلك المستوطنة التي زوَّدها «أركسيلاوس الرابع» بعناصر إغريقيّة مستجلبة من بلاد الإغريق، وهي عناصر كانت تُدين له بالولاء. وكانت «يوسبيريدس» تعيش في نوع من العزْلة التي أبعدتها عن بقية المستوطنات الإغريقيّة الأخرى، بسببٍ من أن القبائل الليبيّة كانت تحتل رقعة تفصل بين إقليمها وبين إقليم مدينة برقة، وهي رقعة تمتد حتى ساحل البحر، على مقربة من «تاوخيرا». كانت «يوسبيريدس» - الواقعة إلى أقصى الغرب، بالمقارنة ببقيّة مدن قورينائية الإغريقية - تعاني الأمرَّيْن بسببٍ من أنَّ الليبيين الرُّحَّل الذين يجوبون الهضبة القورينائية، كانوا مُحْدقين بها عن كثب؛ كما كانت تتهدّدها من ناحية الجنوب قبيلة «النّسامونيس» الشديدة البأس؛ ولذا فإن هذه المدينة الإغريقيّة ظلّت جاثمة حول بحيرة «تريتون» - (من المعتقد الآن أن هذه البحيرة هي نفس سبخة السلْماني) - في القطاع الساحلي العريض الممتد ما بين البحر وبين سلسلة المرتفعات شبه الصحراوية. ولم تكن الرقعة المترامية وراء هذه المدينة لتُشجِّع على قيام أي استيطان إغريقي. أمّا سهل «يوسبيريدس» نفسه، الذي تهب عليه الرياح الغربية ورياح «القبْلي» التي تهبّ من الصحراء، فإنه لا يعدو أن يكون منطقة سهوب جرْداء لا تشجّع على استقرار المعمِّرين الوافدين. بيْد أنّه تنمو حول أسباخ المدينة غياضُ نخيلٍ تشكّل بضع واحات في بعض الأمكنة. وتنمو في منطقة «يوسبيريدس» نباتات أفريقيّة لا تعرفها بقية مناطق

قورينائية؛ كما لا تندُر في أرضها الجيريّةُ التربة تلك المنخفضات المسطّحة الخصيبة التي يغمر الطَّمْيْ قيعانها الرَّطبة، والتي تساعد على قيام بساتين تتميَّز بخصوبتها التي تتباين تبايناً ملحوظاً مع جفاف المنطقة المحيطة بها[1]. ولعلّ هذه البساتين الغنّاء هي التي ألهمت الخيال الإغريقي، أمداً طويلاً، وأوحت إليه بتصوُّر وجود «حديقة الهسبريدس»، وبأن نهر «الليثون»[2] ينبع من كهف مظلم كان يتّخذه تنّين أسطوري هائل مأوىً له، وأن الناس كانوا يصطادون من هذا النهر ثعابين بحرية لها لحم شهي المذاق.

أمّا بقية إقليم قورينائية فقد ظلّت تعيش فيه، خلال القرن الخامس قبل الميلاد قبائل ليبيّة قديمة. ففي حين كان أفراد قبيلة «الأدورماخيدايْ» يعيشون عند التخوم الملاصقة لمصر ـ وهذه القبيلة هي قبيلة شديدة التَّمصُّر، وقد تكون منحدرة من نسْل قوم «المشْواش» الذين دخلوا في عدّة حروب ضد فراعنة مصر ـ فإن ساحل «مراقية» (= البطنان) كان يقطنه ابتداء من بلدة «بلينوس» (= سيدي البرّاني) أفراد قبيلة «الجيليجامايْ» الليبيّة. وتقطن هذه القبيلة الأخيرة منطقة واسعة، تمتد من خليج «السُّلُّوم» وحتى «درنة»، حيث تبدأ المنطقة التابعة لمدينة قوريني. ولقد ظلّت قبيلة «الجيليجامايْ» وفيّةً لتقاليد وعادات أسلافها القدماء، فلم تتأثّر لذلك كثيراً بمؤثّرات الحضارتين المصرية والإغريقيّة المُحْدقتين بها. ولم تكن تنمو في موطن «الجيليجامايْ» الواسع أيّة نباتات تُذْكر؛ اللهمّ سوىٰ في بعض مواقع الساحل والجزء الشرقي للهضبة القورينية، أمّا باقي المنطقة فلم يكن سوىٰ مجرّد سهوب جرداء أو

(1) هنالك الآن عدة أمثلة ما تزال تُشاهد حتى اليوم قرب بنغازي (= يوسبيريدس) وتمثّل هذه المنخفضات المسطّحة التي تحوي البساتين الجميلة الخصيبة التربة. مثال ذلك: «سواني عصمان»؛ وبساتين بلدة «الكوَيفية» الواقعة إلى الشرق من بنغازي؛ وبساتين بلدة «القوارشة» الواقعة إلى الجنوب من المدينة، و«سواني تيكة».

(2) يعتقد البعض أن نهر «الليثون» هو نفس «وادي القطّارة»، الواقع على الطريق الداخلي الأعلى، شرقي بنغازي، وهو الطريق المتّجه نحو «الرّجْمة» و«الأبْيار».

صحراوية تماماً. وكان الملاّحون الإغريق يرتادون، منذئذٍ، بعض المراسي البحرية الصغيرة المنْبثّة على طول الساحل، والتي من بينها ميناء «مينيلاوس» (= البرديّة) إلى الشرق، وجزيرة «بلاتيا» الواقعة في خليج «بمبا»، حيث وطأت أقدام «باطوس الأوّل» ورفاقه الثيرانيين أرض هذا البلد لأوّل مرّة. ولم يذكر لنا «هيرودوتس» فرْضة «أنتيبيرجوس» (= مدينة وميناء طبرق الحالية)، الواقعة بين هذيْن الموقعيْن، وهي الفرْضة التي ذكرها «سكيلاكس المنْحول» بعد هذا المؤرِّخ بقرن من الزمان. وفي الداخل هنالك بلدة «أزيريس» التي أقام بها المعمِّرون الثيرانيُّون الأُوَل فترة من الزمن؛ كما أنّ هنالك «إراسا»، ومدينة «آنتي»، وهذه المدن الثلاث هي من المدن الليبيّة لا الإغريقيّة. ويبدو أنّ إغـريق قـوريني لم ينشئـوا لأنفسهم عـلاقـات وطيـدة بـأفـراد قبيلة «الجيليجاماي»، الذين كانوا قد استقبلوا هؤلاء المعمِّرين الوافدين استقبالاً طيِّبـاً في البدايـة، ثم أصبحوا أعـداءهم منـذ وقـوع معـركتيْ «إراسـا»، و«ليوكون»؛ بل إن هذه القبيلة قد أظهرت عداءها الشديد حتى تجاه الغزاة الفرس.

وبـ«أعلى قوريني» ـ حسب عبارة «هيرودوتس» ـ أي في الداخل إلى أقصى الجنوب، كانت تعيش قبيلة «الأسبوستايْ» الليبيّة؛ والتي توحي إشارةٌ وردت في «النشيد الثاني» لـ «كاليماخوس القوريني» بأن اسمها قد يكون مُغْرقاً في القِدَم. ولقد تم إجلاء أفراد «الأسبوستايْ» عن أراضيهم وأطيانهم نتيجة لعمليات الاستيطان الإغريقي التي كثيراً ما توسّعت على حسابهم. غير أن أفراد هذه القبيلة ما لبثوا أن تشرّبوا عادات إغريق قوريني؛ بحيث نراهم «يتأغْرقون» أكثر من أيّة قبيلة ليبيّة قديمة أخرىٰ. ونعتقد أن هؤلاء «الأسبوستايْ» قد زوّدوا جيرانهم إغريق قوريني بالأيْدي العاملة المحليّة التي كانت مستوطنتهم في حاجة إليها.

وإلى الغرب من هؤلاء ـ فيما وراء مـدينة بـرقة ـ يـوجد أفـراد قبيلة

«الأوْسخيساي» الذين كانوا يحتلُّون ذلك الإقليم الرَّعوي الممتد ناحية الجنوب، على الهضبة العُليا. وهؤلاء يتّصلون بالبحر عند مشارف مدينة «يوسبيريدس». أمَّا إلى الجنوب والغرب من مدينة برقة مباشرة، فيعيش أفراد قبيلة «البكاليس» الصغيرة، التي «تأغْرقت» شأنها شأن قبيلة «الأسبوستايْ». و«البكاليس» تقطن رقعة تنتهي عند الساحل، جنوبي بلدة «تاوخيرا» (= العقورية).

وأخيراً، فإنّه كانت تعيش عند خليج سرْت الكبير قبيلة «النسامونيس» العديدة الأفراد، التي كانت تنتشر على امتداد ساحل البحر، في منطقة جرْداء؛ وهي قبيلة كان يخشىٰ سطْوتها الملّاحون المارُّون بمراكبهم في مياه الخليج المذكور. ويحصل أفراد هذه القبيلة الرُّحَّل على أرزاقهم من مصدرين؛ فهم من ناحية يعيشون مـمَّا تدرُّه عليهم قطعان ماشيتهم وأنعامهم، ومن ناحية أخرىٰ، يقتاتون التمور التي يضطرّهم الحصول عليها إلى الانتقال نحو واحة «أوْجلة». وستصبح قبيلة «النسامونيس»؛ هي وجارتها قبيلة «الماكايْ» ـ التي كانت تقطن على جانبيْ مجرى نهر «كنيبيس» (= وادي كعام)، والتي رمت بـ«دوريوس الإسبرطي» وجماعته إلى البحر، عندما حاول إنشاء مستوطنة في أراضيها ـ من ألدِّ أعداء إغريق قورينائية، حيث نرىٰ هاتيْن القبيلتيْن تقومان في سنة 414 قبل الميلاد بمحاصرة مدينة «يوسبيريدس». كما وسيسجِّل ـ إبَّان القرن الرابع قبل الميلاد ـ خمسة من القادة العسكريين (ستراتيجي) القورينيين

(1) قامت عدة حروب بين قوريني، في عهدها البطلمي، وبين جارتها الغربية قرطاجة، وحدث بينهما نزاع حول حدودهما المشتركة؛ قرَّرتا في النهاية حسْمه بأن يتم رسم خطّ الحدود بينهما في المكان الذي يلتقي عنده عدّاؤون يوفدهم الطرفان، بحيث ينطلق عدّاؤو قرطاجة وعَدّاؤو قوريني في آنٍ واحد عند بدْء السباق. ولكن حدث وأنّ العدّائيْن اللذيْن يمثّلان قرطاجة، وهما الأخوان «فيلايني»، تمكّنا من قطع مسافة أطول من تلك التي قطعها عدّاؤو قوريني. فاحتجّ القورينيُّون البطالمة، وأتّهموا الأخويْن «فيلايني» القرطاجيّين بالشروع في السباق قبل الموعد=

على أحد اللوحات النقشيّة، افتخارهم وزهوّهم لتمكّنهم من إلحاق الهزيمة بهاتين القبيلتين. وفيما بعد سيتم على أرض قبيلة «النسامونيس» تشييد نُصْب هيكل العذّائيْن القرطاجيّيْن الأخوين «فيلايني» وهو النصْب الذي يعتبره القدماء خطًّا حدوديًا فاصلاً بين منطقتيْ نفوذ قوريني وقرطاجة على التوالي[1]. ولكن في الفترة التي ألّف فيها «هيرودوتس» تاريخه، يبدو جليًا أن معمّري قورينائية الإغريق لم يكونوا قد فكّروا بعد في مدٍّ نفوذهم بآتجاه الغرب.

وإذا ما رسمنا خريطة وأثبتنا عليها المعلومات التي أمدّنا بها «هيرودوتس»، بخصوص توزيع المناطق التي استوطنها الإغريق، والمجالات التي كانت تقطنها القبائل الليبيّة، نلاحظ أن الإغريق قد احتلوا تقريباً كل «الهلال الخصيب» في قورينائية؛ أي أنّهم احتلّوا الجبل الأخضر وهضبة مدينة برقة، وكل امتداد القطاع الشمالي الغربي للشريط الساحلي، ما بين «تاوخيرا» (= العقورية) و «أبوللونيا» (= سوسة). وإقليم «يوسبيريدس» (= بنغازي) هو وحده الذي يُستثنى من هذه المنطقة التي تتجاوز كمية الأمطار فيها ثلاثمائة ملليمتر. ويعود هذا الاستثناء إلى الظروف المحليّة الخاصة التي سبق لنا وأنْ أشرنا إليها أعلاه. وهذا التطابق الطبوغرافي بين المنطقة التي ترويها مياه الأمطار نسبيًا، وبين منطقة الاستعمار الاستيطاني الإغريقي، إنما هو أمرٌ واضح للعيان. وهو لم يتم بطريق الصدْفة؛ فالإغريق الذين كانوا قد حطّوا في شرقي قورينائية، لم يمكثوا هناك طويلاً؛ بل ولم يتركوا وراءهم مستوطنات دائمة في تلك المنطقة. وهم لم يحتلّوا الجزء الشرقي من قورينائية ومراقية (البطنان) إلّا فيما بعد، وهو احتلال لم يكن قط مكثّفاً. فالشيء الذي كان يتطلّع إليه هؤلاء

= المحدّد لبدئه، واقترحوا أن يتم دفْن هذين الأخوين أحياء في نفس المكان الذي وصلا إليه في السباق، برهنةً منهما على أنّهما لم يخرقا قواعد السباق. فقبل الأخَوان المذكوران الاقتراح، وتم دفنهما أحياءً بالفعل هناك، ومن ثم صار نصْب هيكل دفنهما الحدّ الفاصل بين منطقتي نفوذ الطرفين.

المعمِّرون الوافدون ـ إذن ـ كان هو الاستقرار في مناطق صالحة للزراعة. وكان المعمِّرون قد سارعوا ـ بتحريض من الملوكْ الباطيين في أيّام «هيرودوتس» ـ بمصادرة جميع الأراضي الزراعيّة، ولم يُبقوا لليبيين سوىٰ على مناطق السهوب الجرداء التي أُرغم هؤلاء الأخيرون على النزوح إليها.

ونحن نلْمس بيُسْر سبب شغف المعمِّرين الإغريق بهذا الإقليم الواسع الرحْب، الذي استعاضوا به عن وديان بلادهم الأُمّ الضيِّقة، وعن جُزرهم الصغيرة التي تغصُّ بالصخور والمنحدرات. فهم قد عثروا في هضبة هذا الإقليم على مساحات شاسعة يمكن استصلاح أراضيها الزراعية بسهولة. وزيادة على كلّ ذلك، فإن الأمطار الغزيرة تهطل على هذا الإقليم في فصْل الشتاء بكثرة، فتروي «.. **هذه السهول التي تنْعقد في أُديم سمائها السُّحُب الداكنة..**» ـ على حدّ تعبير الشاعر «بنداروس» في إحدى بوثيّاته؛ خصوصاً في منطقة قوريني، حيث: «.. تبدو السماء مثقوبة..»، بالفعل كما قال «هيرودوتس». ولذا، فقد تحمَّس أُولئك المعمِّرون للإقامة بهـذه الأرض الخصيبة التي تنمو في تربتها أصناف لا تُحصى من النباتات.

ويحسب «هيـرودوتس»، فإن الإقليم الأكثـر خصوبـة كان هـو إقليم «يوسبيريدس»، حيث يمكن للمرء ـ حسب قوله ـ أن يجني محصولاً يعادل مائة مرة مقدار بذاره. وهو يضيف قائلاً إن منطقة «كينيبس» (= وادي كعام) تُغِلُّ محصولاً يوازي مردوده في خصوبته مردود منطقة «يوسبيريدس» ثلاث مرّات. غير أن ملاحظات «هيرودوتس» هذه لا تتّفق أبداً مع ملاحظات الجغرافيين المحدثين. ذلك أن هذا المؤرِّخ قد ساق لنا معلومات لم يقمْ بالتحقّق من مدىٰ مصداقيتها في الواقع بنفسه، ثم ثنّت الروايات الشفهية المتواترة عند الإغريق، فبالغت كثيراً فيما ذكره عن شدّة خصوبة هاتين المنطقتين. أمّا فيما يتعلّق بمنطقة قوريني نفسها؛ فإن رواية «هيرودوتس» تعتبر أقرب إلى الصدق. فهو في الحقيقة يقول: «.. إنَّ التفاوت في درجات الارتفاع يُحْدث تبايناً بين

المحاصيل؛ فمحاصيل المنطقة الساحلية هي أوّل ما ينضج ويصير جاهزاً للحصاد والقِطاف. وعندما ينتهي موسم جمْع هذه المحاصيل، فإن محاصيل المنطقة الوسطىٰ ـ المحاذية للسهل الساحلي ـ تبلغ أوان نضجها، بدورها عندئذٍ، وهذه هي المنطقة المسمّاة بمنطقة التلال. وأخيراً، فإنه عند انتهاء موسم محاصيل هذه المنطقة الوسطىٰ؛ فإن محاصيل المنطقة العليا تبلغ أوان نضجها هي الأخرى؛ بحيث أنّه عندما تكون ثمار الموسم الأوّل قد استُنفدت، واستُهلكت أكلاً وشرباً، فعندئذٍ تظهر ثمار الموسم الأخير. وهكذا، فإن مواسم جني المحاصيل، في قوريني، تتواصل على مدىٰ ثمانية أشهر».

وهذا الوصف الذي جاء به «هيرودوتس» هنا مطابق للحقيقة تماماً؛ ذلك لأنه قد زار بنفسه المنطقة التي يصفها، فاستطاع بالتالي رسم هذه الصورة الدقيقة لتعاقب مواسم محاصيلها. وهو يصف لنا بدقّة كذلك توالي مستويات الارتفاع الطبوغرافي في منطقة قوريني: فهنالك المنطقة الساحلية الضيِّقة، حيث يسود مناخ أفريقي متميِّز؛ ثم الهضبة المتوسطة الارتفاع، التي تخترقها الوديان في بعض القطاعات فتحوّلها إلى تلال؛ الأمر الذي يجعلها بالفعل جديرة بتسمية «منطقة التلال» التي أطلقها عليها «هيرودوتس»؛ حيث كان ينمو نبات السلفيوم القيِّم. وأخيراً هنالك الهضبة العُليا التي تبدو نباتاتها شبيهة بالنباتات الأوروبيـة تقريباً. إن التفاوت والتباين في طابع الحياة النباتية، الذي يشير إليه مؤرِّخنا هنا، مطابق للحقيقة تماماً. فلقد شاهدتُه بنفسي قُبيل نهاية شهر يناير سنة 1946 م، عندما قمت بأولى زياراتي الميدانية إلى قوريني: فزهرات الزنبق البرِّي البيضاء كانت قد ذبلت تماماً وجفّت عند شاطىء البحر؛ أمّا على التلال، فإنها كانت ما تزال عندئذ في عنفوان إزهارها؛ وأما في قوريني نفسها، على حافّة الهضبة العُليا، فإن الزنبق البرِّي لم يكن قد أزهر بعدُ، وسوف لن يزهر إلاّ فيما بعد، أي في شهر مارس[1].

(1) تتفاوت فترات إزهار الزنبق البرِّي الذي يتحدّث عنه (شامو) هنا، في هذه الأقاليم. فلقد قمتُ =

وبالتأكيد، فإن أهم غلّة زراعية كانت تنتجها هذه الأرض المعطاءة هي الحبوب. وليس من الصدفة في شيء أن يصف الشاعر «بنداروس» ليبيا، في بوثيّته الرابعة، بأنها: «مُنْجِبة القمح». ونحن نعرف، على الخصوص، مدى أهمية إنتاج القمح في قورينائية إبّان القرن الرابع قبل الميلاد. والوثائق العائدة إلى تلك الفترة كثيرة ومشحونة بالدلالات في هذا الصدد. ونحن نجد المدبِّرين الماليين (الديميورج)، الذين كانوا يحصِّلون ريوع وإيرادات الأراضي الموقوفة على المعابد، يقومون برصْد محاصيل القمح والشعير في رأس قوائم حساباتهم. ويُطلعنا نص شهير، هو نص «لوح إمدادات الحبوب»، على أنّه خلال تعرُّضِ العالَم الإغريقي لفترة جدْب في محاصيل القمح، ما بين سنة 331 قبل الميلاد وبين سنة 328 قبل الميلاد، فإن قوريني أمدَّت ثلاثاً وأربعين مدينة إغريقيّة بكمّيات من الحبوب بلغ إجمالي مقاديرها ثمانمائة وخمسة آلاف (805.000) مكيال إغريقي؛ صُدِّر منها إلى مدينة أثينا وحدها مائة ألف مكيال. وبالرغم من أن اللوح المذكور لا يحدّد لنا عدد السنوات التي ظل فيها قمح قوريني يتدفّق على تلك المدن الإغريقيّة؛ إلاّ أن المقدار الإجمالي لهذه الصادرات يعتبر هائلاً؛ من حيث أنّه يعادل، على وجه التقريب، المتوسط السنوي لمجموع واردات أثينا من القمح. واطِّراد معدَّلات صادرات القمح «الليبي» إلى ميناء «بيراوس الأثيني» هو أمر شهد به كذلك «ثيوفراستوس»، عند نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، في كتابه «تاريخ النباتات».

وإلى جانب اشتهار قورينائية بإنتاج الحبوب، فإن النصوص القديمة تشير إلى أن هذا الإقليم كان في الحقيقة شبيهاً بالبُستان؛ حيث أدّت جهود المعمِّرين الإغريق الدؤوبة ـ يساعدها في ذلك المناخ الملائم ـ إلى إنتاج

= خلال هذا الأسبوع (أوائل شهر يولية 1989) بزيارة صديق في قرية «سيدي خليفة» الواقعة على شاطىء البحر إلى الشرق من بنغازي، ولقد هزَّني منظر زهرات الزنبق البرِّي البيضاء التي هي الآن في عنفوان تفتّحها وتعبق برائحة زكية. أي أن هذه النبْتات الجميلة التي لفتت نَظر «هيرودوتس» في غابر الدهر، تزهر عند شاطىء البحر في فصْل الصيف.

فواكه وخضروات من جميع الأصناف. وحتى وإن لم يذكر لنا «هيرودوتس» ماهية منتجات الإقليم؛ إلاَّ أن استعماله عبارة «موسم القِطاف»، فيها إشارة كافية للدلالة على أن إغريق قوريني كانوا يزرعون الكروم، التي تنمو فيها في الحقيقة بكثرة. وعند زيارتي لقوريني في سنة 1946 م، أُتيحت لي أنا نفسي هنالك فرصة إحتساء خمرةٍ صهْباء لذيذة المذاق، تم تصنيعها من كرومها. وهذه الخمرة، في اعتقادي، هي نفس تلك الخمرة التي كانت تقدّم خلال الاحتفالات الدينيّة التي كانت تُقام في قوريني نفسها في سالف الدهر؛ والتي حدَّثنا عنها «بنداروس» في بوثيَّته الخامسة، وأيضاً نفس تلك التي كانت تُقدَّم في الاحتفالات التي يترأسها الكهنة أمام معبد «أبوللو» في المدينة، وهي الاحتفالات التي حدَّثنا عنها ـ فيما بعد؛ أي في القرن الثاني قبل الميلاد ـ الرَّحَّالة «باوسانياس». وتتحدّث قوائم حسابات المدبِّرين الماليين الذين كانوا يشرفون على أوقاف معابد قوريني الزراعية، عن ثلاثة أنواع من العنب، وهي: «عنب المائدة» المبكِّر النضوج، والمخصَّص للإستهلاك طازجاً؛ والعنب الأسود، الذي تُسْتقْطر منه الخمور ـ وهو أرخص ثمناً ـ وأخيراً الصنف الثالث الذي يُصنع منه الزبيب.

وتنتج حقول قوريني وبساتينها خضروات وبقول يتحدّث عنها المدبِّرون الماليُّون في قوائمهم المذكورة بالتفصيل؛ ومنها: الحُمُّص، والفول، والعدس، والبصل، والثوم، وكذلك التوابل كالكمُّون. ويُشيد العديد من النصوص القديمة بنوعية زعفران قوريناثية الذي كانت تُزيِّن به مذابح «أبوللو» القربانية في فصْل الربيع؛ مثلما ذكر «كاليماخوس القوريني» في نشيده الثاني. ذلك أن هذه البلاد كانت مشهورة بجمال زهورها، كما قال «ثيوفراستوس» في كتابه «تاريخ النباتات».

ولقد حدّثنا المؤلِّفون القدماء مثل «ثيوفراستوس»، و«ديودوروس الصقلِّي» عن أشجار الزيتون في قوريني؛ قائلين إن الزيت المستخلَص من ثمارها كان

وفيراً. ولقد ورد ذكّر الزيت والزيتون ضمن قوائم المنتجات الزراعية التي حدَّد المدبِّرون الزراعيُّون أسعارها. وتتحدّث سجلّات هؤلاء التي تم العثور عليها عن اللوز والتين أيضاً[1]. ويشير «ثيوفراستوس» إلى وجود أشجار السَّرْوْ، والصنوبر، والسِّدْر؛ ولقد كانت تصنَّع من بعض هذه الأشجار أخشاب من نوعية ممتازة. ويذكر «ثيوفراستوس» أنّه قد تم العثور في قوريني، في القرن الرابع قبل الميلاد، على عوارض تسْقيف مصنوعة من خشب الصنوبر، وتعود إلى بدايات الاستيطان الإغريقي، فكانت ما تزال في حالة جيِّدة. وكانت أخشاب السّروُ تعتبر من أفضل أخشاب البناء؛ كما كان النَّحَّاتون يصنعون تماثيل رائعة من خشب اللوتس. ولا بد وأن يكون غناء قوريناثية بأخشابها هو أحد العناصر الهامّة التي ساعدت على ازدهارها؛ ذلك أن الأخشاب لم تكن قطّ وفيرة على الشواطىء الشرقية لحوض البحر الأبيض المتوسط. ويتحتم أن نضيف إلى كل ذلك أشجار النخيل التي تنمو في ذلك الجزء من الإقليم الذي يتميّز مناخه بالحرارة الشديدة. ولقد نُقشت النخلة أحياناً على أديم النقود القورينية. ونحن نعرف ـ بفضل «هيرودوتس» ـ أن قبيلة «النسامونيس» كانت تشدُّ الرِّحال في موسم التمور إلى واحة «أوْجلة» لجنْي ثمار هذه الشجرة الصحراوية.

وإلى جانب نبات السلفيوم ـ الذي سنخصُّه بالفصْل التالي من هـذا الكتاب ـ فهذه هي المنتجات الزراعية الرئيسيّة في قوريناثية إبَّان تاريخها الإغريقي. وعندما تنجو هذه المحاصيل الزراعية من وبال موجات الجراد النَّهمة؛ فإنها كانت تشكِّل ثروة الإقليم.

---

(1) انظر قوائم حسابات المدبِّرين الديميورجيين (DÉMIURGES) التي وضعها «أندريه لاروند A. LARONDE» في كتابه: «قوريني وليبيا الهلِّينستيـة»، ص ص 326-327، في القرنين الـرابع والثـالث قبل الميـلاد. وهي تشمل المنتجـات الزراعيـة التاليـة: القمح، الشعيـر، الخضـروات، الكمُّون، التّبن، الخـرطان، العنب، التِّين، الـزيتـون، الـزَّبيب، الـزيت، الجلبان، الحمّص، اللوز، الفول، البصل، الثوم، العدس.

وإلى جانب الزراعة، فإن ليبيا عرفت في قديم الزمان مصدراً للثراء يتمثّل في تربية المواشي. فالفيافي والسهوب التي تنمو فيها الأعشاب، ابتداءً من خليج سرْت وحتى سواحل مراقية (البطنان)، قد مكّنت أصحاب قُطْعان الضأن والماعز الرُّحَّل، دوماً، من الظعْن بها بتوءدة عبر مسافات شاسعة بحثاً عن الكلأ. فليبيا هي «موْئل الأغنام» الذي حدّثنا عنه «هوميروس» في «الأوديسّا»، وهي موطنها الذي وصفته لنا نبوءات «أبوللو» القديمة؛ وهي كذلك «أرض المراعي» التي تخيّلها «بنداروس» في بوثيّته التاسعة حتى قبل أن يزورها بنفسه. فمروج هضبة قورينائية الخضراء التي تسقيها مياه الأمطار تناسب تربية المواشي كثيراً. والأراضي التي كان يكْتريها المدبِّرون (الديميورج)، كانت تغلُّ الأعشاب المجفّفة (الخرطان) والتِّبْن. وكانت الثيران تُستعمل كقرابين دينيّة يتم ذبحها في مواسم الأعياد، بينما كانت جلودها تصدَّر إلى أثينا. ولكن أشهر الحيوانات التي كانت تُربّى في ليبيا، خلال الفترة موضع الدراسة، هي الخيول.

ولقد حظيت خيول ليبيا بصيت ذائع طوال العهود الكلاسيكيّة القديمة. فالانتصارات التي أحرزتها عربة «أركسيلاوس الرابع» في سباق العجلات البيثيّة في دلفي، وفي أوليمبيا؛ وتلك التي أحرزها «قراطيسثينيس» في الألعاب الأولمبية في دوْرة سنة 448 قبل الميلاد؛ وتلك التي أحرزها «إيُوبوتاس» في نفس الألعاب، في دوْرة سنة 408 قبل الميلاد، كانت جميعها سبباً في شهرة عربات قوريني التي تجرُّها جياد أربعة. ونحن نقرأ في مؤلَّف «سوفوكليس»[1]، الموسوم بـ«إلكترا» وصفاً لسباق خيول جرى في دلفي،

(1) «سوفوكليس» هو شاعر إغريقي تراجيدي كبير، وُلِد في ضاحية «كولوفوس» بأثينا ما بين سنة 496 ق م، وسنة 494 ق م، وتوفي سنة 406 ق م. وكتب العديد من المسرحيّات التي قِيل أنّها تجاوزت المائة والعشرين عدداً؛ ولكن لم يبقَ منها سوى ما يلي:
1 ـ (أنتيجوني ANTIGONE). 2 ـ (فتيات تراخيس TRACHINIAE. 3 ـ (أوديب ملكاً OEDIPUS REX). 2 ـ (أجاكس AJAX). 5 ـ (فيلوكتيتيس ـ PHILOCTETES). 6 ـ =

واشترك فيه فريقان من الفرسان القورينيين، حيث تنافسوا على الفوْز فيه ضد ثمانية من فرق الفرسان الإغريق الآخرين. ولقد تغنّى شعراء مشاهير، من أمثال «بنداروس» و «كاليماخوس»، بجياد وعربات السباق في قوريني. وفي معْرض كلامه عن المعمِّرين الثيرانيين الذين قادهم «باطوس الأوّل»، إلى ليبيا للاستيطان فيها، نَظَمَ الشاعر الغنائي «بنداروس»، في بوثيّته الرابعة، على لسان العرّافة الأسطورية «ميديا»، الأبيات التالية:

«سيمتطون خيولاً سريعةً، بدلاً من الحيتان ذوات الزعانف القصيرة..
وسيشدُّون على الأعنّة، بدلاً من المجاذيف..
لينطلقوا بعرباتهم بأسْرع من الرياح..».

وكانت براعة الليبيين في تربية وترويض الخيول قد صارت مضرب الأمثال في العَالَم القديم. فهم منذ أنْ تشرَّبوا هذا الفن، قبل أزمنة سحيقة، أصبحوا سادة له، حيث وفَّرت لهم المساحات الخضراء الشاسعة في هضبة قوريناثية وفيافي صحاريهم مجالاً رحْباً للتبريز فيه.

أَفَهَلْ كانت لخيول ليبيا سِمات وميزات خاصّة؟.. إنَّ النُّصوص القديمة لا تحدّثنا سوىٰ عن لونها الذي كان كَمِيتيًّا؛ أي أسوداً مشوباً بالاحمرار. وإذا ما نحن تفحّصْنا الرُّسوم النقشيّة العديدة التي تم العثور عليها في قوريني، والتي كانت تقدَّم إلى معابد المدينة كنذور وقرابين بمناسبة الانتصارات التي تُحْرز في سباقات العجلات؛ نجدها تصوِّر عربات تجرُّ كلًّا منها أربعة خيول،

= (أوديب في كولونوس OEDIPUS COLONEUS). وبالطبع مسرحية (إلكترا ـ ELECTRA)، وهي مسرحية مأساوية تتحدّث عن انتقام «إلكترا» لموت والدها «أجاممنون»، وهو موضوع عالجه عدد من التراجيديين الإغريق من بينهم الشاعر «يوريبيديس»، المتوفي سنة 406 ق م. كما عُثر لـ «سوفوكليس» بمصْر على مقطع من مسرحية «الكلاب قصّاصة الأثر».

وتعود إلى تواريخ متباينة تقع ما بين القرن الرابع للميلاد وبين عهد الإمبراطور الروماني «أغسطس». ويجب أن نضيف إلى هذه الرسومات النقشيّة عملات قوريني النقديّة التي ضُربت عليها - خصوصاً في القرن الرابع قبل الميلاد - صور عربات تجرُّها أربعة خيول. وجميع هذه الوثائق تفيد في مدِّنا بفكرة دقيقة حول الخيول الليبيّة: فهي تصوّرها لنا ربْعة القوام - شأنها في ذلك شأن الخيول العربيّة - وهاماتها تميل إلى الصِّغر، وهي نافرة الأعناق قصيرة الشعر، مُنْتصبة الذُّيول، وتتميَّز بأرجلٍ عصبية الحركة، ولها سليقة في المشْي مشحونة بالحيويَّة.

ومع أن النقود والنُّصوص القديمة تدلُّنا على أن إغريق قوريني كانوا يمارسون الفروسيّة؛ إلاَّ أنه يبدو أنّهم كانوا يفضّلون استعمال العجلات التي يجرُّها حصانان، أو أربعة على الخصوص. ولا شك أن الخيول الليبيّة الرَّبْعة كانت تناسب هذا الاستعمال خاصة. وغالباً ما اعتبر قدماءُ المؤلِّفين الذين كتبوا حول الشئـون العسكرية استمرارَ القورينيين، إبَّان الحقبة الكلاسيكيّة، في تزويد قوّاتهم العسكرية بعربات تجرُّها الخيول، على أنّه أحد الأصداء الجديرة بالملاحظة لتقاليد مُغْرقة في القِدَم، كانت معظم الجيوش الإغريقيّة قد أقلعت عنها منذ أمدٍ طويل. ولقد سبق لنا وأن رأينا كيف أن الليبيين في قورينائية قد أمـدُّوا إمبراطـور الفرس «خشـايارشـا الأول» - حسب ما نفهم من روايـة «هيرودوتس» - بوحدات من العربات الحربية، أثناء خوضه لمعارك الحرب الميديّة الثانية ضد بلاد الإغريق. ولقد علّق على هذا الأسلوب التّعْبوي كلٌّ من «كسينوفون»[1] و«آينيئاس التكتيكي» في مؤلفاتهما العسكرية، فأبانا عن أن

(1) «كسينوفون» هو فيلسوف وجغرافي وعسكري أثيني، وُلد حوالي سنة 430 ق م وتوفي حوالي سنة 355 ق م، وكان أخد تلامذة سقراط؛ وله مؤلّفات في الفلسفة، والاقتصاد، والسياسة. كما أنّ له رواية تاريخية وفلسفية عنوانها «كيروبيديا - CYROPEDEA»، (وتعرف كـذلك بـاسم «تربيـة كيروس»)، ولـه من المؤلّفات أيضـاً: «أنابـاز» أو «الرحلة»؛ و«الهلينيُّـون»؛ =

هذه العربات الحربيّة كانت تُستعمل لنقل فرق المُشاة. ولقد حفظت لنا القوائم العسكرية العائدة إلى القرن الرابع قبل الميلاد، أسماء العديد من قادة وحدات العربات التي تجرُّها أربعة خيول، إلى جانب أسماء آخرين من ضبّاط الجيش القوريني. وفي سياق سرْده لأحداث «الحروب البونيّة» بين قرطاجة وروما، نرى «ديودوروس الصقلّي» يشير كذلك إلى أنّه كانت توجد لدىٰ قوريني أعداد هائلة من العربات الحربيّة التي تجرُّها الخيول، والتي اشتركت في الحروب المذكورة. ومن المحتمل أن يكون تزويد قوريني الإغريقيّة لجيوشها ـ تقليديًّا، بعربات تجرُّها الجياد، راجعاً إلى اضطرارها إلى الاحتفاظ دوماً بوحدات تدخُّل سريع للدفاع عن نفسها ضد هجمات أهل البلاد الليبيين، الذين صادرت هي مساحات شاسعة من أراضيهم.

ومردُّ جعْل الأولوية، في تشكيلات قوريني العسكرية، للعربات الحربية ولسلاح الفرسان؛ هو ذلك الوضع الاجتماعي الذي كان سائداً في هذه المستعمرة الاستيطانية الإغريقيّة التي كانت ارستقراطيتها الإقطاعية تتمتّع فيها بدور طليعيٍّ مُتنفِّذ. وكثيراً ما استُلفت النظر ـ منذ أرسطو ـ إلى ظاهرة وجود علاقة مطّردة بين تربية وترويض الخيول وبين سيطرة الطبقة الأرستقراطية في المُدن الإغريقيّة. وفي قوريني ـ كما هو الحال في تساليا ـ نجد أن النهوض المستمر والدائم بتربية الخيول والاهتمام بها هو عادة من عادات الإقطاعيين. وبالتأكيد، فإنه ليس من الصُّدفة في شيء أن نلاحظ أن استقراء قوائم الموظفين القورينيين، في القرن الرابع قبل الميلاد، قد كشف لنا عن أنَّ أبناء أُسر وعائلات ارستقراطيّة بعيْنها، كانوا هم ـ دون غيرهم ـ الذين يشغلون الوظائف العمومية في أجهزة المدينة الرسمية. وهذا أمر يلمسه المرء على

= و «الخالدون»؛ و «الوليمة»؛ و «الاقتصادي». ولقد اشترك «كسينوفون» في بعض الأحداث التاريخيّة التي وصفها في كتبه. وأهم مؤلّفاته كتاب: «تاريخ بلاد الإغريق ـ HELLENICA» الذي يُعتبر مكمّلاً لكتاب «ثوكيديدس» المسمّى: «الحروب البيلوبونيزية».

الخصوص في سنة 322 قبل الميلاد ـ وهي السنة التي أصبحت فيها قوريني تابعة للبطالمة ـ حيث نجد أن أسماء بعض واضعي دستور «بطلميوس الأوّل» الرئيسيين، كانت قد ظهرت قبل ذلك بحوالي عشرين سنة، في القوائم العسكرية، كضبّاط في جيش قوريني. فلقد تغلغلت الطبقة الأرستقراطية ـ قبل سقوط المَلَكية الباطيّة ـ في جميع المناصب في قوريني؛ فكان ينتمي إليها نبلاء الأرياف، والفرسان، وقادة وحدات المركبات الحربية، والضبّاط؛ وبالتالي، فقد انتهى الأمر بهذه الطبقة بأن هيْمنت ـ في آنٍ واحد ـ على ثروة قوريني، وقوّتها، وأطيانها وجيشها. ومن هنا نفهم السبب في أن أسرة الباطيين المالِكة قد أُجْبرت في نهاية المطاف على التّخلّي عن مكانتها لهؤلاء الأرستقراطيين؛ فلقد كان زمام معظم شئـون الحكم بين أيْديهم أصلاً.

وإذا كانت الزراعة وتربية المواشي قد ازدهرتا في قوريني كثيراً ـ مثلما لاحظنا لتُوّنا ـ فإن نصيبها من الصناعة كان، على العكس من ذلك، ضئيلاً. ومن الجليِّ الواضح أن هذه المدينة الإغريقيّة الكبرى، لم تهتم قطّ بتطوير الأنشطة الصناعية والحِرَفيَّة فيها. وفي معْرض حديثـه عن حصار الحملة الفارسيّة لمدينة برقة، أشار «هيرودوتس»، في الكتاب الرابع، إلى وجود حدَّادٍ في هذه المدينة؛ ولكن إشارة خاطفة كهذه لا تقوم دليلاً على وجود ازدهار حِرَفيٍّ أو صناعيٍّ في قورينائية في ذلك الوقت. ولقد أجمع المتخصِّصون على شدّة تأخُّر قوريني في مجال صناعة الخزفيّات. فالمشاغل (الوِرَش) الحِرَفيَّة الوحيدة التي كانت تتميَّز ببعض الأهمية في هذا الإقليم هي دُور ضرْب العملة. ولقد دارت عجلة هذه المشاغل النقديّة على نحوٍ مطّرد وأصدرت الكثير من قطع النقد، منذ منتصف القرن السادس قبل الميلاد، وذلك لسدِّ ضرورات السيولة النقديّة المُلْحّة بالنسبة لتجارتيْ قوريني الداخلية والخارجية. والواقع أن أقدم عملية سكٍّ للنقود في المدينة تعود إلى فترة حكم «أركسيلاوس الثاني»؛ أي إلى حوالي سنة 560 قبل الميلاد. ولقد أصدرت قوريني قِطعاً

نقدية من الفضّة ذات عيار مطابق للعيار الأثيني، إلى جانب «دراخمات» نحاسية متعددة الفئات. وضُربت بعض أقدم عملات قوريني على قطع أثينيَّة. وإذن، فإن المسكوكات القورينيّة تعتبر، هي في حدّ ذاتها، شاهداً على قيام علاقات مبكّرة بين قوريناثية وأثينا. ومن المحتمل أن يكون التوسُّع في تجارة السلفيوم، في عهد «أركسيلاوس الثاني»، هو الذي شجَّع القورينيين على سكّ هذه النقود الأثينيَّة العيـار؛ ذلك أن منتجات قوريني من السلفيوم كانت تُصدَّر في معظمها إلى أثينا. وعلى أيّة حال، فإن خِتْم السلفيوم كان منذ البداية هو الشعار المفضّل لدىٰ نقّاشيّ النقْد القوريني.

والجدير بالملاحظة هو أنّه ابتداءً من حوالي سنة 525 قبل الميلاد، سُكَّتْ لـ «دراخمات» قوريني قطع صغيرة من فئة $\frac{1}{5}$، و $\frac{1}{10}$ «التترادراخمة». وظلّت هذه القطع النقدية الصغيرة ـ التي تساوي «دراخمة خفيفة» ـ متداولة، جنباً إلى جنب مع «الدراخمة» الأثينيّة، خلال نهاية الفترة الأولىٰ لظهور العملة القورينيّة؛ أي من حوالي سنة 525 قبل الميلاد وحتى حوالي سنة 480 قبل الميلاد. ثم حدث خلال الفترة الثانية ـ التي تمتد حتى الإطاحة بالنظام الملكي الباطي (480 ق م ـ 435 ق م) ـ وأنْ حلَّت «الدراخمة» الخفيفة وفئاتها، في قوريني، تدريجيًّا، محلَّ النظام النقْدي الأثيني. وأخيراً، فإنه بعدما أطيح بـالملَكية ـ أي بعـد سنة 435 ق م ـ سحبت قـوريني نهـائيـاً من التـداول «التيترا دراخمة» الفضيّة الأثينيَّة، ذات السبعة عشر جراماً، مستبدلة إيّـاها بـ «تيترا دراخمة» يبلغ عيارهـا حوالي ثلاثة عشر جراماً. فتم بذلك اعتماد العيار النقْدي الجديد، القائم على «الدراخمة» الخفيفة، وهو العيار المسمَّى بـ «العيار الآسيوي»؛ وذلك قياساً على نظام نقدي مماثل كان سائداً آنئذٍ في «إيونيا». وهكذا، فإنه يبدو أن المسكوكات القورينيّة قد تبنَّت في آنٍ واحد ـ وخلال فترة طويلة ـ نظامَيْن نقْديين يقومان، فيما يبدو، على حسابيْن نقْديين مختلفيْن؛ أحدهما إثني عُشْري، والآخر عُشْري. وما تزال بواعث تبنّي

قوريني لهذيْن النظاميْن المزدوجيْن المتزامنيْن غامضة. غير أن المُلفت للانتباه هو أنّه ما أنْ مضى بعض الوقت حتى ساد النظَام الإثْني عُشْري وحده من جديد، حيث أُسِّس على عيار أخفّ.

وهذا الفيْض الوفير من النقْد الذي كان متداولاً في قوريني يدلّ على مدى الازدهار الذي شهدته هذه المدينة منذ الفترة القديمة من تاريخها. وهو يدلّ كذلك على أنّه لا بدّ وأنّ تجارتها الخارجية كانت نشطة. ورغم نُدْرة الوثائق، فإنه من غير المستحيل التعرُّف على الجهات التي كانت قوريني تتبادل التجارة معها، وما هي السلع التي كانت محلاً لذلك التبادل التجاري.

ولقد تحدَّث المتخصِّصون كثيراً عن تجارة قوريني مع مصر، على الخصوص. وبالطبع، فإن مصر هي البلد الذي عُثر فيه على أكبر كميّة من النقد القوريني خارج حدود قورينائية نفسها؛ حيث كُشف عنها في كلٍّ من: «نوقراطيس»[1]، و«سخا»، وقرية «مِيْت رهينة»، و«دمياط». غير أنّ هذه المكتشفات النقديّة القورينيّة ـ التي هي ليست من الكثرة التي قد يتصوّرها المرء ـ يمكن أن نعزوها إلى أسبابٍ أخرى غير العلاقات التجارية. ففيما يتعلّق بنقد قوريني القديم الذي عُثر عليه بمصر، قد يكون، بكل بساطة، إحدى مخلّفات وآثار تلك الجزْية التي كانت تسدِّدها قوريني لمرْزبان مصر الفارسي في «ممفيس». إذْ أننا نجد صعوبة في تصوُّر أصناف السِّلع التي كانت قوريني تتبادلها مع جارتها مصر. فلقد برهن لنا البحَّاثة «ملن»، في دراسة له نشرها في مجلة الآثار المصرية، في سنة 1939 م، على أنّه لم يكن لدىٰ مصر من سلع جديرة بأن تصدِّرها إلى إغريق قوريني ـ إبَّان القرنيْن السادس والخامس قبل الميلاد ـ اللهمّ سوى الحبوب. فما الذي يمكن لقوريني الإغريقيّة أن تفعله بهذه السلعة المصريّة؛ وهي التي كان لديها هي

(1) هي الآن قرية «كوم جيف» الواقعة بالقرب من قرية نقراش بمصْر.

نفسها من الحبوب فائض ترغب في تصديره؟ . . وإذا كان هنالك تُجّار قوافلٍ قد سلكوا ـ للتّنقّل بين قوريني ومصر ـ طريق القوافل الصحراوي المحفوف بالمخاطر، أو استعاضوا عنه بالطريق البحري، الأكثر سهولة والأقل متاعباً؛ فلا بد وأنّهم فعلوا ذلك لكي يسوّقوا في مصر سلفيوم قوريني وزيْتها وخيولها، ويستوردوا ـ في المقابل ـ إلى هذه المدينة الإغريقيّة من مصر، سلعاً مشرقيّة مُسْتجلبة أصلاً إليها من الخارج. وبالفعل فقد تم العثور في خزينة معبد الإلهة «أرتيميس»، في قوريني، على سلعٍ مصريّة رخيصة كاللآليء الزجاجيّة والخزفيّة المقلّدة.

ومع ذلك، فإنه لا بد لنا وأن نخصّ هنا واحة سيوة المصرية بشيء من الذّكر. فالظهور الفجائي والتطوّر السريع الذي لحق عبادة الإله المصري «زيوس ـ آمون» في قوريني، قُبيْل نهاية القرن السادس قبل الميلاد ـ وهو أمرٌ لم يكن متوقعاً من قبل ـ قد نجم بالتأكيد عن قيام علاقات تجارية. ولا بد وأن يكون سبب اتخاذ هذه العلاقات التجارية للمسالك الصحراوية طريقاً لها، هو تلك الرقابة الصارمة التي كان قد فرضها المحتلّون الفرس على الدروب الساحلية. فمنتجات الواحات المصرية ـ وعلى الأخصّ «ملْح آمون» الشهير ـ لا بد وأن تكون قد استقطبت اهتمام إغريق قوريني. ولقد تم العثور في خزينة معبد الإله «أبوللو» في قوريني على قطع من قشر بيْض النّعام. وحتى الآن، فإن هذه هي القرينة الملموسة الوحيدة الدالة على قيام مبادلات تجارية، في الماضي، بين قوريني الإغريقيّة وبين سكّان الصحراء.

ولقد أوْلىٰ الكثير من الكُتّاب أهمية كبرى للعلاقات بين قوريني وبين جزيرة ساموس الإغريقية. فـ «هيرودوتس» يشير، في الواقع، إلى أن العلاقات بين هذه الجزيرة وبين قوريني كانت ممتازة. ومن ناحية أخرى، فإن العديد من الوثائق القديمة قد برهنت على قيام علاقات بين هذه المدينة وبين جزيرة رودس، ابتداءً من فترة حكم «باطوس الثاني». ولقد استُنْتج من ذلك أن بعض

المدن الإغريقيّة في «أيونيا»؛ و«فوسي»، بآسيا الصغرى، وفي جزيرة ساموس ببحر إيجة، كثيراً ما استخدمت قوريني وميناءها (أبوللونيا فيما بعد) كمحطة لمراكبها. وهذه المدينة التي سيُستخدم ميناؤها «أبولونيا»، بالفعل، خلال الحقبة الرومانية، محطة لتوقُّف المراكب التي كانت تربط بين مصر وإيطاليا؛ قيل إنها كانت منذ بداية عهدها الباطي تلعب دور المحطة البحرية للمراكب الإغريقيّة في تنقُّلها بين المشرق وبين أوربـا. غير أن هذا الأمر قد بُولِغ فيه. فإذا كان من الطبيعي، في الواقع، أن تمرَّ سفينة متوجِّهة من مصر نحو غربي البحر الأبيض المتوسط بمحاذاة سواحل قوريناثية وتتوقَّف بأحد مرافئها؛ فإنه لا يبدو أن المراكب كانت تسلك هذه الطريق البحري منذ القرن السادس قبل الميلاد. فالمراكب الإغريقيّة التي تبْحر من موانىء مصر كانت تتجه شمالاً بآتّجاه جزيرة كريت، أو بآتّجاه آسيا الصغرى، ولا تُبْحر بإتّجاه غربي؛ لأن التيَّار البحري المارّ بساحل مراقية (البطنان)، باتجاه الشرق، يعوق إبحار هذه المراكب من مصر بآتّجاه ميناء قوريني. أمَّا فيما يتعلّق بالسُّفن القادمة من بحر إيجة أو من جزيرة رودس، بآتّجاه إيطاليا أو صقلية، فلم يكن هنالك أي سبب وجيه يجبرها على القيام بدورة كبيرة تُفْضي بها إلى التوقُّف بميناء قوريني؛ فالطريق الاعتيادي لهذه السفن يمر بجزيرة كريت وبالبحر الأيوني. وإذن، فإن الصدفة وحدها هي التي جعلت الـرياح تُلْقي بمـركب الرُّبَّـان الإغريقي «كولايوس الساموني» ـ الذي حدّثنا عنه هيرودوتس» في الفقرة 152 من الكتاب الرابع ـ على شاطىء جزيرة «بلاتيا» القوريناثية، عندما كان متوجِّهاً من جزيرته ساموس إلى مصر. فالواقع أون موانىء قورينـائية ليست محـطّات إرساء اعتياديّة، لأنها لا تقع على خط بحري ترتاده السفن كثيراً. ولذا، فإنه إذا كانت المراكب الإغريقيّة قد عرفت ميناء قوريني (أبولونيا فيما بعد) جيداً، فإن ذلك لم يكن لمجرد التوقُّف عنده كمحطّة إرْساءٍ عابرة، عند قيامها برحلات بحرية طويلة؛ وإنّما لأنها كانت تقصده خصِّيصاً لشحْن منتجات الإقليم الزراعية،

ولتفريغ ما تجلبه إليه من بضائع إغريقيّة. فأهل جزيرة ساموس الذين كانوا يملكون معامل غزل هامّة، كانوا يتوجهون بمراكبهم إلى هذا الميناء، على الخصوص، كي يستوردوا عن طريقه أصواف الأغنام القورينيّة.

وكانت قوريني تستورد من جزر «السيكلاد» الإغريقيّة، الواقعة في بحر إيجة، جانباً من حاجاتها من المرْمرْ، وكانت لها علاقات وطيدة بأهم جُزرها، وهي جزيرة ثيرا. وفي مطلع القرن الرابع قبل الميلاد، كان الثيرانيّون المقيمين في قوريني من الكثرة، بحيث لم يستطعْ العالَم الإغريقي أن يتّخذ ضدّهم إجراءات عُزْلة عامة. كذلك، فإن جزيرة كريت ـ التي تشكِّل المحطة البحرية الطبيعيّة للمراكب والسُّفن على الطريق البحري المارّ ببلاد الإغريق وببحر إيجة ـ لا بدّ وأنّه كانت لها، هي الأخرى، علاقات وطيدة بقوريني. وتدلُّنا على ذلك العديد من القرائن التي منها أن القرابين التي نذرتها قوريني إلى موْحى دلفي قد عُثر عليها جنباً إلى جنْب مع القرابين التي نذرتها جزيرة كريت لنفس هذا الموْحى؛ ومنها أن «أركسيلاوس الرابع» قد عهد إلى فنّان كريتي أن ينحت من البرونز تمثالاً لعربته التي فازت في الدورة الحادية والثلاثين للألعاب البيثيَّة الكبرىٰ الجامِعة في سنة 462 قبل الميلاد، ولسائسها «كارخوتوس»؛ ومنها كذلك أنّه تم العثور في جزيرة كريت نفسها على عمْلة نقديّة محلية أُعيد ضرْبها على مسكوكات نقديّة قوريناتية المنْشأ. وأخيراً، فإنه كانت لإسبرطة و«لاكونيا» أيضاً علاقات مع قوريني الدُّورية؛ ومن الشواهد الدالّة على ذلك أن الذي صنع «قدح أركسيلاوس» الشهير كان خزّافاً لاكونيًّا.

ومع ذلك، فإنه يبدو أن تجارة قوريني كانت مزدهرة بالدرجة الأولىٰ مع أثينا. فمن هذه الأخيرة اقتُبس عيار العمْلة النقديّة التي كانت سائدة في قوريني، كما استُجْلب منها حتى المعدن الذي ضَربت عليه هذه المدينة الباطيّة نقودها. كذلك، فقد كانت قوريني تستورد من أثينا المرْمرْ الذي نُحتت

منه معظم تماثيلها، وذلك ابتداءً من النصف الثاني للقرن السادس قبل الميلاد. وأخيراً فإنها كانت تستورد من أثينا السِّلع المصنَّعة، كالآنية والقوارير، وأيضاً العطور التي لم يكن الأثرياء القورينيُّون يطيقون حياتهم المرفَّهة بدونها. ومن ناحية أخرى، لم تكن قوريني لتجد، في غير أثينا، سوقاً كبيرة قادرة على استيعاب صادراتها؛ حيث كانت تصرِّف فيها السلعة الرئيسيّة التي تنتجها أرضها، وهي الحبوب. وبالتأكيد، فإن أصحاب المراكب الذين كانوا يورِّدون إلى ميناء «بيراوس» الأثيني تلك الغلال التي صار يحتاج إليها إقليم أثينا الغاصّ بالسكان، منذ فترة حكم طاغيتها «بيسيسترات»، (600 ق م ـ 527 ق م)، المزدهرة؛ لم ينتظروا حلول القرن الرابع قبل الميلاد كي ينْهلوا من معين تلك الكميّات الهائلة من الغلال التي كانت تجود بها مخازن الحبوب القورينيّة. كذلك فإن أثينا قد شرعت أيضاً في استيراد السلفيوم من قوريني منذ زمنٍ مبكّر. ويبدو أن ذلك قد حدث منذ أيّام المشرِّع الأثيني «سولون»[1]. ونحن نعثر على ذكْر نبات السلفيوم، كسلعة واسعة الاستعمالات، في كتابات «سوفوكليس»، وعلى الخصوص في كتابات الشاعر «أرسطوفانيس»[2].

---

(1) وُلِد «سولون» حوالي سنة 640 ق م، وتوفي حوالي سنة 558 ق م. وهو رجل سياسة أثيني، ومشرِّع، ومُصلح اجتماعي، وضع لأثينا دستوراً ديموقراطياً عندما أصبح والياً عليها (أرخونت). كما كان «سولون» شاعراً؛ غير أن قصائده لم تصلنا كاملة، وإنما وصلتنا شذرات منها في مؤلَّفات لاحقة. وله على الخصوص «القصائد الإليجيّة»، وهي ذات منْحى أخلاقي تأديبي. وهو يُعتبر في نظر قدماء الإغريق واحد من «الحكماء السبعة».

(2) «أرسطوفانيس» هو شاعر أثيني كوميدي ساخر، لاذع اللِّسان، وُلِد في أثينا حوالي سنة 445 ق م، وتوفي حوالي سنة 386 ق م؛ ألَّف حوالي خمسين مسرحية، وصلتنا منها إحدى عشرة، من بينها مسرحيات: «الفرسان»؛ «الدُّبابير» (تسخر من المحلَّفين القضائيين)؛ «السُّحُب» (هاجم فيها سقراط والسوفسطائيين)؛ «جمعيَّات النِّساء»؛ «الأرخانيّون»؛ «الطيور»؛ «السلام»؛ «الضفادع».. إلخ. وكان «أرسطوفانيس» من دُعاة السلام بين أثينا وإسبرطة ومن معارضي الحروب البيلوبونيزية، وتتجلّى أفكاره المسالمة في معظم مسرحياته، خصوصاً مسرحيّات: «السلام»، و«الفرسان» و«جمعيات النِّساء».

وهكذا، فقد اتّصل بين المدينتين تيّار من المبادلات التجارية المطّردة، بحيث كانت السفن العاملة بينهما تحصل بسهولة على حمولات من البضائع في الذهاب والإيّاب؛ فكانت المعاملات التجارية التي كانت قائمة بين إقليم أثينا وبين قورينائية تكفل تحقيق مصالح الإقليميْن.

إن أهميّة هذه العلاقات التجارية ـ والتي يحملنا تحليل الظروف الاقتصادية التي نشأت فيها على الاعتقاد بأنّها كانت واسعة جداً ـ تجعلنا نفهم الأسباب التي جعلت النفوذ الأثيني عميقاً إلى هذا الحدّ في مستوطنة قوريني البعيدة؛ التي وإنْ كانت دُوْريَّة في لغتها وتقاليدها، إلَّا أن الفنّ والفِكر فيها كانا ـ منذ منتصف القرن السادس قبل الميلاد ـ يُسْتلهمان من أثينا، التي هي مركز إشعاع الثقافة الإغريقيّة بلا منازع. ولقد صبغ التأثير الفنّي الأثيني، على الخصوص، تطوُّر فن النحْت القوريني بطابعه الحاسم. كما كانت قوريني تستورد من أثينا القوالب التي تصنّع فيها الأواني الفخّارية. وبالتأكيد، فإن الصدفة ليست هي التي قادت إلى أثينا ـ عند نهاية القرن الخامس قبل الميلاد ـ عالِم الرياضيّات القوريني «ثيودورس»[1]، الذي فكّر أفلاطون، فيما بعد، في الالتحاق به في قوريني. وهكذا، فإن نفس المراكب العامِلة بين قوريني وأثينا كانت تنقل من ميناء «بيراوس» الأثيني إلى قورينائية، أو مِن هذا الإقليم إلى ذلك الميناء ـ إلى جانب سِلعٍ مثل: السلفيوم، والفضّة، والأوائي الخزفيّة، والمرْمرْ ـ الفلاسفة والفنّانين أيضاً.

(1) وُلِد «ثيودوروس القوريني» حوالي سنة 460ق م في قوريني، وتتلمذ على يد «فيثاغوراس»، ثم أكبَّ على دراسة الرياضيّات التي تعلّمها على يديه الفيلسوف أفلاطون.

تذييل: الخزفيَّات المنسوبة إلى قوريني

ظل يُعْزى إلى قوريني، خلال فترة طويلة، صنفٌ كامل من الآنية الخزفية التي تشبه، من حيث طرازها وتقنيَّة تصنيعها، ذلك القدح الأثري المعروف بـ «قدح أركسيلاوس». وكان المسئول عن هذا الخطأ التصنيفي عالِم الآثار الألماني «بوخشتاين»، في سلسلة مقالاته التي نشرها في سنة 1880 م، في مجلة «الآثار» الألمانية. وكانت الحُجَّة الوحيدة التي استند عليها هذا العالِم - في زعمه بنسبة هذه الخزفيَّات إلى قوريني - ترتكز على الطابع القوريني للمشْهد المرسوم على أديم القدح المذكور، أي مشْهد «أركسيلاوس» وهو جالس يشرف على عملية وزْن رزمات نبات السلفيوم. وجاء بعد «بوخشتاين» هذا علماء آخرون، حاولوا بدورهم تبرير نسبة هذه الخزفيَّات إلى قوريني بأنْ بنوا نظريتهم، من ناحية، على ما لاحظوه في الرسومات التي زُيِّنت بها بعض الأواني الخزفيّة الإغريقيّة من موضوعات فنيّة ذات صبغة قورينية، (مثال ذلك: الحوريّة التي تُصارع الأسد)؛ وحاولوا، من ناحية أخرى التَّعرُّف على ما عُثر عليه من آنية خزفية، من نفس الطراز، في كلّ من مدينة «تارنيتي» الإيطالية وفي مدينة «نوقراطيس» المصرية القديمة، وفي جزيرة ساموس، بأن عزوا هذه الآنية إلى قوريني؛ قائلين إن هذه المدينة هي التي صدَّرتها إلى المناطق المذكورة، في إطار مبادلاتها التجارية معها. ولقد كرَّس «شتودنيكزكا»، في كتابه عن قوريني، الذي صدر سنة 1890 م، فصْلاً كاملاً حول الأواني الخزفيّة

«القورينيّة». وظلّت هذه التسمية معتمدة من قِبل المختصّين إلى أن قامت بعثة إنجليزية بإجراء حفريّات أركيولوجية في موقع إسبرطة الأثري، ابتداءً من سنة 1906 م، حيث فتحت هذه الحفريات الباب أمام تفسيرٍ جديد؛ فلقد تم العثور في الموقع المذكور، في الحقيقة، على أعداد ضخمة من الآنية الخزفيّة، من نفس الطراز، بحيث لم يعدْ هنالك أي شك في أن هذه الآنية إنما هي آنية إسبرطية، تم تصنيعها محليًا ولا يمكن أن تكون قد استُجلبت لا من قوريني ولا من غيرها لكثرتها. ثم تمّت دراسة هذه الأواني ـ التي قلنا إنه تمّ العثور عليها في إسبرطة عاصمة «لاكونيا» ـ دراسة دقيقة متفحِّصة، أفْضت إلى التأكُّد من مَنْشئها الإسبرطي؛ وبالتالي صارت تُسمَّى، من ثم، بـ «الخزفيّات اللاكونيّة»، بدل «الخزفيّات القورينية»، بعدما ثبت خطأ هذه التسمية التي ظلّت معتمدة حتى ذلك الوقت.

ومع ذلك، فإنّه ما تزال هنالك بين المتخصِّصين فئة تُصرُّ على تبنّي الموقف التقليدي القديم الذي يزعم بأن هذه الخزفيّات ـ أو على الأقل بعضها ـ إنما هي خزفيّات قورينية المنْشأ. بل إن هنالك فئة ثالثة تأخذ في الحسبان بفرضية تقول بأن كلًا من إسبرطة وقوريني كانتا تُصنِّعان هذه الأواني الخزفيّة سوياً. ولذا فإننا نرى أصحاب هذه النظرية يتبنّون ـ عند تصنيف هذا الطراز من الأواني الخزفيّة ـ تسمية «الخزفيّات اللاكونية ـ القورينيّة». بيْد أن هذا الموقف يُعدُّ موقفاً توْفيقياً يصعب التمسُّك به.

ولقد أكّدت الدراسات التي قام بها علماء آثار إنجليز آخرون حول هذا الصنف من الخزفيّات، ونشروا أبحاثهم بشأنها في سنتيْ 1933 م، و 1934 م، على صبغتها اللاكونيّة الإسبرطية، وتوصلوا إلى تحديد أزمنة تصنيعها؛ حيث أبانوا عن أنها صُنِّعت خلال فترة تمتد من نهاية القرن السابع قبل الميلاد وحتى الرُّبْع الثالث للقرن السادس قبل الميلاد، وبأن التطوُّر الفنّي الذي نال هذه الأواني الخزفيّة يعكس تزامنه مع نفس التطوُّر الحضاري العام في إسبرطة.

كذلك، فإنه من الصعوبة بمكان تصوُّرُ إمكانية أن تكـون معامل الخزف الإسبرطية قد فتحت لها، إبَّان تلك الأزمنة، فروعاً في قوريني، بحيث صارت تنتج أواني خزفية مطابقة تماماً لأنماط الخزفيّات الإسبرطية الأصيلة، وذلك دون أن ينال منتوج هذه الفروع القورينية المُفْترضة لصناعة الخزفيّات أيُّ اختلاف في الأشكال وفي التقنيَّات. والحجَّة الوحيدة التي يستند عليها القائلون بأن هذه الخزفيّات قورينيَّة الصُّنْع، يتمثَّل فقط في ذلك الطابع القوريني للرسومات التي زُيِّن بها عدد قليل جداً من الأواني الخزفيّة التي تم العثور عليها، ونعني بذلك على الخصوص المشْهد الذي زُيِّن به «قدح أركسيلاوس»، وأيضاً المشْهد الذي رُسم على أديم قدح خزفي آخر عُثر عليه في مدينة «تارينتي» الإيطالية، والذي يمثِّل امرأة مع أسد، اعتبرها أصحاب هذا الرأي «حوريَّة قوريني» (انظر لوحة غلاف هٰذا الكتاب). ولكن فيما يتعلّق بمحاولة المطابقة بين هذا الرسم الأخير وبين حوريَّة قوريني الأسطوريّة، فإنه لا يعدو أن يكون مجرّد افتراض غير حاسم؛ لأن هذا الرسم قد لا يكون سوى لوحة اعتياديّة تمثِّل أسداً، دون أن يكون لها بالضرورة أي مغزىٰ أسطوري؛ أو قدْ تكون لوحة ترمز للحوريّة التّساليّة التي تغنّىٰ بها الشاعر «هيسيودوس»، والتي لا علاقة لها البتَّة بقوريني. أمّا فيما يتعلّق بـ «قدح أركسيلاوس»، فإن المشهد المرسوم على أديم قاعه، إنما هو مشْهد يمثِّل ـ بما لا يدع مجالاً للشكّ ـ موضوعاً قورينيًّا صرْفاً. ومع ذلك، فما الذي يثبت لنا على نحوٍ قَطْعي جازم بأن هذا القدح قد تم صنعه في قوريني؟ إذْ من الممكن جدًّا أن يكون الذي رسم المشْهد الذي يزيّنه هو أحد الفنّانين اللاكونيين، يكون قد استلْهمه مثلاً من رحلة قام بها إلى قوريني، أو من نصٍّ تاريخي وقع بين يديه، أو من لوحة محفورة على الخشب من طراز تلك اللوحات الكورينثيَّة التي غالباً ما تكون مستوْحاة من مشاهد الحياة اليومية الحقيقيّة. والذي يهمُّنا هنا هو أن المشْهد الذي يمثِّل «أركسيلاوس» وهو يرْقب عملية وزن رزْمات السلفيوم، وهو المشْهد المرسوم على أديم القدح المذكور،

يمثّل ـ من حيث أسلوبه الفنّي، ومن حيث نمط الأحرف الإغريقيّة التي دُوِّنت عليه، ومن حيث كيفيّة تشكيله والروح الفنيّة التي يعكسها ـ كل سِمات فن الرسم اللاكوني على الخزفيّات. ولذا، فإنه يتوجّب علينا الإقرار بأن الفنّان الذي رسم هذا المشْهد، إنما كان فنّاناً إسبرطيًّا؛ بالتالي فإنّه لا بد من الاعتراف بأن جميع الأواني الخزفيّة الشبيهة بهذا القدح ـ من حيث طرازها والرسومات التي تزخرفها ـ هي آنية إسبرطية، وليست قورينية.

وهكذا، فإنه على ضوء المعطيات المحـدَّدة التي زوَّدتْنا بهـا نتائـج الحفريات الأركيولوجية في قوريني حول مسألة الخزفيَّات؛ فإننا أمْيل إلى الاعتقاد بأن الأواني الخزفيّة التي عُثِر عليها في هذه المدينة، ليست من صُنْعٍ قورينيٍّ. والحقيقة أن الحفريات الأثرية العميقة التي أُجريت في موقع المدينة لم تؤدِّ سوى إلى الكشف عن عددٍ قليل جدًّا من شقف الخزف اللاكوني.

الفصل الحادي عشر

نبات السلفيوم

مشكلة السلفيوم هي مسألة مشوِّقة ومُضْنية ويكتنفها الغموض، في آنٍ واحدٍ، وتنْفرد بها قورينائية؛ وهي مشكلة قُدِّر لها - بدون طائل - أن تحرِّك هِمم علماء الآثار، وعلماء النبات، منذ أكثر من قرنين من الزمان. ولقد حبَّرت الأبحاث المكرَّسة لدراسة هذا النبات صفحات العديد من المجلَّدات؛ ومع ذلك فإنها لم تُفْضِ إلى نتيجة. وكان السلفيوم عماد ثروة قورينائية. وهو نبات كان معروفاً ومستعملاً، على نحوٍ شائع، طوال معظم الأزمنة القديمة؛ وورد ذكره في مصنَّفات القدماء، ما لا يحصى ولا يُعدُّ من المرَّات، وحرص قدماء المؤلِّفين على وصفه، بل إنه ضُرب حتى على أديم النقود. ومع ذلك، فإننا ما نزال نجهل ماهية هذا النبات بالضبط. والحقُّ أن النصوص القديمة تشير إلى انقراضه تدريجيًّا من قورينائية قبيل ظهور المسيحيَّة. بيْد أن بقاياه كانت ما تزال تنمو في زمن «سونسيوس»[1]؛ عند مطلع القرن الخامس الميلادي. ولكن في زماننا هذا لم ينجح أي عالِم نبات في العثور على هذا التِّرياق الفريد.

---

(1) «سونسيوس» هو أحد فلاسفة الأفلوطينية المحْدثة. وُلد في قوريني حوالي سنة 370 ميلاديّة وتوفي سنة 414 ميلاديّة؛ وأمْضى طفولته في مسْقط رأسه هذا، حيث تلقّىْ تعليمه، ثم انْخرط في جيشها، ورحل بعد ذلك إلى الإسكندرية لاستكمال تعليمه بها، ذلك أن الإسكندرية كانت في القرن الرابع الميلادي عاصمة للثقافة الإغريقيّة العريقة وللثقافة المسيحية الوليدة، فتزوَّد فيها بالعِلم والفلسفة والآداب والرياضيّات، ثم رجع إلى قوريني لمزاولة الزراعة والقنْص. ثم سافر إلى أثينا، وبعدها إلى القسطنطينية - عاصمة الإمبراطورية الرومانية آنذاك - لتقديم =

وكلمة «سلفيوم» ليست إغريقيّة الأصل. ويذهب «بوازاك» في كتابه المسمّى «معجم الاشتقاقات وأصول الكلمات» إلى أن جذر هذه الكلمة لا ينتمي إلى جذور كلمات اللغات الهندوأوربية، وهو يميل إلى أن أصلها قد يكون أفريقيًّا. ويكتبها «هيسيخيوس المالطي»[1]: «سيلبون SELPON» و «سيلفون SILPHON». ويُعتقد أن نفس جذر الكلمة هو الذي جاءت منه في اللغة اللاتينيّة كلمة «سيربي ـ SERPE»، التي تعني «سلفيوم»؛ ومنها جاء الاسم اللاتيني الذي قُصدتْ به في البداية عُصارة هذا النبات وحدها، حيث يكتبونه LAC SERPICIUM. ثم صار يُكتب LASERPICIUM؛ وبعد ذلك حُذف المقطع الثاني من الكلمة الأخيرة وصار يُكتب: LASER (لازر).

ولقد ورد أوّل ذكْرٍ لنبات السلفيوم في قصيدة للحكيم الأثيني «سولون». ثم ظهرت الكلمة مجدّداً، بعد ذلك بفترة قصيرة، مع رسمة لهذا النبات، على أديم «قدح أركسيلاوس» في صيغة اسم عَلَم يُنطق هكذا: «سليفوماخوس». ويعثر المرء بعد ذلك على إشارات كثيرة إلى السلفيوم لدىٰ مؤلِّفي القرن

= شكوى قوريني من فداحة الضرائب. ثم عيّن «سونسيوس» أسْقُفاً لمدينة «بطوليمائيس» (طَلْميْثة ـ الدرسيَّة حالياً) التي كانت عاصمة لقوريناثية عندئذٍ، فصار بالتالي مطراناً لقوريناثية برمَّتها، أي رئيس أساقفتها، وذلك سنة 411 ميلادية. وقد تمّ تعيينه في ذلك المنصب في وقتٍ استفْحلت فيه هجمات الليبيين المتزايدة ضد المستعمِر الروماني بحيث أنّهم سيطروا على معظم الإقليم وحاصروا مدينة «بطوليمائيس» نفسها؛ فرأت الإمبراطورية الرومانية تحويل الكنائس المسيحيّة في قوريناثية إلى قلاع حربية للدفاع عن المستوطنات الرومانية. ومن المعتقد أن «سونسيوس» قد توفي ـ وعمره حوالي 43 سنة على أيْدي الليبيين. أما مؤلّفات «سونسيوس» فهي: 1) رسالة عنوانها «ديون قوقيانوس» (وهي عن السوفسطائية). 2) رسالة عنوانها: «في الأحلام»، 3) كتاب هزلي عنوانه: «مدْح الصُّلْع»؛ 4) «الأناشيد»، وهي عشرة أناشيد أودعها خلاصة آرائه حول الأفلوطينية المحدثة؛ 5) «الحكاية المصرية، أو في العناية»، وهي قصة رمزية.

(1) هو «هيسيخيوس المالطي السكندري»، عاش في القرن الخامس ق م، وضع معجماً في اللغة الإغريقية واشتقاقاتها، احتوى على تعابير وكلمات الغريب والشاذ من هذه اللغة وعلى أمثال إغريقيّة نادرة. وهذا المعجم له قيمة كبرى في التعرُّف على اللهجات والنقوش الإغريقية القديمة.

الخامس قبل الميلاد. فـ «هيرودوتس» يتحدّث عنه على اعتبار أنّه نبات معروف، خاص بقورينائية. ويدلّ تكرار ذكْر اسم هذا النبات لدىٰ «أرسطوفان» العديد من المرّات على أنّه كان يُستعمل في أثينا كأحد التوابل الكثيرة الاستعمال. ومن النُّصوص المتأخِّرة العديدة ـ سواء كانت نصوصاً إغريقيّة أو لاتينية ـ التي يرد فيها ذكر السلفيوم، يجدر بنا إبراز تلك الفقرة المسهبة التي وردت في كتاب «ثيوفراستوس» الموسوم بـ «تاريخ النباتات»؛ وهي الفقرة التي تحتوي على أهمّ المعلومات المعروفة عن هذا النبات؛ وكذلك الفصْل الذي عقده «بلِّيني الأكبر» في كتابه «التاريخ الطبيعي»، مع العلم بأن «بلِيْني» قد استقىٰ معظم مادة فصْله هذا من نصّ «ثيوفراستوس».

ويُجْمِع كل المؤلِّفين القدماء على اعتبار السلفيوم نباتاً خاصًّا بقورينائية. حقيقة إنه عُرف إبَّان الفترة الرومانية نبات سلفيوم أسيوي كان ينمو في بلاد فارس، وفي الشام، وفي أرمينيا؛ بل وحتى في الهند، وهي فصائل حلَّت شيئاً فشيئاً محل سلفيوم قورينائية؛ إمَّا لأن هذه الأصناف كانت أكثر وفْرة، وإمَّا لأنّها كانت أقل تكلفة. غير أن سلفيوم آسيا ـ الذي يُسمَّىٰ باللاتينية «PERSICUM LASER» ـ لم يكن على الإطلاق بنفس جودة السلفيوم القورينائي، المسمَّى باللاتينيّة CYRENAICUM LASERPICIUM؛ فهذا الأخير، وهو من نوعية ممتازة، كان يُعتبر دائماً على أنّه السلفيوم الحقيقي الوحيد، ومن الجليِّ أنّه نبات يختلف عن السلفيوم الآسيوي.

وفي المقابل، فإن قورينائية هي بالدرجة الأولىٰ موطن السلفيوم. ولقد جعلت قوريني من هذا النبات، الذي كانت أرضها تنفرد بإنتاجه، الشعار المفضَّل لعملاتها النقديّة. ولقد ذكر لنا «ثيوفراستوس» أنّه عندما فكَّر المعمِّرون الإغريق في إحدى القرىٰ الزراعيّة الواقعة ما بين مدينتيْ قوريني وبرقة في إرسال نذْرٍ إلى معبد دلفي، فإنّهم قرَّروا أن يكون هذا النَّذْر القرباني عموداً من المرْمرْ محلّىٰ بنقوش تمثِّل سيقان نبات السلفيوم. وكان السلفيوم

يعتبر هبة من الإله «أريستايوس» وهو ابن للإله الأسطوري «أبوللو» من الحورية قوريني، الذي تقول المثيولوجيا الإغريقيّة عنه إنه المخترع الذي علّم الإنسان كيفيّة تربية النحْل وأنّه «المخترع الأوّل» الذي تُنسب إليه ابتكارات زراعية أخرىٰ مفيدة للإنسان.

وكان السلفيوم نباتاً بريًّا، حاول القدماء غرْسه في «أيونيا» بآسيا الصغرىٰ، وفي شبه جزيرة البيلوبونيز، غير أنّهم فشلوا في ذلك، بحسب ما ذكره المطبِّب الإغريقي «أبيقراط». وكان هذا النبات ينمو في السهوب القريبة من الصحراء، وليس في المنطقة الزراعية. والمجال الذي ينمو فيه كان يمتد على الهضبة الداخلية، ما بين الهلال القوريناني الخصيب وبين الصحراء، ابتداءً من خليج «بمبا» وحتى خليج سرت، وعلى الأخص في إقليم «يوسبيريدس». وهنالك زعم بأنّه ظهر قبل إنشاء قوريني بسبع سنوات، على إثر هطول أمطار: **«مياهها كثيفة كأنّها القطران»**، على حدّ تعبير «بليني الأكبر». ولا شك في أن هذه الأمطار التي شُبِّهت غزارة مياهها بدُكْنة القطران، ليست سوىٰ إحدى تلك العواصف العابرة التي يصاحبها عادة وابل من الأمطار الغزيرة؛ وهي العواصف التي تنهال بأمطارها فجأة على الأقاليم شبه الاستوائية، فتحوِّلها خلال بضع ساعات إلى مستنقعات من المياه. ولقد كان عنف ونُدْرة رخّات هذه الأمطار المباغتة مبْعث دهشةٍ لإغريق قوريناني. وحيث أنه يعقبها عادة نمو عابر وسريع للأعشاب والنباتات؛ فإنهم غزوا إليها ظهور نبات السلفيوم. ولم يلاحظ أيٌّ من الباحثين حتى الآن أن التاريخ الذي زعم «ثيوفراستوس» أن السلفيوم ظهر فيه لأوّل مرّة ـ أي قبل إنشاء قوريني بسبع سنوات ـ يتزامن مع تاريخ نزوح الإغريق إلى قوريناني، ونزولهم بالتحديد في جزيرة «بلاتيا» بخليج «بمبا»؛ وهو الخليج الذي يبدأ عنده بالفعل ظهور هذا النبات. وإذن، فإن الحقيقة هي أن هذا النبات لم يكن قد ظهر عندئذٍ ظهوراً مفاجئاً كنبات جديد؛ وإنّما كانت تلك هي أوّل مرة يشاهده فيها المهاجرون الإغريق، عندما كانوا ما يزالون

مقيمين بتلك الناحية من قوريناثية، قبل تأسيسهم لمدينة قوريني بسبع سنوات.

ويشمل الإقليم الذي كان ملائماً لنموّ السلفيوم منطقة ضيِّقة الاتساع في مؤخرة قوريناثية. وهي منطقة لا تشكِّل جزءاً من الأراضي التي استعمرها الإغريق؛ وإنّما هي تدخل ضمن الأراضي التي ظلّت تعيش فيها القبائل الليبيّة. ولذا، فإن الليبيين أنفسهم هم الذين كانوا يقومون بجني هذا النبات، ثم كانوا يحملون رُزمه الثمينة إلى إغريق قوريني، الذين كانوا يقومون بتصديرها إلى الخارج. ومن غير المستبعد أن يكون الليبيُّون كانوا مُجْبرين على تسليم منتوجهم من السلفيوم كجزية يسدِّدونها للمعمِّرين الإغريق. ذلك أن بعض النصوص القديمة توحي بأن محْصول السلفيوم كان يذهب إلى ملك قوريني الباطي، وبأن المتاجرة في هذا النبات كانت احتكاراً ملكيًّا. ويستعمل الشاعر «أرسطوفانيس» في مسرحيته الشعرية «بلوتوس» عبارة «سلفيوم باطوس»[1] كمرادفٍ لعبارة «ذَهَبُ الدنيا كلّه»، فلقد كان يُكْنى به عن شدّة الثراء. ونرى أحد شُرّاح مسرحية «أرسطوفانيس» المذكورة، يستشهد في سياق تعليقه على كلمة سلفيوم بعبارة من كتاب «تاريخ الحيوان» للفيلسوف أرسطو، تقول: «.. ولقد منح القورينيون أحد الملوك الباطيين هِبَةَ السلفيوم». وهذا القول يؤيِّده المشهد الذي رُسم على أديم «قدح أركسيلاوس»، وهو المشهد الذي يصوِّر لنا ـ مثلما ذكرنا مرّات من قبل ـ الملك «أركسيلاوس الثاني» وهو يشرف شخصياً على عملية وزْن رُزم هذا النبات. وخلال فترة حكم الإمبراطور الروماني «أغسطس»، نرى «سترابو» يلاحظ من جانبه بأن تجارة السلفيوم كانت تخضع للوائح صارمة تنظّمها، لأن هذا النبات كان يتعرَّض لعمليات التهريب

(1) ولسنا ندري ما إذا كان «أرسطوفانيس» يقصد هنا «باطوس الثاني» الذي كان أوّل من فرض سيطرته على الليبيين خلال الفترة الباطيّة؛ أمْ أنّه يقصد «باطوس الرابع» الذي كان أوّل من ضرب النقود القورينية التي تحمل على أحد وجهيها صورة نبات السلفيوم وتحمل على الوجه الآخر صورة الإله «آمون».

عبر التخوم الغربية لقورينائية في خليج سرْت، عند الحدود التي كانت قائمة بين التوابع القرطاجية والإغريقيّة. فالسلفيوم كان سلعة ثمينة إلى درجة أن روما ـ التي كانت تحصل عليه بدون شك كجزية ـ كانت تخزّنه في خزانتها العمومية، على غرار الذهب والفضّة. وكان هذا التّرياق يُباع مقابل وزْنه فضّةً، حسب ما ذكره «بليني الأكبر».

ومردُّ هذا الولع الشديد بالسلفيوم هو تعدُّد الاستعمالات التي كان يصلح لها هذا النبات الفريد، حسب ما ذكره القدماء. فهو عندما يكون ما يزال طازجاً، فإنه كان يستخدم كعلف ممتاز للماشية. وكان يلعب دوراً هامًّا كواحد من البقول والخضروات بالنسبة لطرائق الطبخ في الأزْمنة القديمة؛ حيث كان يقطَّع ـ بما فيه ساقه وجذوره ـ إلى قطع صغيرة وينقّع في الخلّ قبل طهيه، أو يصنَّع منه مُخلَّل لذيذ. ومع ذلك فإن عنصره الأهم كان يتمثّل في عصارته التي كانت تُستخلص، إمَّا من جذوره وإمَّا من سيقانه. وكان يُطلق على عُصارته المستخلصة من جذوره اسم «ريزياس، RHIZIAS»، وهي أفضل من عُصارته الأخرىٰ المستخلصة من السيقان، والتي تُسمى «كولياس ـ CAULIAS». وكانت هذه العُصارة تمزج بالدقيق ويصنع منها عقار لا يُفسده التّخزين، وأكثر ما كان يُصدَّر من مشتقات السلفيوم كان يحضَّر على هذه الشاكلة. والسلفيوم كان يستعمل كتابل من التوابل إلى جانب اعتباره دواءً. وكانت تُعْزى إليه فوائد تطبيبيّة لا حصر لها، وبعض هذه الفوائد متضادَّة أحياناً؛ فهو كان يستعمل: كفاتح للشهيّة، وكمسهِّل، كما كان يستعمل في نفس الوقت لإيقاف نوبات الإسهال، وكذلك كمطهِّر ومانع للتّعفُّن. . إلخ؛ وباختصار فإنه كان يُعتبر ترياقاً شافياً من جميع الأمراض[1].

---

(1) فلقد ذكر المؤلِّفون القدماء أنّه كان ـ على سبيل المثال لا الحصْر ـ يُستعمل كعلاج لما يلي: النّزلات المعويّة؛ والتهابات القصبة الهوائية؛ والبواسير؛ ووجع الأعصاب؛ ولمداواة داء =

وإنه لمدْعاةٌ للعجب أن يختفي من الوجود تماماً نباتٌ كالسلفيوم الذي كان الناس في كل مكان يتطلّعون للحصول عليه، وكان يمثِّل أحد أهمّ أركان المبادلات التجاريّة في قورينائية إبّان عهدها الإغريقي. غير أنّ الحقيقة التي لا مِراء فيها هي أن إنتاج السلفيوم القوريني قد تضاءل منذ الفترة الرومانية. ولقد لوحظ أن قالب شعار السلفيوم ـ الذي كان في الماضي قد زيّن تقريباً كل عملات قوريني النقدية عندما كانت مستقلّة ـ قد صار يتلاشىٰ شيئاً فشيئاً، ابتداءً من القرن الثالث قبل الميلاد. ولعل هذا ليس سوىٰ مؤشرٍ على فُقْدان قوريني لاستقلالها المحلِّي تدريجيًّا ـ وهو الاستقلال الذي كان السلفيوم رمزاً له ـ أكثر منه دلالة على بدْء انقراض هذا النبات. ولكن منذ بدايات حكم الامبراطورية الرومانية لقورينائية، صارت فحوى النصوص التاريخية قاطعة بشأنه. فـ «سترابو»[1] يقول إن السلفيوم كاد أن ينقرض بسبب غارات الليبيّين الرُّحَّل، الذين كانوا ـ حسب قوله ـ يقومون بإتْلاف جذور هذا النبات نكايةً في إغريق قوريني. ويمدُّنا «بليني الأكبر» بتفاصيل غريبة في هذا الشأن، قائلاً إن «يوليوس قيصر» وجد في الخزينة العمومية ـ عند اندلاع الحرب الأهلية في منتصف القرن الأول قبل الميلاد ـ إلى جانب مقادير الذهب والفضّة، مخزوناً من السلفيوم، بلغ وزنه ألفاً وخمسمائة رطل. فلمّا حلَّ عصر الطاغية «نيْرون»، لم يُعْثر في قورينائية سوى على ساقٍ واحدة من هذا النبات، حيث أُخذت وأُرسلت إلى هذا الامبراطور كهدية فريدة في نوعها. ويعزو «بليني الأكبر»[2]

= الصفراء؛ ولمداواة عرْق النِّساء؛ ولتوسيع الرَّحِم؛ ولمداواة داء الكَلَب؛ وأوجاع الأسنان؛ والصَّرْع، ولمداواة العِنَّة عند الرجال؛ والتغلُّب على الصَّلَع؛ كما اعتُبر إكسيراً يعيد الشباب إلى الكهول.. إلخ.

(1) «سترابو» جغرافي ومؤرِّخ إغريقي، وُلد في أماسيا بإقليم بحر مرمرة في حوالي سنة 58 قبل الميلاد، وتوفي حوالي سنة 25 بعد الميلاد. وله مؤلَّفان شهيران هما «الجغرافيا» و«المذكرات التاريخية».

(2) «بليني الأكبر»، هو عالِم طبيعي روماني، وُلد في مدينة «كومي» الإيطالية سنة 23 ميلادية. وهو =

انقراض السلفيوم إلى جشع العشّارين من مستثمري الأراضي الذين فتحوا المساحات التي كان ينمو فيها هذا النبات أمام قطعان الأغنام لكي ترعىٰ فيها؛ وذلك بعد ما آلت إليهم هذه الأراضي كمزارع أجَّرتها لهم الدولة. فالحقيقة أن تلك الأراضي التي ينمو فيها السلفيوم قد تم ضمُّها إلى الإقطاعات الزراعيّة التي أُجِّرت لأولئك العشّارين. ويشير المؤلِّف الروماني «سولينوس»، من جانبه، إلى انقراض السلفيوم ويعزوه إلى عملية تخريبية ارتكبها الليبيُّون أنفسهم، قائلاً إن هؤلاء قد استأصلوا جذوره من الأرض عمْداً وأتلفوها بقصْد الإفلات من نيْر الضرائب الفادحة التي كانت الدولة الرومانية تفرضها عليهم. وعلى أيّة حال، فإنه عندما وصف «سونسيوس القوريناني» - إبّان القرن الرابع الميلادي - أوضاع إقليم قورينائية، فإنه ذكر أن نبات السلفيوم قد انقرض منها تقريباً، إذْ لم يعد يوجد منه - لعهده - سوى بضْع شُجيْرات كانت تربّىٰ في البساتين.

والحقيقة أنّه ليس هنالك من سبب وجيه يجعلنا نعزو انقراض هذا النبات إلى حدوث تحوُّل في الظروف المناخيّة؛ إذْ أنّه لا وجود لأيّة قرائن أخرى تحملنا على التسليم بمثل هذه الفرضيّة. كما أنّه لا يمكننا إرجاع ذلك إلى الإقدام على توسيع المناطق الزراعية في قورينائية باتجاه الجنوب؛ الأمر الذي قد يترتب عليه القضاء على السلفيوم البرِّي، لأن إغريق قوريني لم يقوموا قط باستصلاح السهوب شبه الصحراوية التي كان هذا النبات ينمو فيها، ولم يحاولوا أبداً تحويلها إلى مناطق زراعية. والواقع أن هنالك سببان رئيسيّان لا بدّ وأنّهما لعبا دوراً حاسماً في القضاء على السلفيوم، وبالتالي فإنهما يصلحان لتعليل هذه الظاهرة: فهنالك أوّلاً نَهَمُ قطعان الماشية؛ لأن المنطقة التي ينمو

= مؤلِّف موسوعة «التاريخ الطبيعي»، التي تقع في سبعة وثلاثين مجلّداً، والتي تُعتبر دائرة معارف شاملة لعلوم الأقدمين. ولقد هلك «بليني» بسبب ثورة بركان «فيزوف» سنة 79 ميلادية عندما كان يتواجد هناك لدراسة ظاهرة هذا البركان.

فيها كانت في نفس الوقت منطقة رعويّة مخصّصة لتربية الضأن والماعز، والتي كانت في تلك الأزمنة عماد حياة الليبيين الرُّحَّل، مثلما هي عماد حياتهم في الوقت الراهن. ومثلما قضت هذه السائمة على غابات قورينائيـة وحوَّلت هضبتها ـ التي كانت تغصُّ بالأشجار والنباتات ـ إلى امتدادات شبه خالية من أيّة حياة نباتية؛ فإنها ـ فيما يتعلّق بمنطقة السهوب ـ قد عاثت فساداً، كذلك، في حقول السلفيوم، وهو النبات الذي كانت تعشق مذاق سيقانه الهشَّة، حيث كانت تأتي عليها حتى قبل أن تُزْهر. والسبب الثاني الكامن وراء انقراض السلفيوم، يتمثّل في الطريقة نفسها التي كان يلجأ إليها متصيِّدوا هذا النبات، بقصْد استخلاص عصارتـه؛ حيث كانوا يستخرجون من باطن الأرض جذوره التي تكْتنز المخزون الذي يتغذى منه، وهم كانوا يفعلون ذلك حتى قبل أن تنضج هذه الجذور. وبالتالي، فإنهم كانوا يحولون بينه وبين التكاثر والتوالد؛ وهو الأمر الذي كان لا بد وأن يقود حتماً إلى انقراضه.

* * *

ولم يفطن علماء النبات إلى انقراض السلفيوم ـ الثابت تاريخيًّا ـ إلاَّ بعد مضيٍّ عدَّة قرون. ولذا فإنّهم عندما حاولوا تقصِّي شكله وخصائص تركيبه والكشف عن طبيعته؛ فإن مهمتهم صارت عندئذٍ أمراً مستحيلاً، لأن فرصة ذلك كانت قد ولَّت مع انقراضه. وإذا ما نحن أسْقطْنا من اعتبارنا تلك الدراسات الغريبة النتائج التي زعم بعض أصحابها بأن السلفيوم هو شجر النخيل!!.. وزعم بعضهم الآخر أنّه هو «الحلتيت الطنْجي»[1]!!.. وغير ذلك من التّراهات التي لم تلاقِ أيّة أصداء لها في الأوساط المتخصِّصة؛ نجد أن العلماء قد انقسموا، في هذا الشأن، إلى صفّيْن: أحدهما يقول بأن السلفيوم هو «الجَنَبَةُ القرْقنيَّة ـ THAPSIA GARGANICA»، والآخر يقول إنه

(1) «الحلتيت الطّنْجي» باللاتينية هو الـ «FERULA TINGITANA».

هو «الحلتيت الصَّمْغي ـ ASA FOETIDA».

ولقد اعتقد بعض أوائل الرَّحالة الأوربيين الذين زاروا ليبيا في القرن التاسع عشر الميلادي، وهم الإيطالي «باولو ديللا شيلا»، والفرنسي «جان ريمون باشو»، والألماني «هاينرخ بارث»، أنّهم تعرَّفوا على السلفيوم في نبات ما يزال ينمو حتى أيّامنا هذه في سهوب قورينائية، وهو نبات «الدّرْياس»، (= بونافع)، الذي قال عالِم النبات السويدي «كارل فون لينيٍّ»[1] ـ الذي عاش في القرن الثامن عشر ـ هو نفس نبات «الجَنَبَةُ القرْقنيَّة». غير أن خصائص نبْتة «الجَنَبَةُ القرقنيَّة» هذه لا تشبه خصائص السلفيوم. زدْ على ذلك أن القدماء عرفوا نبات الجَنَبة، وكانوا يفرِّقون بينه وبين السلفيوم؛ ونصّ «بليني الأكبر» يعتبر قاطعاً في هذا الخصوص.

وقادت هذه الاعتراضات معظم علماء النبات إلى تبنِّي نظرية أخرى تقول بأن السلفيوم هو نفسه «الحلتيت الصمْغي»، الذي لم يتم العثور عليه بعدُ في قورينائية؛ وإنْ كان ينمو بكثرة في منطقة الشرق الأوسط وفي الهند، حيث تزدهر تجارته. ومن الحقّ أن نقول إن خصائص هذا النبات، وكذلك شكله، لا يماثلان السلفيوم تمام المماثلة، إذا ما رجعنا إلى صُور السلفيوم كما انعكست في النُّصوص القديمة وفي النقوش الأثرية. غير أن هذا لا يمنع من أن نبات «الحلتيت» ينتمي إلى نفس الفصيلة النباتية التي ينتمي إليها السلفيوم؛ ولذا فإن الفرضية القائلة بأن «الحلتيت الصمْغي» لا بد وأن يكون هو نفسه «السلفيوم الأسيوي SILPHIUM PERSICUM» أو «السلفيوم التطبيبي»[2]، إنما هي فرضية جديرة بالترجيح كثيراً، في رأيْ هؤلاء العلماء.

---

(1) وُلِد «كارل فون لينيٍّ» سنة 1707 ميلادية. وتوفي سنة 1778 ميلادية. وهو واضع نظرية حول تصنيف النباتات إلى 24 فئة، ارتكزت على ما للنباتات من خصائص عائدة إلى «الإيتامينات» الذُّكريَّة. وهي نظرية عفا عليها الدهر ولم يعد أحد من علماء النبات يأخذ بها.

(2) SILPHIUM MEDICUM.

وعلى أيّة حال، فإن الجدل الذي نشب بين علماء النبات حول هذه المسألة هو من اختصاص هؤلاء وحدهم، وسوف لن أُدْلي فيه بدلْوي. بيْد أنّه من واجب المؤرِّخ ـ مع ذلك ـ أن يبذل قصارىٰ جهده لاستنطاق تلك الشذرات والتلميحات التي أمدَّتنا بها الوثائق التاريخية القديمة، بقصْد تذليل صعاب البحث أمام العلماء الطبيعيين. ولذا فإنني سأسوق فيما يلي وصفاً موجزاً لنبات السلفيوم كما يبدو لنا على ضوء ما جادت به النصوص القديمة:

السلفيوم هو نبات حوْلي، له جذْر غليظ ومستطيل في رأسه جمَّارة درنيَّة مكتنزة. وفي فصْل الربيع تولد من هذا الجذر بواكير أوراقه، التي تسمى باللاتينية MASPETUM. ثم تنمو ساقه وتترعرع وتكبر؛ وهي ساق غليظة ومضلَّعة ومجوَّفة من الداخل. وتدلّنا رسومات السلفيوم المنقوشة على أديم العملات النقديّة القورينيـة على أن له ثـلاث طبقات من الأوراق بـدون سويقات؛ ويبدو أن عدد أوراق كل طبقة أربع أوراق تتقابل إثنتان إثنتان. وهذه الأوراق شبيهة بأهداب نبْتات الكرَفْس والبقدونس، وتتخذ شكلاً مجعَّداً عند حواشيها، متحوِّلة بذلك إلى وريقات صغيرة متهدِّلة. وعند المستوى الذي تنمو فيه الطبقة الأخيرة من الأوراق، نرى أنه يتفرَّع عن الساق تاج من الزهور الصغيرة المستديرة متخذاً هيئة المظلَّة. وزيادة على ذلك، فإننا نلاحظ عند منْشأ كل ورقة من الورقات وجود ساق جانبية تحمل بدورها تاجاً أصغر من الزهور؛ وهذه الساق تتفرّع عن الساق الرئيسيّة للنبات. وتنتج زهور السلفيوم بذوراً تسمى «الماجيداريس ـ MAGYDARIS»، وكل بذرة من هذه البذور مغلَّفة بغشاء مفرْطح ورقيق يجعلها شبيهة بالورقة؛ ومن هنا جاءت تسمية «فوليوم ـ FOLIUM» التي تُطلق على السلفيوم أحياناً في اللغة اللاتينية. وعندما تجفّ البذور، نتيجة لشدّة القيْظ في فَصْل الصيف، تجيء رياح الجنوب فتنثرها عبر السهوب المحيطة، وبالتالي فإن هذه الرياح تساعد على عملية الإخصاب وتكاثر النبات.

وبالرغم مما نلاحظه من بعض التَّردُّد لدى المؤلِّفين القدماء، خصوصاً لدى المتأخرين منهم، فيما يتعلق بدقَّة استعمال بعض الكلمات الاصطلاحية القديمة الخاصة بالسلفيوم ـ مثال ذلك اصطلاحيْ «ماسبيتون ـ MASPETON»، و «ماجيداريس ـ MAGYDARIS» اللاتينيين ـ إلَّا أن مكونـات وصف هذا النبات قد صارت راسخة ولم يعد حولها خلاف بين المختصين. ومن المهم أن نؤكِّد هنا أن هذه المكونات الوصفية ترتكز في جوهرها على ما ورد في إحدى فقرات كتاب «ثيوفراستوس» الموسوم بـ «تاريخ النباتات»[1]. ويمثِّل نص هذه الفقرة مصدرنا المدوَّن الرئيسي؛ ذلك أن النصّ الذي أورده «بليني الأكبر» ـ من جانبه ـ عن السلفيوم ليس نصًّا أصيلاً، فهو لا يعدو أن يكون تلخيصاً وترجمة، من الإغريقيّة إلى اللاتينيّة، لنصّ «ثيوفراستوس»، الذي يصفه «بليني» نفسه بأنّه: «المؤلِّف الإغريقي الثقة»[2]. وعلى أيّة حال، فإنه يبدو أن «ثيوفراستوس» لم يشاهد نبات السلفيوم بنفسه؛ أو أنه، على الأقل، لم يره في صورته المصنَّعة، التي كان يستجلب فيها إلى ميناء «بيراوس» الأثيني. فـ «ثيوفراستوس» ـ شأنه في ذلك شأن أستاذه «أرسطو» ـ قد نهل علمه من مدوَّنات وكتب السابقين؛ لا من ملاحظة الطبيعة والمشاهدة العيْنيَّة. ولذا فإننا نراه ينقل لنا عن السلفيوم روايتين متتاليتين، اقتبسهما ـ كمـا يعترف هـو صراحة ـ عن مصدرين مختلفين. ومن هذه الوجهة، فإن ما كتبه «ثيوفراستوس» عن هذا النبات، لا يعدو أن يكون انعكاساً لمنهجه في التأليف، وهو المنهج المتَّسم بالمسْحة الخطابيّة المنمَّقة وبالاقتباس عن الكتب. والحقيقة أنّه، فيما يبدو، قد لمس هو نفسه وجود تناقضات بيِّنة بين نصيٍّ هـاتين الروايتين النقليتين، أثارت حيرته. ومن بعده شكَّ المُحْدثون في أن الأمر كان يتعلّق، في الروايتين المذكورتين، بنفس النبات. وإذا كان الأمر كذلك حقيقةً، فإنه

---

(1) HISTORIA PLANTARUM.

(2) AUCTOR GRAECIAE CERTISSIMUS.

على الرغم من الأهمية الكبرى التي يكتسيها ما أورده «ثيوفراستوس» عن السلفيوم؛ إلاَّ أن هذا اللبْس كفيل بأن يضعِّف من القيمة العلمية لنصَّيْه، وعندئذ فإنه سيكون من الصعب الرّكون إليهما في الدفع بعجلة الأبحاث العلمية، في هذا الصدد، قُدُماً.

غير أن الأمر ليس كذلك حقيقة؛ وفي رأينا أن التناقضات التي نلمسها بين النصّين اللذيْن تحدّث فيهما «ثيوفراستوس» عن السلفيوم، إنّما هي تناقضات مظهرية، أكثر منها فعلية. وهما لا يزيدان عن تناقضين إثنين فحسب: يتعلّق أحدهما بالأثر الذي يُقال أن السلفيوم كان يُحْدثه على السائمة، بعد أن تكون قد أكلت منه. حيث يذهب البعض إلى أنّه كان يؤدِّي إلى إصابتها بالإسْهال؛ في حين يذهب البعض الآخر - على العكس من ذلك - إلى أنه كان يُحْدث لديها انقباضاً في المعدة وعُسْراً في الهضم. بيْد أن هذه هي ملاحظة ثانوية، لا تمسُّ الخصائص الطبيعيّة لهذا النبات مباشرة. وعلى أيّة حال، فإنه ليست هنالك صعوبة كبرىٰ في الإقرار بأن تأثيرات بعض النباتات على معْدة الحيوان تختلف حسب الظروف والأحوال. أمَّا وجه التناقض الثاني، فإنه تعبيري صرْف. فـ «ثيوفراستوس» يرىٰ - بناءً على مصدره النقلي الأوّل - بأن السلفيوم هو بطبعه نبات برِّي. ثم يعود - استناداً على مصدره النقلي الثاني - فيقول إنه إذا ما قلَّبْنا الأرض حول كل شجيرة من شُجيراته - (ولا شك في أنّه يعني هنا: عزْق التربة لقتل الأعشاب الطفيلية حوله، مثلما نفعل بالنسبة للبطاطس مثلاً) - فإنه يقوى ويشتد. وهنا تتملَّك الحيرة «ثيوفراستوس»، لأنه وجد أن هذه الملاحظة الأخيرة لا تتّسق مع كونه نباتاً برِّيًا - كما ذكر مصدره الأوّل - لا حاجة به لأن تتعهَّده يد الإنسان بالعناية والرعاية. ولكن، من منَّا لم يطّلع على ملاحظات متكلّفة، تنقصها المنطقية والإتّساق؟ . . ولا شك في أن السلفيوم ما كان نباتاً برِّيًا، إلاَّ لأن الإقليم الملائم لنموّه كان يقع خارج نطاق المنطقة المزروعة، وأنّه كان من الممكن للإنسان أن يزرعه، لو أنّه توفَّر له المكان

المناسب لهذا النبات، بيئيًا؛ شأنه في ذلك شأن أيّ نبات آخر. وليس أدلّ على ذلك من شهادة «سونسيوس» التي سبقت الإشارة إليها، حيث أنّه ذكر أنّه شاهد للسلفيوم بضع شُجْيرات مزروعة في أحد البساتين. وإذن، فإن التناقض الذي زعم «ثيوفراستوس» أنّه صادفه بين الروايتين اللتين نقل عنهما، مرْجعه أنّ مبدأ التصنيف لديه يقوم على استقاء المعلومات من المُدوَّنات والنُّصوص الميِّتة، وليس من استقراء الطبيعة نفسها وملاحظة الأشياء مباشرة. وبالنسبة لنا؛ فإننا لا نشعر بأن لهذا الاعتراض أيّة أهمية، ونرىٰ أن الوصفيْن اللذيْن أوْردهما «ثيوفراستوس»، غير متضادّيْن؛ وإنما هما يكمِّلان بعضهما الآخر، ولقد سبق لي وأن استخلصتُ منهما معاً ذلك الوصف للنبات، الذي أوردتُه أعلاه.

أمّا فيما يتعلق بصُور السلفيوم المنقوشة على النقود القورينية، فإنّها ـ من ناحيتها ـ تُسْعفنا بتفاصيل مفيدة توضّح لنا فحوىٰ الإشارات التي تضمَّنتها النُّصوص القديمة حول هذا النبات. ويمكن التمييز بين نقشين للسلفيوم، زُيِّنت بهما بعض فئات النقد القوريني؛ أحدهما يمثِّل شُجيرته برمَّتها، والآخر يمثِّل «ثمرته» وحدها. وهذا النقش الأخير، الذي يمثِّل ثمرته، كانت تتميّز به نقود قوريني القديمة. وهو يُعدُّ شعار هذه النقود الأقدم والأكثر استعمالاً حتى مطْلع القرن الخامس قبل الميلاد. ثم نجده يختفي من هذه النقود كليّةً، لتحلَّ محلّه صور أخرى تمثِّل الشجيرة بكاملها. وستظل هذه الصور الأخيرة الشعار المفضَّل لنقود المدينة طوال الفترة الكلاسيكيّة من تاريخها.

ولقد قسَّم أحد العلماء ـ وهو «إ. س. ج. روبينسون»[1] ـ هذه النقود القورينية، المحلاّة بصورة نبات السلفيوم بكامله، إلى ثلاث فئات، وهي نقود

---

(1) ROBINSON, E. S. G.: CATALOGUE OF THE GREEK COINS OF CYRENAICA, 1927, OXFORD UNIVERSITY PRESS.

تعطينا فكرة واضحة للشكل المميّز لهذا النبات. وتستحق بعض تفاصيل نبتة السلفيوم، كما تصوّرها المجاميع النقدية، أن نشير إليها هنا: مثال ذلك أن صور هذا النبات المنقوشة على بعض قطع النقود، تظهر فيها، في بعض الأحيان، بواكير أوراقه (MASPETON) عند منْشأ الساق. وفي أحيانٍ أخرى يلاحظ المرء تفرُّع سويقات السلفيوم الصغيرة، على نحوٍ مائل، عند أسفل الساق الرئيسيّة له. بل إن هنالك قِطعاً من نقْد قوريني صُوِّرت عليها شجيرة السلفيوم ولها ساقان إثنتان متساويتان في الطُّول. أمّا تصوير النقد القوريني لحجم شجيرة السلفيوم، فهو غير ثابت، بل إنه متناقض أحياناً: فوجود حيوان صغير إلى جانبه في الرّسْمة، في بعض المرّات ـ كأنْ يكون هذا الحيوان: حرْباء، أو قطًّا بريًّا، أو بومة ـ يوحي بأن ارتفاع شجيرته يقارب المتر. بينما يوحي لنا استلقاءُ غزالةٍ تحت ظل الشجيرة، في رسْمة تُحلِّي فئة أخرى من هذا النقد، بأن هذه الشُجيرة أكبر من ذلك بكثير. ولكن بما أن نفس الغزالة تُرسم في فئة أخرى من النقد إلى جانب شجيرة سلفيوم أصغر منها؛ فإننا نستنتج من ذلك أن الفنّانين الذين كانوا ينقشون مثل هذه الرسومات على النقد القوريني، لم يكونوا يُعيرون أي اهتمام لمسألة التناسب بين أحجام العناصر المكوِّنة للصورة المضروبة على هذا النقْد.

أمّا القالب الذي يمثِّل «ثمرة» السلفيوم أو بذرته على نقود قوريني، فإنه لم يحْض بتفسير مقنع حتى الآن. ويمثل هذا القالب شكلاً يشبه قلْبين يفصل بينهما حزٌّ، ويحيط بهما حزام بارز. ولقد ظل علماء المسكوكات، فترة طويلة، ينظرون إلى هذا النقش النقدي على أنّه يمثِّل قلبيْن إلى أن جاء العالِم «دوخالياس»، في منتصف القرن التاسع عشر، وفسَّره على أنّه يمثِّل «ثمرة» السلفيوم أو بذرته، وهي ما يسمى بـ «الماجيداريس ـ MAGYDARIS». غير أن هذا التفسير أثار الكثير من الاعتراضات. فالواقع أن «الماجيداريس»، أو بذرة السلفيوم، كان، من ناحية، مغلّفاً بغشاء سميك، ولا يمكن اعتبار هذا

الغشاء على أنّه هو ذلك الحزام الضيِّق، القلْبي الشكل، الذي نشاهده في الفئة المذكورة من النقود القورينيّة. ومن ناحية أخرىٰ، فإنّه في رأيْ علماء النبات، لا وجود داخل فصيلة النباتات الخيميّة، (التي يبدو أن السلفيوم كان ينتمي إليها بالفعل)، لأي نبات له بذور أو ثمار على هيئات قلوب. ولقد عاقت هذه المعضلة علماء النبات كثيراً في جهودهم الرامية إلى التعرُّف على السلفيوم.

ولذا، فإن البعض رفضوا اعتبار الجسم القلْبي الشكل، المرسوم على تلك النقود، رسماً لبذرة. واقترح بعضٌ آخر أن يكون كيساً مملوءاً بالسلفيوم، تمّ طوْيه على إثنين لكي يسهُل حمْله على برْدعة دابّة. ولم يجد فريق ثالث أي تفسير مقنع، فعنّ لهم أن يتخيّلوا أن النقش يمثِّل، في آنٍ واحد، الوجهين المتقابلين لثمرة السلفيوم، وقالوا إن هذا هو السبب فيما نلاحظه من وجود هيئة القلْبين المتقابلَيْن.. إلخ. غير أن مجرّد فحص أمثال هذه التفسيرات يكفي في إظهار مدى تعسُّفها وإغراقها في الخيال. والحقيقة أن المعضلة تظل قائمة برمّتها، ولا يمكن التغلّب عليها سوىٰ بالعثور على نبات السلفيوم الحقيقي نفسه. ولعل فرضية جديدة ستجيىء لتخرجنا من هذا المأزق. وإذا كان الجسم القلْبي الشكل المرسوم على النقود ليس هو «الماجيداريس»؛ أَفَلَيْس من الممكن أن يكون جزءاً آخراً من النبات؟.. وإنني لأقترح أنّه هو أثمن عناصر السلفيوم، وهو جذره، أو بالأحرى جُمّارته أو درنته المكتنزة، وأن هذه الأخيرة قد رسمت في شكل زخرفي. ولعله لم يكن يُقصد بتسمية «سلفيوم» في البداية سوى دَرَنَة جذر هذا النبات. وعلى أيّة حال، فإن الجذْر هو الذي كانت تُستخلص منه عُصارة السلفيوم الممتازة، أي ما يُسمّى بـ«الريزياس - RHIZIAS»، عن طريق حزّه بمشْرط، أو تقطيعه إلى قطعٍ صغيرة، حسب ما ذكر «ثيوفراستوس» بالتفصيل. وفي هذه الحالة فإنّه من الطبيعي جدّاً أن يكون أُولئك الفنّانون الذين نقشوا صورة السلفيوم على نقود قوريني القديمة، قد

رغبوا في إبراز هذا الجزء الأساسي من النبات، وهو جزؤه الوحيد الذي كان يتم جنْيه آنئذٍ، لأنه هو وحده الذي كان يُستفاد منه، وبالتالي فإنه كان مهمًّا لثروة قوريني. ولكن فيما بعد، عندما ازداد الإقبال على عُصارة الساق، أو «الكولياس ـ CAULIAS»، إلى جانب الإقبال على عُصارة الجذر؛ عندئذٍ حلَّت صورة الشُّجيرة برمَّتها ـ على أديم العملة القورينية ـ محلّ صورة دَرَنَة النبات، أو جُمَّارته، كرمزٍ نقدي.

* * *

وهنالك حجّة لا يُستهان بها تدعم هذه الفرضيّة، ويمكن استلهامها من «قدح أركسيلاوس». فالمشْهد المرسوم على هذا الأثر الفنّي الشهير لا يبدو لي أنّه قد فُهِمَ حقّ الفهْم. ولذا فإنني أريد أن أعود هنا إلى التعليق على هذا المشهد من جديد: ـ

فهو يمثّل تسع شخصيّات موزَّعة على قسمين غير متكافئيْ المساحة في اللوحة المرسومة على الأديم الأبيض للقدح. ونحن نرى في الجزء الرئيسي الأعلى من اللوحة، الملك جالساً إلى اليسار على مقعد، يرقب باقي الشخصيّات، أثناء إكبابها على العمل. وبأعلىٰ رأس الملك شُدَّت قطعة كتَّان بحبال. ويوجد في مواجهته خمسة رجال يرتدون وزرات أو قمصان قصيرة، منهمكون في العمل حول ميزان كبير، له كفَّتان مملوءتان بمادة تميل إلى البياض؛ ومن بين هؤلاء إثنان يقومان برصْد كفّة الميزان الواقعة إلى جهة اليسار، قبالة الملك، وإثنان آخران مكبّان على ملْء سلّة كبيرة. ويتبدّىٰ الرجل الخامس خلف هؤلاء وهو مقبل بسلّة أخرىٰ تبدو فارغة. أمّا في الجزء الهامشي التحتي من اللوحة، فإننا نلمح عتّاليْن يرتديان وزرتين، مقبلان بسلّتين مملوءتيْن، ويهرعان بهما نحو سلال مسنَّدة لتنضيدهما إلى جانبها. ونرىٰ خلفهما حارساً يرتدي عباءة، مستغرق في رصْد عملية تنْضيد السلال،

وبالقرب منه نلمح خطًّا منحنياً يوحي بأن المكان الذي يتواجد الجميع فيه يتّسم بهيئة مقبَّبة.

والمُتَّفق عليه عموماً بين المختصّين هو أن هذا المشهد ـ الذي يُكْمل جزءاه الأعلىٰ والأدنىٰ بعضهما البعض، بطبيعة الحال ـ مسرحه ميناء قوريني، وأنّه يجري على ظهر مركب تجارية راسية في ذلك الميناء. وأن الملك الجالس على سطح هذه السفينة كان يتواجد هناك للإشراف على عملية شحْن الحمولة التي يجري وزْن دفعاتها تحت ناظريْه، لكي تحزم بعد ذلك ويتم إنزالها في قعْر المركب. وأنّ الميزان كان مثبّتاً في عارضة صاري المركب، وأن قطعة الكتّان المبسوطة تمثِّل شراع هذه السفينة أو المركب. وأنّ المشهد إنّما هو تجسيد لتلك الرقابة التي كانت السلطات الملكية تباشرها على تجارة قوريني الخارجية. ولقد حَظِيَ هذا التأْويل ـ حسب علْمي ـ بإجماع المختصِّين.

ومع ذلك فإنّه تأْويل تعترضه بعض الشكوك والتساؤلات في عدّة نواحي: فأوّلاً، يبدو من المستغْرب أن تتم عملية وزْن السلع ووضعها في السِّلال على ظهر سفينة عائمة، الأمر الذي لا يجعلها ساكنة، وإنّما هي تهتز في كل لحظة؛ وهذا وضع لا يلائم إجراء عمليات الوزن. ولذا، فإن مثل هذه العملية تتم في الواقع على الأرض، ولا تنقل السلال إلى ظهر السفينة إلّا بعد ملئها. وليس أقل غرابة من ذلك أن نرىٰ سفينة راسية في الميناء، بينما شراعها مُفْرد في وجه الرياح، في وقتٍ تجري فيه عمليات شحن حمولتها. فالمتَّبع في مثل هذه الأحوال، بالطبع، هو أن يظل الشراع مطويًّا. ومن ناحية أخرىٰ، فإن هذا الشراع المزعوم، يبدو لنا غريب الشكل. أفهل حدث لأحدكم وأن شاهد شراع مركب ـ سواء من مراكب القدماء أو المعاصرين ـ تشدُّه حلقات مُثْبتة إلى حواشيه؟.. لأن شراعاً يتم تثبيته بهذه الكيفيّة لن يكون قادراً على تحمُّل قوة اندفاع الرياح فترة طويلة. ودعونا نسْتشير هنا الوثائق القديمة في الخصوص؛ فهي تُنْبِئُونَا بأن البحَّارة الإغريق كانوا يوثقون الحواشي العُليا لأشرعة مراكبهم

بعارضة الصاري بواسطة رباطات متينة؛ وزيادة على ذلك، كانوا يدعمون وجه الشراع المواجه للرياح بشبكة من الحبال، بقصد تقوية كتّانه وزيادة تحمّله لقوة اندفاعها، وكذلك لتسهيل عمليات المناورة البحرية به. لكننا لا نقع على شيء من كل هذا في المشهد الذي أمامنا. وإذن فإن هذا الشيء ليس شراع سفينة، وإنّما هو سُرادق أو مظلّة تم نصْبُها فوق هامة الملك لتقيه من وهج الشمس.

وهكذا، فإننا وقد استبعدنا شراع السفينة المزعوم، فإنه لم يعد هنالك أي سبب للاعتقاد بأنّ المشهد برمّته كان يجري فوق ظهر سفينة؛ وإنّما هو مشهد تجري أحداثه فوق اليابسة، ولا ينطوي على أيٍّ تلميح إلى تجارة بحريَّة أو إلى شحْن حمولة على ظهر سفينة بغرض تصديرها إلى الخارج. إننا، بكل بساطة، وسط مدينة قوريني نفسها، في ميدان «الأجورا» الذي يتوسطها، أو قبالة القصر الملكي؛ حيث نُصبت مظلّة على حافة جدار، يدبُّ فوقه الوزغ (بوبريص) الذي نشاهده إلى جهة اليسار، وتحت هذه المظلة جلس الملك على مقعده المخصّص له، وأمامه نُصب ميزان كبير يتدلّىٰ من عصا أفقية الوضع، لا تقع الدعائم التي تستند عليها في مجال رؤيتنا. فالمشهد إذن يمثّل الملك «أرسكيلاوس» وهو يشرف على عملية استلام محصول السلفيوم، لأن المشهد يصوِّر لنا بالفعْل نبات السلفيوم الذي كان احتكاراً ملكيًّا، وكان الليبيُّون يتقدّمون به إليه كجزية. ولذا، فإننا نلاحظ هنا مدىٰ الأهمية القصوىٰ المنصبَّة على مراقبة عملية الوزن بحدّ ذاتها، للتأكّد مما إذا كان كل واحد من هؤلاء الليبيين قد جلب الحصّة المستحقة عليه كجزية. ونحن نرىٰ الموظفيْن المكلفيْن بالتحقُّق من ذلك، يقومان بإعلان نتائج عملية الوزْن، كما أنهما، بدون شكّ، يقومان بتسجيلها. ويتلو ذلك قيام الخدم بتكديس وزْنات السلفيوم النفيسة في قُفف مخصّصة، ثم يجيء العتّالون فيُنْزلوها إلى أقباء المخازن الملكية، الواقعة في جوف الأرض، تحت رقابة حارس مختصّ.

ولننظر الآن في أمْر هذه الأجسام التي يجري وزْنها ونقلها وتخزينها،

تباعاً. ولقد سبق لبعض المختصّين وأن افترض ـ خطأً ـ بأن هذه الأجسام إنّما هي «. . مواد ندفيّة كثيفة كأنّها أصواف»، على حدّ تعبيرهم. والواقع أنّه على الرغم من أن الألوان التي رُسم بها هذا المشهد قد مَحُلَتْ نتيجة لتقادم هذا الأثر الفنّي؛ إلاّ أنّنا في الحقيقة إذا ما أمعنّا النظر في القدح الأصلي، فإننا سنرىٰ بوضوح أن الأجسام ليست من النداثف الصوفيّة في شيء؛ وإنّما هي مواد محدَّدة المعالم، تم تكديسها الواحدة فوق الأخرى. وهي تبدو أوضح ما يكون تحت ساقيْ الشخص الذي يتوسط الصورة، حيث نراها مصفّفة على الأرض ومنضّدة الواحدة إلى جانب الأخرى. وأطراف هذه الأجسام البيضانية الكبيرة، الممطوطة بعض الشيء، تبدو على شكل زوايا منفرجة، تجعل هذه الأجسام في مجموعها محاطة بحزامٍ شبيه بهيئات القلوب، (كما في رسمة هيئة القلْبيْن على أديم بعض قطع النقْد القوريني). وإذن، فإنه لم يعد هنالك مجال للشك أو التردُّد: نحن بالفعل أمام دَرَنات، أو جُمّارات السلفيوم المكتنزة، التي وصفها لنا المؤلّفون القدماء في مدوّناتهم. إذْ أنّه بعد انتزاع هذه الدُّرنات الجذرية من باطن الأرض، ثم غسلها وتنظيفها مما علق بها من طِينٍ، فإنه يتم تخزينها في أقباء المطامير الملكيّة المخصّصة لذلك. أما السلال التي تكدس فيها هذه الدُّرنات ـ كما نلحظ في اللوحة ـ فإن لها ميزة خاصة، وهي أنّها لها ثقوب تسمح بتسرُّب الهواء إلى داخلها، الأمر الذي يصون هذه الدُّرنات النفيسة من التلف أو التعفُّن. وهكذا، فإن أقْبية قوريني كانت تحوي: «مناجم حقيقيّة من السلفيوم»، على حدّ تعبير «ثيوفراستوس» في كتابه «تاريخ النباتات».

وإذن، فإن التّماثل في الشكلِ بين دَرَنات جذور السلفيوم ـ أو جُمّاراته ـ التي نشاهدها على أديم «قدح أركسيلاوس»، وبين «ثمرة» السلفيوم المزعومة، والمطبوعة على أديم نقود قوريني على هيئة قلوب، يجيء كحُجَّة مؤيّدة للفرضية التي سقناها لتوّنا أعلاه؛ وهي أن ما زُعم بأنّه «ثمرة» هذا النبات، لا

يعدو أن يكون دَرَنَته الجذرية، أو جُمَّارته. وإذا ما صحّ هذا التأويل، فإن إحدى العقبات الكأداء تكون عندئذٍ قد أُزيلت من على الطريق الذي يتوجَّب أن يقودنا نحو التَّعرُّف على سلفيوم القدماء الحقيقي. وليس على علماء النبات الآن سوىٰ أن يمضوا قُدُماً في أبحاثهم في هذا الخصوص، انطلاقاً من هذه المعطيات الجديدة التي نتقدّم بها هنا.

ولا يستطيع عالِم الآثار أن يترك «قدح أركسيلاوس» قبل أن يشدِّد على مدى أهمية القرينة التي يمدّنا بها هذا القدح عن الحياة اليوميّة في عاصمة الباطيين التليدة: فالرسم الذي ازدان به مليء بالإيحاءات المثيرة، التي من بيْنها تلك الإيماءات والإشارات التي نلْمسها في هيئة شخصيّات هذا المشهد، أثناء مراقبتها لحركة بعض الحيوانات والطُّيور المألوفة. والحقيْقة أن هذه الحيوانات والطيور ليست مجرّد زخرفة هامشية أقحمها الفنّان في المشهد الذي أمامنا: فالفهْد المُسْتأنس، القابع عند أقدام سيّده الملك؛ والوزغ (البوبريص) الزاحف على الجدار؛ والقرد الجاثم فوق الدعامة التي يرتكز عليها الميزان؛ وطائر الغرنوق الذي يقبض بين مخالبه على فريسته وهو يحرِّك أجنحته؛ وطائريْ الحدأة التي كثيراً ما تزور كبريات المدن الأفريقيّة.. جميع هذه التفاصيل استلهمها الرسّام الذي رسم المشهد من الواقع، في عجالة، وثبّتها بريشته بكثير من الإبداع والروح الهزليّة، التي لا تخلو منها كثير من رسومات الخزفيَّات الأيونيّة والكورينثيّة. والواقع أنّه لا حاجة بنا لأن نعزوْ كل هذا إلى تأثيرات ـ بعيدة الاحتمال ـ مستقاة، بحسب زعْم البعض من تقاليد الفن الفرعوني؛ فالخزَّاف اللاكوني الذي زيَّن «قدح أركسيلاوس» بهذه الرسمات كان أمامه، في بلاد الإغريق نفسها، ما يكفي من النماذج التي تُحتذىٰ، كيْ يستوحي منها ـ إن كان ذلك ضروريًّا ـ هذه الصبغة التعبيريّة الواقعية الأصيلة التي نشاهدها في لوحته هذه.

ويتجلّىٰ لنا نفس الإبْداع الفنِّي الرائع في تلك العبارات التي سجّلها

تباعاً. ولقد سبق لبعض المختصّين وأن افترض ـ خطأً ـ بأن هذه الأجسام إنّما هي «. . مواد ندفيَّة كثيفة كأنّها أصواف»، على حدّ تعبيرهم. والواقع أنّه على الرغم من أن الألوان التي رُسم بها هذا المشهد قد مَحُلَتْ نتيجة لتقادم هذا الأثر الفنّي؛ إلاّ أنّنا في الحقيقة إذا ما أمعنّا النظر في القدح الأصلي، فإننا سنرىٰ بوضوح أن الأجسام ليست من النداتف الصوفيّة في شيء؛ وإنّما هي مواد محدَّدة المعالم، تم تكديسها الواحدة فوق الأخرى. وهي تبدو أوضح ما يكون تحت ساقيْ الشخص الذي يتوسط الصورة، حيث نراها مصفَّفة على الأرض ومنضَّدة الواحدة إلى جانب الأخرى. وأطراف هذه الأجسام البيضانية الكبيرة، الممطوطة بعض الشيء، تبدو على شكل زوايا منفرجة، تجعل هذه الأجسام في مجموعها محاطة بحزامٍ شبيه بهيئات القلوب، (كما في رسمة هيئة القلْبيْن على أديم بعض قطع النقْد القوريني). وإذن، فإنه لم يعد هنالك مجال للشك أو التردُّد: نحن بالفعل أمام دَرَنات، أو جُمَّارات السلفيـوم المكتنزة، التي وصفها لنا المؤلّفون القدماء في مدوَّناتهم. إذْ أنّه بعد انتزاع هذه الدَّرنات الجذرية من باطن الأرض، ثم غسلها وتنظيفها مما علق بها من طِينٍ، فإنه يتم تخزينها في أقباء المطامير الملكيّة المخصّصة لذلك. أما السلال التي تكدس فيها هذه الدَّرنات ـ كما نلحظ في اللوحة ـ فإن لها ميزة خاصة، وهي أنّها لها ثقوب تسمح بتسرُّب الهواء إلى داخلها، الأمر الذي يصون هذه الدَّرنات النفيسة من التلف أو التعفُّن. وهكذا، فإن أقْبية قوريني كانت تحوي: «مناجم حقيقيّة من السلفيوم»، على حدّ تعبير «ثيوفراستوس» في كتابه «تاريخ النباتات».

وإذن، فإن التّماثل في الشكل بين دَرَنات جذور السلفيوم ـ أو جُمّاراته ـ التي نشاهدها على أديم «قدح أركسيلاوس»، وبين «ثمرة» السلفيوم المزعومة، والمطبوعة على أديم نقود قوريني على هيئة قلوب، يجـيء كحُجَّة مؤيِّدة للفرضية التي سقناها لتوِّنا أعلاه؛ وهي أن ما زُعم بأنّه «ثمرة» هذا النبات، لا

يعدو أن يكون دَرَنَته الجذرية، أو جُمّارته. وإذا ما صحّ هذا التأويل، فإن إحدى العقبات الكأداء تكون عندئذٍ قد أُزيلت من على الطريق الذي يتوجّب أن يقودنا نحو التّعرُّف على سلفيوم القدماء الحقيقي. وليس على علماء النبات الآن سوىٰ أن يمضوا قُدُماً في أبحاثهم في هذا الخصوص، انطلاقاً من هذه المعطيات الجديدة التي نتقدّم بها هنا.

ولا يستطيع عالِم الآثار أن يترك «قدح أركسيلاوس» قبل أن يشدِّد على مدى أهمية القرينة التي يمدّنا بها هذا القدح عن الحياة اليوميّة في عاصمة الباطيين التليدة: فالرسم الذي ازدان به مليء بالإيحاءات المثيرة، التي من بيْنها تلك الإيماءات والإشارات التي نلْمسها في هيئة شخصيّات هذا المشهد، أثناء مراقبتها لحركة بعض الحيوانات والطُّيور المألوفة. والحقيْقة أن هذه الحيوانات والطيور ليست مجرّد زخرفة هامشية أقحمها الفنّان في المشهد الذي أمامنا: فالفهْد المُسْتأنس، القابع عند أقدام سيّده الملك؛ والوزغ (البوبريص) الزاحف على الجدار؛ والقرد الجاثم فوق الدعامة التي يرتكز عليها الميزان؛ وطائر الغرنوق الذي يقبض بين مخالبه على فريسته وهو يحرِّك أجنحته؛ وطائريْ الحدأة التي كثيراً ما تزور كبريات المدن الأفريقيّة.. جميع هذه التفاصيل استلهمها الرسّام الذي رسم المشهد من الواقع، في عجالة، وثبّتها بريشته بكثير من الإبداع والروح الهزليّة، التي لا تخلو منها كثير من رسومات الخزفيّات الأيونيّة والكورينثيّة. والواقع أنّه لا حاجة بنا لأن نعزوْ كل هذا إلى تأثيرات ـ بعيدة الاحتمال ـ مستقاة، بحسب زعْم البعض من تقاليد الفن الفرعوني؛ فالخزّاف اللاكوني الذي زيَّن «قدح أركسيلاوس» بهذه الرسمات كان أمامه، في بلاد الإغريق نفسها، ما يكفي من النماذج التي تُحتذىٰ، كيْ يستوحي منها ـ إن كان ذلك ضروريًا ـ هذه الصبغة التعبيريّة الواقعية الأصيلة التي نشاهدها في لوحته هذه.

ويتجلّىٰ لنا نفس الإبْداع الفنِّي الرائع في تلك العبارات التي سجّلها

الفنّان الذي رسم المشهد بأحرف إغريقيّة لاكونية، وأراد ـ طبقاً للعادة المتّبعة في الخزفيّات القديمة ـ الإشارة بها إلى اسم أو وظيفة أو مهمّة كل واحدة من شخصيّات لوحته. فالحقيقة أن المشهد يتضمّن تسع عبارات أو كلمات، مثلما تضمّن تسعة أشخاص. ولقد امّحت إحدى هذه العبارات تماماً ولم يعدْ المرءْ يلمح منها سوىٰ آثار بعض حروفها، وهي تخصُّ العتّال الذي يظهر في الوسط إلى أسفل. ونلْمح إلى جانب رسمة شخصية الملك كلمة «أركسيلاوس». أمّا بقية الأسماء فإنه تغلب عليها التّوْريات الجناسيّة الغامضة؛ فالعامل الذي يقوم بملْء السلّة، كُتب بجانبه عبارة «مُناول [السلفيوم]»، ورفيقه الواقف أمامه، رافعاً يده إلى أعلى، سُمِّي بـ «النّبّاش» (وذلك إشارة إلى الطريقة المستعملة في جنيْ دَرَنات جذور السلفيوم، حيث أنّه لا بدّ من نبْش الأرض لاستخراجها من باطنها). والشخص الذي يحمل سلّته الفارغة، كُتبت إلى جانبه عبارة «حامل السلّة»؛ أما ذلك الشخص الذي نراه يقوم بالتّحقّق من المقادير التي يتم وزْنها، فإنّه سمي بـ «قيِّمْ ضبْط الأوْزان».

فكم هي نفيسة، بالنسبة لنا، هذه التحفة التي صاغتها يد هذا الخزّاف المجهول الخلاّقة؛ حيث جعلها نابضة بالحياة المرحة، وشحنها بروح الملاحظة الدقيقة وحب المُفاكهة، وهي السليقة التي نلحظ ما يشبهها في أعمال الخزّافين الكريتيين. والخزّاف المُبْدع الذي صاغ هذه التحفة قد هيّأ لنا فرصة التّغلغل في أعماق مدينة قوريني، لاقْتناص صورة حيّة من صُور حياتها اليومية الغابرة، قُبيْل منتصف القرن السادس قبْل الميلاد. وهكذا فقد تمكنّا من الإطّلاع على الكيفيّة المُحْكمة التي كان زعيم المستوطنة الإغريقيّة في قورينائية يسْتجْلب بها ثروة طائلة من منتوج غريب كانت شهرته قد طبّقت الآفاق. ولا ريْب في أن هذا التّحكُّم الصارم، الذي كان يفرضه عاهل قوريني الباطي على هذه الثروة الممثّلة في السلفيوم ـ والذي عبّر عنه الخزّاف الذي رسم المشهد بكل إتقان ـ قد كان وراء ثورة الليبيّيْن، أصحاب البلاد

الأصليين، ضدّه؛ وهي الثورة التي كانت لها عواقب وخيمة على العاهل الإغريقي القوريني نفسه وعلى النظام الملكي الباطي برمّته. ولعلّ «أركسيلاوس الثاني» ـ الذي يصوّره المشهد المرسوم على القدح ـ لم يلقّب بـ «العنيد»، وهو اللقب الذي ظلّ معروفاً به في التاريخ؛ إلّا بسبب شدّة إجحافه في التحكّم في هذه الثروة الليبيّة المحليّة ومصادرتها ظُلْماً من أصحابها الحقيقيّين. وإنّ في ذلك لمثلٌ صارخ على مدى التداخل بين السياسة والاقتصاد[1].

---

(1) لكي يفهم القارىء العربي حقّ الفهم التحليلات الدقيقة التي أوردها المؤلّف «شامو» للوحة المرسومة على «قدح أركسيلاوس الثاني»، أنصحه، عند قراءته لهذه التحليلات، بأن يتابعها على الصورة التي تمثّل المشهد الذي يصفه المؤلّف، وهي الصورة التي أثبتناها في الصفحة رقم 370 من هذا الكتاب.

خاتمة

انْبثقت هذه الدراسة من مقارنة النتائج التي أمدَّتنا بها الحفريات الأثرية التي أُجريت في موقع قوريني قُبيْل اندلاع الحرب العالمية الثانية، بما ورد في المصادر التاريخيّة والأدبيّة القديمة عن قورينائية؛ وذلك بهدف استجْلاء تاريخ قوريني خلال فترة حكم الملوك الباطيين، وكذلك لإبراز السِمات الجوهرية للحضارة الإغريقيّة الوافِدة، التي قامت على أرضها. ولقد وطّأنا لكل هذا بفصْل تمهيدي، تناولنا فيه ـ بتركيز ـ تاريخ قورينائية الليبي قبل إنشاء المستوطنات الإغريقيّة فيها، حيث حاولنا إلقاء نظرة سريعة على تاريخ قدماء الليبيين وحضارتهم وقبائلهم. ولقد توصّلت هذه الدراسة ـ فيما يتعلّق بالعديد من المسائل التاريخيّة ـ إلى نتائجٍ جديدة، مكّنتنا، في بعض الأحيان، من تصحيح المفاهيم التي كانت سائدة حول هذه الحقبات التاريخية القديمة؛ بل وجعلتنا، في أحيانٍ أخرى، نقف من تلك المفاهيم موقفاً نقديًا يدحضها كليّةً. ولسوف أُجمل فيما يلي ـ بإيجازٍ كبير ـ أهم هذه النتائج:

أوّلاً: إننا لم نعثر ـ لا في الوثائق الأركيولوجيّة، ولا في النُصوص القديمة ـ على أيّة إشارة جديرة بالثقة ـ تسمح بالافتراض بأنّه قد سبق للمعمّرين الإغريق وأن أقاموا أيّة مستوطنة دائمة لهم في قورينائية قبل نزوْح «باطوس» ورفاقه إليها. والحقيْقة أن رواية «هيرودوتس» التاريخيّة تظل، بالنسبة لنا، هي المصدر التاريخي

الوحيد الذي يُعوَّل عليه فيما يخصُّ تتبُّع أُصول وبدايات الاستيطان الإغريقي في هذا الإقْليم؛ فالقرائن التي أمدَّتْنا بها الحفريَّات الأثرية تؤكِّد صِدق رواية هذا المؤرِّخ.

ثانياً : إن نظام الحكم الملكي الباطي في قوريني لم ينجح في الاحتفاظ حتى النهاية بذلك الطابع التقليدي الذي يُعْزىٰ إليه عادة. فعلىٰ إثر الصراع الذي نشب بين هذا النظام وبين طبقة كِبار المُـلَّاك الإقطاعيين - الذين أثارت حفيظتهم تلك الامتيازات والصلاحيَّات التي كان يتمتَّع بها ملوك قوريني - نراه قد أخذ، ابتداءً من فترة حكم «أركسيلاوس الثالث»، يتحوَّل إلى نظام حكم استبدادي. ولقد مدَّ هذا التحوُّل في عُمْر هذا النظام، ومكَّنه من أن يُعمِّر حتى حوالي سنة 440 قبل الميلاد. وإذن، فإن قوريني قد عرفت، على التوالي - شأنها في ذلك شأن معظم المُدن الإغريقيّة الأخرى - نظاماً ملكيًّا أبويًّا، ثم نظاماً جمهوريًّا أرستقراطيًّا أُوليجاركيًّا، ثم نظاماً وراثيًّا استبداديًّا؛ غير أنّ البقاء الصُّوري الصِّرْف للعرش الباطي قد حجب حقيقة هذا التَّطوُّر. فنحن نرىٰ هذا النظام الملكي الصوري - منذ أن توالىٰ على هٰذا العرش آخر ثلاثة من الملوك الباطيين - يتّسم بطابع جميع تلك الصِّفات التي كانت تتميَّز بها النُّظم الاستبدادية القائمة آنئذٍ في بلاد الإغريق وفي توابعها: فنراه يعلن حرباً لا هوادة فيها ضد الطبقة الارستقراطية الإقطاعية، ويلجأ إلى استعمال أساليب غوغائية عند ضربه للعناصرْ المعادية له، ويشكِّل حرساً من المرتزقة لحماية الملك والذَّوْد عن حياته، ويرصد أموالاً كثيرة لتعمير مدينة قوريني وخصِّها بمؤسّسات ومبانٍ ضخمة، ويسْتشري فيه الولع بالأُبّهة وحبّ تبذير الأموال. هذا بالنسبة للأمور الداخلية؛ أمّا بالنسبة للعلاقات

الخارجية لهذا النظام، فإن أهم ما تميّز به هو حالة الوئام والمهادنة مع الفرس، الذين كانوا يحتلُّون مصْر المجاورة.

ثالثاً : إنَّ هذه السِّمة الاستبدادية التي تميّز بها النظام الملكي الباطي في حقبته الأخيرة ـ وهي سِمة غابت عن أذهان المتخصِّصين أمداً طويلاً ـ هي التي تفسِّر لنا ذلك الموقف الذي تبنَّاه كلٌّ من «بنداروس» و«هيرودوتس» تجاه ملوك قوريني الإغريق. فنرىٰ «هيرودوتس» يُسْهبْ في سرْد دقائق فترة حكم «أركسيلاوس الثالث» ـ لا حبًّا منه في هذا الملك الطاغية ـ وإنّما لأن هذا العاهل كان، من حيث الأساليب التي دأب على اتّباعها طوال فترة حكمه، قد هيَّأ لنفسه مكاناً مرموقاً بين طُغاة الإغريق؛ فأتاح بذلك لهذا المؤرِّخ فرصة ممتازة للخوْض في موضوع عزيز عليه، وهو تعرية الطغاة الإغريق وكشْف عوراتهم. أما «بنداروس» فإنّه كان حريصاً على توطيد علاقته بـ«أركسيلاوس الرابع»، ونحن نرىٰ هذا الشاعر الكبير يقوم بزيارة قوريني شخصيًّا، بقصْد الدفاع، لدىٰ هذا الملك، عن قضيّة أحد الأرستقراطيين القورينيين كان قد نُفِي خارج قورينائية.

رابعاً : أن قوريني لم تعشْ ـ مثلما اعتقد بعض المؤرِّخين ـ على هامش مُجْريات الأمور في العالَم الإغريقي المعاصِر لها، في عزلة شبْه كاملة عنه. بل نراها، على العكس من ذلك، تُسْهم، منذ النصْف الثاني للقرن السادس قبل الميلاد ـ وبهمَّة كبيرة ـ في حياة المدن الإغريقيّة الأخرى. فهي قد اتّحدت مع هذه المدن بواسطة ما كانت تقيمه معها من علاقات تجارية بحرية، كانت ترتكز أساساً على تصْدير منتجاتها الزراعية إليها؛ وكانت لها، على الخصوص، علاقات وطيدة بأثينا. ولذا، فإننا نعتقد أنّه من الخطأ

الإلحاح كثيراً على طابع قوريني الدُّوري. نعم! لقد ظلّت هذه المستوطنة دُوريَّةً من حيث لُغتها؛ غير أنّ هذا لم يمنعها من الانْفتاح كثيراً على المؤثِّرات الأثينيّة، التي كانت واضحة فيها؛ خصوصاً في مجال الفنّ: فحضارة قوريني الإغريقيّة كان يشملها نفس التطوُّر الحضاري الذي عرفته بلاد الإغريق نفسها؛ وبالتالي فإنه ليس هُنالك ما يستوْجب الزَّعْم بأنّها قد عجزت عن مواكبة ذلك التطوُّر، بسببٍ من أنّها مجرد مستوطنة مهاجرة، نشأت وترعرعت بعيداً عن التفاعلات الحضارية التي كانت بلاد الإغريق الأُمّ تشهدها إبّان تلك الحقبة.

خامساً : وأخيراً، فإنّه لا بد من الاعتراف بأن هذه المستوطنة الباطيّة الإغريقيّة التي انبثقتْ في المهْجر، وشيّدت فوق أرض ليبيا مُدناً إغريقيَّةَ الحضارةِ والصبغة واللُّغة والإنتماء؛ قد ظلّت ـ طوال القرنيْن اللذيْن بقي خلالهما العرش الباطي قائماً ـ بمعزلٍ عن الليبيين، أصحاب البلاد الأصليين. فإغريق قوريني لم يختلطوا ـ في الحقيقة ـ بهؤلاء إلاّ في حدود ضيِّقة، فرضتها عليهم مصلحتهم، خصوصاً خلال السنوات الأولىٰ التي تلت إنشاء مستوطنتهم. وبعد ذلك عملوا على انتزاع أطيان ومزارع هؤلاء منهم، ووزعوها على وافدين جُدد من أبناء جلدتهم، وحاولوا طرْدهم من مواطن استقرارهم في هضبة قورينائية الخصيبة وزحْزحتهم باتجاه المناطق الصحراوية القاحِلة[1].

(1) وهذه هي نفس السياسة التي ستتّبعها إيطاليا ضد الليبيين، عندما استعمرت بلادهم سنة 1911م؛ أي بعد انقضاء عشرين قرن على الأحداث التي تعرَّض لها هذا الكتاب. فإيطاليا ـ هي الأخرى ـ قد انتزعت من الليبيِّين مزارعهم وأراضيهم الزراعية على طول الساحل الليبي، ووزَّعتها على معمِّرين جاءت بهم من جزيرة صقلية القاحِلة، تماماً، مثلما وزّع الباطيُّون الإغريق، في غابر الدهر، نفس تلك الرُّقع الخصيبة على معمِّري جزيرة ثيرا القاحِلة أيضاً. . حقّاً! إنّ التاريخ يُعيد نفسه أحياناً.

ملحق

(1)

عَوْد إلى السّلفيوم

(1) تُعتبر هذه الدراسة أحدث وأعْمق وأشْمل دراسة ظهرت عن نبات السلفيوم باللغة الفرنسية أو بأية لغة أخرى. ولقد أسهم «فرانسوا شامو» بها في مصنَّف جماعي صدر في لندن سنة 1985 م، تحت عنوان CYRENAICA IN ANTIQUITY، وقامت بنشره «جمعية الدراسات الليبيّة» بجامعة أكسفورد تحت الترقيم الإصداري: BAR INTERNATIONAL SERIES N^{O} 236، الصفحات 165-172 وهو مذيَّل بأحْدث بيبليوغرافيا عن الموضوع بعدّة لغات. وبالرغم من أن هذه الدراسة ليست جزءاً من مباحث هذا الكتاب الذي نُشر منذ سنة 1953؛ إلاّ أننا رأينا أنّه من المفيد جداً ترجمتها ونشرها كملحق له هنا، خصوصاً وأنّها تمثّل خلاصةً لأبحاث هذا العالِم الفرنسي عن السلفيوم خلال السنوات الثلاثين ونيْف التي تلت نشره لكتابه. وبالتالي فإن ترجمتنا العربية هذه ستضم دراستين وافيتين عن هذا النبات العجيب؛ ونحن نتعشّم بذلك أن نكون قد وضعنا بين أيدي الدارسين مادة علمية مكينة ومركزة حول السلفيوم، من شأنها أن تُثْري مباحث هذا الموضوع الجدير باهتمام جامعات ليبيا.

إن السلفيوم ـ الذي يُسمَّىٰ في اللغة الإغريقيّة القديمة «SILPHION»، وفي اللغة اللاتينيّة «LASERPICIUM»، أو يُشار إليه فيها تحت تسمية «LASER» ـ كان يُنظر إليه في العصور القديمة على أنّه نبات تنفرد به قورينائية. وكان ـ لأمدٍ طويل ـ مصدر ثراء «قوريني» التي كانت تقوم بتصْديره بأغلىٰ الأسعار إلى أسواق البحر الأبْيض المتوسط. كما أنّه اتُّخذ الرمز المفضل للعملات النقديّة لهذه المدينة خلال العصر القديم، حيث كان يُعدُّ بمثابة شعارٍ لهذه المدينة الإغريقيّة. وهو قد استرعىٰ انتباه قدماء علماء النبات؛ من أمثال: «ثيوفراستوس» و«بليني الأكبر». كما استقطب اهتمام العديد من قُدماء الجغرافيين، والمؤرِّخين، والأُدباء، والشُّعراء، ابتداءً من «سولون» و«أرسطوفانيس»، وانتهاءً بـ «سونسيوس القوريناني»؛ بل وجرىٰ على الألسن مجرىٰ الأمثال. وأخيراً فإنّه يبدوْ أنّه قد انقرض كليَّةً منذ الأزمنة القديمة، ولم يتوصل العُلماء المحدثون بعد إلى العثور على هذا النبات الغامِض في الأرض الليبيّة. والذي أهدف إليه هنا هو استعراض جملة الآراء التي قِيلت حول هذه المعضلة التي ثار حولها الجدل، والتي ما تزال تُثير فضولنا، دون أن نحْرز بشأنها أي تقدُّم يُذْكر، منذ صدور تلك الدراسة التركيبيّة التي كرّستها أنا لهذا النبات قبل ثلاثين سنة (شامو 1953). وسأستهلّ هذا المقال بالتذكير بتلك الدراسات الأساسيّة التي وُضِعت حول الموضوع،

وكذلك بأهمّ المصادر القديمة التي تناولته. ثم سأُثَنّي بالإشارة إلى الوثائق النقشيّة التي لا غِنىً للدارس عن الاستشهاد بها. ولسوف أحاول في الختام التعرُّض بإيجازٍ لتاريخ جني وتسويق السلفيوم في العالَمَيْن الإغريقي والروْماني. وبالنظر إلى أنّ الوثائق التي تتناول السلفيوم وفيرة ـ هذا، وإنْ كان تأويلها وتفسيرها ما يزال في الأغلب تخمينيًّا وظنيًّا ـ فإنني سأقتصر على الإشارة إلى ما هو جوهري منها؛ تاركاً على جنب، وعلى نحوٍ متعمّد، محاولات التثبُّت من كُنْه السلفيوم نباتيًّا، لأن هذا يخرج عن مجال تخصّصي. كما أنني سأُمسك عن الخوْض في أيّة مناقشات تفصيليّة من شأنها أن تجرّنا بعيداً عن صُلب الموضوع. وعلى أيّة حال، فإنني أرجو أن أوفّق بذلك في إبراز الكيفيّة التي تُطرح بها على بساط البحث معضلة السلفيوم نفسها في الوقت الراهن.

لقد تحقّقت لنا، منذ أمدٍ طويل، مهمّة جمْع شتات المادة التي جادت بها النُّصوص القديمة حول هذا النبات: حيث أنّه سبق للعالِم الدانمركي «ثريدج»، منذ سنة 1828 م، وأن جاء على ذِكر معظم هذه المادة في كتابه المنشور في كوبنهاجن تحت عنوان باللغة اللاتينيّة هو: «RES CYRENENSIUM». وهنالك دراستان تركيبيّتان سهلتَيْ الفهم، وتمدانا بكل الأسانيد الضروريّة، وهُما مقال الفرنسي «رينو A. RAINAUD»، الذي نشره تحت عنوان «السلفيوم» في «معجم العُصور الإغريقيّة والرومانيّة القديمة»، ومقال الألماني «شتير ـ STEIER» الذي يحمل عنوان «السلفيون». وهذا المقال الأخير، على الخصوص، ما يزال يُعتبر الدراسة الأكثر تفْصيلاً حول هذا النبات، انطلاقاً من مصادر مدوَّنة. أمّا تلك الأطروحة التي تقدّم بها في برلين الألماني «سترانتز ـ E. STRANTZ» في سنة 1909 م، تحت عنوان «البحث عن السلفيوم»[1]؛ فإنّها ما تزال تفيْدنا في شرْح وتفسير نصّ أساسيّ قديم عن السلفيوم، وأعني به ذلك النصّ العائد إلى «ثيوفراستوس». ولكن إلى

(1) STRANTZ: ZUR SILPHIONFRAGE, BERLIN, 1909.

جانب هذه الأطروحة فإنّه لا غِنىً للدارِس عن الاطّلاع على المقال الذي نشره «كابل ـ W. CAPELLE» في سنة 1954 م تحت عنوان: «ثيوفراستوس في قوريني؟».

ولا تزال معضلة الأصل اللغوي الذي اشتُقّت منه كلمة «سلفيوم» دون حل، مثلما ذكر «شانترين ـ P. CHANTRAINE» في «معجم الاشتقاقات في اللغة الإغريقيّة» المنشور بباريس في سنة 1980 م، والذي يحيلنا إلى المقال الذي نشره العلاّمة الإيطالي «نينشيوني ـ NENCIONI» في سنة 1939 م، تحت عنوان: «ابتكار أفريقي في المعجم اللاتيني». ولقد أدّىٰ رسم الكلمة في اللغة الإغريقيّة عند «هيسيخيوس المالطي» هكذا: «سيلبون ـ SELPON» أو «سيلفون ـ SILPHON»؛ وكذلك رسْمها عند كلٍّ من الشاعر اللاتيني «ماكسيوس بلوتوس MACCIUS PLAUTUS»[1]، في مسرحيته المسمّاة «رودينس ـ RUDENS»، و«سولين» هكذا في اللغة اللاتينية: «سيربي SIRPE»، إلى الاعتقاد بأن لهذه الكلمة جذرٌ لغوي غير إغريقي هو: «سيرفي ـ SIRPHI»، أو «سيلفي ـ SILPHI»، وهو جذر قد يكون في الأصل منحدراً من إحدى اللُّغات الأفريقيّة. غير أن كل هذا ما يزال محض افتراض يفتقر إلى قرائن مقنعة. وفي المقابل، فإنّه بالإمكان تتبُّع أصل الكلمة في اللاتينية؛ فعالِم اللاتينيّات الفرنسي «ألفريد إرنوت ميلليْه ـ ALFRED - ERNOUT - MIELLET»، المتوفي سنة 1973 م، يرىٰ في كتابه المسمّى «معجم الاشتقاقات في اللغة اللاتينيّة» أن هذا الأصل هو كلمة «لازر ـ LASER» اللاتينيّة، حيث أن عبارة «LAC SERPICIUM» ـ التي تعني «لبن» أو «عصارة السيربي ـ SIRPE» ـ قد اشتُقّت منها تسمية «LASERPICIUM» التي أدّىٰ عدم فهْم معناها إلى اختصارها إلى كلمة «LASER».

---

(1) وُلِد «ماكسيوس بلوتوس» حوالي سنة 251 ق م، وتوفي حوالي 184ق م، وهو شاعر دراماتيكي لاتيني وضع حوالي واحد وعشرين مسرحية كانت في معظمها عبارة عن ترجمات لاتينيّة حُرّة لأهم الأعمال التجديديّة في الشاعر الإغريقي.

والمصْدران الأساسيّان بالنسبة لنا هنا هما نصوص «ثيوفراستوس» في كتابه «تاريخ النباتات»، وهو الكتاب الذي فاق غيره من المصادر في الاستفاضة حول السلفيوم، ونصوص «بليني الأكبر» في كتابه «التاريخ الطبيعي»، الذي تعتبر معظم مادته عن السلفيوم مجرّد ترجمة من الإغريقيّة إلى اللاتينية عن كتاب «ثيوفراستوس»، ثم أضاف إليها هو بعض المعلومات عن التاريخ اللاحق عن هذا النبات. أمّا بقية نُصوص الأقدمِين فإنها لا تتضمّن عن السلفيوم سوىٰ بعض الإلماعات الموجزة جدّاً؛ هذا، وإنْ كانت هذه المعلومات، رغم شدّة إيجازها، تفيدنا في التعرُّف على الدّور الذي لعبه هذا النبات في الاقتصاد القديم، خصوصاً في مجال فنّ الطهْي، وفي مجال علم الأدوية، إلاَّ أنّها لا تسعفنا في تحديد السِّمات النباتية المميّزة له.

ويبدأ «ثيوفراستوس» نصّه المطوَّل هذا بعقد مقارنة بين نبات السلفيوم وبين نبات البردي، ذلك أن النباتيْن هما في رأيْ هذا المؤلِّف من النباتات الخيْميَّة. وبعد ذلك يصف لنا «ثيوفراستوس» السلفيوم قائلاً إنّه نبات حوْلي، شأنه شأن نبات الحلتيت، وله جذر غليظة ممتلئة، وساق سميكة كساق ذلك النبات، وأوراق شبيهة بأوراق الكرفس، وبذرة مغلَّفة بغشاء مفرطح، ولهذا السبب فإن بذرته تُسمَّى «الورقة». أمّا أوراق السلفيوم نفسها، والتي تُسمَّى «ماسبيتون ـ MASPETON» فإنها تتفتّح في فصْل الربيع، وهي تثير شراهة الخرفان فتُقْبل على التهامها بشهية. وفيما بعد تنمو الساق، وهي تُؤكل. وتتأتّى أهمية هذا النبات أساساً من عصارته التي يتم استخلاصها إمّا من الجذر وإمّا من الساق. ولجذر السلفيوم قشرة سوداء تغلّفه، ولا بدّ من خرطها. ويجني بائعوا الأعشاب الطبيَّة أموالاً طائلة من وراء بيع جذور السلفيوم هذه. وللحصول على عصارته، فإنّه لا بد من حزِّ هذه الجذور بمشرط، مرّات متتالية في عدّة مواضع، حسب الحاجة، حيث تأخذ هذه العصارة في النضوح والسيلان عند كل موضع يتم حزّه. ولا بد من معالجة هذه العصارة على الفور،

وإلاّ فإنها تتخمّر وتفسد. وللحفاظ عليها وتصديرها، فإنه يتم تجميعها في أوانٍ وتخلط بالدقيق، حيث تُعجن وتعجن حتى يكتسي الخليط لونه المعروف، وهو لون أحمر فاتح، بحسب ما ذكره «بليني الأكبر». وعندئذٍ تصبح عصارة السلفيوم قابلة للتخزين. وكان يتم تصديرها إلى الخارج على هذه الشاكلة، خصوصاً إلى ميناء «بيراوس» الأثيني. وكان السلفيوم ينمو في ليبيا عبر إقليم مترامي الأطراف يمتد ـ بحسب ما ذكره «ثيوفراستوس» ـ على مدىً أربعة آلاف مرحلة قياسيّة، أي ما يعادل مساحة سبعمائة كيلومتر، هذا، وإنْ كانت هذه المساحة مُبالغ فيها بدون شك. وتقع منطقة جني السلفيوم الرئيسية قرب خليج سرْت، ابتداءً من مدينة «يوسبيريدس» (بنغازي). ونبات السلفيوم لا يطيق النمو والترعرع في الأراضي الزراعية المستصلحة، إذْ من الملاحظ أنّه كان لا يلبث أن يختفي من أيّة بقعة يتم استصلاح تربتها وزراعتها، لأنه، في المقام الأوّل، نبات بعْلي برِّي، بحسب ما ذكر «ثيوفراستوس».

ويُلْحق «ثيوفراستوس» بالنصّ الدقيق والمفصَّل الذي سُقْنا خلاصته أعلاه، نصًّا ثانياً استقاه من مصدرٍ آخر. وبحسب هذا المصدر الأخير، فإن ارتفاع جذور السلفيوم يبلغ ذراعاً (حوالي 45 سم) وربما أطول قليلاً. وتوجد عند منتصف هذا الجذر عُجْرة ناتئة تظهر على وجه الأرض، وتسمى «القالة ـ GALA»، أي «اللبن». ومن عند هذه العجْرة تنبثق الساق التي تنتج البزرة. ويؤدِّي هبوب الرياح الجنوبية إلى انتشار وتبدُّد هذه البذار؛ الأمر الذي يتيح للنبات فرصة التكاثر كل سنة. ويلاحظ «ثيوفراستوس»، استناداً إلى مصْدره الثاني هذا، بأنّه إذا ما تم تقليب التربة حول الجذور، فإن نبات السلفيوم ينمو ويترعرع على نحوٍ أفضل؛ وهذا أمر يبدو لهذا المؤلِّف القديم متناقضاً مع ما ورد في النصّ الأول القائل بأن السلفيوم إنّما هو نبات بعْلي برِّي لا يطيق الاعتناء به زراعيًّا. وأخيراً فإن «ثيوفراستوس» يشير إلى أن الجذور تُؤكل بعد تقطيعها إلى قطعٍ صغيرة تحفظ في الخل، حيث يتم عندئذٍ الحصول على

نوعٍ من المخلّلات.

ويعتبر هذا الوصف الذي خلّفه لنا «ثيوفراستوس» - وهو الوصف الذي استلهم منه «بليني الأكبر» الكثير، إلى درجة أنّنا نرى هذا الأخير يترجمه حرفيًّا على وجه التقريب - الوثيقة الأساسيّة التي في حوزتنا عن السلفيوم. ومن الجليّ الواضح أن صاحبنا لم يستق وصفه هذا انطلاقاً من مشاهدة عيْنيَّة مباشرة، وإنّما هو نقله عن مصدريْن مدوّنيْن، تعمّد التمييز بينهما بكل وضوح. ولقد تراءى لـ «ثيوفراستوس» أن النصيّن يختلفان من حيث أن أحدهما يعتبر السلفيوم نباتاً بعْليًّا ينمو من تلقاء نفسه، في حين أن النصّ الآخر يعتبره نباتاً يمكن استزراعه على نحو يقتصر على تعمُّد تقليب التربة حول جذره. غير أن هذا التناقض الذي نلْمسه بين النصيْن المذكورين لا يعدو أن يكون تناقضاً صوريًّا لا يتجاوز الاختلاف في طريقة التعبير؛ إذْ أن كل نبات يعتبر بالطبع قابلاً لأن يُسْتزرع إذا ما تمّت المحافظة على مجمل الظروف الطبيعيّة التي ينمو فيها عادة. أمّا القول بأن السلفيوم هو نبات بعْلي بطبيعته، فلقد تأتّى، بكل بساطة، من حقيقة أنّه واحد من نباتات السهوب، وأنّه لم يكن ينمو في تلك المنطقة من مناطق قورينائية الصالحة لأنواع الزراعة التي كان يمارسها المعمِّرون الإغريق، وإنّما كان ينمو في مؤخرة البلاد التي كانت تجوبها قبائل قدماء الليبيين الرعوية؛ أعني أنّه كان ينمو في السهوب المتاخمة للصحراء، حيث لم يكن هنالك أحد يمارس الزراعة بسببٍ من الظروف المناخية الجافة أصلاً. ففي ذلك الإقليم بالذات كان يتم جني السلفيوم، كما يشهد بذلك - إلى جانب «ثيوفراستوس» - «هيرودوتس» (في الكتاب الرابع من تاريخه، الفقرة 169)، وقدماء الجغرافيين من أمثال «سكيلاكس المنحول»، و«سترابو»، و«بطلميوس» في جغرافيته. لقد فشلت محاولات أقْلمة السلفيوم في بقاعٍ أُخَرْ؛ فلقد ذكر «أبيقراط» (في الفقرة 34 من الجزء الرابع من كتابه «الأمراض») أنّه قد جرت محاولة استزراعه في إقليم «إيونيا» وفي شبه جزيرة البيلوبونيز ببلاد

الإغـريق، ولكن بدون جـدوى. وفي المقابـل، فإن شقيق «سـونسيـوس «القوريناثي»، المسمى «يوبيتيوس»[1]، (انظر الرسالة رقم 106 من رسائل «سونسيوس») كان ـ فيما يُقال ـ يتعهَّد بالعناية بضـع غرسات سلفيوم في بستانه الواقع قرب «فيكوس» التي كان مناخها أشد حرارة وأكثر جفافاً من مناخ قوريني.

وهكذا، فإن التناقض الذي لمسه «ثيوفراستوس» بين مصدريْه المدوَّنيْن، اللذيْن استوحى منهما ما كتبه حول السلفيوم، لا يعدو، في الواقع، أن يكون تناقضاً لفظيًّا. وفيما عدا ذلك، فإن وصفيْهما للسلفيوم لا يختلفان، من حيث الجوهر: فكلاهما يؤكِّد على ضخامة حجم جذر هذا النبات، أو جمَّارته أو دَرَنته. وتذكرنا تسمية هذا الجذر بـ «القالة GALA»، في نصِّ المصدر الثاني، بـالتسميـة الـلاتينيـة للعصـارة التي كـانت تستخلص منــه، أي: «LAC SERPICIUM». فكل هذا يبدو متَّسقاً مع بعضه البعض بما فيه الكفاية. وإنه ليتوجَّب على علماء النبات أن يشرعوا الآن في تحرِّيـاتهم العلميّة حـول السلفيوم، انطلاقاً من هذه المعطيات التي لم يضف إليها قدماء المؤلِّفين الآخرين شيئاً ذي بال. ولكن يتحتَّم أن يجري هذا التحرِّي في المكان المناسب؛ أي أنّه لا يجب أن يتم في المناطق الخصيبة من برقة، حول مدينة «شـحَّات» (قوريني)، أو «المرج» (باركي)؛ وإنما في براري مؤخرة هذا الإقليم المتاخمة للصحراء، وهي البراري التي لم يُنقَّب فيها عن هذا النبات، بما فيه الكفاية حتى الآن. فهنالك في تلك المنطقة التي ترعى فيها قطعان الضأن والماعز التي يهيم بها رعاتها من البدو الليبيين الرُّحَّل حتى مشارف الصحراء، قد يكون الحظ في انتظارنا لاكتشاف نبات السلفيوم الحقيقي، في يومٍ من الأيّام، ما بين بنغازي وبمبا، عند الطرف الجنوبي لهضبة برقة العُليا.

---

(1) انظر: عبد الرحمٰن بدوي: «تـاريخ الفلسفـة في ليبيا»، ج / 2: سـونسيوس القـوريناثي، منشورات الجامعة الليبية، (د. ت)، ص ص 8-12.

وفيما يتعلّق بالوثائق النقشيّة ـ التي كثيراً ما تناولها المتخصِّصون بالشرح والتعليق بما فيه الكفاية ـ فإنني سأكتفي هنا بإلقاء نظرة إجمالية عابرة عليها.

إن «قدح أركسيلاوس الثاني» المحفوظ بخزانة الأوسمة والأنواط التابعة للمكتبة الوطنية بباريس، قد تمكنت فرنسا من اقتنائه في سنة 1836 م، حيث جيىء به من بلدة «ڤولشي ـ VULCI» بتوسكانا في إيطاليا. ويُعتبر هذا القدح أشهر القطع الأثرية الخزفيّة التي صنّعتها دور الخزّافين اللاكونيين الإغريق إبّان القرن السادس قبل الميلاد. ونشاهد على أديم هذا القدح رسماً يمثّل الملك الباطي «أركسيلاوس الثاني» وهو يرتدي بزّة الاحتفالات الرسميّة، وهو جالس على مقعد متصالب الأرجل. ولقد تمّ التعرُّف على هوية هذا الملك بفضل اسمه المرسوم إلى جانبه، وهو يُرىٰ وهو منهمك في مراقبة عمليات وزْن وحزْم رزماتُ محصولٍ أجمعت آراء المتخصصين على أنّه السلفيوم. وشدَّد المعنيُّون بالخزفيّات اللاكونية، منذ مدّة طويلة، على مـدىٰ الأهمية التي يكتسيها هذا الإناء، فيما يتعلّق بهذا الضرب من الخزفيّات: فبعد الباحثيْن «دروب ـ DROOP» و «لاين ـ LANE»، اللذيْن أثبتا بشكل حاسم انتماء هذا القدح لفئة الخزفيّات اللاكونية؛ فإن كل علماء الخزفيّات قد أجمعوا اليوم على أنه قد تم تصنيعه في إحدى دُور الخزفيّات الإسبرطية. وتسعىٰ الدراسات التي نُشرت مؤخراً في مجال الخزفيّات القديمة إلى الكشف عن أعمال أثرية فنيّة أخرى يمكن عزْوُها إلى نفس الفنّان الذي ابتدع «قدح أركسيلاوس»، وهو الفنّان الذي صار يشار إليه بتسمية «رسّام أركسيلاوس»، بالنظر إلى أن اسمه الفعلي ما يزال مجهولاً. وتوجد على رأس الدراسات المذكورة تلك الدراسة التي وضعها «شيفتون ـ SHEFTON» تحت عنوان: «ثلاثةٌ من رسّامي الآنية اللاكونية»، وظهرت بالإنجليزية في سنة 1954 م. وكذلك دراسة «ستيب ـ STIBBE» التي ظهرت بالألمانية في سنة 1972 م تحت عنوان: «الرّسّامون اللاكونيُّون في القرن السادس قبل الميلاد». وأحدث دراسة في هذا الخصوص

هي تلك التي نشرها - مع ثبْت هام للمصادر - الباحثان «سيمون - SIMON» و «هيرمر - HIRMER»، في ميونخ بألمانيا الغربيّة، سنة 1976 م بعنوان: «الأواني الإغريقيّة»[1]؛ وهي دراسة تتبنّى نفس الرأي الذي سبق لي وأن ناديت به في كتابي الذي نشرته سنة 1953 م [يعني كتابه هذا الذي ترجمناه هنا]، إلاّ أن مؤلفيْ تلك الدراسة لم يشيرا إلى ذلك. ففي كتابنا المذكور أثبتنا أن المشهد المرسوم على «قدح أركسيلاوس» لم يكن يجري على ظهر سفينة - مثلما كان يُعتقد بوجهٍ عام - وإنّما داخل مدينة قوريني نفسها. وفي المشهد يُرى الملك وهو يحتمي تحت مظلّة تقيه حرارة الشمس. والعبارات المرسومة إلى جانب كل شخصيّة من شخصيّات المشهد تدلّل على كل منها؛ إمّا بذكر اسم الشخصية، وإمّا بذكر وظيفتها المنوطة بها. ولقد قام الألماني «نيومان - G. NEUMANN» في سنة 1979 م بدراسة هذه العبارات مجدداً دراسة دقيقة قائمة على فحص وتخريج جديد لآثار وبقايا الحروف التي إمّحى بعضها. ولقد قمت من جانبي بالتحقّق من مدى دقّة تخريجه الجديد ذاك، بأنْ رجعت بنفسي مجدداً إلى فحص القدح الأصلي المحفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس. ويوافق «نيومان» في دراسته الجديدة هذه على أن الاسم «سليفوماخوس - SLIPHOMACHOS» يعني «مُعالج» أو «عجّان» السلفيوم؛ وبأن الاسم «أوروكسوس - ORUXOS»، أي «الحفّار» فيه إشارة إلى الأسلوب المتّبع في عملية استخراج جذور السلفيوم من باطن الأرض، وهذه هي الطريقة التي حدّثنا عنها «ثيوفراستوس»؛ ويمكن ترجمة هذا الاسم بـ «النبّاش». أمّا بقية الأسماء المثبتة على المشهد المرسوم على القدح فإن تخريجها يبدو أصعب بسببٍ من إمّحاء بعض أحرفها؛ هذا، وإنْ كان تأويلها في مجموعها يُعدّ أمراً لا يكتنفه أيُّ لبْسٍ. فالمشهد يصوّر بالفعل عملية وزْن

(1) E. SIMON & A. HIRMER: DIE GRIECHISCHEN VASEN; MUNICH, 1976.

السلفيوم التي يشرف عليها ملك قوريني شخصيًا، لأن هذا النبات يشكّل جزءاً هامًّا من دخله. وتشير إحدى فقرات كتاب «تاريخ الحيوان» لأرسطو إلى أن القورينيين «. . قد منحوا أحد الملوك الباطيين هبة السلفيوم». وهذا السلفيوم الذي كان الليبيُّون يجنونه من مواطن نموِّه في أراضيهم الداخلية كانوا يقدّمونه إلى الملك الباطي كجزية، حيث كان يتم تدوين كمياته في سجلات، بعد التّثبُّت من أوزان هذه السلعة النفيسة بواسطة القيِّمين الملكيين المنوطين بهذه المهمّة. وبعد ذلك يتم وضع السلفيوم في سلال كبيرة، كان العتّالون يقومون بإنزالها في أقبية قوريني، كما نشاهد في أسفل القسم التحتي من المشهد المرسوم على القدح، وذلك تحت رقابة حارس خاص، يسمَّى «فولاخوس ـ PHULACHOS». ولقد أقرَّ المختصُّون ـ دون معارضة ـ التأويل الذي اقترحته أنا لهذا المشهد بالتفصْيل في كتابيْ الصادر سنة 1953 م [يعني «شامو» هذا الكتاب]. وإذن، فإن «قدح أركسيلاوس» يُعتبر أهم شاهد على نمط الحياة الاقتصادية والإدارية في قوريني تحت حكم «أركسيلاوس الثاني»، في حوالي سنة 560 قبل الميلاد[1].

ومع ذلك، فإنّه ما تزال هنالك نقطة لم يتم حولها بعدُ اتّفاق بين المتخصّصين، وأعني بها تلك المتعلّقة بالهيئة التي كان يوجد عليها السلفيوم عند وزْنه وتعبئته داخل السلال. وفيما يتعلق بي، فإنني قد ملْتُ في كتابيْ المذكور إلى التفسير التالي: وهو أن الجسم البيضاني الذي نشاهد خدم الملك يقومون بنقله، قد يكون جذوراً، أو دَرَنات، أو جُمّارات السلفيوم. ويعترض «سيمون» في دراسته المنشورة سنة 1976 م قائلاً بأن جذور السلفيوم ـ بحسب ما ذكره «ثيوفراستوس» ـ كانت مغلّفة بقشرة سوداء؛ وبالتالي، فإن

(1) فيا ليْت بلادنا تنجح في استرداد هذا القدح الأثري النادر من فرنسا، لكيْ نضعه اليوم في مكانه الجدير به في أحد متاحفنا، ليكون رمزاً للسلفيوم المنْقرض. . الذي كان هو «نفْطنا» إبّان أزمنة ما قبل الميلاد.

هذا يفترض، في رأي هذا الباحث الألماني المعاصِر، بألاَّ تكون الأجسام المنقولة ـ في المشهد المرسوم على أديم القدح ـ جذوراً، وإنّما هي قطع من السلعة الجاهزة للتصدير، والناجمة عن خلْط عصارة السلفيوم بلباب الدقيق. بيْد أن هذه الحجّة ليست في رأينا حجّة مقنعة؛ فالواقع أن هذا الخليط، الذي كان له ـ بحسب ما ذكره «بليني الأكبر» ـ لون أحمر، كان قد تم تحضيره داخل أوعية، وبالطبع فإنّه لم يكن بالإمكان نقله بدون تلك الأوعية التي تحتويه، كما هو الحال بالنسبة لأي خليط معلّب. ثم يمضي «سيمون» في اعتراضاته قائلاً: إن الأجسام التي نشاهدها على أديم القدح هي على هيئةٍ مستطيلة، ممطوطة، متفاوتة الأحجام، ولا يمكن أن تنمَّ عن أوعية؛ ثم أنّه حتى في حالة كونها أوعية، فإن تكديسها داخل سلال يظل موضع تساؤل وشك. ونحن نردُّ على اعتراضه هذا بالتذكير بأن القشرة السوداء ـ بحسب ما ذكره «ثيوفراستوس» ـ كانت تُسْلخ عن جذور السلفيوم، قبل تخزين هذه الجذور، توطئة لاستخلاص العصارة لاحقاً. وكان استخلاص هذه العصارة يتم عن طريق تجزئة الجذور إلى قطع أسطوانية صغيرة. وانتظاراً لإجراء هذه العملية عليها، فإنها كانت تحفظ داخل قِفاف أو سلال، حيث أن من بين ميزات هذه القفاف والسلال أنّها تسمح للهواء بأن يتخلّلها؛ الأمر الذي يصون الجذور المحفوظة فيها من التعفّن والفساد. وهكذا، فإن أقبية قوريني كانت ـ بحسب تعبير «ثيوفراستوس» ـ: «تحوي مناجم من السلفيوم المُعدّ للتقطيع».

إن رسومات نبات السلفيوم المنقوشة على القطع النقدية معروفة للجميع، وآخر دراسة وضعت حولها هي تلك الدراسة المنهجيّة التي كرّسها لها «روبنسون» في سنة 1927 م. ومن الملاحظ أن رسْمة هذا النبات قد طبعت على ظهر معظم فئات النقد القوريني الفضيّة حتى بداية الفترة الهلينستية. وفي رأي «روبنسون»، فإن الإختفاء التدريجي لهذه الرسمة من نقد المدينة خلال الحقبة البطلمية اللاجيدية مرجعه هو الانقراض التدريجي لنبات السلفيوم في

إقليم برقة. ولسوف تمكِّننا المدوَّنة التوثيقيّة الجديدة المكرّسة للنقود الأفريقيّة القديمة ـ وهي الدراسة التي يكبُّ على إعدادها حالياً تلميذنا وصديقنا «أندريه لاروند ANDRE LARONDE»، لكي تحلَّ محل ذلك المصنَّف القديم الذي كان البحَّاثة الألماني «موللر MULLER» قد نشره في الخصوص منذ سنة 1860 م ـ من التحقُّق من مدىٰ صدق هذه الفرضية على أُسس أشدُّ رسوخاً. وعلى أيّة حال، فإن الرسومات التي طُبعت على النقود، لهذا النبات، تمدُّنا عنه بصورة متميّزة؛ فهي تصوره لنا بساقه الغليظة المضلّعة، تكسوه طبقتان أو ثلاث من الأوراق المتقابلة، وأزهار تتكوَّر بأعلاه على هيئة خيميَّة. والحقيقة أن قيام علماء النبات بعقد مقارنة بين صورة السلفيوم هذه، كما تبدو على أديم النقد القوريني؛ وبين تلك الأوصاف المستقاة من النصوص القديمة، تعتبر السبيل الوحيد الذي سيمكِّن هؤلاء من التعرُّف على نبات السلفيوم الحقيقي، إذا كان ما يزال لهذا النبات أثر في ليبيا.*

ومع ذلك، فإن هنالك نقطة لا يمكن للعملات النقدية أن تبرهن عليها؛ ألاَ وهي النقطة الخاصة بحجم هذاالنبات. بيْد أنّه أصبح من المستطاع اليوم التعرُّف على حجمه بفضل تلك التماثيل الصغيرة المصنوعة من الفخَّار، والتي لم يلتفت أحد حتى اليوم إلى مدىٰ إمكانية إسهامها في إيجاد حلٍّ لهذه المعضلة: ففي سنة 1978 م، عثرت البعثة الأثرية الفرنسية في مدينة سوسة (أبوللونيا القديمة)، تحت سور المدينة الأثرية، قرب البرج الثاني عشر، على قبر منقور في الصخر مملوء بكامله بتماثيل صغيرة من الفخّار، وهي تماثيل تعرّضت للتهشيم بعض الشيء. ويوجد من بين هذه النُّذر القرابينيّة عدد كبير من التماثيل التي تصوِّر نساء منتصبات يتلحَّفْن بأردية، وبعضهن صُورت إلى جانبهن غزالات. ولقد أوكلت البعثة المذكورة مهمّة دراسة هذه التماثيل الصغيرة ونشْر نتائج الدراسة إلى السيد «ألان دافيْني ـ ALAIN DAVESNE». والذي يهمّنا هنا هو الإشارة إلى أن بعض هذه التماثيل النسائية الصغيرة تحمل

في أيديها ساق سلفيوم تبدو أحياناً مضمومة إلى الصُّدور في وضعٍ عمودي، وفي أحيان أخرى، تبدو مشدودة إلى أفخاذهن بآنحراف، على نحو يجعل كورة زهرات النبـات، الخيميَّة الشكـل، متجهة إلى الأسفـل. وفي كلا الحالتين، فإنه لا مجال للشك في التعرُّف على نوعية هذا النبات، لأن سماته النباتية تتطابق كليّة مع سمات السلفيوم التي نراها مرسومة على أديم النقد القوريني. ولقد سبق لبعثة «نورتون»[1] الأمريكية وأنْ عثرت في مدينة قوريني على تماثيل فخّارية مماثلة، إلاّ أن أحداً لم يفطن إلى أهميتها في هذا الشأن. بيْد أن هذه التماثيل الصغيرة تمدّنا بقرينة حاسمة حول أبعاد حجم نبات السلفيوم، والتي من السهل تقديرها هنا مقارنةً بأبعاد حجم أجسام النساء اللاتي يحملنه: فارتفاع ساق هذا النبات ـ كما تصوِّره هذه التماثيل ـ تتراوح ما بين خمسة وعشرين وثلاثين سنتيمتر. وإذن فإنها ساق قصيرة جدًّا، أيّ أنّها أقصر مرتين من مدى ارتفاع جذرها؛ حيث أن طول هذا الجذر كان يعادل ـ في رسمة التمثال ـ ذراعاً واحدة على وجه التقريب، أي حوالي خمسة وأربعين سنتيمتر. ولهذا التوضيح أهميته الخاصة في توجيه الأبحاث التي يقوم بها علماء النبات ميدانياً في هذا الصدد.

ولم يبقَ أمامنا، في الختام، سوى التطرُّق على نحو مجمل إلى الدور الذي لعبه السلفيوم في اقتصاد إقليم قورينائية؛ ولسوف نكتفي بذكر ما هو أساسي.

لقد اكتشف الإغريق هذا النبات المجهول منذ وصولهم إلى ليبيا، في جزيرة بلاتيا الواقعة بخليج «بمبا»، وذلك بناءً على ما نستنبطه من فحوى تلك

(1) هي بعثة أمريكية كان يترأسها «ريتشارد نورتون ـ RICHARD NORTON» أرسلها إلى ليبيا «معهد الأركيولوجيا الأمريكي» في شتاء سنة 1910، لإجراء أبحاث وحفريات أثرية في مدينة شحّات (قوريني)؛ إلاَّ أن هذه البعثة لم تلبث أن رحلت بسبب عدم تقبّل المواطنين الليبيين لها، حيث تم قتل أحد أعضائها، وفرَّ الباقون.

الفقرة من نص «ثيوفراستوس» القائلة بأن السلفيوم كان قد ظهر قبل سبع سنوات من تأسيس مدينة قوريني. وهذه المدينة كانت قد تأسّست في سنة 631 قبل الميلاد؛ أي بعد انقضاء سبع سنوات بالضبط على نزول أوائل المعمِّرين الثيرانيين بجزيرة «بلاتيا»، بحسب ما ذكره «هيرودوتس». ويرجع ورود أوّل ذكرٍ للسلفيوم في النُّصوص القديمة إلى مطلع القرن السادس قبل الميلاد؛ فلقد ورد ذلك في قصيدة للشاعر «سولون»، (توفي حوالي سنة 558 ق م)، وحفظها لنا النحوي «فوللوكس ـ POLLUX [1]». وإذن، فإن غلَّة السلفيوم كانت معروفة في أثينا في تلك الفترة. ويذهب الشاعر «أرسطوفانيس»، المتوفي حوالي سنة 386 ق م، في الفقرة 925 من مسرحيته «بلوتوس، إله الثروة»، إلى أن عبارة: «سلفيوم باطوس جميعه TO BATTOU SILPHION»، التي ذهبت مثلاً، كان يُقصد بها على ألسنة الناس: «ذهب الدنيا كلّه»، أي أنّه كان يُكْنى بها عن شدة الثراء. ويقول أحد الشُّرّاح، عند تفسيره لهذه العبارة، إن الليبيين كانوا قد قدَّموا السلفيوم ـ الذي يُعتبر أنْفس نباتاتهم ـ إلى «باطوس»، إكباراً له. ومن ثم، فإن أولئك الذين تنهال عليهم النِّعم الممتازة، كانْ يُقال عنهم ـ مجازاً ـ إنهم قد وُهِبوا «سلفيوم باطوس جميعه». ثم يُرْدف نفس هذا الشارح مستشهداً بعبارة «أرسطو» القائلة بأن القورينيين «قد منحوا أحد الملوك الباطيين هبة السلفيوم»، وهي العبارة التي سبق لي وأنْ ذكرتها أعلاه، عندما كنتُ أتحدّث عن «قدح أركسيلاوس». وبإمكاننا أن نستنتج من كل هذا أن محصول السلفيوم قد اعتُبر، منذ بدايات استقرار الإغريق في ليبيا، احتكاراً ملكيًّا، وأنَّ تجارته كانت تشكّل في آنٍ واحد أحد المصادر الرئيسيّة لثروة قوريني وللخزينة الخاصة بعاهلها الباطي. وليس مشْهد وزْن هذه النبات النفيس، المرسوم على أديم «قدح أركسيلاوس» سوى تجسيد صارخ لهذه الحقيقة التاريخية.

---

(1) عاش «فوللوكس» في القرن الثاني الميلادي، واشتهر بمعجمه النحوي المسمّى: «ONOMASTICON».

ويبدو أنّه لم يكن للإطاحة بالملكيّة الباطية، حوالي سنة 440 قبل الميلاد، أي تأثير على تجارة السلفيوم. ولا شك في أن مدينة قوريني قد استولت عندئذٍ على جميع الامتيازات الملكيّة، بما فيها امتياز احتكار السلفيوم. وعلى أيّة حال، فإن النصوص الأدبيّة، العائدة إلى القرن الخامس قبل الميلاد، لا تخلو من إشارات ما إلى السلفيوم. فـ «هيرودوتس»، مثلاً، قد اكتفى، في الفقرة 169 من «الكتاب الرابع» ـ عند حديثه عن موْطن قبيلة «الجيليجاماي» ـ بقوله: «.. ومن هنا يبدأ إقليم السلفيوم، وهو يمتد من جزيرة بلاتيا، وحتى مدخل خليج سرْت». فمؤرِّخنا ـ مثلما ترى ـ قد مرَّ بالسلفيوم، في هذه الفقرة، مرور الكرام، ولم يرَ ضرورة للتحدّث بإسهابٍ عن هذا النبات؛ وفي ذلك دليل على أنّه كان في عهده نباتاً معروفاً للجميع. وبينما لم يتطرّق «سوفوكليس» إلى السلفيوم سوىٰ مرة واحدة؛ نجد أن «أرسطوفانيس» يذكره مرّات عدّة. وأخيراً، فإن «أبيقراط» قد أشار في تصانيفه العديد من المرات إلى الفوائد الشفائية للسلفيوم، من حيث أنّه أحد النباتات الطبيّة. وهكذا، فإن الاستعمالَيْن الرئيسييْن للسلفيوم قد أصبحا معروفين لنا: فهو كان من ناحية يستعمل في المجال الطبّي، حيث ظلّ أحد العناصر الثابتة في وصفات تراكيب الأدوية القديمة؛ بدءاً بـ «أبيقراط» وحتى «ديسقوريدس بيزانيوس»(1) و «جالينوس»(2)، ومروراً بالطبيب الشاعر «نيكاندر القولوفوني ـ NICANDRE DE COLOPHON» الذي لم ينسَ، في القرن الثاني قبل الميلاد، أن يذكر السلفيوم في قصيدة له كان قد ألفها عن أنواع الترياق التي تشفي من آثار السموم. ومن ناحية

---

(1) «ديسقوريدس بيزانيوس» هو طبيب ونباتي إغريقي، وُلِد في عين زرْبة بقيليقية، في القرن الأوّل للميلاد، ولقد ذكره ابن أبي أصيبعة في «عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء» العديد من المرّات.

(2) «جالينوس» طبيب إغريقي شهير، وُلِد حوالي سنة 131 ميلادية وتوفي حوالي سنة 201 ميلادية. له اكتشافات هامة في علم التشريح القديم، وتأثّر به قدماء الأطبّاء العرب.

أخرى، فإن السلفيوم كان يُعتبر أحد التوابل المحبَّبة جداً في مجال الطهي، حيث كان يُنظر إليه على أنه من بين كماليات الطعام النفيسة التي كان عشّاق الأكلات الممتازة لا يتردّدون في اقتنائه حتى بأبهظ الأسعار. ولقد تسرّبت إلى قاموس الطبخ الإغريقي القديم العديد من التعابير الخاصّة بالسلفيوم، من مثل تعبير: «وجبة متبَّلة بالسلفيوم»؛ الأمر الذي يبيِّن لنا مدىٰ الشهرة التي كان يتمتّع بها هذا النبات، باعتباره أحد أهم التوابل في ذلك الزمن. ونجد الشاعر الإغريقي «ألكسيس ALEXIS»[1]، يتحدث هو الآخر عن السلفيوم ـ خلال القرن الرابع قبل الميلاد ـ في إحدى مسرحياته الشعرية الهزلية؛ ولذا فإن «ثيوفراستوس» كان محقًّا في توقُّفه طويلاً، في نهاية ذلك القرن، عند هذا النبات العجيب الذي حظي بشهرة واسعة.

ومع كل هذا، فإنه لم يرد للسلفيوم أي ذكرٍ في الكتابات النقشيّة. فلقد خلت من ذكره قوائم حسابات المدبِّرين الماليين (الديميورج) عند سرْدها لأسماء أهم المنتجات الزراعية القورينية. ولربما يعود السِّرُّ في ذلك إلى أن هذا النبات لم يكن من بين تلك المحاصيل التي كانت تُجنى من الأراضي المستصلحة زراعياً في قوريناثية، وهي المحاصيل التي كانت تشرف عليها هيئات أولئك الديميورجيين. ومن ناحية أخرى، فإن إغفال ذكر السلفيوم ضمْن قوائم هؤلاء المدبِّرين الماليين الحسابية يعزِّز حقيقة ما نعرفه عن الإقليم الذي كان ينمو فيه هذا النبات؛ فهو كان يُجلب إلى قوريني بواسطة القبائل الليبية القديمة التي كانت على علاقة متّصلة بمستوطني المدينة الإغريق. والنص النقشي الوحيد الذي يمكن للمرء أن يفترض أنه يتضمّن تلميحاً إلى السلفيوم هو ذلك النصّ المنقوش على نصْب «السيلات SYLAT»، والذي نَشر عنه الباحث الإيطالي «بولييزي كارّاتيللي ـ PUGLIESE - CARRATELLI» مؤخراً

(1) وُلد الشاعر «الكسيس» حوالي سنة 372ق م وتوفي سنة 270ق م. وهو شاعر هزلي وضع حوالي 245 مسرحية شعريّة.

دراسة خاصة. فالواقع أن ما هو مدوّن على هذا النصب يقول أن أعضاء وفد من قوريني، كان في زيارة لمدينة «ميجاليبوليس MEGALEPOLIS» بشبه جزيرة البيلوبونيز، قد التقى هناك بتاجر عقاقير أو عطّار يُدعى «نيسياس»؛ ولقد ذهب الباحث الفرنسي «روبير J. ROBERT» في دراسة نشرها في سنة 1964 إلى أن ذلك العطّار الأركادي ربما كان يتعاطى تجارة السلفيوم، وأن هذا هو السبب في التقائه بذلك الوفد القوريني.

إن أحداً لا يعرف الفترة التي أهدت فيها بلدة «أمبيلوس»، التي كانت واقعة وسط البراري الممتدة ما بين مدينتي قوريني وبرقة، إلى معبد دلفي نذْراً قربانيًا تمثّل في عمود صيغ على هيئة ساق سلفيوم. والواقع أن هذا العمود القرباني، الذي أشار إليه «لاسودا LASODA» في دراسته التي عنوانها «سلفيوم باطوس BATTOU SILPHION»، فيه شبه كبير بذلك العمود الشهير المتوّج بنقوش على هيئات زهرات، والذي تم تشييده بمعبد «أبوللو» إبَّان القرن الرابع قبل الميلاد، في تاريخ ما يزال موضع جدل بين المختصّين. وسيكون من المفيد جدّاً لو أنّه أمكن الحصول على معلومات أوفر حول ذلك النصب الأثري الفريد، الذي كانت له، بكل تأكيد، علاقة بجني نبات السلفيوم والمتاجرة فيه.

ومن الملاحظ أن الوثائق المتعلقة بالسلفيوم تنعدم طوال الفترة الهلينستية برمّتها. فنحن لا نجد له ذكراً، لا عند «كاليماخوس القوريني»، ولا عند «ديودوروس الصقلّي»، بالرغم من أن هذا الأخير يكرِّس لليبيا جانباً كبيراً من موسوعته «المكتبة التاريخية». والإشارة اليتيمة عن هذا النبات، في تلك الحقبة، نعثر عليها في مسرحية «رودينس» للشاعر اللاتيني «ماكسيوس بلوتوس»، (251ق م ـ 184 ق م)، وهي المسرحية التي يحاكي فيها ملهاة شعرية كان قد ألّفها قبله الشاعر الإغريقي الهزلي «ديفيلوس ـ DIPHILOS»، الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد؛ فالواقع أن «ماكسيوس بلوتوس» هذا

قد أورد في مسرحيته ـ على لسان شخصية قورينية ـ عبارة باللاتينية توحي بأن السلفيوم كان ما يزال يُجنى في أيّام الشاعر «ديفيلوس»، الذي كان معاصراً للشاعر الهزلي الإغريقي الآخر «ميناندر MENANDRE» (وُلد حوالي سنة 342 ق م، وتوفي حوالي سنة 292 ق م). وخلال فترة حكم الإمبراطور الروماني «أوغسطس» كتب «سترابو»، في الفقرة 836 من الكتاب السابع عشر من جغرافيته قائلاً إنه كانت توجد في خليج سرْتْ، في مكانٍ يسمى «خاراكس ـ KHARAX»: «. . سوق كان يقصدها القرطاجيُّون لبيع الخمرة مقايضةً مقابل السلفيوم الذي كان القورينيُّون يمدونهم به خفية». غير أن مثل هذه الإشارة ليست لها أيّة قيمة استردادية، ذلك أن «سترابو» نفسه يعود في الفقرة التالية من نصّه فيفيدنا بأن السلفيوم كان على وشك الإنقراض من جرَّاء غارات الليبيين الرُّحَّل، الذين كانوا يتعمّدون إتلاف جذور هذا النبات للتعبير عن عدائهم لمحتلِّي بلادهم. ويتجلّىٰ لنا هذا الإنقراض السريع للسلفيوم من خلال الوقائع التي نقلها لنا «بليني الأكبر» في الفقرة 40 من الكتاب التاسع عشر من موسوعته «التاريخ الطبيعي»: ففي سنة 93 قبل الميلاد أرسلت مدينة قوريني جزية إلى روما قوامها ثلاثين رطلاً من السلفيوم. وفي منتصف القرن الأول قبل الميلاد، عثر «يوليوس قيصر» في الخزينة العموميّة في روما ـ إلى جانب الذهب والفضّة ـ على مخزون من السلفيوم بلغت زنتها ألفاً وخمسمائة رطل، وهي بالطبع كمية تأتّت عما كانت مدن قوريناثية قد أرسلته إلى روما خلال السنوات السابقة على ذلك التاريخ. وفي المقابل، فإنه بعد انقضاء قرن واحد من الزمان على ذلك، وخلال فترة حكم «نيرون»، تلقّىٰ هذا الإمبراطور الطاغية ساقاً يتيمة من السلفيوم، اعتُبرت آنذاك هدية فريدة في نوعها. وإذن فإن السلفيوم كان قد صار في تلك الفترة نباتاً بالغ النُّدرة. ويعزو «بليني الأكبر» الإنقراض السريع لهذا النبات إلى جشع العشَّارين الذين كانوا قد استولوا على الأراض التي كان ينمو فيها، حيث اعتبروها مجالاً مُشاعاً لهم، وفتحوها بإفراط

في وجه قطعان الأغنام لكي ترعى فيها؛ فأخذت تلك القطعان تلتهم براعم السلفيوم الوليدة، الأمر الذي حال، من ثم، بين هذا النبات وبين التوالد والتكاثر. ولقد فعل هذا الاستغلال المفرط للأراضي التي ينمو فيها السلفيوم فعله، وذلك بالإضافة إلى عمليات الإفْناء المتعمَّد التي أُلحقت بهذا النبات على أيدي قدماء الليبيين الرُّحَّل، بحسب ما ذكره كل من «سترابو» و«سولين» في منتصف القرن الثاني للميلاد؛ الأمر الذي أدّىٰ إلى الإنقراض الكلِّي له، وهذا ما أكّده «بليني الأكبر» من قبل في مؤلَّفه المسمَّىٰ «التاريخ الطبيعي». وهكذا فقد تلاشىٰ هذا المورد القديم من موارد ثروة قوريني نهائياً..

ومع ذلك، فقد أمكن الحفاظ على بضع شجيرات من السلفيوم في بعض البساتين، مثلما حدث في «فيكوس» في بستان كان يملكه شقيق «سونسيوس القوريناثي» عند مطلع القرن الخامس للميلاد. وبالرغم من ذلك، فقد واصلت المؤلَّفات القديمة وصفها لإقليم قورينائية بأنّه: «الأرض التي تُغلُّ السلفيوم GE SILPHIOPHOROS»؛ وهذا هو السبب في أنّ «سونسيوس القوريناثي» قد حرص على أن يرسل إلى صديقه «فوليمينس ـ PYLAEMENES»، الذي كان يُقيم في القسطنطينية ـ (انظر رسائل سونسيوس، الرسالة رقم 134) ـ هدية تمثّلت في: «. . كمية طيِّبة من عصارة السلفيوم»، التي كان الناس في مدينة قوريني ما يزالون يجيدون طريقة تحضيرها واستخلاصها من بضع شجيرات سلفيوم تم الإبقاء عليها. ثم يضيف «سونسيوس» ـ الذي اشتهر بضلاعته في فنّ المراسلة مع أصدقائه ـ قائلاً لصديقه المذكور: «. . إذْ لا بد وأنّك قد سمعت بالطبع، أنت الآخر، عن سلفيوم باطوس». وهكذا، فإن أصداء ذكرى «باطوس الأوّل» البعيدة، التي تناقلتها مصنّفات النحويين والأدباء، من ذوي الأساليب المتكلِّفة، من أمثال «سونسيوس» قد ظلّت على الدوام مرتبطة بالسلفيوم القوريني.

صور توضيحية



و» بلحيته المدبَّبة. (لوحة عُثر عليها في مقبر «سيتي الأوّل» بمصر).



شخصية آنتي الليبية القديمة مرسومة على إناء «إيوفرونيوس»
(محفوظة بمتحف اللوفر)

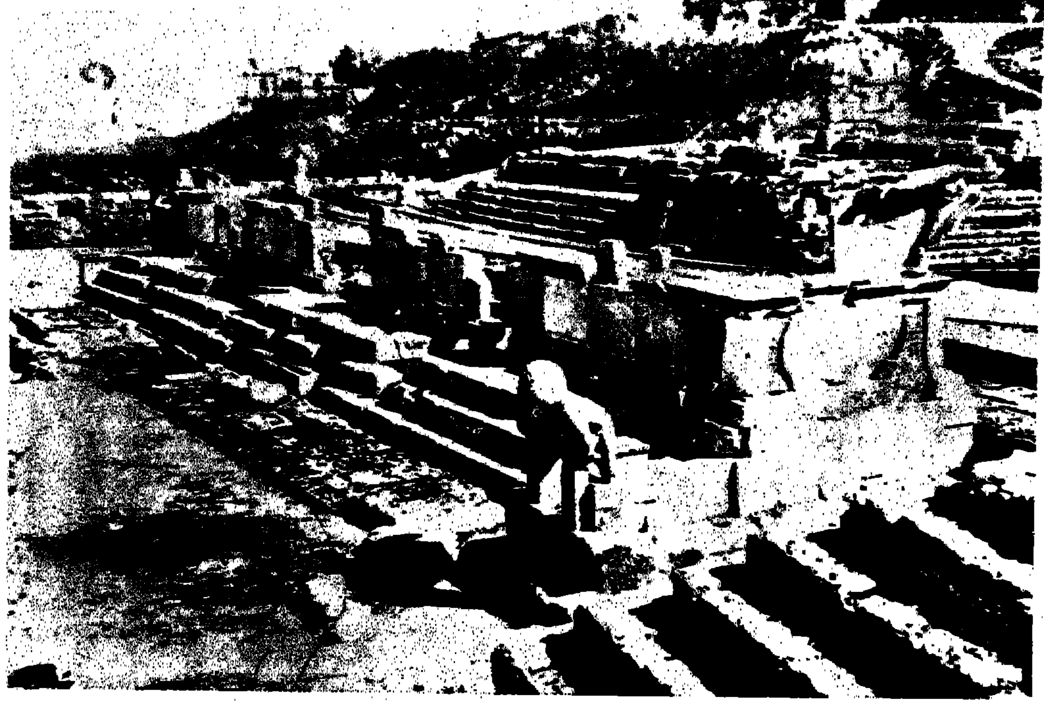


تمثال برونزي لرجل ليبي في القرن الرابع ق م
(محفوظ بالمتحف البريطاني)



رأس تمثال مرمري لرجل ليبي في القرن الثاني للميلاد

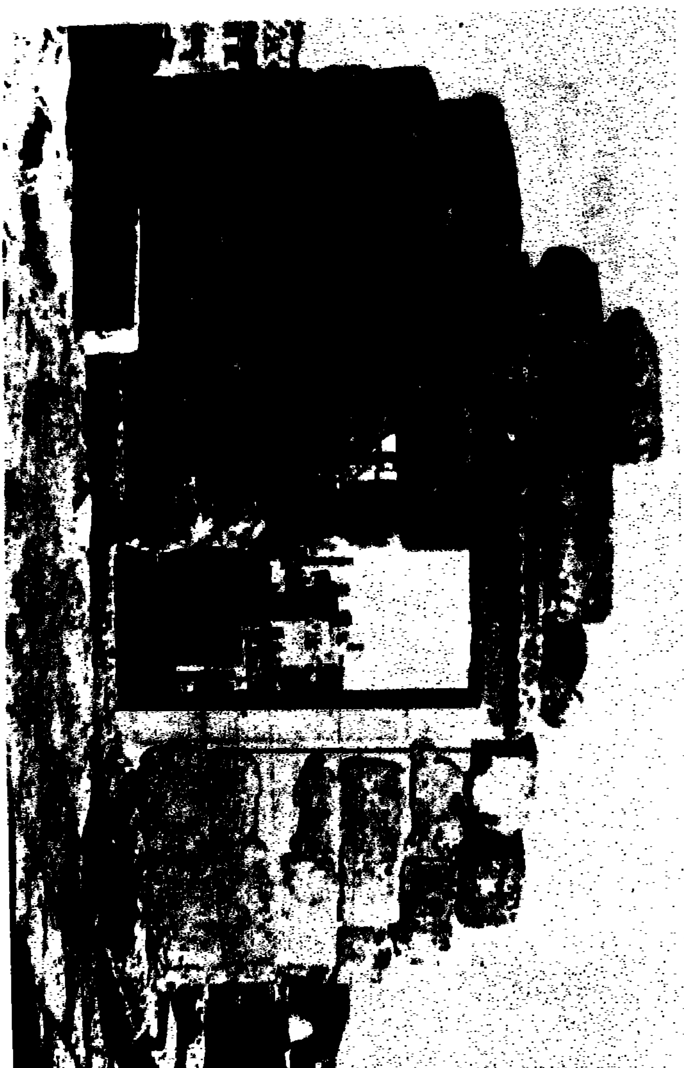
(متحف شحّات)



مذبح الإله الأسطوري «أبوللو». بـ «شحّات» (قوريني).



قبور منحوتة في الصخر على جانب طريق «أبوللونيا» بمدينة «قوريني».

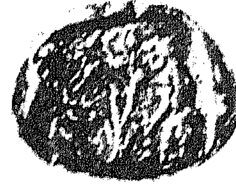


مقبرة «باطرس الأول»، مؤسّس «فورنجي».



قدح «أركسيلاوس الثاني» (ويظهر هذا الملك الباطي على اليسار وهو يشرف على عملية وزن رزمات نبات السلفيوم)

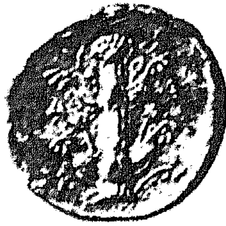
[وهذا القدح محفوظ بخزائن المكتبة الوطنية بباريس].



قطعة نقد تصوِّر
هرقل ومعه حورية



قطعة نقدية
مزيّنة بدَرَنَة
جذر السلفيوم



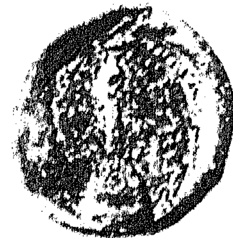
شجيرة السلفيوم منقوشة
على عملة قوريني







نماذج من رسمات رأس الإله «زيوس آمون»



رمز حلبة سباق
العجلات مرسوم على
قطعة نقد قوريني



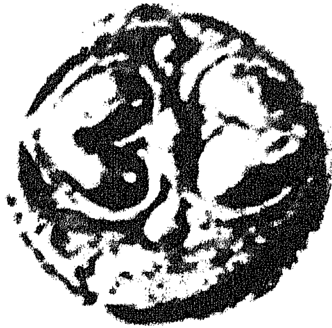


نموذجين لقطعتين من النقد صُوِّر عليهما
رأس الإله «هرمس»

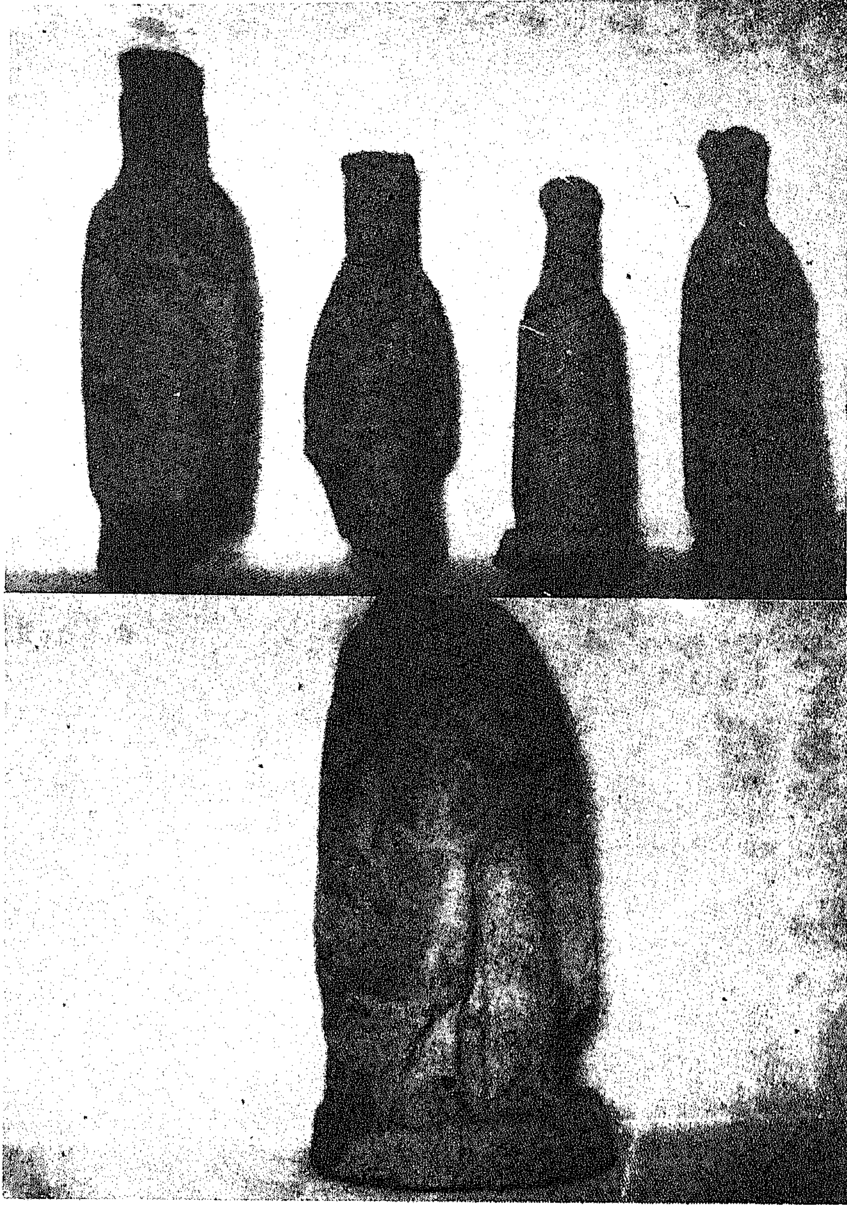
نماذج مختلفة للعملات النقدية القورينية



قطعة نقدية قورينيَّة نُقشت عليها شُجيْرة السلفيوم.



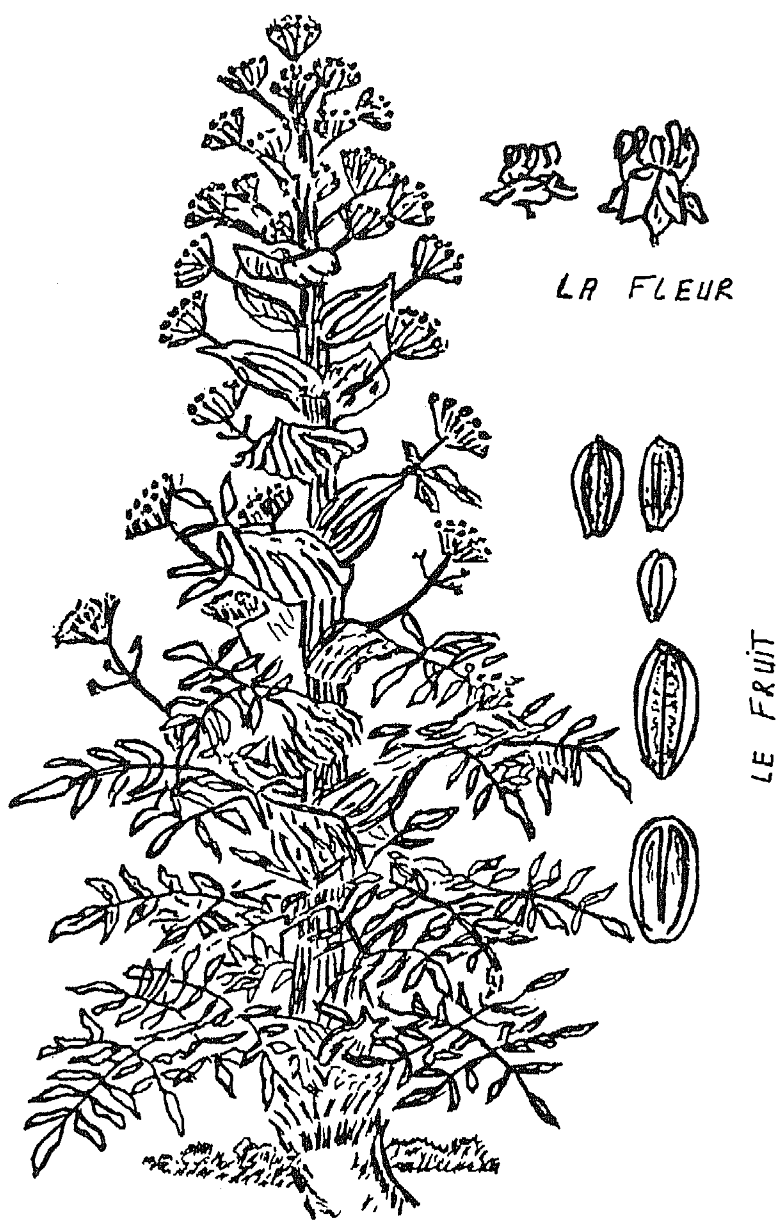
دَرَنَةُ جذْر نبات السلفيوم منقوشة على قطعة نقد قورينية وهي تظهر على هيئة قلبيْن متقابليْن.



تماثيل فخَّارية صغيرة تمثِّل نساء يحملن نبات السلفيوم.
(تم العثور عليها في مدينة سوسة)[1].

---

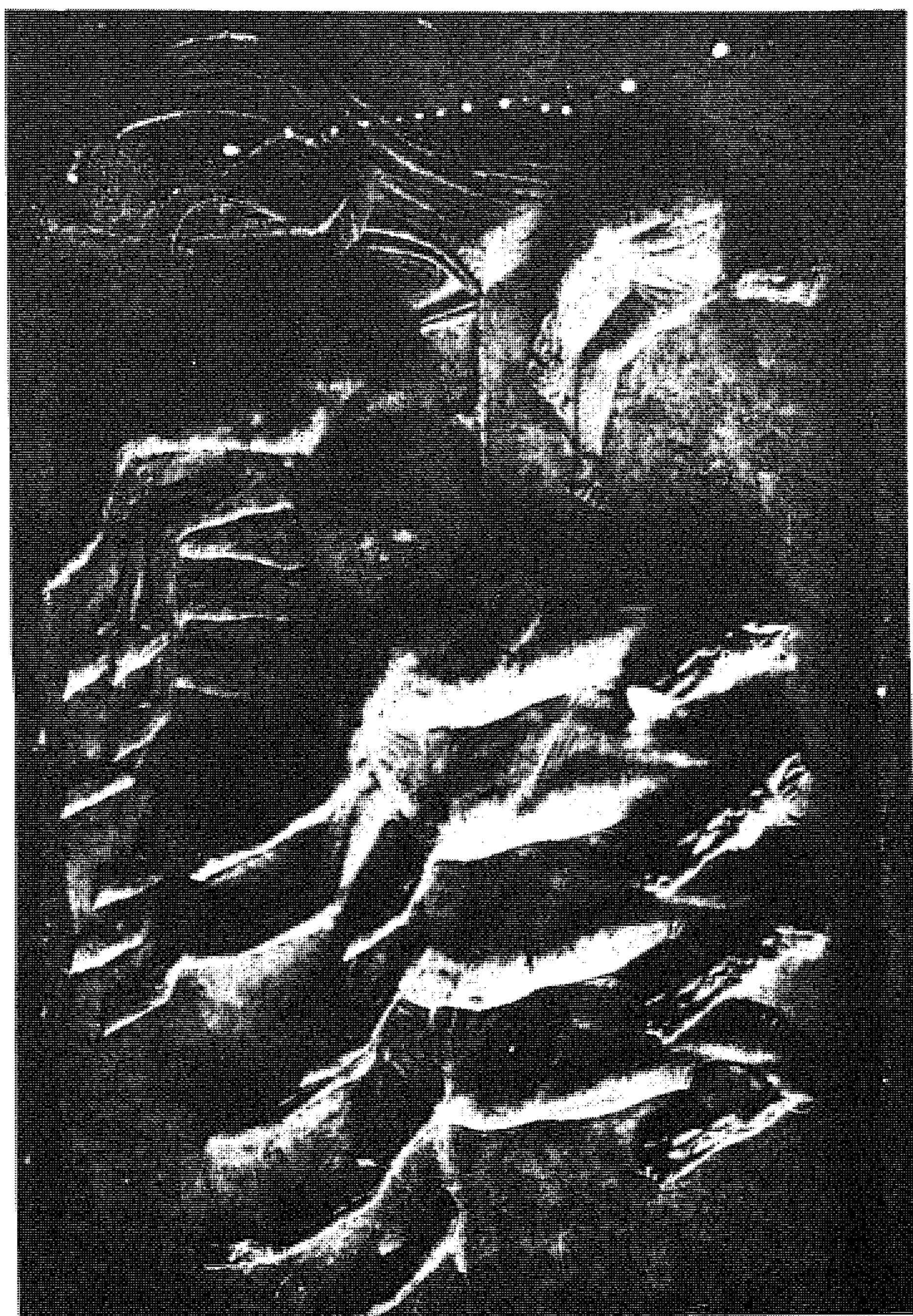
(1) وثيقة نشرها صديقي الدكتور صلاح الدين زارم لأول مرة ضمن وثائق أطروحته للدكتوراه التي عنوانها: «ليبيُّون وإغريق في قورينائية القديمة» (بالفرنسية ولم تُنشر بعد).



نبات السلفيوم



أركسيلاوس الرابع
اخر ملوك قوريني الباطيين



عربة قورينية تجرّها أربعة جياد

(لوح نقشي نافر محفوظ بمتحف شحّات - ليبيا).

ثبت بالأحرف اللاتينية
لأسماء الأعلام والمواقع والكتب والمصطلحات

A

ACHÉEN	أخيني
AEDONIA	آيدونيا (جزيرة)
AENEAS LE TACTICIEN	آينيئاس التكتيكي
AGLOMACHOS	أجلوماخوس
AGORA	الأجورا (ميدان)
AISCHRIONIENS	الأيسخرونيُّون (قبيلة إغريقيّة)
AJAX	أجاكس (مسرحية)
AKESANDROS	أكيساندروس
AKESTOR	أكستور
ALAZEIR	ألازير
ALEXIDAMOS	أليكسيداموس
AMASIS	أماسيس (ملك)
AMMON	آمون (إله سيوة)
AMPHIARAOS	آمفياراوس (إناء)
AMPHION DE CNOSSOS	آمفيون القنوسوسي
ANAXANDRIDAS	أناكساندريداس

ANCUS MARCIUS	أنكوس ماركيوس
ANNE	آن (أميرة)
ANTEE (ANTAEUS)	آنتي (عملاق أسطوري)
ANTENORIDES	الأنتنوريديُّون (الطرواديُّون)
ANTIGONE	أنتيجوني (مسرحية)
ANTIPYRGOS	آنتيبيرجوس (مدينة طبرق)
ANTONIN	أنطونين الورِع (إمبراطور روماني)
APHRODISIAS	أفروديسياس (جزيرة كَرْسة)
APOLLON	أبوللو (إلٰه أسطوري)
APOLLONIA	أبوللونيا (مدينة سوسة)
APOLLONIOS DE RHODES	أبولونيوس الرودسي
ARCESILAS	أركسيلاوس
ARCHEGETE	«الطاهر» (من صِفات الإلٰه أبوللو)
ARES	أريس (إلٰه الحرب عند الإغريق)
ARGOLIDE	أرجوليد
ARGONAUTS	الأرجونوتيُّون
ARGOS	آرجوس
ARISTAEUS	أريستايوس
ARISTOMEDON	أريستوميدون
ARISTOTE	أرسطو
ARISTOTELES	أرسطوطيليس (باطوس)
ARTEMIS	أرتيميس (إلهة أسطورية)
ARTIMISION	الأرتيميزيُّون (معبد)
ASA FOETIDA	الحلتيت الصمْغي

ASCLEPIOS	أسكليبيوس (معبد)
ASPHODELE	الزنبق البرِّي
ATHENA	أثينا (إلٰهة أسطورية)
ATLAS	أطلس (إلٰه أسطوري)
AUGUSTUS	أغسطس (إمبراطور)
AUTOUCHOS	أوتوخوس
AZARIS	أزاريس
AZIRIS	أزيريس
AZULIS	أزوليس

B

BARCE	باركي (مدينة برقة/ المرج)
BARTH, HEINRICH	بارث، هاينرخ
BATES, ORIC	بيتس، أوريك
BATHYCLES	باثيكليس
BATRACHUS	باتراخوس (الضفدعة الخضراء - جزيرة)
BATTOS	باطوس (ملك)
BELOCH	بيلوخ
BERARD, J.	بيرار، ج.
BERTOLDI	برتولدي
BLINKENBERG, CHARLE	بلينكينبيرج، شارل
BOISACQ	بوازاك (أبو إسحاق)
BOULÉ	البولي (مجلس الشورىٰ عند الإغريق)
BOUTAKIDES, PHILIPPUS DE	بوتاكيدس (فيليبوس بن)
BRAUN, A.	براون، أ.

BURN, A. R	بورن، أ. ر.

C

CADMOS	كادموس
CALLIMACHUS	كاليماخوس القوريني
CALLISTÉ	كاليستي
CARNEADE	المهرجان الكارني (عيد إغريقي)
CARRHOTOS	كارخوتوس (بطل سباق عجلات)
CATABATHMUS MAGNUS	كاتاباخموس مانيوس (مدينة السلُّوم)
CAULIAS	كولياس (عُصارة سيقان نبات السلفيوم)
CHAMOUX, FRANCOIS	شامو، فرانسوا (مؤلِّف الكتاب)
CHIONIS	خيونيس (الإسبرطي)
CHIRON	خيرون (مارد أسطوري)
CINYPS	كنيبيس (وادي كعام)
COLAIOS DE SAMOS	كولايوس الساموني
COROBIOS	كوروبيوس
CORONIS	كورونيس (أسطورة)
CRATISTHENES	قراطيستثينيس (مدينة)
CYCLADES, (LES)	السيكلاد (جُزُر)
CYPSELOS	سيبسيلوس (اسم علبة أثرية)
CYRÈNE	قوريني (مدينة)
CYRÈNE (LA NYMPHE)	الحورية قوريني
CRYENAICA PROVINCIA	إقليم برقة
CYRENAICUM LASERPICIUM	السلفيوم القوريني
CYROPEDEA	كيروبيديا (رواية قديمة)

D

DAMOPHILOS	داموفيلوس
DELPHES	دلفي (موْحى أبوللو)
DEMARGNE, P.	ديمارني، ب.
DEMETRIOS	ديميتريوس
DEMIURGOI	ديمورج (مُدبِّر مالي قديم)
DEMONAX DE MANTINEE	ديموناكس المانتيني
DEVOTO, G.	ديڤوتو، ج.
DIDON	ديدون (ملكة قرطاجة)
DIODORUS SICULUS	ديودوروس الصقلّي
DODECANESE	الدوديكانيس (أرخبيل)
DORIENS	الدوريُّون (شعب إغريقي)
DORIEUS	دوريوس (الإسبرطي)
DRAGENDORFF	دراجيندوف
DUCHALIAS	دوخالياس
DYMANES	الديمانيُّون (قبيلة إغريقية قديمة)

E

ECCLESIA	جمعية شعبية إغريقيّة
EHOIAI	المثيلات (عنوان قصيدة لهيسيودوس)
ELECTRA	إلكترا (مسرحية)
ELIS	إليس
ENEIDE (= AENEID)	الإنيادة (ملحمة شعرية لفرجيل)
EOLIENNES	الأيولينيّة

EPHORES (=EPHORS)	الإيفور (هيئة المأمورين القضائيين)
EPIGRAM	الإبيجرامات (قصيدة لكاليماخوس)
EPINIKIA (EPINICIA)	أناشيد النصر
ERATOSTHENES	إراتوسثينيس
ERGA KAI HEMERAI	الأعمال والأيام (قصيدة لهيسيودوس)
ERYXO	إريكسو
ETEARCHOS	إتيارخوس
EUBOTAS	إيوبوتاس
EUGAMMON	يوجامون القوريني (شاعر)
EUHESPERIDES	يوسبيريدس (بنغازي)
EUMEE	إيوميوس
EUPHEMOS	إيوفيموس
EUPHRONIOS	إيوفرونيوس (إناء خمرة أثري)
EUROPA	إيوروبي (إلٰهة أسطورية)
EURYPYLOS	إيوريبيلوس
EUSEBIUS	يوسيبيوس
EUTHYCLES	إيوثيكليس
EVELTHON	إيفيلثون (ملك)
EVERGETE	إيفرجيت
EUHEMERUS	إيوهيميرس

F

FERULA TINGITANA	الحلتيت الطنجي
FOLIUM	فوليوم (إحدى تسميات نبات السلفيوم)

G

GALASSI, G.	جالاسّيّ
GENTILICES	الجنتيليسية
GERCKE	جركي
GEROUSIA	الجيروسيا (مجلس الشيوخ)
GRAZIOZI	جراتسيوسي
GRINNOS	جرينوس (ملك)
GSELL	جسيل
GUARDUCCI	جواردوتشي

H

HADES	هاديس
HARRIS PAPYRUS	بردية هاريس الكبرىٰ
HECATAEUS [DE] MILETUS	هيكاتئيوس الملطي
HELENE	هيلانة (أميرة)
HERA	هيرا
HERACLES	هرقل (عملاق أسطوري)
HERACLIDES PONTICUS	هيراقليط القنطري
HERAKLEOPOLIS	هيراقليوبوليس (أهناسيا بمصر)
HERMATHENA	هيرماثينا (عنوان مؤلَّف)
HERMES	هرمس (إلٰه أسطوري)
HERODOTUS	هيرودوتس
HESIODOS	هيسيودوس
HESPERIDES	هيسبيريدس (حوريّات)

HESYCHIUS	هيسيخيوس المالطي
HETAIRIE	فخذ قبيلة قديمة عند الإغريق
HIERAKONOPOLIS	هيراكونوبوليس (بلدة الكوم الأحمر بمصر)
HILLER VON GARTRINGEN	هيللرفون جارترينجن
HIPPOCRATES	أبيقراط
HOLSCHER	هولشر
HOMERE	هوميروس
HYLLEENS	الهيليانيُّون (قبيلة إغريقيّة قديمة)
HYMNES	أناشيد كاليماخوس القوريني
HYPSEUS	هيبسيوس

I

IOLCOS	إيولكوس (جزيرة)
IRASA	إراسا
ISIDORUS HISPALENSIS	إيزيدور الإشبيلي
ISO CRATES	إيسوقراط
ITANOS	إيتانوس (مرْفأ)

J

JACOBY	جاكوبي
JULIUS CAESAR	يوليوس قيصر
JUSTINUS	يوستينوس

K

KLEUDAMAS	كليوداماس

كناب	KNAPP
كيرتوس (كلمة إغريقيّة قديمة تعني المنْحنى)	KYRTOS

L

لاكونيا	LACONIA
لاك ـ سيربيسيوم (عُصارة السلفيوم)	LAC - SERPICIUM
اللابيثاي (اسم لشعب أسطوري)	LAPITHES
لارسن، ج. أ. أو.	LARSEN, J. A. O.
لازر (سلفيوم)	LASER
لازربيسيوم (سلفيوم)	LASERPICIUM
ليارخوس	LEARCHOS
لوجران	LEGRAND
ليمنوس	LEMNOS
لبسيوس	LEPSIUS
الليثون (نهر، يُعتقدُ أنّه هو وادي القطّارة الحالي)	LETHON
ليوكون (معركة هَزم فيها الليبيُّون إغريق قوريني)	LEUKON
ليندوس	LINDOS
كارل فون ليني	LINNE, CARL VON
لوغوس (هنا بمعنى إرادة كهنوتيّة قديمة)	LOGOS
لوقين	LUCAIN
ليكوس	LYKOS

M

MAGYDARIS	ماجيداريس (بذور السلفيوم)
MALTEN	مالتن
MARATHON	ماراثون (معركة)
MARMARIQUE	مراقية (البطنان)
MASPETON	ماسبيتون
MASPETUM	ماسبيتوم (بواكير أوراق نبات السلفيوم)
MAZZARINO, S.	مازّارينو، س.
MEDEE (MEDEA)	ميديا (ساحرة أسطورية)
MEGABYZE	ميجابيز (اسم مرْزبان فارسي)
MEKIONIKE	ميكيونيكي
MEMPHIS	ممفيس (منف: مدينة بمصر)
MENECLES DE BARCE	مينيكليس البرْقي
MENECRATES	مينيقراطيس
MENELAUS	مينيلاوس
MENERVA	مينيرفا (إلٰهة عند الرومان)
MERCURE	ميركور (إلٰه عند الرومان)
MICHERA SIVE ELENE	ميخيرا سيف إليني
MILNE, J. G.	ميلن، ج. ج.
MINOS	مينوس (ملك)
MNASEAS	مناسياس
MOLLER, G.	موللر. ج
MULLER, C.	موللر، س
MYRMIDONS	الميرميدونيّون

N

NAUCRATIS	نواقراطيس (بلدة كوم جيف بمصْر حالياً)
NEMEA	نيميا (أسطورة أسد نيميا)
NESIOTES	النيسيوتيُّون (قبيلة إغريقيّة قديمة)
NGARNES	نــڤــارنس
NOMOPHYLAQUES	النوموفيلاكيُّون (هيئة قانونيّة قديمة)
NONNUS	نونوس الأخميمي

O

OAXOS	أواكسوس (مدينة)
ODYSSEE (=ODYSSEY)	الأوديسّا (ملحمة شعرية لهومِيْروس)
OEDIPUS REX	أوديب ملكاً (مسرحية لسوفوكليس)
OLIVERIO, GASPARE	جاسباري أوليفيريو
OLYMPIADE	أوليمبياد (ألعاب إغريقيّة جامعة)

P

PACHO, JEAN - RAIMOND	جان ريمون باشو (رحّالة فرنسي)
PALIURUS	باليوروس
PAMPHYLES	البامفيليُّون (قبيلة إغريقيّة قديمة)
PANOPOLITAN	بانوبوليتان
PAOLO DELLA CELLA	باولو ديللا شيلا (رحّالة إيطالي)
PARAETONIUM	بارايتونيوم (الاسم القديم لمرسي مطروح)
PARETI	باريتي
PARKE, H. W.	بارك، هـ. و.
PARTHENON	البارثينون (معبد)

PASIPHAE	باسيفاي (شخصيّة أسطوريّة)
PAUSANIAS	باوسانياس
PELASGES	البيلاسجيون (اسم شعب قديم)
PELOPONNESE	البيلوبونيز (شبه جزيرة)
PELOPS	بيلوبس
PERICLES	بركليس
PERIEGESE	بيريجيس (كتاب الوصْف الجغرافي)
PERIOIKOI	البيريئيكيُّون (فئة اجتماعية قديمة كانت تعيش في قوريني)
PERSEUS	بيرسيوس
PERSICUM LASER	السلفيوم الآسيوي
PETRAS MAGNUS	الصخور الكبرى (ميناء قديم)
PETROCCHI, C.	بتروكي، س. (عالِم آثار إيطالي)
PHARSAL	الفارسال (ملحمة شعرية من تأليف لوقين)
PHEDRA	فيدرا (مسرحية قديمة)
PHILENES	الأخوان فيلايني
PHILOCTETES	فيلوكتيتيس (مسرحية قديمة)
PHRATRIE	بطن لقبيلة قديمة عند الإغريق
PHRONIME	فرونيمي (ملكة قورينيّة)
PHYLARCHUS	فيلارخوس
PINDARE (PINDAROS)	بنداروس (شاعر إغريقي)
PISISTRATUS	بيسيسترات
PLATEA	بلاتيا (جزيرة في خليج بمبا)
PLATEES	بلاتيس (مدينة)

PLINIUS SECUNDUS	بليني الأكبر
PLUTARCHUS	بلوتــارخــوس
POLYBIUS	بوليبيوس (مؤرّخ)
POLYCRATES	بوليقراطيس
POLYMNESTOS	بوليمنيستوس
POSEIDON	بوسيدون (إله أسطوري)
PREDORIENS	البريدوريّون (شعب إغريقي قديم)
PROCOPIUS	بروكوبيوس القيصري
PROSOPITIS	بروزوبيتيس (جزيرة قديمة على النيل)
PTOLEMAÏS	بطوليمائيس (بلدة الدرسيّة ـ طلميثة سابقاً)
PTOLEMEE - I	بطلميوس الأوّل
PTOLEMEE - VI	بطلميوس السادس
PUCHSTEIN	بوخشتاين
PUNICA	الحروب البونية (عنوان كتاب)
PYRGOS	بيرجوس (مدينة)
PYTHIADE	الألعاب البيثيّة (دورة ألعاب إغريقيّة قديمة)
PYTHIQUES	البوثيّات (قصائد للشاعر بنداروس)

R

REINACH, A. J.	ريناك، أ. ج.
RHIZIAS	ريزياس (عُصارة السلفيوم)
ROBINSON, E. S. G.	روبينسون، إ. س. ج.
ROUSSEL, P.	روسّيل، ب.

S

SAINT - JEROME	سان جيروم
SALAMIN	سالامين (مدينة)
SAMOS	ساموس (جزيرة)
SCHARFF	شارْف
SCHHIA	سكيثيا (بلاد قديمة)
SEAL	الصَّلّ (جزيرة في خليج بمبا)
SELPON	سيلبون (سلفيوم)
SERPE	سيربي (سلفيوم باللاتينية)
SERVIUS	سرفيوس
SILIUS ITALICUS	سيليوس إتاليكوس
SILPHIUM (SILPHION)	سلفيوم (نبات منقرض)
SILPHIUM MEDICUM	سلفيوم تطبيبي
SILPHON	سيلفون (سلفيوم)
SIMONIDES	سيمونيدس
SKYLAX (PSEUDO)	سكيلاكس المنْحول
SOLINUS	سولينوس
SOLON	سولون
SOPHOCLES	سوفوكليس
SPARTE (=SPARTA)	إسبرطة
STADIASMUS MARIS MAGNI	«أبعاد المسالك في البحر الكبير» (كتاب قديم)
STEINDROFF	شتايندروف
STEPHANE DE BYZANCE	اسطفان البيزنطي

STRABON	سترابو
STRATEGEION	الستراتيجيُّون (هيئة للقضاة العسكريين)
STUDNICZKA	شتودنيكزكا
SUIDAS	سويداس
SYBARIS	سيباريس
SYNESIUS	سونسيوس القوريناني

T

TARTESSOS	تارتسوس
TAUCHEIRA	تاوخيرا (العقورية/ توكرة سابقاً)
TAYGETE	تايجيت (اسم جبل أسطوري)
TELEGONIA	تليجونيا (قصيدة تُنسب إلى الشاعر يوجامون القوريني)
TELEMACHUS	تيليماخ
TELESICRATE	تيليسيقراط (عدَّاء قورينيٌّ)
TELESPHORIA	التيليسفوريا (طقوس دينيّة إغريقيّة قديمة)
TENARE	تيناري (اسم رأس جبل أسطوري)
THAPSIA GARGANICA	الجَنَبَةُ القرقنية (صنف من البهارات)
THEBES	طيبة (اسم مدينة إغريقيّة)
THEMISON	ثيمسون
THEOCRITES	ثيوقريطس
THEODORUS	ثيودورس
THEOGONIA	«أنساب الآلهة» (قصيدة لهيسيودوس)
THEOPHRASTUS	ثيوفراستوس

THEOTIMOS	ثيوتيموس
THERA	ثيرا (جزيرة في بلاد الإغريق)
THERAS	ثيراس
THESSALIA	تساليا (من بلاد الإغريق)
THESTIS	ثستيس (نبع ماء)
THRACIA	ثراسيا
THRIGE, J. P.	ثريدج (مؤلِّف دانمركي)
THUCYDIDES	ثوكيديدس
TIMACHIDAS	تيماخيداس
TITUS - LIVIUS	تيتوس ليفيوس (مؤرِّخ لاتيني)
TITYOS	تيتيوس
TRACHINIAE	فتيات تراخيس (مسرحية)
TRITON	تريتون (إله أسطوري)
TROGUS POMPEIUS	ترجو بومبيوس
TYNDARE	صخور تيندار

U

ULYSSE (=ODYSSEUS)	أوديسيوس (بطل الأوديسًا)

V

VANDIER, DRIOTON	دريوتون ڤاندييه

X

XENAGORAS	إكزيناغوراس
XENOPHONE	كسينوفون

Z

ZAKYNTHOS	زاخينثوس
ZEUS	زيوس (إله الآلهة عند الإغريق)

فهرس الكتاب

تقديم 5

الفصل الأول:

ليبيا والليبيون قبل إنشاء قوريني 19

الفصل الثاني:

الاستيطان الأسطوري 65

الفصل الثالث:

أحداث جزيرة ثيرا 105

الفصل الرابع:

إنشاء قوريني 137

الفصل الخامس:

قوريني حتى إصلاحات المشرع ديموناكس 159

الفصل السادس:

أركيسلاوس الثالث والملكية الاستبدادية 185

الفصل السابع:

باطوس الرابع وتبعية قوريني لمرزبان مصر الفارسي 211

الفصل الثامن:

اركيسلاوس الرابع أو: الشاعر بنداروس في قوريني 227

الفصل التاسع:

الإطاحة بالملكية الباطية 247

الفصل العاشر:
حضارة قوريني في العهد الباطلي: المجتمع والاقتصاد 263

الفصل الحادي عشر:
نبات السلفيوم 306

خاتمة 333

ملحق:
عود إلى السلفيوم 339

صور توضيحية 361

ثبت بالأحرف اللاتينية:
لأسماء الأعلام والمواقع والكتب والمصطلحات 377

فهرس الكتاب 397

FRANÇOIS CHAMOUX

CYRÈNE SOUS LA MONARCHIE DES BATTIADES

TRADUCTION ARABE ANNOTÉE
ET INTRODUCTION
PAR

DR. MOHAMED A. EL - WAFI
UNIVERSITÉ DE GARYOUNIS - BENGHAZI



UNIVERSITÉ DE GARYOUNIS
BENGHAZI